



جامعة الملك عبد العزيز
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
مكة المكرمة
قسم الدراسات العليا التاريخية

صراع المسلمين مع البرغلابيين

في
البحر الأحمر

خلال القرنه العاشر الهجرى - السادس عشر الميلادى

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامى الحديث

إعداد الطالب

عساة على محمد الرماح

تحت إشراف

أستاذ الدكتور محمد عبد اللطيف البحرى

عام

١٤٠٠ هـ - ١٤٠١

١٩٨٠ م - ١٩٨١





الفهرس

الفهرس

الصفحة	الموضوع
١٥ - ١	* المقدمة - البرتغال في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي أ - الدولة الحديثة في البرتغال . ب - الموقع الجغرافي . ج - الكنيسة البرتغالية .
٧٧ - ١٦	* الفصل الأول - دوافع ومقدمات وصول البرتغاليين الى المحيط الهندي ومدخل البحر الأحمر أ - الدوافع الصليبية ١ - دور البابوية ٢ - تهديد العالم الاسلامي ب - الدوافع الاقتصادية ١ - سيطرة المسلمين على طرق التجارة العالمية . ٢ - أثر الجهاد البحري (القرصنة) في الحوض الغربي للبحر المتوسط . ٣ - منافسة المدن الايطالية في تجارة أوربا . ج - دوران البرتغاليين حول افريقية . د - استخدام البرتغاليين علوم العرب في البحر والملاحة . هـ - وصول البرتغاليين للمحيط الهندي ومدخل البحر الأحمر .
١٧٥ - ٧٨	* الفصل الثاني - الصراع في البحر الأحمر قبل العصر العثماني أ - البرتغاليون والحبشة . ب - تهديد البرتغاليين للأماكن المقدسة الاسلامية . ج - دور الماليك في الصراع . د - موقف امارات الطراز الاسلامي .

(ب)

الصفحة	الموضوع
٢٢٢ - ١٧٦٠	* الفصل الثالث - البرتغاليون وتجارة الهند أ - سيطرة البرتغاليين على تجارة المحيط الهندي ب - خطة البرتغاليين الاقتصادية لاضعاف العالم الاسلامي
٣٢٠ - ٢٢٣	* الفصل الرابع - الصراع في البحر الأحمر في العصر العثماني أ - فتح العثمانيين عدن وإغلاق البحر الأحمر ب - أدوار الصراع
٣٥٠ - ٣٢٢	* الخاتمة
٣٥٢ - ٣٥٢	* ملحق الخرائط
٣٥٢	١ - طرق التجارة الدولية من الهند عبر البحر الأحمر
٣٥٣	٢ - دولة المماليك
٣٥٤	٣ - القوى السياسية في المحيط الهندي
٣٥٥	٤ - آسيا والشرق الأقصى في القرن العاشر الهجري
٣٥٦	٥ - سلطنات الطراز الاسلامي
٣٥٧	٦ - الحبشة
٣٨٢ - ٣٥٩	* المصادر والمراجع

... ..

المُقدِّمَةُ

البرتغال في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي

- أ - الدولة الحديثة في البرتغال .
- ب - الموقع الجغرافي .
- ج - الكنيسة البرتغالية .

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء
وعلى آله وصحبه أجمعين .

لحل المدخل المناسب لموضوع البحث هو اشارة بسيطة الى أن الصراع
بين العالم الاسلامى والبرتغال فى القرن العاشر الهجرى ، السادس عشر
الميلادى انما هو فى حقيقة أمره امتداد للحروب الصليبية التى شغلت بها
من قبل الجبهات الشمالية للعالم الاسلامى فى الشام ومصر ، ومن ثم
سواحل الشمال الافريقى العربى .

ولحل ما دفعنى الى خوض غمار هذا البحث هو شعورى بغموض ذلك
الجزء من التاريخ الاسلامى الحديث بالنسبة للبحر الأحمر ودول الطراز
وعلاقة ذلك والموضوع كله بتطورات تاريخية أخرى فى أوروبا والمحيطين
الأطلسى والهندي ، ومن ثم اتصف موضوعى هذا بالاتساع والعمق بالنسبة
لغيره من كثير من الموضوعات .

كانت البرتغال دولة استعمارية كبرى ، لهذا اخطيت باهتمام بالغ
من قبل المؤرخين والكتاب المعاصرين ، ولاحظت بعد فترة وخاصة عقب
زيارتى الأولى للقاهرة ، أن الكتب الأجنبية التى تناولت الدولة البرتغالية
تكد تنحصر فى مجموعتين مجموعة أولى تتركز فى الحديث عن البرتغال كدولة
استعمارية بصفة عامة ، بحيث يشمل الكتاب النشاط البرتغالى امتدادا من
سواحل المغرب الأقصى على المحيط الأطلسى نهاية بالصين .

أما المجموعة الثانية فتشمل الكتب التى تحدثت عن البرتغال فى منطقة
معينة ، كأن يكون الكتاب عن الاستعمار البرتغالى فى غرب افريقيا
أو جنوب الجزيرة العربية وغيره ، من هنا وجدت أن الصعوبة لم تكن كاشفة
فى كيفية كتابة البحث بقدر ما كانت الصعوبة كاشفة فى كيفية ايجاد المصادر
اللازمة لكتابة البحث .

كلنت الهداية تحت إشراف المرحوم طيب المذكر أستاذى للدكتور محمد كمال عبد المليم الدسوقي ، بحيث تم تحديد موضوع البحث خلال القرن الخامس عشر الميلادى والنصف الأول من القرن السادس عشر الميلادى وقد تناولت المقدمة والفصل الأول دراسة مطولة عن أوضاع المسلمين فى شبه الجزيرة الأيبيرية طيلة القرن الخامس عشر الميلادى .

أما الفصلين الثانى والثالث فقد تضمنتا الاستعدادات والمحاولات البرتغالية ودوافعها للانطلاق نحو الشرق بداية من منتصف القرن الخامس عشر الميلادى .

وأخيرا كان الفصل الرابع والأخير والذي شمل نحو أربعين عاما من القرن السادس عشر الميلادى لدراسة الفزو البرتغالى للبحر الأحمر ، لى كنا قد توقعنا عند استشهاد الإمام القرن عام ١٥٤٣ م ، بحيث تركنا النصف الثانى من القرن السادس عشر الميلادى ، تلك هى مجمل خطة البحث التى سرنا عليها فى عهد المرحوم الأستاذ الدكتور محمد كمال الدسوقي .

وكما ذكرنا من قبل كنا نعانى صعوبة فى سبيل الحصول على المراجع الأجنبية ، وحدث أن زرت القاهرة للمرة الثانية ، وفى تلك الفترة كنت قد علمت بوجود موسوعة Kammerer البحر الأحمر La Mer Rouge باللغة الفرنسية ، والواقع أننى حاولت خلال الزيارة الأولى الحصول على تلك المراجع أو محاولة الاهتداء اليها ، ولكنى لم أوفق اليها إلا أثناء زيارتى الثانية للقاهرة .

وهنا تجلت الصعوبة فى عدم المامنا باللغة الفرنسية الى جانب الصعوبات الأخرى التى كنا نواجهها ، فعلى الرغم من حصولى على النسخ

المطلوبة من تلك الموسوعة وقيامى بترجمة فصول عديدة منها الا اننا لم نحفظ
بالفائدة المطلوبة والمرجوة . ولم تلبث الأيام أن فجعتنا ب وفاة الأستاذ
الدكتور محمد كمال الدسوقي ، وعلى أثر ذلك نقل الاشراف على الرسالة
الى سعادة الأستاذ الدكتور محمد عبد اللطيف البحراوى الذى لمست منه
كل عون صادق أثناء تلك الفترة الحرجة ، وبالتالى انحصر موضوع البحث
فى القرن السادس عشر الميلادى أى منذ بداية القرن الى نهايته ، وكانت
قد مضت سنتان تقريبا ولم يعد هناك متسع من الوقت خاصة وأنه اتضح
أن النصف الثانى من القرن السادس عشر الميلادى يمثل احدى الركائز
الهامة فى موضوع البحث بعد أن كان تصورى أن الصراع بين الطرفين ينتهى
قبيل منتصف القرن السادس عشر الميلادى ، وكان ذلك يعنى جهودا جديدة
فى سبيل البحث عن مصادر ومراجع أجنبية أخرى لتغطية الفترة الجديدة .

ففى السابق كان اعتقادى أو بالأحرى مجمل الدراسة التى وصلت اليها
أن الصراع بين المسلمين والبرتغاليين يتوقف مع استشهاد الامام أحمد القرين
عام ١٥٤٣ م ، ولكن وضع لى أن الصراع يمتد الى نهاية القرن السادس
عشر الميلادى ، خاصة بعد تدخل الباهوية مع بداية النصف الثانى من
القرن السادس عشر بحيث أصبح البحر الأحمر منطقة صراع دولى بعدما كان
اعتقادى أن الصراع ينحصر فى التدخل العثمانى والبرتغالى فى الصراع
الناشب بين مملكتى الطراز والحيشة .

من ثم حدث تعديل أساسى فى موضوع البحث كالتالى :

المقدمة ، وهى بعنوان البرتغال فى أواخر القرن الخامس عشر
الميلادى ، وقد شملت ظهور الدولة الحديثة فى البرتغال ومقوماتها ،
ومن ثم الموقع الجغرافى الذى كان له دور كبير فى اتجاه البرتغاليين نحو البحر
وأخيرا الكنيسة البرتغالية وأثرها فى إثارة النزعة الصليبية بين سكان شبه

الجزيرة الأيبيرية ضد المسلمين .

الفصل الأول ، وقد جاء بحنوان دوافع ومقدمات وصول البرتغاليين الى المحيط الهندي والبحر الأحمر ، ويتكون من خمس فقرات ، الفقرة الأولى والثانية خاصة بالدوافع التي قادت البرتغاليين للانطلاق الى الشرق ، فهناك الدوافع الصليبية حيث تعرضنا لموقف البابوية من العالم الاسلامي قبيل نهاية القرن الخامس عشر الميلادي ، ودورها في سبيل تشجيع حركة الكشف الجغرافية في شبه الجزيرة الأيبيرية ، ومن ثم تهديدها المستمر للعالم الاسلامي عن طريق تلك المناشير والخطب الرنانة ، ومحاولة توحيد القوى الأوروبية لارجاع المشرقيين الى آسيا ، يلي ذلك الدوافع الاقتصادية حيث تطرقنا لدور العالم الاسلامي بالنسبة لطرق التجارة العالمية ومدى ما كانت تجنيه دول المنطقة من أرباح مرور تلك التجارة بأراضيهم ، بحيث أصبح ذلك العامل من العوامل المهمة التي سعت البابوية ودول شبه الجزيرة الأيبيرية في سبيل تحويل مجراها عن أراضي المسلمين ، وتحدثنا كذلك عن أثر الجهاد البحري (القرصنة) في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط والذي كان بمثابة كابوس لدول أوروبا في تلك المنطقة تسمى لازالت ، وأخيرا منافسة المدن الإيطالية في تجارة أوروبا لحرمانها من تلك الأموال الطائلة التي كانت تجنيها تلك المدن نتيجة قيامها بتوزيع سلع الشرق على أوروبا ، وما نتج عن احتكارها لعملية التوزيع ، أما الفقرات الثالثة والرابعة والخامسة فكانت خاصة بمقدمات وصول البرتغاليين الى المحيط الهندي ، حيث تعرضنا لبداية تلك المقدمات بنزول البرتغاليين مدينة سبته واتخاذها نقطة انطلاق لاكتشاف المجهول حول سواحل افريقيا الغربية حتى وصول بارثليميو دياز رأس الرجاء الصالح ، ومن ثم شمل الحديث استخدام البرتغاليين علوم العرب في البحر والملاحة ومدى الاستفادة التي خرج بها سكان شبه الجزيرة الأيبيرية من كوز العرب العلمية في أراضيهم ، وختم الفصل بوصول

البرتغاليين لأول مرة الى المحيط الهندى وتجولهم فى سواحل شرق افريقية والسواحل الهندية ، وهول المنظر الذى صادفوه فى موانى السواحل السابقة حيث طرق التجارة العالمية .

أما الفصل الثانى فانه بعنوان الصراع فى البحر الأحمر قبل العصر العثمانى ، وكانت بدايته الحديث عن العلاقات البرتغالية الحبشية وأصول بدايتها ، والمحاولات الأوربية بصفة عامة للوصول الى ملكة القديس يوحنا ، اضافة الى النظرة البرتغالية تجاه دور الحبشة فى مشاريعها الصليبية ضد الأماكن المقدسة ، ومن ثم مجرى الاتصالات بين الطرفين ، ولما كانت الأهداف الصليبية تجمع البرتغاليين والأحباش داخل البحر الأحمر ، كان من الطبيعى أن نتناول تهديد البرتغاليين للأماكن المقدسة الاسلامية على ضوء تلك الاتصالات السابقة والمحاولات التى قام بها البرتغاليون فى سبيل احتلال جدة ، ومن ثم الانطلاق الى الأماكن المقدسة فى مكة والمدينة ، ثم تطرقنا بعد ذلك لدور دولة المماليك فى الصراع والجهود التى بذلها السلطان الثورى فى سبيل حماية البحر الأحمر ، والحملات التى أرسلت الى الهند ، بعد أن قدمنا لذلك نبذة قصيرة عن الأحوال السياسية والاقتصادية التى مرت بها مصر مع مطلع القرن السادس عشر الميلادى ، وأخيرا ختم الفصل بالحديث عن موقف امارات الطراز الاسلامى من الغزو البرتغالى فى العصر المماليكى ، والأحوال الداخلية لتلك الامارات وموقف الحبشة العدائى لها .

أما الفصل الثالث ، فقد اشتمل على فقرتين ، الأولى تناولنا فيها الحديث عن سيطرة البرتغاليين على تجارة المحيط الهندى بداية من الحملات البرتغالية التى خرجت مع بداية القرن السادس عشر الميلادى ، والمراكز التجارية والقواعد العسكرية التى أنشئت على امتداد سواحل المحيط الهندى

سواء في شرق افريقية أو الخليج العربي أو سواحل الهند ، والسياسة المستى اعتمدها البرتغاليون في سبيل تنفيذ مخطط السيطرة بالقوة ، أما الفترة الثانية فقد تحدثنا فيها عن خطة البرتغاليين الاقتصادية لاضفاف العالم الاسلامى بعدما نجحوا في فرض سيظوتهم بالقوة على طرق التجارة العالمية بين الهند ومداخل بحار العرب الجنوبية في الخليج العربي والبحر الأحمر والأسس التي اعتمدها البرتغاليون في سبيل ضمان عدم وصول سلع الهند والشرق الأقصى الى بحار العرب الداخلية المخلفة عليهم .

أما الفصل الرابع ، فهو بعنوان الصراع بعد فتح العثمانيين مصر ، وهو في الواقع تكملة للفصل الثاني حيث اشتمل على فقرتين الأولى فتح العثمانيين عدن واغلاق البحر الأحمر ، بحيث تناولنا موقف الدولة العثمانية من الغزو البرتغالى عقب دخول السلطان سليم القاهرة ، والأسباب التي أعاقبت العثمانيين عن اتخاذ خطوات سريعة في سبيل مواجهة البرتغاليين خارج البحر الأحمر ، ومن ثم التصرف لسياسة الدولة منذ عام ١٥١٧ م حتى فتحهم عدن ١٥٣٨ م ، والنتائج التي يمكن الخروج بها من تلك السياسة ، أما الفقرة الثانية فكانت خاصة بأدوار الصراع بين الدولة العثمانية صاحبة الشلن والبرتغاليين بداية من عام ١٥١٧ م ، والحملات البرتغالية التي كانت تأخذ طريقها باستمرار نحو البحر الأحمر ، اضافة الى الصراع الذي دار على السواحل الغربية للبحر الأحمر بين سلعى الامارات والحبشة وموقف كل من الدولة العثمانية والبرتغاليين من ذلك الصراع ، اضافة الى تتبع المحاولات التي قامت بها البعثات الكاثوليكية في سبيل النزول على السواحل الغربية والانضمام الى الأبحاش في هضبتهم . ويختبر هذا الفصل هوب الرسالة وأكثر الفصول أهمية ولذلك انفرد بقسط كبير من العمل والوقت .

وأخيرا الخاتمة وتشمل النتائج والتحليل .

أما لماذا كان هذا الصراع في البحر الأحمر بين المسلمين من ناحية وبين البرتغاليين من ناحية أخرى في هذه الفترة المحددة لموضوع الرسالة فان بيان ذلك يضطرننا للإشارة الى أنه بانتهاء المصور الوسطى في أوربا ، كانت الاعتبارات الجغرافية اشتراكا مع وحدة اللغة والجنس والمذهب قد ساعدت على تقسيم العالم الأوربي الى أم موحدة ، وأم شبه موحدة وأخرى تأخرت في تحقيق وحدتها .

ومع نشأة الدولة الوطنية الحديثة في الأمم الموحدة ، اتجهت هذه الدول نتيجة لشحورها بقوة مركزها وانضواء شعبيها تحت راية واحدة الى محاولة التوسع وسط سيطرتها على غيرها من الأمم والشعوب التي تأخر تكوينها ، وكانت أقل تنظيميا سواء في داخل أوربا أو في خارجها (١) ولهذا اتجهت الدول الموحدة في أوربا نحو توسيع أملاكها داخل القارة كما حدث في إيطاليا عندما نشب الصراع الفرنسي الأسباني المعروف بالحروب الإيطالية بينما اتجهت دول شبه الجزيرة الأيبيرية بحكم موقعها الى التوسع خارج أوربا ، وهو ما يشار اليه أحيانا بالكشوف الجغرافية .

وكان من الطبيعي أن تكون البرتغال (٢) من أسبق ممالك شبه الجزيرة

(١) د . السيد رجب حراز : عصر النهضة ٣٠٧ . دار النهضة العربية ، القاهرة .

(٢) لم تكتمل للبرتغال شخصيتها المستقلة ، الا بعد صراع طويل انقسمت فصوله الى قسمين ، أما القسم الأول فكان ضد المسلمين ، وأما القسم الثاني فكان ضد مملكة قشتالة .

— د . سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا في المصور الوسطى ج ١ ٥٧٠ ، مكتبة الانجلو المصرية ، ط ٥ ، القاهرة ، ١٩٧٢ م .

الأيبيرية مقاومة للحرب بحكم الظروف التاريخية ، إذ تأخرت أسبانيا عنها بسبب انشغالها في تحقيق الوحدة الوطنية وفي حركة الاسترداد ضد الحرب . (١)

وتؤلف البرتغال شريطا طويلا يمتد بحذاء السواحل الغربية المطلّة على المحيط الأطلس من شبه أييريا ، وهي تقاسم أسبانيا ذلك الركن الذى يقع فى الطرف الجنوبى الغربى من القارة ، ويبلغ طول هذا الشريط نحو ٥٠٠ ميل منها ١٠٠ ميل الى الجنوب ، وقد تميز هذا الشريط بكثرة الموانى العميقة المحمية . (٢)

وتتألف البرتغال من كتل جبلية صخرية وهضاب ، ومناخها جاف شديد ، وسهولها الزراعية نادرة وموجودة فى أطراف شبه الجزيرة .

تلك العوامل السابقة هى التى ساعدت البرتغال على الاتجاه للبحر ، فقد كانت بلادهم تتمتع بموقع هام لوجودها على الطرق التجارية بين موانئ البحر الأبيض المتوسط وشمال غرب أوروبا ، مما جعلها أقرب الى السواحل الافريقية ، حيث أعطاه ذلك أهمية استراتيجية وتجارية تجلت فى عاصمتها لشبونة التى كانت مركزا لتجارة غرب افريقية المستوردة الى غرب أوروبا (٣) ، وهذا

(١) عبد الكريم التواتى : مأساة انهيار الحكم العربى فى الأندلس ٤٦٢ . مكتبة الرشاد ، الدار البيضاء .

(٢) د . محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ٤٠ . مكتبة دار التراث ، ط ٠ ، القاهرة ، ١٣٩٩ هـ .

(٣) د . شوقى الجمل : تاريخ كشف افريقية واستعمارها ١٥٤ ، ١٥٥ . مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧١ م .

بدوره وفر الأموال اللازمة التي ساعدت ملوك لشبونة على توحيد أجزاء البلاد الداخلية ، وجعلتهم يعملون باستمرار من أجل الوصول الى مواطن التوابع لاحتكارها (١) ، وهو الأمر الذي أدى الى عدم اعتقال ملوك البرتغال لمسدى حاجة بلادهم الى أسطول قوى لتفتح لنفسها طريقا جديدا للثروة والقوة .

وقبيل سقوط غرناطة بفترة طويلة ، نعمت الموانئ البحرية الواقعة على ساحل المحيط الأطلسي بنوع من الازدهار نتيجة النشاطات البحرية التي شهدتها هذه الموانئ ، حيث كانت سواحل كتنبيريا مجالا لنشاط عام (٢) ، تجلى في أعمال الصيد والمبادلة التجارية التي كانت آخذة في الازدياد مع سكان أوروبا الشمالية الغربية ، هذه النشاطات كانت بمثابة اعداد نفساني لسكان الموانئ هيأهم للاشتراك في الرحلات ذات المسدى البعيد . (٣)

وحتى قبيل ظهور الأمير هنري الملاح لم يكن رجال البحر البرتغاليون أكثر من صيادين خالين من كل ثقافة بحرية معتبرة ، الأمر الضروري للرحلات

(١) ذ . عبد الكريم كريم : المغرب في عهد الدولة السعدية ٥٥ ط ٢ ، الدار البيضاء ، ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م .

(٢) امتازت سواحل كتنبيريا بوجود ميناء لشبونة الذي لا يوازيه أى ميناء فى أوروبا من حيث موقعه المناسب لخدمة المشاريع الاستكشافية للبرتغال .
- ك . م . بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ٢٤ . ترجمة :
عبد العزيز توفيق جاويد ، دار المعارف ،
القاهرة ، ١٩٦٢ م .

(٣) ادوار بروي : تاريخ الحضارات العام ج ٣ ٦٢٧ ، ٦٢٨ ، ترجمة
يوسف أسعد داغر ، فريد محمد داغر ، ط ١ ،
بيروت ، ١٩٦٥ م .

الطويلة ، لذلك استقدم الأمير هنري عددا من راسى الخرائط الجغرافية والفلكية من ميورقة وصقلية لتزوين رجال البحر وتعليمهم مهن الملاحة على الطرق الحديثة وعلى أساس علمى صحيح (١) ، كذلك استقدم عددا من الصناع الماهرين فى صناعة السفن لتحسين صناعتها فى بلاده وتطويرها حتى تكون صالحة للملاحة فى جميع الأجواء والبحار ، هذا الى جانب قيامه بتحويل كثير من سفن الصيد الى سفن للحرب والنقل (٢) ، وبذلك تكون البرتغال قد يسرت لنفسها أمر ملاحقة المسلمين ومهاجمة سواحل افريقيا الشمالية بعدما أجلت الكثير منهم ، مما جعلها تفقد أى اتصال جغرافى بهم .

وأخيرا يجب أن لا ننسى جبال البرانس كحاجز طبيعى فصلها عن أوروبا فكانت هذه الجبال بمثابة حاجز لشبه الجزيرة الأيبيرية عما دار خلف جبال البرانس من حركات دينية وما تاهبها من حروب ، حيث تميزت بالارتفاع الشاهق ، وهى التى سماها العرب ابان انتقالهم من أسبانيا الى فرنسا بجبال الحاجز ، وبذلك تمكنت البرتغال من تجنب الحروب الدينية التى بدأت فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى حينما دعا مارتن لوثر أوروبا الى مذهب البروتستانتية ، الأمر الذى أدى الى اغراق أوروبا بالمشاكل الدينية ، حيث شمل الانقسام المجتمع الأوروبى الذى توزع بين الكاثوليكية والأرثوذكسية والبروتستانتية .

(١) د . محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ٥٧٠ .

(٢) د . زاهر رياض : كشف القارة الأفريقية ٩٨٠ .

— د . محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ٥٧٠ .

وكان من جراء الحروب المستمرة ضد المسلمين في شبه الجزيرة الأيبيرية سواء في أسبانيا أو في البرتغال أن أسبغت عليهم لونا شديدا من الخشونة والقسوة والتعصب ، ومع نهاية القرن الخامس عشر الميلادى أصبحت البرتغال قلعة المسيحية الكاثوليكية في شبه الجزيرة الأيبيرية ، خاصة وأن الاسلام كان بالنسبة للبرتغال كابوسا يرغبون في ازالته ، وقد عرف سكان شبه الجزيرة الأيبيرية بتعصبهم الشديد وعدائهم للاسلام والحرب وبنزعتهم الصليبية التي جعلتهم لا يستولون على بلد اسلامي الا محوا آثار المسلمين منه محوا ، وهو ما يفسر لنا قلة الآثار المعمارية الاسلامية في البرتغال خاصة في أسبانيا . (١)

ولا يخيب عن الذهن أن البرتغال برزت على المسرح الصليبي بعد سلسلة طويلة من الحروب الصليبية شنتها على المسلمين في شبه الجزيرة الأيبيرية مما جعلها تتخذ من شن الحرب عليهم ومعاداتهم محورا لسياستها العامة كما سنرى فيما بعد (٢) ، كذلك يجب أن نلاحظ هنا أن طرد

(١) د . حسين مؤنس : رحلة الأندلس أو حديث الفردوس المفقود ٣٩٥ ط ١ ، القاهرة ، ١٩٦٤ م .

(٢) في ربيع الآخر من عام ٨٥٨ هـ - ١٤٥٤ م أرسل أهل لشبونة من المسلمين خطابا الى حاكم مصر السلطان الأشرف اينال يطلبون منه مساعدة نصارى كنيسة القيامة بالقدس في ترميمها ، وبناء ما هدم من كنائس النصارى حتى لا يحدث لهم على أيدي نصارى لشبونة سوء فتحوّل مساجدهم الى كنائس ، ويقال بأن ملك البرتغال هو الذى دفع المسلمين الى مكاتبة سلطان مصر بذلك .

— د . عبد المنعم ماجد : العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ٢٤١ ، بيروت ، ١٩٦٦ م .

— د . أحمد السيد دراج : الممالك والفرنج في القرن التاسع الهجرى ٨٣ ، القاهرة ، ١٩٦١ م .

البرتغال البقية من مسلمى لشبونة عام ١٤٦٩ م^(١) ، وافق الوقت المسمى
خان فيه حكام اسبانيا وعودهم للعرب ، وقاموا بطردهم من غرناطة وان دل
ذلك على شئ ، فانما يدل على مدى عمق النزعة الصليبية وتأصلها فى نفسية
ساكن شبه الجزيرة الايبيرية من المسيحيين ، لهذا لم يكن من الغريب
أن يجعل البرتغاليون بمطاردة مسلمى افريقية ومحاولة الالتفاف حول
افريقية .

ويظهر للعيان مدى قوة التعصب الكنى ضد المسلمين ، لو أمعن
النظر فى محاكم التفتيش التى ظهرت فى شبه الجزيرة الأيبيرية ، والتى
كانت فاتحة لسياسة القمع الهائلة التى وضعت لاستئصال الاسلام من
الأندلس^(٢) ، تلك المحاكم التى راح ضحيتها الآلاف من المسلمين ، ومن
خالف المذهب الكاثوليكي ، وبلغ التعصب الكاثوليكي مداه ضد المسلمين فى
قول أحد المؤرخين البرتغاليين " ان الشباب البرتغالى كان يعتقد أن
المسلمين اذا كانوا قد التجأوا من شبه جزيرة الأندلس الى الشمال الافريقى ،
فان الواجب يحتم على المسيحيين ألا يتركوهم ينصمون بالمقام هناك بسل أن
يتقبوهم حيث وصلوا " .^(٣)

(١) محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين ، العصر
الرابع ، ٣٢٢ .

(٢) محمد عبد الله عنان : ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى ٢١ .

(٣) د . شوقي الجمل : المغرب العربى الكبير فى العصر الحديث ٤٤ ،
ط ١ ، القاهرة ، ١٩٧٧ م .

لهذا تحركت حملة بحرية عام ١٤١٥ م هاجمت ميناء سبته ، وتمكنت من الاستيلاء عليه ، وبذلك تمكنت البرتغال من تأسيس أول قاعدة لها على الساحل المغربي ، ويبدو أنها اختارت هذه المدينة حتى تتمكن من شطر المغرب الاسلامي الى قسمين حتى تسهل عملية اجتياحه ، اذ انهم قاموا بعد ذلك بمحاولات أخرى لبسط السيطرة على مدن أخرى على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، غير ان المقاومة المغربية اضافة الى حركة الجهاد البحري في ممر جبل طارق والبحر الأبيض المتوسط كانتا تسبب للبرتغاليين الكثير من المتاعب فوجهوا ابتداءً من حكم الملك عما نويل الأول ١٤٩١ م أنظارهم نحو المدن الواقعة على الساحل المغربي الأطلسي ، حيث جد عامل جديد في سبيل انطلاقهم في السنة التالية الا وهو سقوط غرناطة بأيدي الأسبان ١٤٩٢ م .

ويسرني أن هذه الرسالة بموضوعها هذا تعتبر جزءاً من خطة بحوث الدراسات العليا التاريخية فيما يختص بدراسة التاريخ الاسلامي الحديث لشبه الجزيرة العربية والبحار العربية ، تلك الخطة التي يضطلع بها حالياً قسم التاريخ الاسلامي بجامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة .

(١) د . صلاح العقاد : المغرب العربي ١٤ ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٦٩ م .

— عندما كانت أسبانيا مقسمة ، كان العرب بمثابة حاجز وقف في وجه أوروبا في سبيل التقدم نحو الكشف الجغرافية ، وكانت عملية الاتحاد عاملاً مساعداً للتقدم نحو المغرب من قبل البرتغاليين واتخاذ نقطة ارتكاز للانطلاق نحو شرق افريقية .

لذلك فلتنى أرجو أن أكون قد ساهمت فى تنفيذ تلك الخطة ، وفى
إضافة جديد قيم الى المكتبة العربية الاسلامية .

وهذه المناسبة فلتنى أقدم شكرى وتقديرى الى كلية الشريعة
والدراسات الاسلامية وقسم التاريخ ، وسعادة أستاذى المشرف على الرسالة
الدكتور محمد عبد اللطيف البحراوى للمساعدات القيمة والتشجيع المستمر
والأخذ بيدي لانجاز الرسالة وخاصة فى ذلك الوقت الحرج الذى تعرض له
البحث وأشرت اليه من قبل والذى أدى الى ضرورة منحى فرصا استثنائية
مكتنى فعلا من الوصول الى ما وصلت اليه فى رسالتى هذه .

وآخر ما أختتم به مقدمتى هو الحمد لله رب العالمين .

... ..

الفصل الأول

دوافع ومقدمات وصول البرتغاليين إلى المحيط
الهندي ومدخل البحر الأحمر

- أ - الدوافع الصليبية .
 - ١ - دور البابوية .
 - ٢ - تهديد العالم الإسلامي .
- ب - الدوافع الاقتصادية .
 - ١ - سيطرة المسلمين على طرق التجارة العالمية .
 - ٢ - أثر الجهاد البحري (القرصنة) في الخوض الغربي للبحر المتوسط .
 - ٣ - منافسة المدن الإيطالية في تجارة أوروبا .
- ج - دوران البرتغاليين حول إفريقيا .
- د - استخدام البرتغاليين علوم العرب في البحر والملاحة .
- هـ - وصول البرتغاليين المحيط الهندي ومدخل البحر الأحمر .

رأت البابوية مع نهاية العصور الوسطى ، ضرورة اتخاذ نهج جديد تجاه مجابهة العالم الاسلامي ، نتيجة فشل مشروعاتها في العصور السابقة ، وظهر الأتراك العثمانيين ، الذين أصبحوا بمثابة حاجز يحول دون وصول مبشرى أوروبا الى آسيا (١) ، إضافة الى خيبة الأمل في نفوس الكثيرين ممن رجال الكنيسة الذين كانت لهم السيطرة على المناصب العليا في حكومات أوروبا ، نتيجة ضياع الأماكن المقدسة .

لهذا لم يكن من الغريب أن تتشط البابوية ضد العالم الاسلامي ، عن طريق دعوة ملوك أوروبا الى مؤازرتها ، لمواجهة الاسلام وصدّه عن أوروبا ، أولاً بالقضاء على وجوده في أسبانيا ، ومن ثم مهاجمته من الجنوب ، ولم تلبث الأيام أن أكدت للبابوية ، ضرورة الاسراع بمهاجمة العالم الاسلامي من الجنوب ، بسبب ارتباط التجارة ، وانتهيار طرقها البرية والبحرية فسي آسيا وأوروبا عبر البحر الأسود ، والمضائق والأناضول (٢) ، وهنا كان لابد من اتجاه الأنظار الى البحر فهذه البقاع ، وإن كانت أبوابها قد أوصدت في وجه المسيحية ، فماذا يمنعها من اتخاذ البحر سبيلا ، ولم لا تنفذ ملاحظتها الى الشرق ، وتهاجم الاسلام من المؤخرة ، وتستولى على اورشليم من الخلف (٣) .

(١) أرنست باركر : الحروب الصليبية ١٢٢ ، ترجمة السيد الباز العريضي
مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة .

(٢) د . نعيم زكي فهمي : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب ٣٨ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٣م

(٣) أرنست باركر : الحروب الصليبية ١٢٢ .

وسط هذه الأجواء المخادبة للإسلام ، ظهرت " خطة الهند " من خلال مراسلات البابا نقولا الخامس مع الأمير هنري الملاح ^(١) ، الذي كان يعدّ الحدة للخروج لمهاجمة العالم الإسلامي من جنومه ، وترجع خطة الهند في أساسها الى انتشار قصة خيالية في أوروبا ، نظمت فصولها باتقان ، حينما رفعوا من شأن ملك الحبشة المسيحي ، ومن هنا اتجهت النية الى محاولة الاتصال به ، والاستفادة منه ، والتعاون معه لشن حروب صليبية أخيرة ضد المسلمين ، تقضى عليهم ، وتعيد الأتراك العثمانيين الى داخل آسيا ^(٢) .

هذا وقد وجدت البابوية في طائفة الرهبان الفرنسيين الموجودين في الأراضى المقدسة المسيحية ، خير عون لها لتنفيذ خطة الهند ، خاصة وأنهم كانوا دعاة للحرب الصليبية ، فكانوا بمثابة جواسيس عن طريقهم تسم

(١) " ان سرورنا لعظيم أن نعلم أن ولدنا هنري أمير البرتغال ، قد دفع باسم الله الى أقصى البلاد ، وأبعدنا عن مجال علمنا ، كما أدخل بين أحضان الكاثوليكية الخادرين من أعداء الله وأعداء المسيح مثل العرب والكفرة ، وسيستطيع في الحين نفسه أن يدخل في الطاعة والخضوع بإذن من الملك جميع الوثنيين الذين لم تسلمهم حتى الآن يد الاسلام ، ويدخل اسم المسيح في نطاق علمهم " .

ك . م . بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ٢٢ ، ٢٨ ، ترجمة
عبدالعزیز توفیق جاوید ، دار المعارف ، القاهرة

١٩٦٢م

(٢) هورنر فيشر : أصول التاريخ الأوروبي الحديث ٧٩ ، ترجمة د . زينب عصمت راشد ود . أحمد عبد الرحيم مصطفى ، دار المعارف القاهرة .

— صاموئيل موريسون : كريستوفر كولومبس ٢٤ ، ترجمة فوزى قبلاوى
دار مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٥٩م

اتصال البابوات وملوك الفرنج بملوك الحبشة عن طريق الزوار الأخباش لبيت المقدس (١).

وجع اندفاع البرتغال في حركاتها الكشفية في غرب افريقية في أواخر عهد الأمير هنرى الملاح ، فاننا نجد أمورا تؤكد مدى الارتباط الوثيق بين البابوية وحركات الكشف الاستعمارية ، ففي الوقت الذي كانت تعيش فيه أوروبا في ستار من الظلام والجهل ، وتهيمن فيه البابوية على أفكارهم وعقولهم ، وتمنع فيه حرية التفكير لدرجة أنها كانت تعتمد الى نشر الاشاعات عن المخاطر في خوض غمار المحيط الأطلسي (بحر الظلمات) ، وما يلاقيه كل بحار فيها اذا حاول أن يجازف ويبحر فيما أبعد من هذا الساحل ، ولكنها وبعد أن اندفع البرتغاليون في كشفهم ، ونظروا لخوف كثير من البحارة من خوض تجربة الابحار في بحر الظلام نجدها تنكر كل ما سبق بل وتنفي البحارة بأنهم اذا ما انضموا الى البحرية البرتغالية فانهم سينالون المغفرة في اليوم الآخر ، وصاحب ذلك دعم أدبي ومادى عن طريق منح الصكوك بملكية الأراضي المكتشفة والخير مكتشفة ، ووصفت البابوية الاسلام ، بأنه الطاعون الذي يجب منع انتشاره بين الشعوب الوثنية في الأراضي المكتشفة عن طريق تنصيرهم (٢).

(١) د . أحمد السيد دراج : الممالك والفرنج في القرن التاسع الهجري

١٢ ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٦١م .

(٢) د . عبد العزيز محمد الشناوي : أوروبا في مطلع المصور الحديث ٩٠

دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٩م .

وقد يرى البعض أن القصد من وراء ذلك كله ، هو عامل إقتصادي بحث للوصول الى عالم التوابل ، ولكن التمعن في تلك المشروعات ، واتصال البابوية الدائم بملوك شبه الجزيرة الآيبيرية ، ترشدنا الى ناحيتين مهمتين هما أولا : اتفاق البرتغاليين والاسبان مع البابا على طرد المسلمين من غرناطة (١) ، فعندما اتحدت قشتالة وأرجون ، بزواج ايزابيلا وفرديناند ، كان العزم على مهاجمة غرناطة ، أعلن البابا الحروب المقدسة الصليبية دعما لهم ، وقدم لهما يد الحون عن طريق فرض ضريبة على الدول الأوروبية سماها ضريبة الصليبية (٢) ، وهذا ما يجعلنا ندرك مدى عمق الفكرة الصليبية في شبه الجزيرة الآيبيرية وتدخلها الدائم في توجيه سياستها . (٣)

من هذا كله نستطيع القول بأن عملية طرد المسلمين من أسبانيا لم تكن مرتجلة ، أو جاءت بطبيعتها ، وانما كانت عملية مدروسة ترمي الى الوصول الى نتائج وأهداف محددة ، ما لبث بعضها أن ظهر الى حيز الوجود ، حينما رأى فرديناند ملك اسبانيا ، القيام بحرب صليبية على سواحل شمال افريقية ، ومرة أخرى ظهر خطر البابوية ، عندما أصدر البابا أوامره الى

(١) قبل سقوط غرناطة ، قام الاسبان والبرتغاليون بقطع سبل الاتصال بين مسلمي المغرب والأندلس ، باحتلال بعض ثغور القواطين المغربية المقابلة للأندلس .

(٢) جان بول رو : الاسلام في الغرب ٣٥ ، ترجمة نجده هاجر ، سعيد الغز ، المكتب التجاري للطباعة ، بيروت ١٩٦٠م .

— أنور الجندی : الاسلام والغرب ٤٨ ، دار الاعتصام ، القاهرة .

(٣) محمد عبد الله عنان : ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى ٣٣ ، ٣٤ .

جميع الهلاد المسيحية الأوروبية ، أن تضع كل امكانياتها البشرية والمالية تحت تصرف ملوك أسبانيا من أجل اخضاع بلاد الشمال الافريقى للحكم والدين المسيحي (١) ، بحيث صبغت الحروب الأسبانية فى افريقية بالصبغة الطليبية الحقيقية ، لدرجة أن الكنيسة الاسبانية أرادت فى كثير من الأحيان اعتبار هذه المعركة معركة خاصة بها (٢) ، ونحن عندما نقول أن تحويل تجارة التوابل كعامل اقتصادى ، لهدم العالم الاسلامى ، فالقصد هنا ان هذا فى حد ذاته عامل دينى ، لأن هدم الاقتصاد الاسلامى معناه هدم لقسوة المالك أصحاب السلطة على الطرق التجارية ، وعصر حيوتهم ، حتى يتمكنوا فيما بعد من التخلخل الى داخل المشرق العربى ، والحصول على المنتوجات الاستوائية والشرقية دون الحاجة الى وساطة العرب (٣) .

كان التفكير التقليدى لدى الأوروبيين ، أن يتم الاختراق للعالم الاسلامى اما عبر أسوار القسطنطينية أو عبر الشمال الافريقى ، لكن هذه المرحلة تختلف بالنسبة لعبور أسوار القسطنطينية ، اذ أنهم فى السابق وجدوا الأمارات السلجوقية مفككة العربى مختلفة فيما بينهم ، أما فى هذه الفترة

(١) أنور الجندى : الاسلام والغرب ٤٨ .

(٢) أحمد توفيق المدنى : حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا ٨١ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - قسطنطينية (الجزائر) .

(٣) كانت المنتوجات الشرقية معروفة لدى الأوروبيين معروفة جيدة ، وخاصة عقب الحروب الصليبية التى كانت من أهم الأسباب فى كشف الستار عنها ، ولكن الشئ الذى ظل مجهولا هو مصادر هذه التجارة ، وكان ذلك بسبب بعد الفلسافة والخلاف الدينى ، بالإضافة الى الاختلاف اللغوى وما شاع عن أهل المناطق من تعصب ضد الأجانب .

د . محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ٥٤ . مكتبة دار التراث ، القاهرة ، الطبعة الاولى ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .

فان الأتراك العثمانيين قد أقاموا دولتهم في آسيا الصغرى ، وفي جزء من جنوب شرق أوروبا ، وأشرفوا على شواطئ شرق البحر الأبيض المتوسط ، فكانوا بمثابة قوة جديدة تختلف عن الأتراك السلاجقة من حيث الاستقرار والنمو ، وجاءت فترة كانت الباهوية تصدر خلالها مجموعة من المنشورات والمشاريع ضد الأتراك العثمانيين كلما أحست بضعفهم ، ولعل من أخطر تلك التهديدات ما حدث عقب سقوط القسطنطينية ، حينما تمكنت الباهوية من اعداد حملة صليبية ضخمة ضد العثمانيين ، لكن ملك البرتغال (ألفونس الخامس) تمكن من توجيه هذه الحملة من القسطنطينية الى المغرب حتى يتمكن الحلفاء من ارساء قاعدة بحرية في شمال افريقية ، تتطلق منها الأساطيل والجيوش لفزو العالم الاسلامي مستقبلا ، وقد وقع اختياريه على طنجة ، غير أن الفشل كان مصير هذه الحملة . (٢)

كان ذلك في عصر اندفع فيه الروس المسكوفيين لشن حروبهم ضد العثمانيين والتتار بايعاز من أوروبا ، حيث تمكن ايفان الثالث الكبير (٣) من شن حروب صليبية ٨٨٥ هـ - ١٤٨٠ م ضد المسلمين ، فكانوا عندما

(١) سنلاحظ فيما بعد أن الأوربيين ، وقد سيطروا على تجارة المحيط الهندي ، ظنوا ان تجارة التوابل هي الأساس الأول في قوة العثمانيين وسر تقدمهم في أوروبا ، لذلك ازداد نشاطهم في التركيز على الطريق الجديد للقضاء نهائيا على طريق الخليج العربي والبحر الأحمر اللذين سيطر عليهما العثمانيين .

د . محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ٥٤ .

(٢) د . شوقي عطا الله الجمل : المغرب العربي الكبير في العصر الحديث ٤٨ ز ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٢٧ م .

(٣) ولد ١٤٠٠ م وتوفي الحكم منذ ١٤٦٢ م ، وهو الذى دمر النفوذ التترى ، توفي ١٥٠٥ م .

يستولون على مدينة يذبحون من أهلها ما استطاعوا ذبحه ومن بقى يجلسونه
عنها . (١)

من هنا نلاحظ أنه في الوقت الذي اندفع فيه البرتغاليون بأساطيلهم
البحرية لكشف ساحل افريقيا الغربى ، للوصول الى جنوب العالم الاسلامى ،
اندفع الروس الى البحر الأسود وحر قزوين وهضبة البامير (٢) ، وكان
هدفهم هو الاستيلاء على القسطنطينية والمضائق ، واعادتها مركزا
للأرثوذكس عن طريق اثارة شعورهم واستغلال العاطفة الدينية لديهم (٣) .

ومذ لك بدأ الروس يمثلون ضغطا شديدا وثقيلًا على الدولة العثمانية ،
والتالى يؤثرون فى مجهودات العثمانيين على الميادين الأخرى ، وكانت
هناك فرصة أخرى للبابوية لاثارة البلبلة فى صفوف الدولة العثمانية
حينما فر الأمير جم من أخيه السلطان بايزيد الثانى (٤) الى فرسان رودس الذين

(١) محمود شاكى : الكشف الجغرافى ، دوافعها - حقيقتها ٢١ المكتب

الاسلامى ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٣ هـ .

(٢) شاخت وموزروث : تراث الاسلام ، القسم الأول ٢٩٣ ، ترجمة د . محمد

زهير السمهورى . سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ١٣٩٨ هـ

(٣) محمود شاكى : الكشف الجغرافى ، دوافعها - حقيقتها ٢٢ .

(٤) تولى بايزيد الثانى الحكم بعد والده محمد الفاتح ١٤٨١-١٥١٢م ، عقب

فترة من النزاع على العرش مع أخيه جم ، وكان أخوه الأصغر جم ، قد اقترح

عليه تقسيم الامبراطورية العثمانية الى شطرين . شطر أوربى وآخر آسيوى ،

ولكن بايزيد الثانى رفض مبدأ التقسيم من أساسه ، وحارب جم وأضطره

الى الفرار فى ٢٣ يونيو ١٤٨١م . والتجأ جم الى قايتباى ، سلطان

المماليك فى مصر ، ثم لجأ الى جزيرة رودس ، محاولا أن يستعين بفرسان

القدس يوحنا ، وبالدول الغربية ، ضد شقيقه ، ولكن محاولته فشلت ،

ومات فى نابلى بايطاليا فى ٢٥ فبراير ١٤٩٥م .

د . محمد كمال الدسوقى : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ٤٩

دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٧٦م .

سلموه يدورهم للبابا اسكندر السادس (بورجيا) ، الذى وجه فيه فرصة لتهديد كل من السلطان بايزيد العثمانى ، والسلطان قايتباساى (١) سلطان مصر ، خاصة فى ظروف كانت فيها العلاقات سيئة بين مصر والدولة العثمانية ، فوجدها البابا فرصة لارسال قوات صليبية بقيادة جم الى آسيا الصغرى ، للحصول على حقه فى العرش العثمانى فتشتمل بذلك نـار الحروب الأهلية ، غير أن وفاة جم الغير طبيعية أزالـت ذلك الخطر عن العثمانيين (٢) .

موتفاة جم ، كان خطر الباهوية عن طريق اشعال نار الحروب الأهلية فى الدولة العثمانية قد زال ليواجه العثمانيون مع بداية العصور الحديثة خطر التحالفات الأوربية ضدهم بزعامة الباهوية ، ولعل أهم تلك التحالفات هى التى حدثت عقب دخول العثمانيين القاهرة ١٥١٧م ، عندما استغل البابا فرصة ابتعاد السلطان سليم عن عاصمته فطلب من ملوك النصارى عقد هدنة فيما بينهم لمدة خمس سنوات لمواجهة الدولة العثمانية (٣) ، وتم له

-
- (١) تولى سلطنة مصر فى السادس من رجب ٨٧٢ هـ — ١٤٦٢م ، وقد جلبه الى مصر الخواجه محمود واشتراه منه الملك الأشرف برسباى بخمسين ديناراً ، ثم راج يتدرج بعد أن أعتق هذا التدرج المؤلف الى أن صار أتابكياً ، توفي يوم الاحد سابع عشر من ذى القعدة ٩٠١ هـ — ١٤٩٦م .
 د . أحمد حسين : موسوعة تاريخ مصر ج ٢ ٧٧٨ ٧٧٩ ، مطبوعات دار الشعب ، القاهرة ١٣٩٢ هـ — ١٩٧٢م .
 (٢) د . أحمد السيد دراج : الممالك والفرنج فى القرن التاسع الهجرى ٩٤ ، ٩٥ .

- د . عزيز سوريال عطية : العلاقات بين الشرق والغرب ١٤٠ ، ترجمة د . فيليب صابر يوسف ، دار الثقافة المسيحية القاهرة ١٩٧٢م ، الطبعة الأولى .
 (٣) لوثرروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامى ، المجلد الثالث ، ٢٣٠ ، ترجمة عجاج نويهض ، دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٣٩١ هـ — ١٩٧١م .

ذلك بموافقة الدول الكبرى كفرنسا واسبانيا وانجلترا والبرتغال وبولونيا ، والدانمرك ، والذي صادق عليه البابا بنفسه ، غير أن استيلاء الأتراك على بودابست ومعظم بلاد المجر ، اضافة الى وفاة امبراطور اسبانيا ملكسليمان الأول ١٥١٩ م أدى الى انهيار ذلك الخطر (١) .

وعلى الرغم من فشل البابوية في سبيل غزو العالم الاسلامي عن طريق الدولة العثمانية في الشطر الأوربي ، فانها كانت دائما ، وفي نفس الوقت تلقى بثقلها الى الجبهة الآييرية ، نظرا لضعف المسلمين بها وتشتتهم وانقسامهم على أنفسهم ، واشتداد حروب الاسترداد ضدهم ، لهذا كانت تحوص دائما على ألا يتعرض اندفاع دول شبه الجزيرة الآييرية نحو غزو العالم الاسلامي أية عقبات فعندما شب النزاع بين الدولتين اسبانيا والبرتغال على اقتسام الأراضي المكتشفة ، وخوفا من أن يؤدي ذلك الى تعطيل المشاريع في سبيل غزو العالم الاسلامي ، يادر البابا اسكندر الرابع الى فض النزاع بينهما بمعاودة تورديسيلاس (٢) ١٤٩٤ م ، والتي تعطينا دليلا حقيقيا على مدى قوة الدافع الديني وراء الحركات الاستعمارية المبكرة في ذلك الوقت وأهم ما يذكر في تلك المعاهدة هو الإشارة الى ناحيتين مهمتين وهما ، أولا : اقتسام الأسبان والبرتغاليين العالم خارج أوروبا فيما بينهما ، فكان من نصيب أسبانيا الأمريكتان عدا البرازيل ، التي اعتبرت من ممتلكات البرتغال ، وعندما تساءلت أوروبا بأى حق يقوم البابا بذلك ، جاء الجواب فيما بعد على لسان المؤرخ الرسمي لأعمال البرتغال المدعو جوا دي باروس Joao de Barros (١٤٩٠ - ١٥٧٠ م) الذي فسر ذلك بأن للبابوات حق

(١) لوثرروب ستودارد : حاضر العالم الاسلامي ، المجلد الثالث ٢٣٠ .

(٢) مدينة تقع بالقرب من فلديليد (بلد الوليد) على ضفاف نهر دورو بأسبانيا .

تقسيم أراضى غير المسيحيين الحقيقيين بين أتباع الكنيسة الرومانية الكاثوليكية المخلصين ، وأن أرواح المسلمين والمؤمنين مصيرها الى النار ، ولذلك فليس لأجسادهم حق حيازة المناطق التى يعيشون فوقها ، ولأنهم لا ينتمون الى الدين المسيحى فانه من الجائز ، من وجهة النظر المسيحية الانتقال منهم (١) ، أما الناحية الثانية فى المعاهدة فهى تقسيم المغرب العربى الى منطقتين الأولى تقع شرق حجر باديس ويتولى فيها الاسبان مهمة التصدير لمسلميها ، وأما الثانية فتقع غرب المنطقة السابقة وتركت للبرتغال (٢) .

من هذا نرى أن الصراع بين الدولتين لم يكن فى صالح البابوية ، حتى تتمكن من بسط نفوذها الروحى على دول شبه الجزيرة الايبيرية ، خاصة وأن الدولتين على مذهب واحد هو الكاثوليكية ، اضافة الى أن تدخلهما وتقسيمهما العالم بينهما سوف ييسر لكل منهما تنفيذ مخططاتها التنصيرية ضد العالم الاسلامى ، وحتى عندما انشغلت البابوية بالمد البروتستانتى فى أوروبا الأمر الذى منحها من مسح المناطق المكتشفة ، فانها جعلت لملوك شبه الجزيرة الايبيرية حق تعيين الأساقفة ، وتحصيل الضرائب الدينية ، وهو أمر خاص بها ، مقابل قيام ملوك أسبانيا والبرتغال بإرسال البعثات الدينية لتحويل سكان المناطق المكتشفة الى المسيحية (٣) .

(1) H.V. Liver more: Portugal and Brazil 199, 200. Oxford 1953.

(٢) صلاح العقاد : المغرب العربى ١٥ ، ١٦ ، مكتبة الانجلو ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٦٩ م .

(3) H.V. Liver more: Portugal and Brazil 200.

ومن بين التهديدات الصليبية ضد العالم الاسلامى كذلك هو اتفاق الأوربيين على القيام بعمليات تخريب ضد الموانىء المصرية والشامية لتمطيل حركة التجارة بها ، بحيث شمل ذلك السلب والنهب والأسر ، وضجست الشواطىء الاسلامية فى مصر والشام ، بغارات قراصنة النصارى ، وفرسان الاستبارية برودس ، ولعل من أخطر تلك الغارات ما نزل بمصر المملوكية سنة ١٥١٠ م ، حينما تعرض فرسان جزيرة رودس لقافلة بحرية مكونة من ثمانى عشرة سفينة متجهة من آسيا الصغرى نحو الاسكندرية ، ومحملة بالسلاح والذخيرة من الدولة العثمانية ، ولم تسلم من هذه القافلة سوى ست سفن فارغة ، فى وقت كان الممالك فيه فى أمس الحاجة لها لمواجهة البرتغاليين فى المياه الجنوبية (١) .

ومع بداية الربع الأخير من القرن الخامس عشر ، كان العرب المسلمون قد سيطروا على طرق التجارة الدولية بين الشرق والغرب (٢) ، وأصبحوا بذلك أهم واسطة اتصال تجارى ، ولم تكن تلك السيطرة وليدة الصدفة ، أو هو احتكار مسلح كما فعلت الدول الأوروبية فيما بعد ، وإنما كانت عوامل عديدة مجتمعة ساعدت على تلك السيطرة ، فقد كان العرب أعرف الناس بمسالك هذه التجارة فى تلك العصور ، نظرا للموقع الجغرافى لبلادهم

(١) د . أحمد السيد دراج : الممالك والفرنج فى القرن التاسع الهجرى . ١٤٢ .

(٢) ازدادت حدة هذه السيطرة نتيجة عاملين : أولا - سقوط القسطنطينية بأيدى الأتراك ١٤٥٣ م الأمر الذى أدى الى اغلاق الطرق التجارية البرية بين آسيا وأوروبا عبر البحر الأسود ، والآناضول ، ثانيا - اقضاء الكارمية عن التجارة فى البحر الأحمر نتيجة الفناء النظام الاقطاعى ، ومحاولة تعويض النقص الناتج عن هذا الفناء .

د . نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب ١٩٢ .

الذى تمر عبره هذه التجارة ، وتكوينهم البيئى الذى منحهم نشاطا فى سبيل نقل هذه التجارة بين الشرق والغرب ، مما جعل احتكارهم قائم على أساس من التفوق فى التعامل التجارى ، ولم يخلقوا أبواب تجارة المحيط الهندى فى أى يوم من الأيام ، وإنما جعلوه مفتوحا لمن يريد المتاجرة فيه ، وأخيرا يجب أن لا ننسى مدى انتشار الاسلام فى المحيط الهندى وأثره فى تنشيط مشروعات العرب التجارية (١) ، وهذا ما جعلهم يتاجرون بكامل حريتهم فى موانئ المحيط الهندى لدرجة أنهم أصبح لهم جاليات كبرى وسيوتات تجارية تشارت من موانئ شرق افريقية حتى الصين ، حيث قولوا بالترحاب فى أى مكان كانوا ينزلون فيه حاصلين على امتيازات وحقوق من الحكومات المحلية (٢) ، ولم يحدث قط أن تعرض نشاطهم التجارى هناك لأيئة أحداث سياسية تعرضهم للخطر ، بل كثيرا ما قامت محالفات وثيقة بسين الجاليات العربية الكبرى وبين المجتمعات الهندية (٣) ، وفى الهند مثلا كان التجار العرب يتمتعون باحترام وتقدير رجال الجمارك فى الهند ، بعكس

(١) د . نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ٣٠٦ .
 "عرف العرب تجارا وبحارة طريقهم الى الهند وشرق افريقية قبل الاسلام ، ومع ظهور الاسلام كانوا على دراية تامة بالمحيط الهندى ، وكانت لهم رحلاتهم التجارية المنظمة الى الهند وسيلان . وكانوا فى ذلك الوقت سادة أعالي البحار .
 د . عطية القوصى : تجارة مصر فى البحر الأحمر منذ فجر الاسلام حتى سقوط الخلافة العباسية . دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٧٦ م .

(2) An Gelo Pesce: Jiddah 66.

(٣) مثل الزامورينات ، وبعض حكام الهندوك رغم العداء التقليدى بين الهندوك والمسلمين .
 ك . م . باننيكار : آسيا والسيطرة الغربية ٣٦ ، ٣٧ .

الهنود من أهل البلاد الذين كانوا تجارا وفلاحين مغمورين (١).

من هنا نرى مدى فضل العرب في ازدهار الحياة الاقتصادية بـ... الشرق والغرب بما قاموا به من تشجيع وعناية سهلت تداول هذه السلع أجيالا عديدة ، وكانت تلك السيطرة عبارة عن سلسلة طويلة من الموانئ تمتد من الموانئ الهندية مرورا بالخليج العربي وعدن ، وعبروا لبادية الشام والجزيرة العربية ، وسواحل البحر الأحمر ، ثم سواحل الدولة المملوكية في مصر والشام (٢).

كانت بلاد الشرق الأقصى والهند هي المصدر الأساسي لتصدير المواد التجارية ، وإن كانت بضائع الشرق الأقصى تستقر قبل كل شيء في الهند ، إلا أنها سرعان ما تجد نفسها محملة في سفن العرب (٣) ، فمن الهند كان الفلفل يخرج مصدرا من سواحل الملايو ، والذي كان يحتل شهرة خاصة لدى الأوروبيين باعتبار سواحل الملايو المركز الرئيسي لتصديره إلى أوروبا (٤) ، أما كجرات فقد امتازت بتصدير الأقمشة الرقيقة الخالصة حيث كانت تشحن سفن كثيرة تبلغ الخمسين سنويا إلى الشرق والغرب (٥).

(١) د. أنور عبد الحليم : ابن ماجد الملاح ٤١ ، ٤٢ .
سلسلة أعلام العرب ، العدد ٦٢ ، القاهرة ١٩٦٢م .

(2) Serjeant, R.B.: The portuguese off the South Arabian Coast 3, Lebanon 1974.
(3) Ryan, N.J.: A History of Malaysia and Singapore 41.

(٤) د. محمد عبد اللطيف البحراوي : فتح العثمانيين عدن ١٠٣ .
(5) Stripling, G.W.: The ottoman Turks and the Arabs 1511 - 1574 26, U.S.A. 1942.

ومن قاليقوت كانت السفن تخرج محملة بحب الهان وتوابل أخرى تصلها من جزر المحيط الهندي اذ مع كل ربح موسمية كانت السفن تبحر الى البحر الأحمر (١) ، هذا عدا المتجهة الى الشرق الأقصى وسواحل شرق افريقية والخليج العربي ، أما من أندونيسيا فكان القرنفل وجوزة الطيب (٢) .

ونشطت لذلك موانئ الخليج العربي ، التي لعبت دورا كبيرا فى اىصال هذه السلع الى الشام عبر دجلة والفرات ، كذلك القيام بتوزيع منتجات أوروبا والشرق الأوسط وسواحل شرق افريقية بين موانئ المحيط الهندي ، واشتهر من مدن الخليج سيراى ودولة هرمز ، وحظيت الأخيرة على مكانة مرموقة ^{كلمة للمراسلة} حيث أسطول تجارى قوى يجوب البحار ، وكانت هرمز تعتبر مفتاح الخليج العربي فى مجموعة الطرق التجارية الدولية بين الشرق والغرب ، ولقرنين من الزمان كان الشريط الساحلى الحمانى يتبع ملك هرمز ، الذى كان يمتلك موانئ عديدة مثل كليمات ومسقط التى تعتبر من أهم ممتلكات هرمز ، فقد كانت المستودع الرئيسى للخليج العربي . (٣)

وأصبحت هرمز ذات مكانة ، لدرجة أنه كان يوجد بها فى وقت واحد ثلاثمائة سفينة من بلاد مختلفة ، وكانت السلع الهندية تخرج من هرمز نحو البصرة والموصل ومنها توزع على موانئ الشام فى البحر المتوسط ، إضافة الى قيامهم بشحن ما يردهم من البضائع من البصرة نحو الهند والصين ،

(1) Stripling: The ottman Turks 26.

(٢) للهند والشرق الأقصى قوائم عديدة لا تحصى من الصادرات على أننا ذكرنا هنا أهمها .

(3) Serjeant: The portuguese off the South Arabian Coast 11.

- Stripling: The ottoman Turks 24, 25.

وكانت تلك الصادرات عبارة عن منسوجات غالية ومصنوعات معدنية (١) ، وليس أدل على مدى الثراء الذى كان ينعم فيه سكان هرمز أنهم بلغوا فى ذلك الوقت نحو أربعين ألفا ، يعيشون على مستوى عال من الرفاهية ، اذ كانوا يقيمون فى دور مبنية من طوابق من خشب الساج المستورد من الهند (٢) ، وقد جعلت الثروة من هرمز موضع جمال ، وأعجاب فى عيون الرحالة الأوربيين عندما كتب رحالة انجليزى يصف مركز هرمز التجارى فقال " لو أن العالم صنع خاتما كانت هرمز ماسة وجواهرة " (٣) ، ولم تقل عنها أهمية كذلك مدينة سیراف اذ كانت جماركها تبلغ سنويا حوالى ربع مليون دينسار (٤) .

وابتداء من مداخل البحر الأحمر حتى موانئ الدولة المملوكية فى مصر والشام كانت هذه الحلقة تعد من أهم حلقات الوصل بين تجارة الشرق

-
- (١) د . جورج فاضل حوراني : العرب والملاحة فى المحيط الهندى ٢٠٧
ترجمة د . السيد يعقوب بكر ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٥٨ م .
- (٢) د . صلاح العقاد : التيارات السياسية فى الخليج العربى ١٠٦٩ ،
مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٤ م ، القاهرة .
- د . جورج فاضل حوراني : العرب والملاحة فى المحيط الهندى ٢٠٧ .
- (٣) سونيا . ي . هار : فى طلب التوابل ١٥٠ . ترجمة : محمد عزيز
رفعت ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ١٩٥٧ م .
- (٤) كانت سیراف من الموانئ المهمة فى الخليج العربى ، وتقع على الشواطئ الشرقية لمدخل الخليج العربى ، غير أن استيلاء أمير قيس عليهم ، وتحویل التجارة عنها أدى بها الى الانهيار الكامل أواخر القرن الخامس عشر الميلادى . وقيس جزيرة بالخليج العربى كانت مركزا للسفن الذاهبة الى الهند .
- د . نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ١٢١ .
- د . أنور عبد الحليم : الملاحة وعلوم البحار عند العرب ٧٨ .

والغرب حيث عمل الممالك على تسهيل مرور هذه التجارة عبر موانئهم وذلك لـ
كافة الصعوبات التي تعترضها ، وقد تميز البحر الأحمر ^(١) بالأمن فهو
بعيد عن ميادين الحروب بآسيا ، كما تواجد فيه أسطول لحماية السفن
من القرصنة ^(٢) ، وبفضل هذه المزايا أصبحت مصر النافذة أو الوجهة
التي تعرض من خلالها منتجات افريقية وآسيا ، ولم يكن مسموحا للتجار
الأجانب عندما يدخلونه أن يبحروا في المناطق التي تقع الى الشمال من جدة ،
اذا كان عليهم أن ينزلوا بضائعهم في جدة حيث تتولى سفن صغيرة مهمة
توصيلها الى السويس ^(٣) ، وكانت السفن القادمة من الهند تفرغ حمولتها
في عدن وجدة ، حيث تميزت عدن بأنها ملتقى سفن كثيرة متجهة من وإلى
الهند من البحر الأحمر ، وكانت تنعم بتجارة كبيرة مع ساحل افريقية
الشرقي وهو مز ، فكانت تصدر الى الأولى الملابس ، وفي مقابلها يـ
التجار الى عدن محملين بالذهب والجياد والأبنوس ^(٤) ، كذلك كانت تـ
اليها السفن من جدة محملة بالبضائع الأوروبية والمصرية والسورية ، وبلغ من
عظم شهرة عدن أنه كان من الصعب معرفة أنواع هذه البضائع أو تقدير
أثمانها ، وهو ما جعل أحد الرحالة الأوربيين ^(٥) يصفها بقوله بأنها

(١) كان نشاط العرب التجاري في البحر الأحمر أقدم من الاسلام ، وأسبق
من قيام الخلافة الاسلامية بقرون كثيرة . ولكن نشاط العرب في هذا
البحر ازداد بعد ظهور الاسلام حتى أصبح هذا البحر بحيرة عربية .
د . عطية القوصي : تجارة مصر في البحر الأحمر منذ فجر الاسلام حتى
سقوط الخلافة العباسية ٢٣ .

(٢) شوقي حبيب : الحلاقات التجارية بين مصر والدول الأفريقية ١٤٥ ، ١٤٦
رسالة ماجستير (لم تنشر) ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٥ م .

(٣) Serjeant: The Portuguese off the South Arabian Coast 5.

(٤) Stripling: The Ottoman Turks and the Arabs 23.

(٥) هو رحالة ايطالي يدعى لودفيكو دي فارتينا قام ١٥٠٥م بزيارة عدن حيث
اعتقل بتهمة التجسس ثم أفرج عنه فيما بعد .

" أمتع مدينة رأيته في حياتي على وجه البسيطة ٠٠٠٠ وأنها عاصمة العربية
السعيدة " . (١)

أما نقل السلع من عدن فكان يتم عن طريقين برى وبحرى ، أما البرى
فكان مخصصا لنقل السلع الخفيفة الى مكة التى كانت مركزا من مراكز تجارة
الشرق ، والواردة بطريق البر من عدن والشام ، ومن ثم تحملها القوافل
الى جدة والشام ، أما الطريق البحرى فكان مخصصا للسلع الثقيلة التى ما أن
تصل الى جدة حتى تنقل عبر قوارب كانت بمثابة واسطة النقل من جدة لموانئ
القصير والسويس والطور وهى بوابات مصر التجارية على البحر الأحمر ، ومن
القصير والسويس تولت قوافل الجمال حمل بضائع الشرق الى مدينة قوص على النيل
فى مصر العليا ، حيث كانت القوارب النهرية تتولى السير بها الى القاهرة
والاسكندرية ، أما البضائع التى تصل الى القلزم فكانت تنقل برا الى القاهرة
ومن هناك تسير القوافل محاذية للنهر حتى الاسكندرية ورشيد ودمياط (٢) ،
ومن أيلة كانت القوافل تتطلق الى سواحل الشام ، وما أن تصل بضائع
الشرق الى سواحل الدولة المملوكية فى مصر والشام حتى تكتظ مدنها وسواحلها
بمختلف الجنسيات من تجار شرق البحر الأبيض المتوسط وقرية ، ومن بلاد
المغرب العربى ومن بلاد السودان وبلاد أرمينيا ، حاملين معهم ما تحتاجه
بلادهم ، وتاركين ما أحضروه من منتجات سواحل البحر الأبيض المتوسط وأوروبا
بحيث تأخذ بضائعهم نفس الطريق عائدة الى الشرق الأوسط والمحيط
الهندي .

(١) محمد كامل المحامى : اليمن شماله وجنوبه ١٩٨ - دار بيروت للطباعة
والنشر ١٩٦٨م .

(٢) د . عزيز سوريال عطيه : العلاقات بين الشرق والغرب ١٦٤ ، ١٦٥ .

— Angelo Pesce : Jiddah 63.

من خلال هذا الاستعراض نستطيع أن نلمس مدى ما كانت تجنيه مصر المملوكية وأمرأء سواحل البحر الأحمر من مرور هذه التجارة فى أراضيهم ذهابا وإيابا ، ففى عدن مثلا كان مقدار ما يجمع من ضرائب على التجارة ما مقداره أربع خزائن على لغة ذلك العصر ، وهى خزائن قدوم المراكب ، وكل خزنة من هذه الخزائن يكون مبلغها مائة وخمسين ألف دينار . (١)

أما جدة والتي كانت تعتبر المستودع العظيم لمتاجر الهند فقد كان يصلها سنويا ما يقرب من مائة سفينة ، هذا بخلاف مراكب الجمال التى تصلها من مكة لتفريغ حمولتها بحيث لم يقل مجموع الرسوم سنويا عن ٢٠٠٠ ر ٢٠٠ دينار (٢) ، وهذا أحدث بدوره تغييرا كبيرا فى مواردها وفى تركيبها الاجتماعى حيث عمرت بجاليات كبيرة من الفرس والحضارم والهنود والبخاريين الذين شكلوا ثلث سكانها تقريبا ، كذلك انتشرت بها المساجد والآبار والمطاهى نتيجة ازدياد مواردها . (٣)

أما مكة فلم تقل كذلك أهمية إذ كان يصلها فى موسم الحج ما لا يقل عن ٨٠٠٠٠ رجل تأخذ طريقها الى جدة كما ذكرنا سابقا ، وتأخذ قوافل

(١) أبى مخرمة ، أبى محمد عبد الله : تاريخ ثغر عدن ج ١ ص ٦٥ —
ليدن ، ١٩٣٦ م

(٢) توفيق سلطان البيوزيكى : تاريخ تجارة مصر البحرية فى العصر المماليكى ٨٢
مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر ، جامعة الموصل ، ١٣٩٥ هـ
— ١٩٧٥ م

— د . نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ١٣٩ — ١٤٠ .

(٣) على بن حسين السليمان : العلاقات الحجازية المصرية زمن سلاطين
المالِك ٢٠٢ .

الشركة المتحدة للنشر والتوزيع ، القاهرة ١٣٩٣ هـ — ١٩٧٣ م

أخرى طريقها الى الشام حيث تعود محملة بسلع الشام والغرب الأوربي الى عدن ، لتأخذ طريقها الى الهند مما أعطاها مركزا مهما في البحر الأحمر الى جانب أهميتها كمدينة مقدسة تحج اليها جموع الحجيج من العالم الاسلامي .

والى الشمال من جدة اشتهر ميناء ينبع نتيجة مرور بضائع الشرق ولم تقل مكوسه عن ٣٠ ألف دينار ، وهو أمر ساعد على انتشار العمائر والأسواق (١) ، وتبعاً لذلك نشطت المدينة المنورة نشاطاً ملحوظاً حيث اكتظت بالسكان والتجار واشتهرت بما يوردها من بلاد الهند وفارس وسورية من كميات كبيرة من الجواهر والأفاوية والمنسوجات القطنية والحريرية ، وكانت المطور تباع بالجملة تحت قباب المسجد النبوي ، بينما تباع الجواهر بالقرب من بابها . (٢)

شاركت موانئ الحبشة كذلك العرب في ذلك الرخاء الاقتصادي فاشتهرت ببررة بكثرة المعادن واللؤلؤ ، ولم يقل عدد المترددين على أسواقها من التجار في مواسم التجارة عن ١٥ ألف شخص (٣) ، أما زيلع فقد اشتهرت بكونها حلقة اتصال ما بين ساحل البحر الأحمر وداخل الحبشة بسبب

(١) توفيق سلطان اليوزنكي : تاريخ تجارة مصر البحرية في العصر المماليكي ٨٢٠

(٢) جاكليين بيرين : اكتشاف جزيرة العرب ٤٤٠

ترجمة قدرى القلمجي ، دار الكاتب العربي ، بيروت .

(٣) د . نعيم زكي فهمي : طرق التجارة الدولية ١٤٢٠

(١) تميزها بتصدير منتجات البلاد الأفريقية الداخلية .

أما السواحل المملوكية فقد اشتهر من موانئها الاسكندرية ودمشق وحلب والفرما ورشيد ودمياط ، ويجب أن نشير هنا الى أن جميع المكوس التي كان يجمعها الممالك من تلك الموانئ السابقة الذكر لم تكن من صنمهم وانما كان بعضها موروثا من سنين سابقة وبعضها مستحدث في أيامهم (٢) ، على أنه يؤخذ على الممالك سياسة الاحتكار التي طبقوها على التجار الكارمية (٣) وعلى أنواع من البضائع لم تكن تباع الا في مخازنهم ومستودعاتهم بالأسعار التي يفرضونها (٤) ، ومجرد وصول السفن الى موانئ مصر على البحر الأبيض المتوسط كانوا يقومون قهلا عمل أى شىء بجباية رسوم مقررة تشمل جزية الرأس ،

(١) ابراهيم حسن : الامام أحمد بن ابراهيم القرن ٧٥ ، رسالة ماجستير (لم تنشر) جامعة القاهرة .

(٢) توفيق اليوزكى : تاريخ تجارة مصر البحرية في العصر المماليكى ١١٠

(٣) الكارمية فئة من كبار التجار الذين اشتغلوا باحتكار تجارة الهند والشرق الأقصى في التوابل وما اليها من بهار وفيه من البضاعة ، ويرجع احتكار هذه التجارة بيد جماعات من كبار المشتغلين بهذه التجارة الى سبب رئيسى ، وهوانه بالنسبة للظروف التي كانت قائمة في ذلك الوقت لم يكن من اليسير حصول التاجر الصغير على بضاعته الا عن يد جماعة لها رأس مال كبير ، واستمروا على ذلك حتى نقلها الى الدولة السلطان الأشرف برسباى .

— الشاطر بصلى عبد الجليل : الكارمية ٢١٧ ، ٢١٨ .

مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد الثالث عشر القاهرة ، ١٩٦٢م .

(٤) ستانلى لينبول : سيرة القاهرة ٢٢١ .

— ترجمة حسن لـ ^{ابراهيم} ~~ابراهيم~~ حسن وآخرون .

وهى دوكتان للرأس وخمسة اذا كان من الحجاج ، ثم رسم دخول يساوى ٢% من قيمة السلع المحمولة ، اضافة الى ١٠% للجمرك من قيمة السلع (١) ، أما البضائع التى تصل الى السويس من جدة لتصديرها الى أوروبا فيدفع المورد عنها فى السويس ٥% من قيمتها نقدا حتى يصح له بنقلها الى القاهرة ، وما أن تصل الى الاسكندرية حتى يدفع البائع والمشتري كل منهما ٥% من ثمنها ضريبة وعلى صاحب السفينة كذلك دفع ٥% للتصديق على ابحارها . (٢)

أما فى الشام فقد احتلت دمشق المرتبة الثانية بعد القاهرة فهى فى نفس الوقت مركز نائب السلطنة وهى مركز الشام الاقتصادى ، وتستودع تجارة آسيا الى أوروبا ، وكان يتجمع بها سنويا ما يقرب من ١٥٠٠٠٠ رجل محملة بالسلع الشرقية (٣) ، وبلغ من شهرة موانئ بيروت والاسكندرية قبيل الخسوف البرتغالى أن أسواقهما كانت تكتظ بالتوابع لدرجة أن سفن البندقية كانت لا تملك من المال ما تحتاج به كل المخزون من التوابع (٤) ، وفى عام ١٤٩٧م حملت سفن الهندية من الاسكندرية ما قيمته ٣٠٠٠٠٠٠ دوكات ، ومن بيروت ما قيمته ٦٠٠٠٠٠ دوك (٥) ، وهذا بدوره أوجد مصادر خيالية

-
- (١) د . نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ٣١٤ .
 - (٢) على التاجر : الريان أحمد بن ماجد — دفاع وتقييم ٢٨٣ ، مجلة الحرب ، الجزء الثالث ، السنة الخامسة ، رمضان ١٣٩٠ هـ ، نوفمبر ١٩٧٠م .
 - (٣) د . نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ١٤٧ ، ١٤٨ .
 - (٤) شارل ديبل : البندقية جمهورية أرستقراطية ١٥١ .
 - ترجمة د . أحمد عزت عبد الكريم ، د . توفيق اسكندر ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٤٧م .
 - (٥) د . نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ١٩٤ .

للممالك لشراوتهم ، ففي الاسكندرية مثلا بلغت ضرائبها في بعض السنين ما يقرب من ٢٥٠,٠٠٠ ر. (١) ، هذا بخلاف الموانئ الممتدة على طول سواحل مصر والشام ، أما القاهرة فالى جانب تلك الثروات الضخمة التى كانت تجمع فقط من وصول بضائع البحر الأحمر اليها اضافة الى بضائع البحر الأبيض المتوسط ، فقد بلغ مقدار ما يجمع من التجار والباعة الصغار سنويا نحو ستة وسبعين ألف دينار يجمعها محتسب القاهرة (٢) ، ولم يقتصر نشاط مصر فقط على امتياز مرور تجارة الشرق والغرب بها ، وانما عملت أيضا على تصدير ما تنتجه أرضها من منتجات زراعية ، وكافة أنواع الملابس الحريرية والقطنية والبلسان (٣) حتى لقد بلغ مقدار ما يجمع من تصدير تلك الأقمشة عن طريق ميناء دمياط ألف دينار يوميا (٤) .

لهذا لم يكن من الغريب أن تزداد القاهرة ازدهارا لم تشهد من قبل تجلت في تلك الأيام التى عاشها سلاطين القاهرة فى رفاة وترف ، جعلتهم يخلدون ذكراهم فى قصور ومساجد وقلاع مازالت تعبر عن قوتهم وعظمتهم الى يومنا هذا .

-
- (١) د . نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ٣١٢ . (قدر البرتغاليون قيمة دخل الاسكندرية من الضرائب الجمركية بسبعة ملايين ونصف مليون كروسانوس ذهبا أى بحوالى ٩٠٠,٠٠٠ جنيه .
- (٢) توفيق اليوزيكى : تاريخ تجارة مصر البحرية فى العصر المماليكى ١١٠ .
- (٣) من العقاقير الطبية الشرقية التى نالت شهرة عظيمة فى العصور الوسطى فى الشرق والغرب ، وكان ملوك أوروبا يحرضون على شرائه من مصر لأنه لا يتم عندهم التنصير الا بعد وضع شئ من دهن البلسان فى ماء المعمودية وينغمسون فيه . واشتهرت حدائق المدرية فى ذلك الوقت بكثرة زراعة أشجاره .

- د . نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ٢٠٦ الى ٢٠٩ .
- (٤) توفيق اليوزيكى : تاريخ تجارة مصر البحرية فى العصر المماليكى ٨٠٦ و ٧٩ .

ولم يقتصر ذلك الشراء على السلاطين وحدهم به ، فقد اشترك معهم سكان القاهرة (١) ، فالأهالى كانوا ينتفعون من دورهم كوسيط فى المبادلات التجارية ، وعملوا فى نقل البضائع وتقديم خدمات للتجار ، كالفنادق والأطعمة والمشروبات (٢) ، وبلغت القاهرة من شدة الشراء أنها ضمت تجارا أثرياء بلغت ثروتهم ما يقرب من مليونى قطعة ذهبية (٣) ، ومن هنا نفهم سر اندفاع البرتغاليين الى منابع هذه الثروة التى ستحقق لهم دون شك غرضين اثنين لا غنى لهم عنهما وهما الاستيلاء على هذه المنابع الغنية مما يؤدى الى انهيار قوة الدولة المملوكية ، وهذا بالتالى يساعدهم على تحقيق أهدافهم الصليبية وهو ما سوف نشاهده فى الصفحات التالية ، وشهدت سواحل غرب البحر الأبيض المتوسط فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى صواعا صليبية اسلاميا اتسم بطابع جديد ، حيث انتقلت المواجهة فيه من البر الى البحر ، ونتج عنه قيام الطرفين بشن الغارات البحرية على بعضهما البعض وهو ما يسمى عند الأوربيين بالقرصنة ، والواقع أن ما كان يقوم به المسلمون لا يمكن أن نسميه بالقرصنة وإنما بحركة جهاد اسلامى تتطلبه

(١) كانت القاهرة فى ذلك الوقت منظمة تنظيميا دقيقا لخدمة التجار والتجارة ، حيث توفرت فيها المبانى الخاصة لاقامة التجار (وكالة) وكذلك مبانى خاصة لخزن البضائع .

— جاستون فييت : القاهرة مدينة الفن والتجارة ١٩٦٠ .

ترجمة د . مصطفى الحبادى ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٩٦٨ م .

(٢) توفيق اليوزكى : تاريخ تجارة مصر البحرية فى العصر الممالكى ١٢٢٠ .

(٣) د . نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ١٢٩٠ .

الأوضاع الجديدة هناك ^(١) ، ونتيجة لاضطراب العلاقات البحرية والتجارية المنظمة بين دول المغرب والدول النصرانية ^(٢) ، كذلك رغبة الأسبان في تحرير أنفسهم من خوفهم من فتح جديد للأندلس ، ومن هنا فانه لا يمكن تفسير ما قام به المسلمون الا أنه رد فعل لما قام به سكان شبه الجزيرة الآيبيرية من اضطهادهم واجبارهم على قبول التعميد والدخول في المسيحية ، الأمر الذي قوبل بالمقاومة من قبل مسلمي شبه الجزيرة الآيبيرية ، واضطر أعدادا كبيرة منهم الى الهروب بدينهم ^(٣) .

كانت الأوضاع في غرب البحر الأبيض المتوسط ملائمة لنشاط حركة الجهاد الاسلامي لأن أسبانيا كانت ترى أن أهم ما يربط ممتلكاتها الساحلية هو ضرورة وجود سلسلة من القواعد البحرية الساحلية حتى تتمكن من التحكم والسيطرة ، الأمر الذي أدى الى قيام المجاهدين بمهاجمة موانئ هذه

(١) ان كلمة قرصنة دخيلة على العربية لا يوجد لها مرادف في اللغة وربما استعملت في القرن التاسع الهجري ، وهي مشتقة من كورسة بالاطاليسية وكورس بالفرنسية أو من كلمة Coursaires أى التسابق البحري والواقع ان اتهم سكان شمال افريقية بالقرصنة كان أمر متأخرا وربما لا يعود الى أبعد من القرن التاسع عشر الميلادي ولكن هذا الوصف امتد الى العصور السابقة عن جهل وسوء قصد .

— عبد الحميد بن أبي زيان بن اشنمو : دخول الأتراك العثمانيين الى الجزائر ١٩٠٠ مطابع الجيش الشعبية ، الجزائر ، ١٣٩٢ هـ — ١٩٧٢ م .

— د . زاهور ياض : شمال افريقية في العصر الحديث ٥٧٠ مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٧ م .

(٢) محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين ج ٣ ، ٤٨٤٠ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ١٣٨٦ هـ — ١٩٦٦ م .

(٣) د . جلال يحيى : المغرب الكبير ج ٣ ١٩٠٠ الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٦ م .

السواحل باستمرار ومحاولة الحاق الضرر بسفقتها واقتصادها^(١) ، كذلك كان جبل طارق يمثل نقطة التقاء تجارة البحر الأبيض المتوسط وتجارة بحر الشمال بحيث كان ذلك ميدانا هام لتكثيف حركة الجهاد ، وقد تمكن هؤلاء المجاهدين في بعض السنوات من اقفال طريق الملاحة في جبل طارق ، ومنعوا سفن جنوا من الوصول الى الاراضى المنخفضة في شمال أوروبا^(٢) .

وقد تكونت نتيجة ذلك مجموعة من المراكز البحرية من جربة الى مراكش ، شملت تونس ، بنزرت ، بجاية ، الجزائر ، وهوان ، سلا ، الرباط ، وجمهزت كل مجموعة أسطول خاص بها للتجول في البحر الأبيض المتوسط ، حيث وجهوا اهتمامهم نحو تخريب ممتلكات العدو وسبى ما استطاعوا من رجال ونساء ومد يد العون والمساندة للمكومين من مسلمى الأندلس^(٣) .

وكان تركيز معظم المجاهدين على السفن التى تسير فى البحر ، فكانوا يهاجمونها ويقتلون من يقاومهم ، أما الأسرى فكانوا ينقلون الى الموانئ لهدء عملية اقتنائهم ، حيث وضعوا لاطلاق سراهم أسعارا محددة ، وساعدهم على ذلك أن سفنهم كانت صغيرة ، وهذا أعطاهم سهولة فى الحركة^(٤) .

(١) د . نور الدين حاطوم : تاريخ عصر النهضة الأوربية ج ٣ ٣٦٠ . دار الفكر الحديث ، بيروت ، ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٨ م .

(٢) جورج لوفران : تاريخ التجارة ٤٥٠ . ترجمة : هاشم الحسينى ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت .

- د . جلال يحيى : الاستعمار والاستغلال والتخلف ١٧٨ . الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٥ م .

(٣) أحمد توفيق المدنى : حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا ٧٤ .

- د . شوقي الجمل : المغرب العربى الكبير فى العصر الحديث ٧٩ .

(٤) د . زاهر رياض : شمال افريقية فى العصر الحديث ٦٩ ، ٧٠ .

إضافة الى ذلك فإن شواطئ المغرب كانت بطبيعتها وعرة وكانت للموانئ^(١) تحميها الصخور العالية مما منحهم حصونا طبيعية قوية لممارسة حركة الجهاد ، بحيث تسود المجاهدين البحر في جميع أوقات السنة ولم يعباؤا بالسفن المسيحية الضخمة . لهذا لم يكن من الخريب أن تحدث هذه الفارات الذعر والاضطراب في صفوف الأسبان والبرتغاليين ، ولم يحط هؤلاء أية فرصة لتنظيم أنفسهم للدفاع عن سواحل بلادهم ، خاصة وأن الدولتين كانتا في ظروف تحتم عليهما تأمين الطرق للاتصال بدول البحر الأبيض المتوسط ، إضافة الى تأمين طرقهم الجديدة للخروج نحو الكشف ، ولم يقف الأسبان مكتوفين الأيدي إزاء حركة الجهاد ، بل حاولوا منعها عن طريق منع بقايا العرب في الأندلس من الاقتراب من السواحل الأسبانية ، حتى لا يتصلوا باخوانهم المتجولين على طول السواحل الأسبانية ، وفي الوقت نفسه نشطت سفنهم في مهاجمة المدن والسفن المغربية في محاولة لوقف حركة الجهاد ، وعلى الرغم من أن الأسبان كانوا كثيرا ما يضلهم دعاة العرب لاجبارهم على الخروج ، فإن ذلك قد أدى الى نتائج أقوى تأثيرا من بقائهم في الأندلس ، وتجلى ذلك في انضمام الكثير منهم لحركة الجهاد واستماعة الزعماء بهم لارشادهم الى نقاط الضعف في السواحل الأسبانية^(٢) ، كما ان بعضهم كانوا من العارفين بالملاحة وفنونها والمهنيين في صناعة السفن^(٣) .

وازاء هذه الهجمات المتكررة رأى الأسبان ضرورة احتلال المواقع الحيوية والحساسة على الشواطئ المغربية لوضع حد لهذه الفارات ، فشيد الأسبان

-
- (١) محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين ج ٣ ٣٨٤ .
 (٢) المرجع السابق ، نفس الجزء ٣٨٥ .
 — د . صلاح العقاد : المغرب العربي ١٦ .
 (٣) أحمد توفيق المدني : حرب الثلاثمائة سنة بين اسبانيا والجزائر ٧٤ .

حصونا سموها بنيون Pegnon أى الصخرة ، أو طورى Torre
أى البرج فى بعض المدن المخربية (١) ، وهذا بالتالى ما نقل الصراع
الى فترة أخرى تميزت بدخول الأتراك العثمانيين كقوة لها اعتبارها ضد
الاسبان .

لعبت المدن الإيطالية دورا تجاريا هاما فى أوروبا نتيجة قرب موقعها
من مخارج تجارة الهند فى مصر والشام ، ولأنها تقع فى جنوب أوروبا التى
توجد عندها المنافذ البرية التى تسير فيها التجارة من جنوب أوروبا الى وسطها
وشمالها ، وازافة الى الموقع فقد تميزت بأنها كانت تحتكر أنواعا من
السلع يصعب على الأوربيين الحصول عليها لبعدها مصدرها ، فالتوابل كانت
فى أوروبا فى المرتبة الأولى نظرا لاعتبارها من الوسائل المفيدة للصحة
والطعام ، وكانت أوروبا فى فصلى الخريف والشتاء تلقى صعوبة فى سبيل توفير
الأغلاف اللازمة للماشية ، لهذا كان الأوربيين يضطرون الى ذبح الماشية
للاحتفاظ بلحومها طوال الشتاء ، ولما كانت الثلجات لم تخترع بعد ،
فقد كانوا يلجأون الى تمليح وتتبيل اللحوم حتى تظل صالحة للأكل أطول
فترة ممكنة (٢) ، أما القرنفل والكافور فقد كانا لهما أهمية عند الصيادلة
لاستخدامه فى الأدوية الطبية والمراهم ، ودرج الكثيرون على كتابة عبارات مثل
" وارد من بلاد الهند " أو " وارد من بلاد العرب " على زجاجات
الأدوية (٣) ، ولا نستطيع أن ننسى كذلك البخور ومدى غرام الأوربيين به ،
وحاجة الكنائس له عند اقامة الصلوات والاحتفالات الدينية .

-
- (١) عبد الحميد أشنهو : دخول الأتراك العثمانيين الى الجزائر ٢٠ .
(٢) على التاجر : الريان أحمد بن ماجد — دفاع وتقييم ٢٨٥ . مجلة
العرب . الجزء الثالث . السنة الخامسة . رمضان ١٣٩٠ هـ / نوفمبر ١٩٧٠ م
— سونيا .ى . هاو : فى طلب التوابل ٤٥ .
(٣) د . عبد العزيز الشناوى : أوروبا فى مطلع العصور الحديثة ٨٤ .
— سونيا .ى . هاو : فى طلب التوابل ٢١ .

لهذا لم يكن من الخريب أن تكون للتوابل مكانة تعادل القوة الشرائية في أى بلد أوروبى ، مما جعل فى امكانية أى عبد شراء خريته بحمل من الفلفل كما أقدمت كثير من المائلات على قبول الفلفل كمهر لابنتها فى انجلترا ، أما فى فرنسا فلم تكن الكنيسة تقبل أى عملة محلية من اليهود اذا ما رغبوا فى دفن موتاهم أو افتتاح مدارس لأبنائهم ، ولكن تقديم كميات من التوابل كانت كافية للحصول على موافقة الكنيسة على مطالبهم (١) .

ومجمل القول أن التوابل بلغت مكانة جعلت الأوروبى لا يعتبر المأدبة كاملة الا اذا احتوت على أصناف من التوابل (٢) ، ويضاف الى ذلك جميع أنواع المواد الخام التى كانت تحتاجها أوروبا فى صناعاتها المحلية مثل الصوف والقطن والأحجار الكريمة والبلسان والحاج وخيوط الحرير وغيرهما .

وكان من الطبيعى أن تلعب مدن جنوب ايطاليا نفس الدور الذى لعبه المماليك كوسطاء للتجارة ، واشتهر من تلك المدن البندقية وجنوا وبيزا وفلورنسا وميلان ، غير أن الأولى والثانية كانتا أقواهم نتيجة لسبق سيطرتهم التجارية ومواقفهم الممتازة ، غير أنه يمكن القول بأنه كان للبندقية فى القرن الخامس عشر الميلادى نفوذ سياسى وتجارى طغى على جارتها جنوا التى شب بينها وبين البنادقة الصراع من أجل احتكار التجارة قبل أن يصل البرتغاليون بفترة طويلة لدرجة أن جنوا حاولت الوصول الى مصادر هذه التجارة ، ولكنها فشلت أمام محاولاتها ، بحيث أفسحت المجال أمام البرتغاليين فيما بعد لتنفيذ هذه المهمة ، وحتى قبيل سقوط القمطنطينية كانت المدن الايطالية تعتمد فى

(١) د . نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ١٩٩٠ .

(٢) توفيق اليوزيكى : تاريخ تجارة مصر البحرية فى العصر المماليكى ٩٣٠ .

تجارتها على موانئ آسيا الصغرى ، ولكن سقوطها بأيدي الأتراك العثمانيين ١٤٥٣ م أدى الى تحويل مسارهم تجاه الموانئ السورية والمصرية (١) ، حيث وجدوا تسهيلات كبيرة بداية من عهد السلطان اينال المملوكى (٢) ، مما دعاهم الى محاولة تنمية مراكزهم التجارية وتدعيمها (٣)

وقبل أن نتكلم عن دور المدن الإيطالية كوسطاء للتجارة ، يجب أن نشير هنا الى أن سكان المدن الإيطالية وتسهيلات لعبور تجارتهم ، عمدوا الى احياء الطرق التجارية القديمة الى أوروبا عبر جبال الألب ، بالإضافة الى انشاء طرق جديدة مدعمة بالجسور والكبارى فوق الأنهار والترع ، حتى لقد أطلق على الطريق الذى يخترق شمال إيطاليا عبر جبال الألب اسما يجمع فى محناه طابعا جغرافيا اقتصاديا وهو The Economic Spine Europe أى السلسلة الفقرية الاقتصادية لأوروبا (٤) .

-
- (١) عهد سلاطين الأتراك العثمانيين عقب سقوط القسطنطينية الى قفل كافنة مكاتب ومستودعات البنادقة فى المدينة انتقاما للمساعدات التى كان يقدمها البنادقة للمدينة خلال فترة الحصار .
 - د . نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ٣٨ .
 - (٢) أحد سلاطين دولة المماليك الثانية بويج بالسلطنة فى القاهرة يوم الاثنين ثامن ربيع الأول ٨٥٧ هـ — ١٤٥٣ م ، وتوفى يوم الخامس والعشرون من جمادى الأول ٨٦٥ هـ — ١٤٦٠ م ، وكان يبلغ من العمر احدى وثمانين سنة ، حكم منها ثمانى سنوات وشهرين وستة أيام .
 - (٣) د . نور الدين حاطوم : تاريخ عصر النهضة الأوربية ج ٣ ١٤٤ ، ١٤٥ .
 - (٤) د . سعيد عاشور ، د . محمد أنيس : النهضة الأوربية فى العصور الوسطى وبداية الحديثة ٣٠٢ ، ٣٠٣ .
 - مطبعة لجنة البيان العربى ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٠ م .
 - د . السيد رجب حواز : عصر النهضة ٥٥ .
 - دار النهضة العربية ، القاهرة .

غير هذا الطريق حمل تجار المدن الإيطالية سلع الشرق منحدرين بها
الى جنوب ألمانيا بعد عبور مر Brenner سالكين نهر الراين ،
حتى تصل الى هولندا (١) ، ومنهم من يتجه بسلحته مع نهر الرون —
مرسيليا الى شمال فرنسا ووسطها حيث السوق السنوي الشهير Troye ،
هذا غير السفن التي تأخذ طريق البحر الى برشلونة حيث تتولى القوافل نقلها
الى اسبانيا (٢) .

من هذا نرى أن أهمية أية مدينة ايطالية يمكن أن ترتفع أو تنخفض بمدى
قربها أو بعدها من السلسلة الفقرية الاقتصادية لأوروبا ، وهناك عامل مهم
رافق تلك الأهمية التجارية لمدن جنوب ايطاليا ، ألا وهو ازدهار الصناعات
المحلية نظرا لوصول المواد الخام اليهم من الشرق ومشكل جعلهم يتحكمون فسى
حجز المواد اللازمة لصناعتهم ومن ثم تصدير الفائض للدول الأوربية ، وتميزت
البندقية وميلان وفلورنسا بصناعة المنسوجات الحريرية والقطنية ، وهذه كانت
بدورها تأخذ طريقها الى الشرق الحربي والشرق الأقصى كسلح مشهورة ومطلوبة
دائما ، وهذا أتاح لكثير من الطبقات الفقيرة المجال للمشاركة فى تجارة
بلادهم عن طريق عملهم كفضالين ، ونساجين وصباغين ، الأمر الذى أدى
الى ارتفاع مستوى معيشتهم (٣) . وكان من الطبيعي وقد احتلت البندقية
المركز السياسى والاقتصادى للدول الإيطالية ، أن تحتل مكانة طيبة فى مجال
الصناعة والتصدير ، الى جانب المكانة التجارية ، فهي وان كانت تعتمد

(١) د . السيد رجب حراز : عصر النهضة ٥٢ ، ٥٣ .
— سونيا .ى . هـ : فى طلب التوابل ٤٤ ، ٤٥ .

(2) Angelo Pesce: Jiddah 181.

— د . السيد رجب حراز : عصر النهضة ٥٢ ، ٥٣ .
(٣) د . جلال يحيى : الاستعمار والاستغلال والتخلف ١٧٢ .

فى نفوذها السياسى على موقعها التجارى ، الا أنها لم تغض النظر عن مدى حاجة ذلك النفوذ الى تدعيمه بوسائل استراتيجيته وحيويته فهى تملك أسطولا تجاريا ضخما يجوب موانى البحر الأبيض المتوسط ، وهى فى حاجة مستمرة الى سفن جديدة تواجه بها النهم الأوربى لبضائع الشرق ، لهذا لم يكن ممن الغريب أن نجد مواطنيها الذين لم تسعفهم أحوالهم للاشتراك فى توزيع هذه المنتجات يعملون فى مصانعها ، تلك المصانع التى اشتهرت بتصدير المصنوعات المعدنية والحاج والزجاج والبللور المشهور ، كما كان هناك ستة عشر ألفا ممن العمال يحملون فى ورش البحرية ، وكان فى استطاعتهم بناء سفينة كل يوم^(١) وهذا بدوره ما جعل للبندقية الزعامة التجارية فى وقت كانت تملك فيه أسطولا من ثلاثة آلاف ومائتى سفينة يعمل عليها ستة وثلاثين ألفا من بحارة البندقية .^(٢)

وجرت العادة أن تخرج سفن الجمهوريات الإيطالية فى أوقات معينة من السنة تجوب سواحل البحر الأبيض المتوسط ناقله الرقيق والفضيات والعسل وأحجار الكهرمان والمرجان والأسلحة والبارود والأوعية النحاسية^(٣) ، بحيث تمكن الممالك فى مصر والشام من الحصول على كافة مستلزماتهم من أسلحة وفلما ن أرقاء لخدمة الجيش والقصر السلطانى ، وفى الوقت نفسه يلتقط الإيطاليون ما تكس فى موانئها وموانى البحر الأبيض المتوسط الأخرى من بضائع عائد ون الى بلادهم حيث كان التجار يتجمعون على امتداد الموانئ الإيطالية تلهفا للشراء والبراء ، وبحلول مواسم الأسواق الكبرى ، والتى كانت تعقد فى عيد الفصح وفى شهر سبتمبر وأعياد الميلاد^(٤) ، ولعل من أهم تلك الأسواق

(١) شارل ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية ٣٥ .

— د . جلال يحيى : الاستثمار والاستغلال والتخلف ١٧٢ .

(٢) جورج لوفران : تاريخ التجارة ٤٤ ، ٤٥ .

(٣) توفيق اليوزيكى : تاريخ تجارة مصر البحرية فى العصر المماليكى ٩٥ .

(٤) شارل ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية ٣٥ .

سوق رياتو Rialto وسوق Saint Marc حيث تعقد المزادات العلنية بحضور التجار الألمان والانجليز وغيرهم (١) ، أما سكان دول شمال غربى أوروبا فكانوا يكتفون بوصول السفن الإيطالية اليهم حاملة بضائع الشرق ، التى تمر فى طريقها بانجلترا حاملة محاصيلها من القصدير والجلود وعائدة بها الى بلادها (٢) ، أما تجار وسط أوروبا وشمالها فكانوا يحملون ما يحتاجونه بالجملة ليتم توزيعه فيما بعد على الباعة الصغار والمستهلكين ، سالكين ما ذكرناه من قبل عن سلسلة جبال الألب ، وقد تحملت البندقية وجنوا الحب الأكبر فى هذه المواسم التجارية ، بينما تخصصت جنوا فى علاقاتها التجارية مع عرب شمال افريقية حاملة لهم المصنوعات الزجاجية والأسلحة والأوانى ، ومن ثم تعود محملة بالتبر والصوف والجلود والعبيد (٣) ، ويمكن القول أن البندقية قد تخصصت فى التوابل ، اذ تغادر قوافلها البحرية البلاد مرتين كل عام فى الخريف وفى شهر يناير صوب الثغور المصرية لتحمل منها بضائع تقدر حولتها بمليون بندقى ، وعائدة ^{ببضائع} تفوق فى سعرها ما جاءت به (٤) ، وحرص الايطاليون بدورهم على ضرورة بقاء هذا المورد الذى لى عن طريق ارضاء سلاطين الممالك فى مصر ، وعقد الاتفاقيات التى يتم من خلالها تحديد الأسعار بين الطرفين ، وخاصة التوابل التى كانت تأخذ فى الارتفاع التدريجى كلما أقبل القرن الخامس عشر الميلادى على نهايته ، وكان ذلك أمر مفروغ منه ، فأوربا تحتاج التوابل ومصر هى المصدر الأساسى لها ، وحتى تسير الأمور بطبيعتها حرصت الجمهوريات الإيطالية أن يكون لها ممثلين فى بلاط السلطان المملوكى

-
- (١) د . محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ٥٣ .
 — د . عبد العزيز الشناوى : أوروبا فى مطلع العصور الحديثة ٨٥ .
 (٢) د . نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ١١٢ .
 (٣) د . جلال يحيى : الاستعمار والاستغلال والتخلف ١٢٥ .
 (٤) شارل ديسل : البندقية جمهورية أرستقراطية ١٤١ ، ١٤٢ .

لتسهيل أمر حصولهم على ما تحتاجه بلادهم من توابل ، وفي الوقت نفسه رعاية مصالح تجارها المقيمين في موانئ مصر والشام ، والذين قدر عددهم مع نهاية القرن الخامس عشر الميلادي بنحو ثلاثة آلاف تاجر ، اتخذوا لأنفسهم بيوتات ووكالات تجارية ، في وقت سهل لهم فيه الممالك سبل الإقامة وحرية التنقل ، فقاموا بمهمات التسويق والشحن وحسابات الجمارك (١) ، وبلغ من تسامح سلاطين الممالك معهم أنهم كانوا أحيانا يسمحون لتجار البندقية بدخول القاهرة للبيع والشراء مميزات لهم التعامل بعملة بلادهم الذهبية التي كانت تلقى رواجا في ذلك الوقت في الشرق (٢) .

مع هذا الحال كان لابد من أن تنعم المدن الإيطالية في جومنين الترف والرخاء يصحبه حسد الدول الأوربية لهذه المكانة ، مما جعلها تفسر ذلك على أنه حصر عربي - إيطالي وبالأدق حصر بندقى - عربى يسمح لهم بالتمتع بالثروة دونهم ، ففي أواخر القرن الخامس عشر الميلادي بلغ مجموع الضرائب التي كانت تجمعها البندقية من خلال نزول السلع بأراضيها ١٨٠٠ ك جرام من الذهب ، يستثنى منها الأرباح العامة والدخل القوي للتجـار البنادقة ، لأنها كانت أضعاف نسبة الضرائب السابقة (٣) ، حتى لقد بلغ

-
- (١) د . نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ١٩٦٦ .
كان يسمح للقناصل بالاسكندرية بتحصيل ٤% من الرسوم المتحصلة لصالح القنصلية و ٢% على الوارد ومثلها على الصادر للقنصلية أيضا و ٥% لصالح القنصل نفسه .
- د . نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ٣١٨ .
- (٢) المرجع السابق ٤٦ .
- (٣) د . جلال يحيى : الاستعمار والاستغلال والتخلف ١٨٢ ، ١٨٣ .
بلغت كمية الفضة المسكوكة التي ترسلها أوروبا كل عام لمصر حوالى ٣٠٠.٠٠٠ ر دوقات سنويا .
- د . نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ٣٦٠ .

عدد الأشراف البنادقة في ذلك الوقت أكثر من ألف شريف يتراوح دخلهم السنوي بين ٢٠٠.٠٠٠ ، ٥٠٠.٠٠٠ ألف فرنك بندقى^(١) ، لهذا لم يكن من الغريب أن دول أوروبا في ذلك الوقت كانت تتفق في سبيل شراء بضائع الشرق أصناف سمرها ، ففي الوقت الذي لم يكن فيه حمل القرنفل مثلاً يزيد في سمره عن ثلاث دوكات في موطنه ، نجده قد وصل البندقية وقد وصل ثمنه الى ٢٥ دوكا قبيل نزوله في الأسواق الكبرى في إيطاليا ، وبطبيعة الحال فإن الحمل من القرنفل لن يبق على سعره حال انزاله في المزاد ، فالتجار الايطاليون ينتظرون أيضاً أرباحهم الخيالية ، هذا بخلاف التجار الذين سيتولون مهمة توصيل هذه الأحمال الى شمال ووسط أوروبا ، حيث المستهلك ، ومن هنا نستطيع أن نقول أن نظرة أوروبا تجاه هذه القضية قد انحصرت في نقطتين ، النقطة الأولى أن هناك دولاً عانت من هذا الفلاء عناءً شديداً ، وحاولت أن تبحث لها عن مخرج لهذه الأزمة فلم تجده الا مع نهاية القرن الخامس عشر الميلادي حينما حول البرتغاليون التجارة العالمية الى لشبونة ، أما النقطة ^{الثانية} الثانية فهي جسد اسبانيا والبرتغال المدن الايطالية على تلك المكانة التجارية وقد وجدت مخرجاً بوصولها الى قاليقوت ٩٠٤ هـ - ١٤٩٨ م وكان من الضروري أن يشمر البرتغاليون قبل غيرهم بفداحة الأسعار والرسوم خاصة وأنها كانت بعيدة كل البعد عن الأسواق الايطالية ، اضافة الى ذلك فان وصولها قاليقوت كان يعنى بالنسبة لها الانتقام من أشد أعدائها المسلمين بحرمانهم من أرباح هذه التجارة ، بل وتطويرهم من الجنوب ، وكان مطلع القرن السادس عشر الميلادي بمثابة انقلاب هائل في طرق التجارة العالمية فالبرتغاليون عبروا رأس الرجاء الصالح وتمكوا من تحويل الطرق التجارية عن طريقه ، وبدأت الأسواق الأوربية تذخر ببضائع الشرق الرخيصة الثمن عن طريق لشبونة فقسطنطار الفلفل الذي يباع بالاسكندرية بـ ٨٠ دوكا عرضته البرتغال في أسواقها بـ ٤٠ دوكا ، وبذلك تمكن الأوربي من

(١) شارل ديسل : البندقية جمهورية أرستقراطية ٦٥ .

الحصول على ما يحتاجه ببيع الثمن الذى كان يبيع به الايطالى (١).

وأصبحت أسواق مصر كاسدة وعادت سفن البندقية ١٠٨ هـ - ١٥٠٢ م
وهى لا تكاد تحمل نصف شحنتها ، وبعد أن كانت السفن الايطالية تسور
مصر سنويا لعدة مرات أصبحت الآن تزورها مرة كل سنتين (٢).

وتبدأ سلسلة المحاولات البرتغالية للدوران حول افريقية باستقرارهم
فى مدينة سبتة ٨١٨ هـ - ١٤١٥ م ، ويجب أن نشير هنا الى أن هذا
الاستيلاء قد حمل بين جنباة عوامل صليبية صريحة نبعت وسط ذلك
الجو المحادى للاسلام والمسلمين فى شبه الجزيرة الايبيرية ، فحملته
الأمير هنرى الملاح التى استولى بها على سبتة كانت حملة صليبية بمعناها
الصحيح وان تعددت الأهداف والأغراض ، فهى حملة صليبية لعوامل ثلاث ،
أولا لأنها امتداد لحملاتهم الاستردادية بدليل أن الذى تولى قيادتها
أى الأمير هنرى هو صليبي متعصب ، نشأ وسط أسرة لم تعرف لها
عدو على وجه الأرض أكثر من الاسلام ، بحيث غدت الأمير هنرى منذ
طفولته بلبان تصوف دينى مسيحي عسكرى يخالطه بغض مريب للاسلام (٣).

أما العامل الثانى فكان الهدف منه شطر المخرب الاسلامى - عقب
الاستيلاء على سبتة - الى شطرين ، مما يحطيهم الفرصة لاجتياحهم

(١) د . ابراهيم على طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ٢١٣ .
مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٠ م .

(٢) د . أحمد السيد دراج : المماليك والفرنج فى القرن التاسع الهجرى
١٠٩٩ .

- شارل ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية ١٤٦٠ .

(٣) ك . م . بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ٢٥٠ .

بعد تأمين قاعدتهم في سبته التي تتيح لهم حرية الزحف على امتداد سواحل المغرب الشرقية والغربية (١) ، وفي الوقت نفسه فهي قريبة من البرتغال لتلقى الامدادات .

أما العامل الثالث فيمكن في أن موقع سبته سيتحقق دون شك للبرتغال فائدة اقتصادية عن طريق الاشتراك في تجارة غرب افريقية مما يوفر الأموال اللازمة لبناء قوتها ، وبالتالي تجنيد هذه القوة في حرسها ضد المسلمين (٢) .

وباستقرار الأمير هنري في سبته طرأت أمور جديدة جعلته يسرع في اعداد نفسه لمهمة مهاجمة العالم الاسلامي من جنوبه ، بعد أن سمع وشاهد بنفسه سر قوة المسلمين من خلال تجوله في أسواق سبته ، واطلاعه على الفنائم التي سلبها جنده من الأسواق ، فبهرته هذه الكوز التي كانت تحملها القوافل من الشرق الأقصى والهند ، عبر مناطق كانت مجهولة بالنسبة له وهذا مما أثار الحقد في نفسه على العرب لتمتعهم بهذا الموقع التجاري ،

(١) د . صلاح العقاد : المغرب العربي ١٤ .

كان الأمير هنري يرى أن الوصول الى مصادر تجارة التوابل التي هي المصدر الرئيسي لقوة المسلمين يحتم عليه الاستيلاء على شمال افريقية وحتى يضعف شمال افريقية قرر أن الاستيلاء على المدن الساحلية والداخلية سوف تؤدي الى استنزاف مصادر قوة البلاد الاسلامية في شمال افريقية بحيث تعجز عن مقاومته .

— د . شوقي الجمل : المغرب العربي الكبير في العصر الحديث ٤٣ .

(٢) د . محمد عبد اللطيف البحراوي : فتح العثمانيين عدن ٥٦ ، ٥٧ .

(٣) على التاجر : الريان أحمد بن ماجد — دفاع وتقييم ٢٩٤ .

— مجلة العرب ، الجزء الثالث ، السنة الخامسة ، رمضان ١٣٩٠ هـ ، نوفمبر ١٩٧٠ م .

وحياة الرفاهية التي كانوا يعيشونها من خلال الاتجار بسلع الشرق الأقصى
والهند وغاية فبيت لذلك أمرا سنراه فيما بعد .

وعندما سمح الأمير هنرى من الأسرى المغاربة والأفارقة عن قوافل
الصحراء التي تحمل الذهب من بلاد تمبكتو الى سبته ، ونظرا لعدم تمكنه
من غزوها ، بسبب الصحارى الفاصلة بينهما ، والتي لم يتعودها
البرتغاليون ، فقد صمم على ضرورة تحويل تجارتها والإشراف على أسواقها (١)
وهذا الاحتلال كان البرتغاليون قد زرعوا أول بذرة لسياستهم الاستعمارية
حيث صمم الأمير هنرى على ضرورة تنفيذ الخطة الاستراتيجية الكبرى
لتطويق العالم الاسلامى ، وحمل العالم المسيحى رأسا الى المحيط
الهندي بالاشتراك مع مملكة القديس يوحنا (٢) ، وأصبحت الخطوة
التالية لتنفيذ ذلك هو السير بمحاذاة شواطئ افريقية الغربية وكشفها ،
وكانت البداية هى محاولة الوصول الى المنطقة التى تقع جنوب جزر كناريا ومن ثم
الوصول الى رأس بوجادور Bojador الذى لم تكن أوربا تعلم عنه

(١) أ. و. بوفيل : الممالك الاسلامية فى غرب افريقية وأثرها فى تجارة الذهب
عبر الصحراء الكبرى ١٥٢ .

ترجمة د. زاهر ريلخ ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٦٨م .

(٢) يذهب الدكتور يسرى الجوهري فى كتابه " الفكر الجغرافى والكشفوف
الجغرافية " ص ١٥٨ ، الى أن القديس يوحنا انما هو مبشر
مسيحى هرب الى القارة الافريقية وعاش بها ، وأن أخذنا بصحة
الإشاعة عن القديس يوحنا فهى تخالف الواقع لأن القديس يوحنا
وكما ذكرته المراجع انما هو ملك مسيحى قوى يملك المال والعتاد ،
فلو كان مبشرا كما ذكر الدكتور يسرى لما طمح فيه ملوك أوربا خاصة
وأنه لا يملك شيئا ان كان مبشرا اضافة الى أن هروبه يعنى انه لم يستطع
أن يوفر المساعدة لنفسه فكيف يوفرها لغيره ، وانما طمخت فيه أوربا
لكونه قويا فتغصم جهودها الى جهودها لمهاجمة العالم الاسلامى .

أى شىء ، ولم تذكره كتبهم حتى ذلك الوقت ، إضافة الى عدم مرور أى ملاح
أوروبي فيه من قبل (١) ، إذ أن معلومات أوروبا عن غرب إفريقيا فى ذلك
الوقت لم تكن لتزيد عن تلك الخريطة التى كان يظهر عليها ملك زنجى يجلس
على عرش من الذهب (٢) .

ويمكن تقسيم رحلاتهم الكشفية ابتداءً من رأس بوجادور الى فترتين
الفترة الأولى وتبدأ من رأس بوجادور وتنتهى عقب وفاة الأمير هنرى بحامين
أى فى ٨٦٧ هـ — ١٤٦٢ م ، أما الفترة الثانية فتبدأ من عام ٨٧٥ هـ —
١٤٧٠ م حيث توقفت حركة الكشف لمدة ثمانى سنوات ، وانتهت بوصول
بارثليميو دياز الى رأس الرجاء الصالح ٨٩٣ هـ — ١٤٨٧ م .

ففى الفترة الأولى حدد الأمير هنرى أهدافه ، وهى الرغبة فى معرفة
ما يوجد خلف رأس بوجادور ، لأن عدم المعرفة به كان بالنسبة له
حاجزا يحول دون متابعة البحارة والتجار لمسيرتهم الاستكشافية (٣) ، ومن
ثم محاولة جمع المعلومات الكافية عن سكان تلك المناطق ، فان كانوا مسلمين
يحاول الوقوف على مدى قوتهم ، وان كانوا مسيحيين فهى فرصة تمكنه من
الاتجار معهم ، ومن ثم الاستعانة بأموالهم المسيحيين فى سبيل إمداد

(١) د . يسرى الجوهري : الفكر الجغرافى وحركة الكشف الجغرافية
١٥٧ . منشأة المحارف ، الاسكندرية .

(٢) د . شوقى الجمل : تاريخ كشف إفريقيا واستعمارها ٦٠ . مكتبة
الانجلو المصرية . القاهرة ١٩٧١ م .

(٣) سونيا . ي . هاو : فى طلب التوابل ١٠٣ .

أعداء المسيحية^(١) ، ويجب أن نشير هنا إلى أن تقدم للبرتغاليين كسلان بطيئا في البداية ، ففي ٨٢١ هـ - ١٤١٨ م تم اكتشاف جزر Madeir ماديرا ، على أنهم لم يتمكنوا من عبور رأس بوجادور Bojador إلا في ٨٣٨ هـ - ١٤٣٤ م بعد محاولات قامت بها أربع عشرة حملة نتيجة لعدم خبرتهم في الأمور الملاحية في ذلك الوقت ، ومحاكمة الرياح التجارية التي تهب من الشمال الغربي بحيث كانت تسبب لهم الكثير من المتاعب ، إضافة إلى فقر هذا الساحل من الطعام والماء^(٢) . وعبورهم لرأس بوجادور أخذت الرحلات البرتغالية طابع السرعة والاندفاع بعد ذلك ، والمجال في هذه الفترة من اكتشافاتهم طويل جدا ، غير أننا نذكر أهم تلك الأعمال التي كان لها طابع مميز في سرعة اندفاعهم نحو اكتشاف المزيد من السواحل الغربية ففي ٨٤٥ هـ - ١٤٤٢/١٤٤١ م اكتشف كل من Antonio Gonsalvez و Nuno Tristam ساحل الذهب Rio d'ouro حيث حملوا في طريق عودتهم كميات من الذهب والمبيد إلى لشبونة^(٣) ، فكان هذا بدوره مشجعا لمزيد من الاندفاع نحو

-
- (١) سونيا . ي . هاو : في طلب التوابل ١٠٣ .
يحرص الدكتور زاهر رياض كثيرا في أبحاثه وخاصة كتاب تاريخ غانة الحديث على إبعاد الروح الصليبية وأهدافها عن أعمال البرتغاليين في غرب إفريقيا بل انه يتطرق تطرفا واضحا حينما يصف أعمال البرتغاليين بأنهم يسعون إلى هداية المسلمين إلى المسيحية واصفا ذلك بأنه نصر كبير للمسيحية .
(٢) د . يسرى الجوهرى : الفكر الجغرافى والكشوف الجغرافية ١٥٨ ، ١٥٩ .
— ك . م . بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ٢٦ .

— Fage, J.D.: A History of West Africa 51

- (٣) عندما حمل الزنوج لأول مرة إلى البرتغال كانوا موضع اعتبار مزدوج إذ هم أرقاء ومشر في وقت واحد (وثنيون يمكن كسبهم وتحويلهم إلى المسيحية) أما المسلمون فيجب أن يقهروا ثم يقتلوا .
— سونيا . ي . هاو : في طلب التوابل ١٠٤ .

الجنوب ، فى وقت كانت فيه بحاثتهم التبشيرية قد اتخذت موكزها فى المناطق السابقة (١) ، وفى السنة التالية تمكن كل من

Diniz Dias

و Nuno Tristao من اكتشاف جزيرة صغيرة سميت

Cape Blanco

Arguin أرجيون تقع الى الشمال من

الرأس الأبيض ، حيث أنشأ بها البرتغاليون قلعة صغيرة تحركت منها حملاتهم نحو السودان الغربى ، طامعين فى الوصول الى منبع الذهب فى تيمبكتو - أحد أحلام الأمير هنرى الملاح - والسيطرة عليها ، لأن ذلك سيمكنهم من الانفاق على رحلات كشفية أخرى لايجاد طريق الى تجارة الهند ، ومع فشلهم عمدوا الى الجزيرة السابقة واتخذوها مركزا للقرصنة لاعتراض السفن التى قد تجول هناك دون اذن منهم ، اضافة الى أنهم جعلوا من الجزيرة مركزا لتجميع الرقيق وتصديره (٢) .

واستمرت حملاتهم الاستكشافية فيما بعد حتى سيراليون عقب وفاة الأمير هنرى الملاح بعامين أى فى ٨٦٢ هـ - ١٤٦٢ م .

تميزت الفترة الأولى ببدء معرفة أوروبا بالرقيق المستجلب من السواحل الغربية الافريقية ، ذلك أن بحارة الأمير هنرى وكوسيلة لتعويض تكاليف الحملات

(1) Races, Alien: A History of the Colonization of Africa 78 - 79.

- د . ز . هورياض : تاريخ غانة الحديث ٤٣ .

دار المعرفة ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٦١ م .

(٢) جيمس دق : الاستعمار البرتغالى فى افريقية ٣٥ .

ترجمة : الدسوقى حسنين المراكبى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة . ١٩٦٣ م

التي كانوا يخرجون بها لجأوا الى عملية اصطياد الرقيق وبيعه (١) ، كذلك شيرت هذه الفترة بلجوء بعض قادة الأمير هنرى عند فشلهم فى عبور رأس بوجادور الى شن الغارات على السواحل المغربية للفرض السابق (٢) .

اضافة الى هذا فقد استفاد البرتغاليون من هذه الرحلات ، فقد تعودوا عليها وتمرنوا من خلالها على الحروب البحرية لاسيما ضد الافريقيين ، وأصبحت سفنهم على درجة كبيرة من جودة الصناعة (٣) ، وأخيرا تحطيم بعض الخرافات القديمة والتي كانت سائدة فى أوروبا من أن بعض المخلوقات الفرية المتوحشة تحقق حركة الملاحة اذا عبرت السفن رأس بوجادور (٤) .

الثانية
أما الفترة التي تبدأ ٨٧٥ هـ — ١٤٧٠ م بعد فترة من التوقف دامت لمدة ثمان سنوات (٥) ، فقد بدأت قوية فى وقت اشتدت فيه النزعة الصليبية عقب فترة تأصلت فيها ، كذلك ازدياد معرفتهم بالساحل الغربى الافريقى ، واكتشافهم أن افريقية من الممكن أن تهى لهم موردا غنيا للرق (٦) .

(١) د . د . محمود متولى ، د . رأفت الشيخ : افريقيا فى العلاقات الدولية ٤٤ .
كان من المؤلف فى ذلك الوقت ، أن تلجأ الكنيسة الى تمويل مشاريعها الدينية عن طريق عوائد ها من تجارة الرقيق ولم يكن عليها هذا يواجه استككارا ما .

— جيمس دفى : الاستعمار البرتغالى فى افريقية ٦٢ .

(٢) سونيا . ي . هاو : فى طلب التواهل ٩٨ .

(٣) د . د . محمود متولى ، د . رأفت الشيخ : افريقيا فى العلاقات الدولية ٤٤ .
دار الثقافة للطباعة والنشر . القاهرة ١٩٧٥ م .

(٤) أ . و . بوفيل : الممالك الاسلامية فى غرب افريقية ١٤٩ .

(٥) قد يعود هذا التوقف لأحد الأمور التالية أو جميعها . وهى أولا : اضطراب أوضاع البرتغال الداخلية حينها ، ثانيا : انشغال الجالس على العرش بأمور أخرى ، ثالثا : فقد البحارة لحماستهم عقب وفاة الأمير هنرى ، رابعا : خشية البرتغاليين من تعقب الأسباب لهم .

(٦) د . د . سعيد عاشور : تاريخ أوروبا المصور الوسطى ج ١ ٥٧٠ . مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة . الطبعة الخامسة ١٩٧٢ م .

وقد استعملت هذه للفترة باكتشاف ساحل غانة وعبور خط الاستواء لأول مرة
 ٨٧٦ هـ - ١٤٧١ م حيث وصلوا إلى رأس كاترين Cape Catherine (١)
 ٨٨٠ هـ - ١٤٧٥ م وتابع البرتغاليون نشاطهم الكشفي ، ففي عام ٨٨٧ -
 ١٤٨٢ م قام Dioga Cam دياجو كام برحلة كشف فيها مصب نهر
 الكنفو ، حيث أقام عند المصب صليبا حفر عليه اسم ملك البرتغال يوحنا
 الثاني (٢) ، ونهاية عام ٨٩٠ هـ - ١٤٨٥ م وصل دياجو كام إلى Cape
 Cros كاب كروس حيث تم في هذه الفترة كشف ما يقرب من ١٤٥٠ ميل
 من الساحل الأفريقي الغربي ، وبذلك تكون البرتغال قد قربت من نقطة
 التقاء السواحل الغربية لأفريقية بسواحلها الشرقية ، وهي التي قام بارثليميو
 دياز من أجلها برحلته عام ٨٩٣ هـ - ١٤٨٧ م حيث تم له الوصول إلى أقصى
 جنوب أفريقية ، بعد معاناة شديدة مع العواصف في تلك المنطقة مما جعله
 يسميها رأس العواصف ، وكان بإمكان بارثليميو دياز إكمال رحلته لولا تمرد
 بحارته عليه (٣) ، وفي عام ٨٩٤ هـ - ١٤٨٨ م عاد إلى لشبونة بعد
 أن كشف من الساحل الأفريقي حوالي ١٢٦٠ ميلا أتمها باكتشاف ما سماه ملك

(١) د . يسرى الجوهري : الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية ١٦٠ .

(٢) د . شوقي الجمل : تاريخ كشف أفريقية واستعمارها ١٥٦ .

— سونيا . ي . هاو : في طلب التوابل ١٢٦ .

(٣) أبحر بارثليميو دياز بسفينتين حمولة كل منهما خمسون طنا ومعه ثلاثة أصغر
 منهما لحمل مؤونة ثلاثة أعوام . واصطحب معه عينات التوابل ليطلع الأهالي
 عليها في البلاد التي ينزل بها عليها تكون ما ينبت في بلادهم فيتعرفون
 عليها أو يرشدونه إلى مواطنها كما اصطحب معه عددا غير قليل من الزنوج
 ذكورا وإناثا ليترك في كل مكان جديد يكشفه جماعة منهم لينبئوا الأهالي
 عن علم وخبرة شخصية بعظمة البرتغال وليستفسروا في الوقت نفسه عن القس
 يوحنا وعن المهند .

— سونيا . ي . هاو : في طلب التوابل ١٣١ .

البرتغال تيمنا برأس الرجاء الصالح ومهدا بذلك الطريق لكي يتلمح فاسكودى
جاما طريقه نحو الشرق الافريقى (١).

وقد تميزت بداية الفترة الثانية عن السابقة بتوجه البرتغاليين الى
اكتشاف بعض المناطق الداخلية بالاتفاق مع القبائل الافريقية ، ففي ٨٨٧ هـ
— ١٤٨٢ م أنشأ البرتغاليين فى الجزء الغربى من ساحل غانا قاعدة سان
جون دى مينا ، وانطلقت الحملات البرتغالية منها متوخلة داخل القارة
ويبدو أن السبب فى ذلك راجع الى رغبتهم فى الوصول الى المحيط الهندى
تجنباً للطرق التجارية التى يسيطر عليها المسلمون ، وفى الوقت نفسه محاولة
نشر المسيحية بين القبائل الافريقية (٢).

من هذا نستطيع القول أن السواحل الغربية لافريقية لم تكن تمثل هدفاً
يسعى البرتغاليون لتحقيقه ، وإنما كانت وسيلة يصلون عن طريقها الى الهدف
الأكبر وهو تجارة المحيط الهندى ، بدليل أنهم لم يتوغلوا فى الداخل
إلا ما ذكرنا ، كذلك اقتصر نشاطهم على إقامة موانئ تصلح لرسو السفن ،
ومزودة بالقلاع والمستعمرات استعداداً للهدف المنشود .

وهنا يجب أن نشير الى ما كان للعرب من فضل على الأوربيين بصفة
عامة والبرتغاليين بصفة خاصة فى مجال البحر والملاحة ، فمن المعلوم أن معلوماً

-
- (١) د . يسرى الجوهري : الفكر الجغرافى والكشوف الجغرافية ١٦١ .
(٢) د . زاهر ريلاض : الاسلام فى أثيوبيا فى العصور الوسطى ٢٤٠ .
دار المعرفة . القاهرة . الطبعة الأولى ١٩٦٤ م .
— جيمس دفى : الاستعمار البرتغالى فى افريقية ٣٧ .

الأوربيين خلال الحصور الوسطى عن العالم تدور أو تكاد تنحصر في منطقة البحر الأبيض المتوسط بحكم موقعها الجغرافى ، أما المحيط الأطلسى والذى كان مركز ظهور البحرية البرتغالية ونقطة انطلاقها فى حركة الكشف الجغرافية ، فقد اقتصرت معلوماتهم عنه على الساحل فقط حيث مراكز الصيد الصغيرة ، أما فيما أبعد من الساحل فكانت كتبهم المليئة بالخرافات والخيال قليلة باعطائنا صورة عن مدى تأخرهم فى الاكتشافات البحرية وأنه لولا وجود العرب بين ظهرانيهم لما وصلوا الى تلك الاكتشافات ، ولم يكن هناك من دليل لمعرفة مدى تأخرهم فى علم الجغرافيا سوى انكارهم كروية الأرض وتمثيلها فى شكل رباعى أو فى شكل قرص تتوسطه الشمس وتحيط به مياه البحار الممتدة الى جدران تحمل السماء فوقها (١) .

ولم يكن للبرتغاليين أو بصفة عامة سكان شبه الجزيرة الايبيرية أى خلفيات سابقة بالخروج وارتياح البحار بدون ذلك التراث العلمى الذى تركه العرب فى أراضهم (٢) ، ففى البحر ورواده نجد مدى قيمة اهتمام المسلمين على عهد الدولة الأموية بالموانئ الغربية لشواطئ شبه الجزيرة الايبيرية ، وما أنشأوه فيها من دور للصناعات البحرية ، هذا الاهتمام ربما كان قد أدى الى ظهور محاولات من العرب لاختراق ما يقع ضمن نطاق خرافة العقلية الأوربية عن المحيط الأطلسى (بحر الظلمات) فالادريسي مثلاً فى كتابه : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، يذكر قصة عن بعض الفتيحة من لشبونة عرفوا بالمفررين ، ساروا فى بحر الظلمات الى الغرب أحد عشر يوماً ، ومن ثم الى الجنوب اثنى عشر يوماً حتى وصلوا الى إحدى

(١) محمد قاسم ، حسين حسنى : تاريخ أوروبا الحديثة ٢٩ .
(٢) لم تلبث أسبانيا عقب سقوط غرناطة ٨٩٨ هـ - ١٤٩٢ م أن قضت على مظاهر هذه الحضارة بواسطة محاكم التفتيش بعد أن كانت أسبانيا منار العلم ومرتدى طلابه فى أوروبا .

الجزر (١) ، أما ابن سعيد (٦٠٦ هـ - ١٥٠٠ م) في كتابه جغرافية الأقاليم السبعة فيذكر أن "ملاحا عربيا يدعى ابن فاطمة" دار حول إفريقيا من الغرب الى الشرق ووصف سواحل السنغال ومدغشقر (٢) .

وعلى الرغم من أن ورود هذه القصص في كتب الرحالة القدامى قد تكون بين الحقيقة والخيال في المجتمع البرتغالي مع بداية حركاتهم الاستكشافية إلا أننا لا ننكر أنها قد دفعتهم لمحاولة التجربة لاجتياز ذلك المجهول ، فتلك القصص العربية التي ورثوها ضمن تراث العرب المعلى هناك بعيدة كل البعد عما وجدوه هم بأنفسهم في كتب الكنيسة من تلك الوحوش والمخاطر التي تداهم كل من يحاول اختراق بحر الظلمات ، اذن فلا بد والأمر كذلك أن شعر البرتغاليون بمدى الفرق بين روايات الكنيسة وروايات العرب الجغرافية خاصة بعد أن لمسوا علوم العرب الأخرى ولم يجدوا أي تراث آخر يضاهي تراث العرب ، لهذا لا نستبعد القول أنه كان للتراث العربي الجغرافي أثره في تمهيد الطريق للبرتغاليين في رحلاتهم وأيضاً في نحو ترسبات العصور الوسطى عن مجاهل المحيطات ومخاطرها .

(١) د . عبد المنعم ماجد : العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ٢٥٨ ، مكتبة الجامعة العربية ، بيروت ١٩٦٦ م .

(٢) علي التاجر : الريان أحمد بن ماجد - دفاع وتقييم ٢٩٣ ، مجلة العرب ، السنة الخامسة ، رمضان ١٣٩٠ هـ ، نوفمبر ١٩٧٠ م .

ولم يكن لدى البرتغاليين قبل عام ٩٤٨ هـ - ١٥٤١ م أي خريطة ترجع أصلاً لعملهم ولكنهم عرفوا كيف يستفيدون من كتابات الرحالة الجغرافيين العرب أمثال الإدريسي وابن بطوطة ، ويذهب بعض المؤرخين إلى أن رحلة ابن بطوطة كانت المقدمة للاكتشافات الجغرافية البرتغالية ^(١) ، وليس أدل على ذلك من أن البحار البرتغالي انفانت انريكو صاحب الفتوحات المتوجة باسمه كانت وراءها الخبرة العربية التي اكتسبها في شمال إفريقيا ، وفي الوقت الذي كانت فيه سواحل المحيط الهندي وجزره مجهولة للبرتغاليين حتى أواخر القرن الخامس عشر الميلادي ، كانت تلك السواحل معروفة للعرب ، حيث ورد كثير من الوصف في كتب الجغرافيين العرب ، فالسمعودي (ت ٤٦٦ هـ) وصف ساحل الزنج (شرق إفريقيا حتى سفالة) ، أما ابن الوردي المتوفى (٧٥١ هـ - ١٣٥٠ م) فقد وصف الساحل بين رأس جرادفوي ^(٣) وموزمبيق جنوباً ^(٤) ، هذا في وقت كان العرب فيه على معرفة تامة بأوروبا عدا الأطراف الشمالية . ^(٥)

-
- (١) د . محمد عبد اللطيف البحراوي : فتح عثمانيين عدن ٥٦ .
 (٢) أحمد بن ماجد : ثلاث أزهار في معرفة البحار ٢٦٣ . تحقيق ونشر : تيودور شوموفسكي . ترجمة وتعليق : د . محمد منير مرسى .
 (٣) يقع هذا الرأس على الساحل الإفريقي المقابل لجزيرة سقطرة .
 (٤) د . أنور عبد الحليم : ابن ماجد الملاح ٤١ ، ٤٢ .
 (٥) د . محمد محمود الصياد : الجغرافيا ٣١٢ (مقال ضمن كتاب أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية ، مركز تبادل القيم الثقافية بالتعاون مع اليونسكو . الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر . القاهرة ١٩٧٠ م) .

وعلى الرغم من وصول البرتغاليين الى المحيط الهندي وسواحل المغرب
ومشرق افريقية ، فان البرتغاليين ظلوا ينهلون من نبع ثقافة المغرب
الملاحية ، وخير دليل على ذلك تلك الخريطة التى أرسلها فاسكودى جاما
عام ٩١٨ هـ - ١٥١٢ م ، وهى لملاح من الشرق موضح عليها موقع
رأس الرجاء الصالح والبحر الأحمر والخليج العربى والمسالك الملاحية الى
الصين وجزر فرموزا (١) ، كذلك يدين هذا القائد فى عملية غلق خليج عمان
وضرب الحصار على عدن الى خارطة بحرية من عمل ريان عربى يدعى عمر ،
اضافة الى من كان يحمل لديه من الربانة العرب أثناء جولاته بين الخليج
العربى والبحر الأحمر (٢) ، فحتى ذلك الوقت وقبيل وصولهم الى المحيط
الهندي ، كانت الخرائط العربية أفضل كثيرا من خرائط أوروبا التى سيطر
عليها الطابع الدينى الحافل بالأساطير دون مطابقة للواقع (٣) ، والدليل
على ذلك أنهم رفض اندفاعهم لكشف الساحل الغربى لافريقية ، لم تكن
سفنهم تستطيع محاولة الابتعاد عن الساحل أو النفوذ الى أعماق المحيط
الأطلسى بسبب عدم وجود خرائط صحيحة (٤) .

(١) أفناطيس كراتشكوفسكى : تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، القسم
الثانى ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ .

ترجمة صلاح الدين هاشم . لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة
١٩٦٥ م .

— د . أنور عبد الحليم : ابن ماجد الملاح ٣٣ .

(٢) المرجع السابق ، القسم الثانى ، ٥٦٢ ، ٥٦٣ .

— د . أنور عبد الحليم : ابن ماجد الملاح ٥٦ ، ٥٧ .

(٣) د . محمد محمود الصياد : الجغرافيا ٣٢٥ ، ٣٢٦ .

(٤) ا.ج . جى . كرامز : الجغرافيا والتجارة ١٥٣ . مقال ضمن كتاب
تراث الاسلام ، ترجمة جرجيس فتح الله المحامى ، دار الطليعة
للطباعة والنشر ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٢ م .

وهنا نقطة يجب أن نشير اليها وهي أن سكان البرتغال قد وجدوا في اليهود وسيلة لنقل علوم العرب الملاحية اليهم ، فعندما قام الاسبان بطرد اليهود من قشتالة ^(١) ، لجأ هؤلاء الى البرتغال ، ونقلوا معهم علوم العرب الملاحية والتي اشتملت على الجداول الفلكية وعلوم الموشيدات الملاحية مما كان له أثر كبير في تقدم الرحلات البرتغالية ^(٢) .

والى جانب ذلك ، يجب أن لا ننفل أمر الأدوات الملاحية ، والتي كانت تستخدم على ظهر السفن بقصد التوجيه والرصد مثل البوصلة (بيوت الأبرة) ، والتي استخدمها الشرق منذ عهدهم بالتجارة البحرية ، وكانت على شكل سمك مجوفا مصنوع من الحديد المنطس ، توضع في طبق يطفو على وجه الماء ، ويتجه اتجاهها جنوبا أو شمالا ^(٣) ، ومن الأدوات كذلك الاسطرلاب والتي بدورها كانت ذات أثر فعال في تقدم فن الملاحة البرتغالية ، ذلك أن أمة العرب فاقت غيرها من الأمم في صنع الاسطرلاب ، حتى لقد أصبح لهم في كيفية صناعة هذا الجهاز واستعماله مؤلفات كثيرة ^(٤) ، وعلى الرغم من انتقال هذه الأدوات الى أوروبا خلال

(١) كان ذلك في عام ٨٩٨ هـ - ١٤٩٢ م ، وكان عددهم ١٢٠ ألف شخص في وقت كانت غرناطة قد سقطت بأيدي الاسبان الذين أضرموا النيران في كل ما هو تراث عربي ، ولكن لجوء اليهود الى ترجمة هذه العلوم من العربية الى العبرية واحتفاظهم بأسرارها قد يفسر ذلك .

(٢) د . أنور عبد الحليم : ابن ماجد الملاح ٥٦ ، ٥٧ .

(٣) د . جورج يعقوب : أثر الشرق في الغرب خاصة في العصور الوسطى ٢٩ ترجمة د . فؤاد حسنين على .

لجنة البيان العربي ، مطبعة مصر ، القاهرة ١٩٤٦ م .

(٤) د . أنور عبد الحليم : الملاحة وعلوم البحار عند العرب ١٢٠ .

(١) الحروب الصليبية ، فان البرتغاليين لم ينجحوا في طريقة لاستعمال الأسطرلاب ، والدليل على ذلك أن فاسكودى جاما حينما خرج برحلته الأولى ١٤٩٧ م صوب الشرق ، وأثناء مروره بسواحل غرب افريقية حال تأرجح السفن دون الاستفادة من الأسطرلاب مما أدى هذا بدوره الى عدم تمكنه من قياس ارتفاع الشمس ، فاضطر الى اللجوء الى البر حتى يتمكن من استخدام الأسطرلاب (٢).

ولم تلبث الأيام أن أثبتت مدى الفرق بين الملاحة العربية والملاحة البرتغالية في المقابلة التي تمت بين فاسكودى جاما والملاح المسلم الذى قاده الى قاليقوت ، حيث أعجب الملاح البرتغالى بحديث هذا الملاح المسلم ومعلوماته الطريفة ، وخاصة عندما أطلعته على مصور لجميع شواطئ الهند كما يعرفها المسلمون ، مع خطوط العرض والطول (٣) ، ثم أخرج فاسكودى جاما للملاح المسلم اسطرلابا خشبيا كبيرا وأسطرلابات أخرى معدنية لقياس ارتفاع الشمس ، وكم كانت دهشته عندما لم يجد منه أى صيغة تعجب ، حيث أثبت له الملاح المسلم ، أن القدرة التقنية للعرب لا تقل

(١) لم تكن الحروب الصليبية الطريق الوحيد الذى انتقلت خلاله فكرة الأسطرلاب فقد شهدت قرطبة في أسبانيا عالم فلكى شهير يسمى الرزقالى Arzachel ابتكر نوعا من الأسطرلاب ، واشتهر ببراعته في صناعة الأجهزة الدقيقة ، وخير دليل على ذلك هو احتفاظ متحف مدريد ببعضها .

— جون هامرتن : تاريخ العالم ج ٥ ٧٥٩ . مكتبة النهضة المصرية . القاهرة . أشرف على ترجمته ادارة الثقافة بوزارة التربية والتعليم .

(٢) سونيا .ى . هاو : في طلب التوابل ١٨٥ .

(٣) محمد ياسين الحموى : الملاح العربى أحمد بن ماجد ٩٠٩ دمشق ١٩٤٧ م .

بحال عن البرتغال^(١) ، وقال له " ان ربانة العرب في البحر الأحمر كانوا يستعملون آلات من معدن (الشبه) بأشكال مثلثة ومربعة لقياس ارتفاع الشمس ، وخاصة النجم الذي يستهدون به غالباً في الملاحة " . وأخبره أنه وبحارة الهند يحرون مستعينين ببعض النجوم الشمالية والجنوبية^(٢) ، وأراه بعض الآلات التي يستعملها بحارة الهند ، وهي التي شاهدها فاسكو دي جاما خلال رحلته هذه ، حيث لاحظ أن السفن العربية تحمل البوصلات وخرائط بحرية وأكد على ذلك بقوله " ويحمل الربانة بوصلات لتوجيه السفن والآلات للرصد وخارطات بحرية " .^(٣)

وكان لصناعة السفن وطريقة بنائها دور ملموس أيضاً في تحسن تجهيز المراكب البرتغالية وتطويرها ، وقد نقل البرتغاليون عن العرب الشرع المثلثة والتي استخدمها كل من بارثليميو دياز وفاسكو دي جاما وكولمبس من أسبانيا^(٤) ،

(١) أحمد بن ماجد : ثلاث أزهار في معرفة البحار ٨٥ . تحقيق ونشر : تيودور شوموفسكي . ترجمة وتعليق : د . محمد منير مرسى . عالم الكتب القاهرة ، ١٩٦٩ م .

بازيل ^{دافيس} : افريقيا تحت أضواء جديدة ٢٦٣ . ترجمة : جمال أحمد ، نشر وتوزيع دار الثقافة ، بيروت .
(٢) محمد ياسين الحموي : الملاح العربي أحمد بن ماجد ٩ .
(٣) أغناطيوس كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، القسم الثاني ، ٥٦٢ ، ٥٦٣ .

(٤) جورج فضلو حوراني : العرب والملاحة في المحيط الهندي ٢٢٢ .
— ترجع أهمية هذا الشراع الى سهولة تحويل السفينة تجاه الريح من كل جانب حتى لا يضط على الشراع ويحطم الصاري .

ووصل الأمر بالبرتغاليين الى أنهم أصبحوا يضمون أنولغا من السفن ذات نظام جيد لشد قلاع السفن والتحكم فيها (١).

وختم الحديث عن فضل العرب على الملاحة البرتغالية ، هو اشارة بسيطة الى الاستعارات البحرية التي أخذها البرتغاليون عن العرب ، وهى على سبيل المثال لا الحصر مثل رأس بر Rasbec وهى على الشاطئ ، الفريى لباب المندب ، وشحر Sacl على الشاطئ ، الجنوسى للجزيرة المربية ، وجودار Guadel وهى جزر عند شط الحجاز (٢).

وتعتبر الفترة من ١٤٩٧ - ١٤٩٨ م فترة حاسمة فى تاريخ شعوب منطقة المحيط الهندى ، وسواحل العرب فى الخليج العربى والبحر الأحمر ، اذ أن أبوابها قد فتحت على سكان تلك المنطقة ، توالى منها غزوات الشعوب الأوربية ، وكما قلنا سابقا فقد كانت لرحلة بارثليميودياز ١٤٨٧ م أثرها الفعّال فى تمهيد الطريق أمام البرتغاليين للانطلاق نحو الشرق ، خاصة بعدما أبدل الملك يوحنا الثانى ما أطلقه ملاحه على النقطة التى وصل اليها برأس العواصف أو الزوابع ، فسمّاها ثفاء لا برأس الرجاء الصالح (٣) ،

(١) أحمد بن ماجد : ثلاث أزهار فى معرفة البحار ١٠ . تحقيق

ونشر : تيودور شوموفسكى ، ترجمة د . محمد مرسى .

(٢) المرجع السابق ١٤٤ .

(٣) تذهب الدكتورة سعاد ما هو فى كتابها البحرية فى مصر الاسلامية ١٢٧ الى أن فاسكودى جاما هو الذى أطلق تسمية رأس الرجاء الصالح وذلك عند مروره بالرائس فى رحلته الأولى ٩٠٣ هـ - ١٤٩٧ م .

رغم مرور عشر سنوات بين رحلتي بارثليميودياز وفاسكودي جاما الأولى
١٤٩٧ م. (١)

وقد تألفت الحملة من أربع سفن ثلاث منها تم بناؤها للحملة خصيصا ،
وكان معظم بحارتها من صحبوا بارثليميودياز الى رأس الرجاء الصالح ، وتولى
قيادتها فاسكودي جاما الذى زود بنسخة من ترجمة رحلة ابن بطوطة ، وغيره
من الرحالة العرب ، كذلك على نسخة من تقارير الجاسوس البرتغالى
دى كوفلمهام (٢) ، وقيل رحيلها بيوم واحد خطب الملك يوحنا الثانى
فى قادتها موضحا لهم أهدافهم التى تنحصر فى العمل على نشر المسيحية ،
والحصول على ثروات الشرق ضاربا لهم المثل برخاء الجمهوريات الايطالية
نتيجة ثروات الشرق (٣) ، وفى التاسع من يوليو ١٤٩٧ م أقلت حملة

(١) كان السبب فى طول المدة بين رحلتي بارثليميودياز ١٤٨٧ م وفاسكودي
جاما ١٤٩٧ م عائد الى عوامل عديدة جرت فى البرتغال منها أولا :
ارسال السفن الى المغرب ٨٩٦ هـ - ١٤٩٠ م ويبدو بسبب
الثورات الأهلية ضدهم ، ثانيا وفاة أحد أبناء ملك البرتغال Afonso
١٤٩١ م ، ثالثا : الانشغال بجماعات الجزويت التى خرجت من
أسبانيا والقتال الذى دار بينهما فى البرتغال ٨٩٨ هـ - ١٤٩٢ م ،
رابعا : خروج كولمبس فى رحلته الاستكشافية ، وأخيرا انتظار التقارير
التي وعد بارسالها دى كوفلمهام جاسوس البرتغال الى الشرق
- Baily, W. Diffie, George D. Winus: Foundation of the
Portuguese Empire 1415 - 1580 175.

(٢) على التاجر : الريان أحمد بن ماجد - دفاع وتقييم ٣٦٩ . مجلة
الحرب . الجزء الرابع . السنة الخامسة . شوال ١٣٩٠ هـ
ديسمبر ١٩٧٠ م.

(٣) المرجع السابق ٣٦٩ ، ٣٧٠ .

فاسكودى جاما (١) ، وبعد أربعة أشهر ألفت مراسيمها فى خليج سانت هيلانة جنوب افريقية بعد أن طافت برأس الرجاء الصالح (٢) ، ومن سانت هيلانة اتجه فاسكودى جاما صوب المدن الساحلية لشرق افريقيا ، ولم يخاطر فى اجتياز المحيط الهندى ، وإنما بدأ يبحث له عن دليل يقوده الى قاليقوت فزار سوفالا وقضى بها مدة (٣) ، ومنها انتقل الى موزمبيق فى الثانى من مارس من نفس السنة ، حيث قابله أهل البلاد بمظاهر السود وأكرموا مثواه هو ومن معه ظننا منهم انهم من المسلمين ، وأنهم قد جاءوا من بلاد المغرب ، وهناك سمع أنباء طيبة بأنه فى مالىندى سوف يجد مرشدا. يقود سفنه ويعبر بها المحيط الهندى . (٤)

(١) يذكر الدكتور حسن أحمد محمود فى كتابه الاسلام والثقافة العربية فى افريقية ٤٧٥ ان رحلة فاسكودى جاما كانت عام ١٤٨٧ م .

(٢) تذكر الدكتورة سعاد ماهر فى كتابها البحرية فى مصر الاسلامية ١٢٧ ، أمرا غربيا وهو " وبعد أن كابد - أى فاسكودى جاما - مصاعب جمة فى السير حوله - أى رأس الرجاء الصالح - لشدة الرياح الشرقية ، استطاع التغلب عليه بفضل خبرة دليله ابن ماجد ، ليصل الى الساحل الشرقى الأفريقى " . أى أن فاسكودى جاما استعان بالملاح المسلم ليوصله من غرب افريقيا الى ساحل شرق افريقية مع العلم ان المصادر جميعها متفقة على أن الملاح الذى استعان به فاسكودى جاما انما ليوصله الى الهند من شرق افريقية وليس من غربها كما ذكرت .

(3) Sousa, Manuel de Fariay: The Portuguese Asia or the History of the Portuguese Containing Tome 1 38, 39.

(٤) مسيو جيان (ريان) وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن شرق افريقية ٢٠٨ .

نقله الى العربية ملخصا : يوسف كمال ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٣٤٠ هـ - ١٩٢٢ م

- Diffe, Winius: Foundations of the Portuguese Empire 180.

ومن موزبيق واصل فاسكودى جاما الى يها ، ومنها الى مالندى حيث استعان برمان مسلم ليقوده الى الهند ، وهنا نقطة هامة يجب أن نشير اليها وهى محاولة معرفة الشخصية الاسلامية التى قادت فاسكودى جاما الى الهند ، هل هى شخصية عربية أم هندية أم سواحلية من شرق افريقية ، خاصة بعد ما روج المستشرقون اعتمادا على رواية النهر والى فى كتابه البرق اليماني فى الفتح العثماني من أن تلك الشخصية هو أحمد بن ماجد (١) أشهر ربابنة العرب فى ذلك الوقت على الاطلاق ، على انه هناك مجموعة من الدلائل والبحوث التى صدرت مؤخرا (٢) تنفى ذلك عن ابن ماجد ، ويمكننا تلخيص تلك الدلائل فيما يلى : من مراجعة كتاب سارجنت :

The Portuguese of the South Arabian Coast.

" البرتغاليون حول جنوب الجزيرة العربية " نلاحظ أن جميع المؤرخين الذين قام سارجنت بتحقيق مؤلفاتهم فى كتابه هذا ، والمعاصرين للغزو البرتغالى

(١) هو الشيخ شهاب الدين أحمد بن ماجد بن أبى معلق السعدى بن أبى الركائب النجدى ، وينحدر ابن ماجد نفسه من أسرة ربابنة ، فأبوه كان ربابا يلقب برمان البرين (بر الحجم وبر العرب) ولا يعرف على وجه التحقيق تاريخ ميلاد هذا الرمان ، ولا تاريخ وفاته ، غير أن الثابت أن نشاطه انحصر فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر الميلادى (أو آخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر الهجرى) .
- د . أنور عبد الحليم : الملاحه وعلوم البحار عند العرب ١٣٩٠ هـ ١٤٠٠

(٢) من أهم تلك البحوث هى الملاحه وعلوم البحار عند العرب ، للدكتور أنور عبد الحليم ، الذى أكد فى كتاب سابق له وهو " ابن ماجد الملاح " ، أن ملاح فاسكودى جاما هو ابن ماجد ، إلا أنه تراجع عن ذلك فى كتابه المذكور فى البداية ، ومن تلك البحوث أيضا ما نشره الأستاذ على التاجر تحت عنوان الرمان أحمد بن ماجد دفاع وتقييم فى مجلة العرب ، ومجموع تلك الأبحاث ستة نشرت فى أعداد متتالية ابتداء من رجب ١٣٩٠ هـ .

سنوات وصوله لم يشر أى منهم أى إشارة تدل الى أن لبن ماجد هو السننى
 قاد فاسكودى جاما الى الهند ، هذا الى جانب ابن أياس فى كتابه :
 بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، لم يشر هو أيضا الى ذلك ، رغم انه كان
 يسجل أحداث البرتغاليين فى البحر الأحمر ، اذن فكيف تمكن النهر الى من
 تسجيل ذلك وقد كتب مؤلفه هذا عقب فترة طويلة من رحلة فاسكودى جاما
 ١٤٩٧ م^(١) ، ويؤكد ذلك أيضا أن المراجع البرتغالية لم يرد ما يدل على
 أنها ذكرت أى شئ عنه أو حتى اسمه ، وان كانت كثير من الكتب تذكر لقب
 هذا الملاح من حيث مهنته وهو كانا Cana أو كاناكا^(٢) ، والكلمة
 الأخيرة نجد تفسيرها ، يخالف معناها كملاح وذلك من واقع مذكرات
 Duarte Barbosa أحد المرافقين لفاسكودى جاما

فى رحلته الأولى ، حينما يفسر طبقة الكاناكا بملبار بأن مهنتهم هي
 التجيم ، لأن كثيرا من التجار كانوا يستشيرونهم فى طالع تجارتهم ورحلاتهم ،
 وما يؤكد ذلك أن البرتغاليين عندما وصلوا الى قاليقوت ١٤٩٧ م تعرفوا على
 صديق للملاح الذى قادهم ويدعى أبو سعيد ، وسموه مونسيد ، وهو اللفظ
 الذى يستطيعون نطقه دون تحريف للاسم الأصيل ، فلو كان الأمر كذلك
 فلماذا لم يكتبوا اسم ابن ماجد ولو بتحريف بسيط كما فعلوا مع أبو سعيد ،
^(٤)

-
- (١) د . أنور عبد المليم : الملاحة وعلوم البحار عند العرب ١٣٢٠ .
 — على التاجر : الريان أحمد بن ماجد — دفاع وتقييم ٣٧٣ ، ٣٧٤ .
 مجلة العرب . الجزء الرابع . السنة الخامسة . شوال ١٣٩٠ هـ ، ديسمبر
 ١٩٧٠ م .
 (٢) المرجع السابق ، ١٢٧ .
 (٣) أفناطيوس كراتشكوفسكى : تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، القسم
 الثانى ، ٥٧٠ .
 (٤) محمد ياسين الحموى : الملاح العربى أحمد بن ماجد ١٠ .

وإذا كان النهر والى يلقى تهمة السكر الى ابن ماجد^(١) ، وأن فاسكودى جاما
تعتمد ذلك حتى يستدرجه لارشاده الى قاليقوت ، فهل من المحقول أن يعتمد
قائد مثل فاسكودى جاما على ملاح سكير يرشده الى الطريق ، كذلك لم
نعرف عن ابن ماجد انه سكر فى يوم من الأيام ولو حدث له ذلك لوجدنا لها
وصفا فى أراجيزه التى نشرها تيودور شوموفسكى ، ولكننا نجد عكس ذلك
بقوله " وينبغى انك اذا ركبنا البحر تلزم الطهارة ، فانك فى السفينة ضيف
من ضيوف البارى عز وجل فلا تغفل عن ذكره " .^(٢)

وأخيرا لو أننا أخذنا بأن أحمد بن ماجد هو الذى دل البرتغاليين
الى الهند لوجدنا نقدا شديدا له فى كتب المؤرخين فى نهاية القرن السادس
عشر الميلادى وخاصة الأتراك العثمانيين ، فحادثه مثل هذه قد جـسـرت
الخراب على العالم الاسلامى وكلفت الدولة العثمانية كثيرا من الوقت والجهد
فى سبيل طرد البرتغاليين ، فما من شك أننا كنا قد نجد لوما شديدا للعرب
وخاصة أحمد ابن ماجد ، ولكننا نجد العكس من ذلك ، فالقائد البحرى
التركى الشهير سيدى على بن حسين ، وهو من الذين أرسلتهم الدولة العثمانية
لقيادة حملاتها الى الهند ٩٦٢ هـ - ١٥٥٤ م نجده فى كتابه المحيط ،
لا يوجه أى لوم الى ابن ماجد ، وعندما يتكلم عنه يخصصه بالمدح والإطراء بل
ويصفه بأنه من أفضل ربابنة الشاطئ الهندى الغربى فى القرنين الخامس عشر

(١) لا يكتفى الغربيون بترويج اتهامات النهر والى لابن ماجد ، وإنما يلقون
بعض القصص التى لا تمت الى الواقع بصلة ، حتى ولو كان ابن ماجد هو
ملاح فاسكودى جاما ، من ذلك ما نجده فى كتاب :

Alan Villiers: The Indian ocean 1972.

من أن ابن ماجد قال لفاسكودى جاما بعد أن عرف هدفه - لملك واجد
أن الخزو والفتح ضرورة ستحمل عليها رضيت أو لم ترضى .

(٢) د . أنور عبد العظيم : الملاحة وعلوم البحار عند العرب ١٣٣٠ .

(١) والسادس عشر الميلاديين ، ويختم كلامه عنه بقوله تفعمده الله برحمته ،
نقول هذا على الرغم من الفشل الذريع الذى صادف حملته ، لدرجة أنه
لم يستطع الوصول الى القسطنطينية ، الا بعد رحلة طويلة برا من الهند
الى عاصمة دولته ، فلو كان لابن ماجد أى ضلع فى ذلك لكنا وجدنا اشارة
ما ، تدل على سخط سيدى على بن حسين على ابن ماجد أو العرب بصفة
عامة ، ولكننا لم نجد الا ما ذكرنا سابقا .

وبوصول فاسكودى جاما الى قاليقوت ١٤٩٨ م تمكنت أوروبا من تحقيق
أفراضها عن طريق البرتغاليين ، أصحاب السبق الأول فى الوصول ، وعلى
الرغم من كونهم على علم بمدى ما يملكه الشرق من خيرات تجلت فى تلك
الضرائب الباهظة التى كانوا يدفعونها ، الى جانب ذلك الشعور التقليدى
بالسيطرة على خيرات الشرق فان الدهشة لم تلبث أن أخذتهم بما شاهدوه
من خلال زيارتهم الأولى للمحيط الهندى .

كان التأثير العربى واضحا أينما حلوا فى وقت كانت فيه الأجزاء الغربية
من القارة الافريقية تعم فى بحر من الفوضى والجهل ، الأمر الذى مهد
للبرتغاليين طريق عبورهم لرأس الرجاء الصالح كما أوضحنا ، وكان هذا
بمثابة الحد الفاصل بين عالم تسوده حضارة ورخاء ، وعالم آخر ليس كذلك ،
ولم تلبث تلك الاجابة أن ظهرت عندما وجدوا أمامهم شعوبا تدين بالاسلام
وأخرى متأثرة به (٢) ، وأنهم جميعا كانوا يعيشون فى رغد من العيش لم

(١) محمد ياسين الحموى : الملاح العربى أحمد بن ماجد ١٢ ، ١٣ .

(٢) د . قيصر أديب مخول : الاسلام فى الشرق الأقصى . تعريب : د . نبيل
صبحى ، دار الحرية للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت .

تسحفهم به مفاجأة الجولة من ادراكه ، لأنهم وجدوا على شواطئ المحيط الهندي تجارة حية ونشطة ، ووجدوا على شواطئ افريقية الشرقية مدنا زاهرة وبلدانا تجارية غمرتها سفن تلك المنطقة بوابل من النشاط (١) ، حيث كانت السفن التجارية الهندية تقوم بزيارة جنوب البحر الأحمر وشرق افريقية في وقت وصلت فيه السفن الصينية حتى شواطئ جنوب الجزيرة العربية ومدن شرق افريقية (٢) ، وقام التجار العرب المسلمون بدورهم في نقل تجارة التوابل والمنسوجات والأحجار الكريمة ، في حين قاموا بالمشاركة أيضا بنقل المتاجر بين موانئ ساحل الملبار وبين هومز في الخليج العربي (٣) وكم كانت دهشة فاسكودي جاما عندما وقف أمام موزمبيق وشاهد الموانئ الصالحة لرسو السفن وشاهد سكان الساحل الافريقي الشرقي يرتدون الملابس الفاخرة ويتقلدون الخناجر بعكس سكان غرب افريقية العراة (٤) ، وشاهد بنفسه التجارة الحية التي كان يقوم بها السكان حيث يصدرون الذهب بكميات كبيرة ويستوردون بها التوابل واللؤلؤ والأحجار الكريمة (٥) ، وفي سفالة أدرك فاسكودي جاما أنه أمام عالم تجاري أوسع من عالمهم ، وأكثر ثراء ، وحتى سفنه التي حضر بها وتفتت الملاحة البرتغالية في أسلوب صنعها لم تبلغ في حجمها ضخامة سفن العرب عابرات المحيط الهندي (٦) ، وكم

(1) Coupland, R.: East Africa and its Invaders 42. Oxford 1956.

(٢) أحمد ابن ماجد : ثلاث أزهار في معرفة البحار ٩٠

تحقيق ونشر : تيودور شوموفسكى ، ترجمة محمد مرسى

(٣) د . محمود متولى ، د . رأفت الشيخ : افريقية في العلاقات الدولية ٤٧ ، ٤٨

(٤) د . السيد رجب حراز : افريقية الشرقية والاستعمار الأوربي ٨ ، ٩ ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٦٨ م

(٥) سونيا . ي . هاو : في طلب التوابل ١٩٣

(٦) د . جمال زكريا قاسم : استقرار العرب في ساحل شرق افريقية ٣١٠ ، حوليات كلية الآداب بجامعة عين شمس ، المجلد العاشر ١٩٦٧ م

كانت دهشة مبعوثه الى مالندى ، الذى تملكه العجب من رؤية المقاعد المصنوعة من العاج والذهب والأبسطة الفاخرة والحياة التى يشع منها الترف أما ممسا فقد شهبوا مبانيها بالمباني الاسبانية وتحدثوا عن نظافة بيوتها ، وتناسق طرقاتها ، وملابس رجالها ونسائها (٢) ، كذلك شاهدوا العملة النحاسية التى كان يصكها سلاطين كلوة فى دار خاصة بالصك ، وعلموا بمقدار الضرائب التى يجمعها حكام كلوة نتيجة الموقع التجارى ، ودهشوا كذلك عندما سمعوا بشهرة مالندى وممسا بمناجمها الغنية بالذهب ، وماكانوا يعمشونه من مقادير ضخمة لملكة كمباى فى الهند ، بالاضافة الى العاج والشمع (٣) ، وكذلك مقديشيو التى كانت تمتلك مصانع النسيج التى تنتج الملابس المصنوعة من وبر الجمال لتباع فى أسواق القاهرة وغيرها (٤) .

وكم كان المنظر مشيراً فى قاليقوط ، وهى تعج بالتجار العرب والهنود الذين كانوا متشربين فى كل زاوية من بلاط الحكام مستخدمين نفوذهم لابقاء تلك السيطرة بأيديهم (٥) ، ولم يكن ذلك بغريب عليها ، فقد كانت المركز الأساسى لتجارة الأفريقية اضافة الى منتجات أخرى ترد لها من

(١) د . حسن أحمد محمود : الاسلام والثقافة العربية فى افريقية ١٢٣٠ ١٢٤٠ ١٢٥٠ .

(2) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 41.

— د . حسن أحمد محمود : الاسلام والثقافة العربية فى افريقية ١٢٣٠ ١٢٤٠ ١٢٥٠ .

(٣) بلغ من ثراء سلاطين شرق افريقية ان السلطان منهم كان يخجل من اعطاء الذهب كهدية .

— د . صلاح الحقاد ، د . جمال زكريا قاسم : زنجبار ١٩٠٠ .

مجموعة الألف كتاب ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة .

(4) Roland, Oliver: A short History of Africa 99-100.

— باذل طافى : افريقية تحت أضواء جديدة ١٩٢٧ ، ١٩٢٨ .

(٥) د . قيصر أديب مخول : الاسلام فى الشرق الأقصى ١٥٥٠ .

ساحل ملبار وجزر المحيط الهادى ، وتأخذ طريقها من قاليقوت تجاه أوربا (١) ،
وليث البرتغاليون فترة طويلة فى قاليقوت ، رأوا فى خلالها تجارة غنيمة
وشاهدوا أسواقها المليئة ببضائع الشرق ، واختلطوا بالجماهير من كل صوب
وحذب من الهنود والصينيين والزنوج والملاييين والعرب والفرس (٢) ، وتعرفوا
على بضائع الشرق التى كانت تمثل أهم مطالب بلادهم وتعرفوا على أسعارها
وذكر أحد الرحالة الفلورنسيين الذى رافق فاسكودى جاما ، أن مشاهدة
مجموعة من السفن ما بين ستمائة أو سبعمائة سفينة فى وقت واحد لهو أمر عادى
لميناء قاليقوت ، حيث تتجمع بكثرة أندر أنواع التوابل والطيب والأحجار
الكرينة والجواهر (٣) .

ولم تقتصر الدهشة والاعجاب على البرتغاليين الذين حضروا الى الشرق
وانما انتقلت بوصول فاسكودى جاما الى البرتغال ٩٠٥ هـ — ١٤٩٩ م ،
عندما عرض فى بلاط الملك عمانويل الهدايا الثمينة التى أحضرها معه ،
وخاصة كتلة العنبر التى أرسلها ملك مالندى الى البلاط البرتغالى والتى لم
يشاهد أى منهم مثلها من قبل (٤) .

-
- (١) ك.م. بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ٣٦ ، ٣٧ .
(٢) ل. ج. شينى : تاريخ العالم الغربى ١٢٩ .
ترجمة : مجد الدين حفى ناصف ، دار النهضة العربية ، القاهرة .
(٣) شارل ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية ١٤٥ .
— سونيا .ى . هاو : فى طلب التوابل ٢٠٢ .
(٤) سونيا .ى . هاو : فى طلب التوابل ٢٠٥ .

وهنا فسر البرتغاليون تلك التحذيرات التي كان يتلقاها حكام شرق
افريقية من التجار العرب بعدم التعامل مع هذا الدخيل الغريب ، لقد
وصل البرتغاليون الى العمود الفقري لتلك القوة التي صدتهم وغيرهم أجيالا
طويلة ، وكان على العرب والمسلمين حكاما وتجارا أن يسمحوا لاستمرار تسلك
المنابع بأيديهم ، وأن يحموا بقاعهم المقدسة ، وكان لابد من صراع وهو
ما سنشاهده خلال الفصول القادمة .

... ..

الفصل الثاني

الصراع في البحر الأحمر قبل العصر العثماني

- أ - البرتغاليون والمحيشة .
- ب - تهديد البرتغاليين للأماكن المقدسة .
- ج - دور المماليك في الصراع .
- د - موقف إمارات الطران الإسلامي .

ان موجز العلاقات الحبشية البرتغالية وبصفة عامة الأوروبية ، قد تبلور في الأذهان نتيجة ثلاثة عوامل مهمة وهي أولا ذلك الدير الصغير في بيت القدس ، والذي كان يحج اليه الأحباش سنويا (١) ، وبدون أى شك نستطيع القول أن الرهبان الأحباش وحجاجهم لابد وأنهم كانوا يلتقون بحجاج الدول الأوروبية الأخرى ، مما أعطى للأوروبيين فكرة عامة عن وجود دولة مسيحية في جنوب مصر ، وان كانت معلوماتهم لم تكتمل حتى ذلك الوقت عن موقعها بالتحديد (٢) ، ومدى القوة التي تملكها ، وما هو الدور الذي يمكن أن تؤديه .

اذن لابد والأمر كذلك أنهم تساءلوا ، ان كانت الحبشة مسيحية وقوية ، فكيف تسنى للمسلمين أن يلعبوا ذلك الدور الضخم في التجارة الشرقية ، ولم يخطر ببالهم أن الحبشة بمجاورتها لمصر كانت تستمد قوتها الروحية خاصة من الإسكندرية ، حيث الكنيسة الأرثوذكسية (٣) راعية ما كان للمسيحية على امتداد نهر النيل حتى الحبشة ، والتي لم تستطع أن تمد الحبشة

(١) د . حسن أحمد محمود : انتشار الاسلام والثقافة العربية في افريقية ٤٤٢

(٢) ابراهيم حسن : الامام أحمد بن ابراهيم القرن ٢٩٠

(٣) د . سعيد عاشور : بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة ١١ ، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد الرابع عشر ، ١٩٦٨ م .

— في عام ٣٣٠ م دخلت المسيحية بلاد الحبشة على يد أحد رجال الدين الإسكندريين ويدعى قروفينتوس وذلك على عهد الامبراطور عيزانا الذي يعد أول ملك حبشى اعتنقها . كما رجحت بذلك بعض المراجع .
د . عبد المجيد عابدين : بين الحبشة والحرب ٣٦ ، دار الفكر العربي ، القاهرة .

فى أى يوم من الأيام بما تحتاجه من رهبان لرعاية كنيستها دون اذن من حكام مصر بعد تقديم أجود الهدايا ، وكم من اضطرابات شهدتها الحبشة نتيجة عدم سماح الممالك لأى راهب أرثوذكسى بالسفر الى الحبشة . (١) أما العامل الثانى والذى شارك فى بلورة الحلاقات الحبشية البرتغالية فهو قصة القديس يوحنا Prester John ، ذلك الذى ألهم الحماسة الصليبية طيلة القرون التى سبقت مطلع العصور الحديثة ، وأصبح الركيزة الأساسية فى سياسة البابوية تجاه العالم الاسلامى حتى تمكن البرتغاليون فيما بعد من الوصول اليه ، ويجب أن نشير هنا الى أنه مع فشل أوروبا فى الوصول اليه عن طريق مصر المملوكية التى وقفت حائلا دون وصولهم اليه عبر أراضيها ، فقد تحقق ذلك على يد البرتغاليين أصحاب السبق الأول فى الوصول اليه ، وذلك بعد انتشار أساطيلهم فى المحيط الهندى ، وهذا بدوره مما ألهم الحماسة الصليبية لدى الأبحار ، وعلى الرغم من أن العالم الأوروبى وفى مقدمته البابوية قد أقاموا بعض الاتصالات فيما حاول البعض وفشل (٢) ، إلا أننا لا نستطيع أن ننكر مدى الاهتمام البرتغالى بالحبشة ، فالدول الأوربية مثل إنجلترا وفرنسا والاستبارية فى رودس كل هؤلاء كان لهم دور فى سبيل محاولة جر الحبشة الى مسرح الحروب الصليبية ، إلا أننا لا نستطيع أن نشبه محاولاتهم تلك بالمحاولات البرتغالية المركزة والمبنيّة على أساس ضرورة ايجاد طريق اليه دون حاجة للمرور فى الأراضى الاسلامية ،

-
- (١) كان منصب البطريرك الأكبر لكنيسة الحبشة وفقا على رجال الكنيسة المصرية وكان النجاشى يرسل فى طلب البطريرك من سلطان مصر .
 — ابراهيم حسن : الامام أحمد بن ابراهيم القرين ١٠ .
 (٢) د . حسن أحمد محمود : انتشار الاسلام والثقافة العربية فى افريقية . ٤٤٣ .

لهذا لم يكن من الغريب أن يباشر البرتغاليون تلك المهمة في وقت مبكر ،
فبينما اندفعت الدول السابقة تتقدمهم البابوية في سبيل اثارة والهيب حماس
المسيحيين ضد المسلمين عن طريق الخطب الرنانة ، وتوزيع الناشير ووضع
الخطط ، كان البرتغاليون يندفعون في صمت حول السواحل الافريقية ،
آملين في تحقيق حلم زعيمهم الأمير هنرى بمقابلة القديس يوحنا ، كذلك
يجب أن نميز هنا أن هذه العلاقات قد اختلفت من حيث مضمون الهدف
المزمع تحقيقه في حال تمكن الأوربيين من الوصول الى الحبشة ، وهو كما قلنا
سابقا عائد الى عدم معرفة أوروبا بالقدرات الحبشية ، أو بالأحرى بمدى
مساهمتها في مشاريعهم ، فحتى قبيل وصل البرتغاليين الى الشرق كانت
الآمال تداعب أوروبا بعدما فشلت المحاولات الحربية في سبيل اسقاط دولة
المماليك ، ان تقوم الحبشة بمعاونتهم في سبيل شن حرب اقتصادية عن طريق
تحويل مجرى نهر النيل ، حتى تسقط الدولة المملوكية فريسة المجاعة المؤكدة
حدوثها كما صورت لهم أحلامهم^(١) ، والآن وقد وصل البرتغاليون وتجولوا
في البحر الأحمر تغيرت تلك الأحلام ، واتجهت الى محاولة اثارة الشعور
العام للمسلمين عن طريق تهديد أماكنهم المقدسة في الحجاز ، مع محاولة
تحطيم الأساطيل المصرية أو حجزها في الموانئ الجنوبية لدولة المماليك
أو الدولة العثمانية على البحر الأحمر .

وهنا مسألة يجب أن نشير اليها ، وهي أن الكثيرين من الكتاب يركزون
على أن أساس الصراع بين المسلمين والبرتغاليين إنما هو صراع اقتصادي^(٢) .

(١) د . سعيد عاشور : بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة
٤١ • المجلة المصرية للدراسات التاريخية • المجلد الرابع عشر ١٩٦٨ م .
(٢) د . زاهر رياض : استعمار افريقية ١٤ ، ١٥ • الدار القومية للطباعة
والنشر • القاهرة ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٥ م .

مستدلين على ذلك بأن الممالك كانوا يحرضون على أن يكتنوا عن التجار الأجانب مصدر ثرواتهم الى حد الحكم بالاعدام على من يحاول كشفها ، وعلى الرغم من صحة هذه الحقيقة إلا أنه يجب أن نشير الى أن الهدف الأساسي للممالك من اخفاء معالم هذا الطريق (طريق الهند التجارى) هو خوفهم من أن يصل الى الفرنج خبر هذا المسلك المسيحى ، والطرق الموصلة اليه فيقوم بينهما اتفاق تقع أضراره على مصر الاسلامية ، ولم تلبث الأيام أن أثبتت هذه الحقيقة فى عصر السلطان برسباى (١) عندما قبض جنوده على تاجر فارسى يدعى نور الدين على تبريزى اعترف بأن نجاشى الحبشة أرسله الى ملك الفرنجة يدعوه الى الانضمام اليه لسحق الاسلام ورفع لواء المسيحية بأن يفزو مصر من ناحية البحر ، فى الوقت الذى تخزوها فيه جيوش الحبشة من ناحية البر (٢) ، وعلى الرغم من محاولات مصر لمنع أى اتصال حبشى أوروبى إلا أن الفرنج كانوا على علم بمدى التطورات التى تلازم الحبشة سواء فى الداخل أو فى علاقاتها مع جارتها مصر ، وذلك عن طريق الاتصالات التى كانت تتم بين الرهبان الفرنسكان والرهبان الأقباش فى القدس (٣) .

(١) هو الملك الأشرف سيف الدين أبى النصر الدقماق وهو الثامن من ملوك الجراكسة بمصر تولى الحكم فى الثامن عشر من ربيع الثانى ٨٣٥ هـ / ١٤٣١ م وتوفى يوم السابع عشر من ذى الحجة ٨٤١ هـ / ١٤٣٧ م ، وكان عمره خمسا وسبعين سنة .

(٢) د . سعيد عاشور : بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة ٣٣ ، ٣٤ .

(٣) عانت مصر كثيرا من طائفة الرهبان الفرنسكان فى بيت المقدس ، وكذلك من تجار الفرنج بمصر والشام والذين كانوا بمثابة عيون للبابوية ينقلون اليها أسرار مصر .
أنظر :

د . أحمد السيد دراج : الممالك والفرنج فى القرن التاسع الهجرى .

أما العامل الثالث فتتوزع تلك المراسلات والزيارات التي قبض لها أن تبدأ بين الحبشة وأوربا ، وإن كانت صفة القديس يوحنا لم تتخذ طابعاً لها في الرسائل الأوربية ، ويقال بأن أول من كتب إلى القديس يوحنا هو ملك إنجلترا Henry IV هنري الخامس ، حيث غنن رسالته باسم القديس يوحنا (١) ، ولا يفوتنا أن نذكر هنا أنه كان للنصرة الصليبية مع نهاية القرن الخامس عشر الميلادي دورها الفعال في سبيل ازدياد نشاط اتصال أوربا بالحبشة قبيل وصول البرتغاليين إلى المحيط الهندي ، هذا في الوقت الذي صادف فيه ذلك هوى في نفوس الأحمش .

ويجب أن نميز هنا كذلك أن هذه الاتصالات والتي بدأتها أوربا مع الحبشة عن طريق الرهبان ، ودعاة النصرة الصليبية قد اختلفت في طبيعتها بين الدول الأوربية ، إذ نستطيع أن نميز هنا أو نصف محاولات كل من البابوية والبرتغال وأرضونة بأن محاولاتهم تلك للاتصال بالحبشة كانت دائماً تأخذ سمتين في آن واحد ، وهي العامل الاقتصادي والعامل الديني ، بعكس دول أخرى مثل إنجلترا كان العامل الاقتصادي في مقدمة اهتمامها بالقديس يوحنا .

وعندما عقد مؤتمر فلورنسا (١٤٣٩ — ١٤٤١ م) والذي شارك فيه الأحمش بارسال بعثتين دينيتين من القاهرة والقدس ، ألقى الأحمش هناك الضوء على مزيد من الأمور التي قد تؤدي إلى زيادة اهتمام أوربا بهم ، عندما أوضحوا للمجتمعين أن عقيدتهم الأرثوذكسية والعقيدة الكاثوليكية متفقتان كثيراً ما عدا في بعض النقاط ، والذين ما لبثوا أن أكدوا على ذلك

(1) The Cambridge History of Africa Vol. 3, 179.

بتأسيس دير حبشى فى سان ستفانو فى روما على عهد البابا ايو جنيسوس الرابع (١) ، وبذلك شهد القرن الخامس عشر الميلادى مع نهايته ازديادا ملحوظا فى الاتصالات ، اذ تعود بعض الحجاج الأقباط المخرج على روما عقب انتهاء مراسيم حجهم ومقابلة البابا ، ويقال بأن الوثائق البابوية تحوى ما يؤكد تقديم المعونة المالية لهؤلاء الحجاج (٢) .

ومع مطلع القرن السادس عشر الميلادى ، أصبحت الحبشة جبهة مهمة لآى عمل صليبي ضد العالم الاسلامى ، وليس معنى ذلك أنها قد هيات عدتها ، وانما كانت على استعداد لأن تشارك فى أى عملية يستهدف منها الحاق الضرر بالمسلمين ، فى وقت كانت فيه دولة المماليك تودع أيامها الأخيرة ، والبرتغاليون على أبواب المسلمين الجنوبية قوة تهدد بالوثوب .

وكان من الطبيعى أن يصل البرتغاليون قبل غيرهم الى الحبشة وأن تأخذ اتصالاتهم مع الأقباط دورا ملموسا فى الأحداث السياسية فى البحر الأحمر والمحيط الهندى ، الذى كان مسرحا لأحداث جسام لسم تهمة شواطئه من قبل ، ولم يكن وصولهم وليد الصدفة أو هو من قبيل الحظ ، وانما كانت أسسا قامت عليها أهداف تحققت عندما خرج بارثليميو دياز ١٤٨٢ م نحو اكتشاف المرحلة ما قبل الأخيرة من عبور رأس العواصف (رأس الرجاء الصالح) ، ففى تلك السنة كانت الرغبة تلح على الملك البرتغالى فى ايجاد الطريق الى الشرق بأى سرعة كانت ، اذ على الرغم من

(١) د . زاهر رياض : تاريخ اثيوبيا . ٨٠ .

مكتبة الأنجلو المصرية . القاهرة . ١٩٦٦ م .

— د . سعيد عاشور : بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة ٣٨ .

(٢) فتحي غيث : الاسلام والحبشة عبر التاريخ ١٤٦ .

مكتبة النهضة المصرية . القاهرة .

أن المحاولات البحرية كانت على أشدها ، إلا أنه رغب في محاولة اختراق العالم الاسلامي عن طريق أشخاص لهم معرفة بأحوال الشرق ، فقبيل أن يتحرك بارثليميو دياز نحو غرب افريقية ، كان ملك البرتغال قد أرسل اثنين من أتباعه وهما Frey Antonio و Man of the

House of Monterio ، للبحث عن القديس يوحنا ، وعندما وصلوا الى القدس التي أرادوا جعلها نقطة انطلاق ، لم يتمكنوا من اكمال الرحلة ، وعادا الى لشبونة مخبرين الملك انه من الصعب تنفيذ هذه المهمة دون معرفة اللغة العربية (١) ، وازاء هذا الوضع لم يجد الملك البرتغالي سوى Pero de Covillham ، وشاركه في تلك

المهمة شخص آخر يدعى Afonso de Payva ، أما الأهداف فقد تحددت كالتالي (٢) ، أولا : البحث عن مملكة القديس يوحنا ، ثانيا : البحث عن مصادر التوابل وأنواعها ، ثالثا : محاولة معرفة كيفية قيام المسلمين بنقلها وتوصيلها الى فينيسيا ، والطرق التي يسلكونها ، وقد زودهم الملك البرتغالي بخطابات توصية لملوك كافسة

(1) Diffe, Winius: The Foundations of the Portuguese Empire 163.

(٢) د . محمد عبد اللطيف البحراوي : فتح العثمانيين عدن ٥٧٠ .

(١) الأراضي المسيحية التي يمرون بها لاظمها رها اذا ما تعرضوا للمتاعب .

كانت جزيرة رودس نقطة الانطلاق للجاسوسين ، وتقاديا للمراقبة المصرية على الأجانب في الاسكندرية تظاهرا بالتجارة كغيرهم من الألسوف الذين تفحص بهم موانئ الدولة المملوكية على السواحل المصرية (٢) ، ومن القاهرة انطلق الاثنان مع جماعة من التجار العرب الى الطور ، ومن ثم الى سواكن ، وأخيرا في عدن حيث اتفقا على تقسيم المهمة فيما بينهما ، بحيث يتولى دى بايفسا البحث عن القديس يوحنا ، بينما يتولى دى كوفلهام المهمة الاقتصادية ، لهذا انطلق دى بايفسا الى الحبشة ودى كوفلهام الى الهند

(1) Francisco Alvarez: Narrative of the Portuguese Embassy to Abyssinia During the years 1520-1527 266 - 268.

- Translated From the Portuguese And Edited by Lord stanly of Alder ley. New York 1970.

هبط لشهونة بعد رحيل بعثة دى كوفلهام بفترة وجيزة (١٤٨٧م) رسول يدعى Lucas Marcos موفد من قبل النجاشي الى البابا ، فاعتبط الملك البرتغالي جون بهذه الفرصة التي اتاحت له لبحث مشروعاته مع رجل عليم بمجريات الأمور ، كرسول النجاشي ، فراح يفضي اليه برغبته في اكتشاف أقصر الطرق الى الهند مؤكدا له بأنه ليس له مظاهر استعمارية ، وانما والذي يطمع فيه حقا ، هو الوصول الى التوابل والذهب والأحجار الكريمة عندئذ كتب Marcos الى النجاشي بكل ما أفضى اليه به الملك Joao II جون الثاني .

- Diffe, Winus: The Foundations of the Portuguese Empire 165.

— سونيا .ى . هاو : في طلب التوابل ١٣٩٠ .
(٢) يذهب الدكتور حسن أحمد محمود في كتابه انتشار الاسلام والثقافة العربية في افريقية ص ٤٤٧ ان بعثة دى كوفلهام انطلقت من المغرب الأقصى برفقة القوافل الى الطور بسينا ، إلا أن مذكرات الفاريز الذي قابل دى كوفلهام في الحبشة تخالف ذلك الرأي .

بعد أن اتفقا على التقابل في القاهرة لجمع المعلومات ومن ثم إرسالها إلى
البرتغال (١).

أما دي كوفلهام فقد أبحر على ظهر سفينة عربية إلى الهند حيث تجول
في كانانور وقاليقوط وجوا ، ومن ثم إلى هرمز بعد أن تيقن من ناحيتين
مهمتين وهما أولاً عدم وجود أي ذكر للقديس يوحنا في آسيا ، وهذا يؤكد
له أن الحبشة هي الموطن الأصلي لهذا الملك ، أما الناحية الثانية فهي
أن الهند مما لا شك فيه سوف تحقق لمليكه كل ما يصبو إليه من مشاريع ، خاصة
بعد ما شهد بنفسه ما عبرت عنه رسائله إلى ملك البرتغال فيما بعد .

ومن هرمز أكمل دي كوفلهام طريقه إلى شرق افريقية حسب تعليمات
ملك البرتغال ، والتي كانت تعتبر في نظر البرتغاليين في ذلك الوقت
النقطة الأساسية للانطلاق منها إلى الهند ، وبعد أن أنهى زيارته لساحل
شرق افريقية عاد إلى القاهرة وفقاً لموعده مع دي بايفا الذي نعى إليه
عقب وصوله (٢) ، وهناك قابل اثنين من البرتغاليين الجزويت وهما :

Josef و Rabbi Abraham حيث سلماه تعليمات

الملك الجديد المؤكدة بضرورة البحث عن القديس يوحنا واصطحب Abraham
إلى مدينة هرمز لكتابة تقارير عنها (٣) ، ومن القاهرة أرسل دي كوفلهام

(1) Alvarez: Narrative of the Portuguese Embassy to Abyssinia 268.

(2) Alvarez: Narrative 266.

(3) Alvarez: Narrative 268-269.

مع Josef مجموعة من الرسائل تضم تقارير عن المناطق التي زارها ونوعية التوابل التي شاهدها ، ومصادر خروجها ، فكتب كيف اكتشف القرصة التي تستورد من سيلان ، والقرنفل التي تأتي من جزائر ملوك وسومطرة والفلفل في قاليقوت ، على انه هناك رسالة من الرسائل التي أرسلها دى كوفلمهام يحوم الشك حول وصولها وعدم وصولها ، لأنها كانت تحصى معلومات تعتبر بالنسبة لهم ذات قيمة ، وقد أرسلها خصيصا لبارثليميو دياز لأنه كان يعتقد حتى ذلك الوقت أن بارثليميو دياز لا يزال مبحرا باتجاه شرق افريقية ، ويقول في تلك الرسالة " السفن التي تبحر أسفل سواحل غينيا لابد لها من أن تصل الى نهاية القارة ، وعندئذ تكون قد أشرفت على المحيط الهندي ، وفي هذه الحال مر رجالك — أى بحارة بارثليميو دياز — أن يسألوا عن بلدة سوفالا وعن جزيرة القمر فسوف تجدون فيها رابطة يقودون السفن الى الهند " . (٢)

نقول ان الرسالة مشكوك فيها لأنها أرسلت بعد انتهاء رحلة بارثليميو دياز وقبيل رحيل فاسكودى جاما ١٤٩٧ م ، والمتبع لحملة فاسكودى جاما فى شرق افريقية يلاحظ أنه قضى شهورا طويلة متنقلا بين الموانئ الشرقية لافريقية باحثا عن دليل يقوده الى الهند كما شرحنا من قبل حتى انتهى به الأمر فى مالندى ، فلو أن الرسالة وصلت فعلا لما كلف فاسكودى جاما نفسه عناء البحث والتجول بين الموانئ الشرقية لافريقية ، ولكن اتجه مباشرة الى سوفالا أو جزر القمر كما ذكر له فى الرسالة .

(1) Alvarez: Narrative of the Portuguese Empasy 269.

— سونيا .ى . هاو : فى طلب التوابل ١٤٩ .

(2) Edw. Farley oaten: European Travellers in India 50
New York 1971.

— سونيا .ى . هاو : فى طلب التوابل ١٤٩ .

عاد دى كوفلهم مرة أخرى الى هرمز ، ومنها يقلل لذهاب الى جدة
ومكة المكرمة والمدينة المنورة ، ومنها الى سيناء ثم الى زيلع ومنها الى شوا
حيث قابل الملك الحبشى Alexander الكسندر وسلمه رسائل ملكك
البرتغال (١) .

كان لوصول دى كوفلهم أثره البالغ فى البلاط الحبشى ، اذ تمكن
الملك الكسندر بذلك من تحقيق حلمه وحلم أجداده فى رؤية دولة مسيحية
تسعى الى تحقيق روابط سياسية معه ، بعد قرون طويلة من العيش بجوار
دول اسلامية كبرى تحيط به كالسوار بالمعصم ، واجتماعه مع دى كوفلهم
كانت الفكرة الصليبية قد اختمرت فى أذهانه ، خاصة فى وقت كان فيه
الكسندر يواصل اعتداءاته الوحشية ضد مسلمى الطراز بعد أن أخذ يمين
فى تدمير مساجدهم ومنازلهم (٢) ، لهذا قادته تلك النمرة الى فكسيرة
شن حروب صليبية جديدة بالتعاون مع البرتغال ، فأرسل دى كوفلهم
الى ملك البرتغال ، ومعه رسائل يناشده فيها العمل على مهاجمة مصر ،
الا أن اصطدام دى كوفلهم وجنوده مع سكان بعض المدن فى طريقه جعله
يرجع الى مركز الملك فى شوا انتظارا لفرصة أخرى . (٣)

(1) Robert L. Playfair: A History of Arabia Felix or Yemen 96.

- Alvarez: Narrative of the Portuguese Embassy 269.

(٢) د . ابراهيم على طرخان : الاسلام والممالك الاسلامية بالحشة ٦٥ ،
٦٦ — مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد الثامن
١٩٥٩ م .

(٣) د . محمد مصطفى زيادة : مصر والحروب الصليبية ١٥ ، ١٦ ،
من رسائل الثقافة الحربية رقم ٣٩ ، القاهرة ١٩٤٢ م .

وظن الملكسندر في الحكم حتى قتل عام ٩٠٠ هـ - ١٤٩٤ م ، ودى كوفلهام في بلاطه لم تتح له الفرصة للسفر الى بلاده ، حيث شغل منصب المستشارية (١) كلما ظهرت في الأفق فكرة النعرة الصليبية .

من هذا نرى أن بعثة دى كوفلهام ، كانت بمثابة الطلائع الأولى للغزو البرتغالى المرتقب ، إذ علم الرغم من أن وصوله لم يشكل فى ذلك الوقت أى خطر على مصر ودويلات الطراز الاسلامى ، نتيجة للحصار المفروض على الحبشة من قبل مسلمى الطراز ، وبعد المسافة ما بين الحبشة والبرتغال ، فى وقت كان فيه البرتغاليون يحاولون اجتياز رأس الرجاء الصالح ، إلا أنه قد هبأ بذلك الأذهان وشجذ المهيم لمد العمون الى الزائر الجديد كلما احتاجهم ، وكان من المتوقع ومنع وصول البرتغاليين الى المحيط الهندى أن يتم التعاون ما بين الطرفين خلال السنوات الأولى من القرن السادس عشر الميلادى ، إلا أن ذلك لم تنهياً ظروفه للزائر الجديد ، إذ كان عليه أن يثبت دعائم امبراطوريته ، وليس معنى ذلك انهم عقلوا الحبشة وأمورها ، بل على العكس ازدادت كلما تأصلت قواعدهم فى المحيط الهندى (٢)

(١) د . ابراهيم على طرخان : الاسلام والممالك الاسلامية بالحبشة ٦٥ ، ٦٦ .

مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية . المجلد الثامن ١٩٥٩ م .
(٢) يقال بأن الفاريز كابرال عندما مر بحملته عام ١٥٠٠ م من ماليندى أنزل الى البرجلين كلقهما بالذهاب الى الحبشة لدراسة عادات أهلها . وجمع البيانات والمعلومات عن ملكها .
- د . السيد رجب حراز : افريقية الشرقية والاستعمار الأوربي ١٣ .

ومع انتهاء عصر ناوود Na'od (١٤٩٤ - ١٥٠٨ م) للملذى
خلف الكسندر فى الحكم ، كانت الأوضاع السياسية فى البحر الأحمر والمحيط
الهندي وفى الحبشة ذاتها ، قد هيأت الأحباش أنفسهم لمحاولة الخروج من
عزلتهم السياسية تلك ، وترجمة نتائج وجود دى كوفلهم فيما بينهم على بساط
المحادثات والاتصالات ، بالنسبة للأحباش كان لوفاة ناوود أثر سياسى
على الهلاط الحبشى ، لأن خليفته لبناد نجى Lebna Dongel
(١٥٠٨ - ١٥٤١ م) لم يكن قد تعدى الثانية عشر من عمره مما جعل
الوصاية تؤول الى زوجة أبيه هيلانة أو هيلينى (١) ، التى مارست الحكم فى
ظروف صعبة نظرا لاشتداد صدامها مع مسلمى الطراز الاسلامى ، والسنى
رأت فى انتصاراتهم خطورة على ملكة الحبشة بعدما بدت معالم الوحشية
تظهر بين مدن الطراز الاسلامى ، فى وقت شمل فيه التنافس والانقسام
صفوف قادة الجيش الحبشى (٢) .

أما فى البحر الأحمر فقد كان للنشاط البحرى المملوكى فيه ، وارسلهم
الأساطيل لقتال البرتغاليين فى المحيط الهندي أثر بالغ فى احياء مسلمى
الطراز الاسلامى وشحن همهم ضد مسيحي الحبشة الذين أحسوا بخطورة
ذلك ، أما فى المحيط الهندي فقد كان لهزيمة الأسطول المملوكى فى موقعة
ديو أثر فعال فى نفسية الملكة هيلانة (٣) .

(١) جرت العادة أن يقوم مسلمى الإمارات الساحلية بتقديم احدى بنات
أرائهم سنويا الى ملك الحبشة ليتزوجها دليلا على خضوعهم ، وهيلينى
كانت ابنة أحدهم حيث اعتنقت المسيحية وصمت على مقاومة مسلمى
الإمارات .

(٢) ابراهيم حسن : الامام أحمد بن ابراهيم القرين ٣٠ .

(٣) د . محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح المثمانين عدن ٦٤ .

من هنا نرى أن كل تلك الحوامل السابقة كان لها أثرها الفعال فسي
اتجاه هيلانة الى طلب المدونة البرتغالية بعدما وجدت التشجيع الكافي من
الأجانب المقيمين بأرضها ، وعلى رأسهم دى كوفلهام الذين رغبوها فسي
مثل هذا العمل بعدما سمعت كثيرا عن مفاخر البرتغال على ألسنتهم^(١) ،
وقبل هذا كله يجب أن لا ننسى عامل مهم وهو قرب الهند اليها بالنسبة
لأوروبا ، والتي أصبحت مركزا رئيسيا عقب تعيين نائب للملك البرتغالي
فيها ، وتحت هذه الظروف اتجهت نية هيلانة الى تحقيق تحالفها مع
البرتغال .

كان من المتوقع اختيار دى كوفلهام لرئاسة البعثة ، ولكن رغبة
الأجانب في الاحتفاظ به بسبب الحاجة الى آرائه وحذرهم^(٢) جعلهم
يختارون أجنبيا يدعى ماتيو الأرمني Mathieu نسبة الى موطن
مولده ، والغريب أن الكتب صمتت عن أصل ذلك المدعو ماتيو أو عن
سوابقه أو الظروف التي جاءت به الى البعثة .

وفي خلال عام ٩١٥ هـ - ١٥٠٩ م تكرر ماتيو وزميله الحبشى فى زى
عربى بعد أن حملوا رسائل الى ملك البرتغال والقادة فى الهند اضافة الى
قطعة من الخشب يقال أنها من الصليب المقدس الأصيل^(٣) ، وفى أثناء
الرحلة توفى المرافق الحبشى ، وأتم ماتيو رحلته الى الهند .

(1) Edward Ullendorff: The Ethiopians 71, L9nd9n
1960.

(٢) د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ٤٩ .

(٣) د . زاهر رياض : الاسلام فى اثيوبيا ٢١٦ ، ٢١٧ .

وبينما تلك الأمور تجرى ، كان البوكرك نائب الملك فى الهند
يسعى جاهدا للوصول الى الحبشة ، وفى عام ٩١٦ هـ - ١٥١٠ م توجه
الى رأس جرادفوى المقابل لجزيرة سقطرة ، حيث أنزل هناك بعثة دينية
برتغالية فى محاولة للوصول الى ملك الحبشة عوضا عن البحر الأحمر الذى لم
يكن قد اخترقه من قبل ، وبانزاله تلك البعثة انقطعت أخبارها تماما عن
البوكرك (١) ، ومن المرجح أن البعثة كانت فريسة سهلة للقبائل الافريقية
فى جنوب الحبشة ، لأننا نلاحظ أن Alvarez عندما نزل الحبشة
(١٥٢٠ - ١٥٢٦ م) تكلم كثيرا عن الأجانب الموجودين فى بـ سـ لـ اـ ط
الامبراطور الحبشى ، الا أنه لم يشر الى هذه البعثة اطلاقا (٢) .

ومع نهاية عام ٩١٨ هـ - ١٥١٢ م وصل ماثيو الى جوا Joa
بالمهند حيث استقبله نائب الملك الفونسو دى البوكرك ، الذى سر كثيرا للرؤية
مبعوث من قبل القديس يوحنا ، وكانت مناسبة سعيدة للبوكرك الذى كان
شديد اللهفة لمعرفة الطريق الذى سلكه ماثيو للوصول اليه (٣) ، وكذلك

(1) Jones, Monroe: A History of Ethiopia 62, Oxford
1978.

يذكر بانيكار فى كتابه آسيا والسيطرة الغربية ٤٤ ، ٤٥ أن ملك البرتغال
أرسل بعثة الى ملك الحبشة تتكون من جوا ، وجونيز ، وسانكيز بهدف ايسـة
دليل تونس يدعى سيدى محمد وقد أنزلت الحملة برا عند مالندى لتشق
طريقها الى العاصمة الحبشية ، غير أن تلك الجماعة عادت أدراجها بعد
ذلك بسنة واحدة وقدمت نفسها الى البوكرك ، فأعطاهما هذا بدوره خطابات
بالعربية والبرتغالية الى الامبراطور المسيحى ، ويلاحظ على رواية بانيكار
هذه عدم ذكره للسنة التى أرسلت فيها البعثة ، كذلك عدم ذكر اسم القائد
الذى أخذ البعثة الى مالندى .

(2) Alvarez: Narrative of the Portuguese Embassy 174-175.

(٣) د . محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ٦٥ .

الاطلاع على كافة الأوضاع الخاصة بالحبشة ، وهى التى سلعدته فيما بعد أثناء
(١)
هجومه على زيلج من خلال حملته على البحر الأحمر عام ٩١٩ هـ - ١٥١٣ م ،
وعندما عزم البوكرك على الرحيل لفزو البحر الأحمر ١٥١٣ م اصطحب معه
ماثيو ومن هناك أرسله الى البرتغال على ظهر احدى سفنه والتى وصلها
مع نهاية عام ١٥١٣ م ، وهناك قدم ماثيو رسالة من هيلانة الى ملك
البرتغال عما نويل ، والتى شكت فيها من أخطار تهددها من ناحية مصر
ودويلات الطراز الاسلامى ، وأشارت أيضا الى أن ترستان داكها وهو
أحد ضباط الملك فى الهند قد أرسل اليها رسولين يسألها أن تمدّه بالطعام
والرجال لتساعده فى نضاله ، وأنها فى قضية كهذه لن تتوانى أبدا ،
ولهذا فهى ترسل ماثيو الذى أصدرت اليه الأوامر ، بأن يخبر القائد
البرتغالى فى الهند بأن لها الرغبة والاستعداد لتبذل له ما يريد من
مئون ورجال ، وأضافت هيلانة بأنها عرفت بأن سلطان القاهرة يجمع جيشا
كبيرا ليهاجم به البرتغاليين فى الهند (٢) ، لهذا فلديها الرغبة فى ارسال
عدد كبير من الجنود ليقدموا المساعدة عند باب المندب ، ويمكن أيضا
لجنودها أن يصلوا الى الطور أوجدة (٣) ، وأنها أرسلت اليه الصليب كمقدمة
للحلف ، وأشارت الامبراطورة أن الجيوش البرتغالية اذا اتحدت مع الجيوش
الحبشية فانهم يكونان قوة كافية لأن قوة الحبشة هى قوة برية " اذا كان

-
- (١) د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ٦٨ .
- د . محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ٦٥ .

(2) Sylvia Pankhurst: Ethiopia Acultural History 314 - 315.

(3) Sylvia Pankhurst: Ethiopia 315.

علينا أن نحشد قواتنا فانها ستملأ الأرض بأسرها ، ولكننا ليس لدينا
قوات في البحر وانكم لديكم قوات ضخمة في البحر» (١).

ومعرض تلك الرسالة ، كانت الحبشة قد عرضت على الواقع أوضاعها
السياسية التي كانت تمر بها ، وشارحة السبل التي يمكن اتباعها لتحقيق
الوحدة التي ينشدانها ، وفاسحة المجال أمام البرتغاليين لانتقاء الوسائل
التي قد تؤدي الى احكام قبضتهم على بحار العرب الجنوبية وبالتالي تهديد
الأماكن المقدسة .

أما في البرتغال فقد أحدثت تلك الوفادة (ماشيو) صدى عميقا
فقد تحقق للبرتغاليين ذلك الحلم القديم برؤية مبعوث خاص من القديس
يوحنا ومعرفة أخباره ، وكان أن امتلأ الرأي العام بأملين ، الأول :
تحويل الحبشة الى المذهب الكاثوليكي ، والثاني : التعاون مع الأحباش
لإنجاح أطماعهم الصليبية والاقتصادية في البحر الأحمر والمحيط الهندي (٢) ،
وما لبث الملك عما نويل أن عرض على المجلس الملكي الأعلى مقترحات بعثة
ماشيو ، حتى تمكن من الحصول على موافقة المجلس الأعلى على امتداد
الحبشة بالمقونة العسكرية في صراعها مع المسلمين (٣) .

قضى ماشيو عامين في البرتغال قبل أن تصدر له الأوامر بالعودة ،
وكانت مدة كافية للبرتغاليين الذين لا بد وأنهم قد حصلوا منه على معلومات

(1) Margery Perham: The Government of Ethiopia 38, London 1969.

(٢) د . محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العشمانين عدن ٦٦ .

(٣) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

كثيرة فيما يخص عقيدة الأقباش (الأرثوذكسية) وأوضاعها الاقتصادية ، والطرق المؤدية اليها ، كان هذا في وقت قام فيه البرتغاليون بأول مساعي حملاتهم الرسمية داخل البحر الأحمر بقيادة البوكرك مفتتحا بذلك طريقا تعود خلفاؤه فيما بعد على افتتاحه سنويا بغارات اما لتهديد الأماكن المقدسة الاسلامية أو محاولة تحطيم أساطيل الدول المسيطرة على البحر الأحمر من ممالك وعثمانيين .

وفي عام ٩٢١ هـ - ١٥١٥ م سمح لمانيو بالمودة ، حيث شاركه وفد برتغالي برئاسة مبعوث برتغالي يدعى Duarte Galvan دورات جالفان كلف بحمل هدايا ورسالة شخصية الى ملك الحبشة لبنادنجل (١) ، وقد أرسلوا جميعا على متن أسطول أرسل خصيصا الى هناك تحت قيادة لوبو سواريز Lopo Soares الذي استلم منصب نائب ملك الهند عقب وفاة البوكرك (٢) ، وتجلت المهمة الأولى لهذه البعثة في إبرام نوع من المعاهدة مع الحبشة ، تكون من ناحية ذات طابع تجاري ، ومن ناحية أخرى تنص على تقديم المساعدات للحبشة ضد المسلمين ، ولم تتخذ البعثة طريقها نحو الحبشة مباشرة ، وانما ذهبت الى الهند ، التي تعتبر نقطة الانطلاق والاستعداد لأي عمل عدواني سواء في البحر الأحمر أو الخليج العربي ، وفي عام ٩٢٣ هـ - ١٥١٢ م فشل لوبو سواريز

(١) د . محمد عبد اللطيف البحراوي : فتح العثمانيين عدن ٦٦ ، ٦٧ .

(2) Playfair: A History of Arabia Felix 99.

نائب الملك في الهند في انزال البعثة كما هو مقرر في Dalaca دهلاك (١)
بعد قتل بعض أفرادها (٢).

ويبدو أن ذلك الفشل إما أنه عائد إلى تيقظ الدولة العثمانية
صاحبة الشأن الجديد ، أو لمحاكمة الرياح للأسطول البرتغالي ، ولم
تتمكن البعثة من الوصول إلى الحبشة إلا في عام ٩٢٧ هـ - ١٥٢٠ م ، حيث
أوصلها نائب الملك الجديد Lopez de sequeyra لوسيز
دي سكويرا الذي كون بعثة جديدة بقيادة Rodrigo de Lima
عقب وفاة دي جالفان في جزيرة كوان (٣) ، وكان ضمن البعثة الجديدة
أفراد آخرون منهم الرسام وعقازف الأرغون والقسيس ، وساد شعور غريب
في بعثة دي ليما يقول بأن الحبشة ستحقق النبوءات وستدمر مكة (٤)

وكلفت البعثة كذلك إضافة إلى المهمة الرسمية لها في البلاط الحبشي
طبقا لتعليمات دي سكويرا بجمع المعلومات عن الحبشة وملكيها وجيشها وتجارها

(١) دهلاك أو دهلك اسم يطلق على الجزيرة الرئيسية في الأرخبيل المعروف
بهذا الاسم في البحر الأحمر ، قبالة ثغر مصوع بأريتريا ، ويقدر عدد جزر
الأرخبيل حوالي ١٢٥ جزيرة ، أكبرها دهلك الكبير ونورا ونوكة ودوهول
ودركة .

د . عبد الرحمن زكي : الإسلام والمسلمون في شرق أفريقيا . ١١١ .

مطبعة يوسف . القاهرة .

(2) Sousa: The Portuguese Asia I 213.

(3) Alvarez: Narrative of the Portuguese Embassy 3.

(4) Jean Doresse: Ethiopia 126.

Translated from the French by Elsa Coult.

ودراسة طرقها ومساكنها وأحوال سكانها وجيرانهم (١) ، وعندما اقتربت البعثة من بلاط ملك الحبشة لبنادنجل توفي ماثيو ، ولم يؤثر ذلك على بقية أفرادها ، حيث واصلوا مسيرتهم ، وفي نوفمبر ١٥٢٠ م تمت المقابلة بين البعثة البرتغالية برئاسة دى ليما ولبنادنجل ، وبعد تسليمه هدايا ورسائل الملك عما نويل بدأت المباحثات بين الطرفين ، وشعر الوفد البرتغالي منذ البداية أن الإمبراطور الحبشى لم يكن راضيا عن عدد الأسلحة ونوعيتها التى جاءوا بها (٢) لأنه ما لبث أن سأل السفير عن كيفية حصول الأتراك على الأسلحة النارية ، وهل يستطيع البرتغاليون أن يكونوا ندا للأتراك فى هذا الشأن (٣) ، ويبدوا من تلك الأسئلة أن لبنا دنجل قد أحس بالضغط العثمانى على سواحل بلاده ، والواقع أن العثمانيين بتبهمهم لأخبار تلك الاتصالات قد فزعوا منها ، وكأجراء وقائى عمدوا الى مراقبة قوافل الحجاج الأحباش الى بيت المقدس (٤) ، إضافة الى أن دورياتهم فى البحر الأحمر أخذت تشدد المراقبة خوفا من حدوث أمرا ما ، فى وقت كانوا فيه قد بسطوا سيطرتهم على زيلج ، ومن ثم بدأ مسلموا الطراز الاسلامى يجدون فيهم قاعدة يستندون اليها كلما هاجمهم الأحباش ، لهذا لم يكن من

(1) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 232.

كان ضمن البعثة Francisco Alvarez الذى أخرج الى أوربا أول كتاب من نوعه عن الحبشة ومدنها وسكانها ، وترجم الى جميع اللغات الأوروبية .

(2) Pankhurst: Ethiopia 306.

(3) Pankhurst: Ethiopia 307.

(٤) د . محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ٦٧ .

الغريب أن تدور المباحثات البرتغالية الحبشية في بدايتها حول هذا الفخاري الجديد للأراضي الحبشية ، فلبنا دنجل والذي كان معاصرا للمماليك وشاهدا لنشاطهم البحري ، لم يكن يدر بخلده أن المماليك قد يضطرون في يوم من الأيام لمهاجمة سواحل بلاده ، لأنه يعلم أن سياسة المماليك في ذلك الوقت كان جل تركيزها على محاولة ازاحة ذلك العبء الثقيل الذي يسد منافذ رءسها في الهند ، ويبدو أن تلك الفكرة قد سيطرت عليه بمجرد وصول العثمانيين الى المشرق العربي ، ولكنه فوجئ باندفاع عثمانى شديد ، ظهرت نتائجه في بداية مباحثاته مع البرتغاليين كما ذكرنا قبل قليل ، لهذا نظر الطرفان لعلاج هذه القضية من خلال عدة نقاط خطيرة ، كان منها قيام الحبشة بمساعدة البرتغال في بناء قلعة في مصوع أو سواكن لمهاجمة السفن الاسلامية في البحر الأحمر (١) ، وأيضا قيام الأحياء بامداد البرتغال بالرجال والمؤن لغزو القاهرة والقضاء على قوة المسلمين (٢) ، أما بالنسبة للبرتغاليين فانهم تعهدوا بارسال معونة للحبشة لغزو زيلج والقضاء على قوة المسلمين المتمركزين فيها ، وكان لبنا دنجل ينظر الى زيلج تلك النقطه لأنها كانت من المراكز الرئيسية في البحر الأحمر ، والتي تصلها بعض تجارة المحيط الهندي ، ففكر في أن الاستيلاء عليها سيقطع الامدادات عن جدة وعدن ومكة (٣) ، وفي نفس الوقت فهي قاعدة ممتازة لتموين الأساطيل البرتغالية ، وأن بناء القلاع بها سوف يهدد العثمانيين في البحر الأحمر ، وكذلك الأماكن المقدسة الاسلامية في مكة والمدينة (٤) ، ونتيجة لرغبة لبنا دنجل في الاستيلاء على زيلج ، شح السفير البرتغالي للامبراطور

(1) Pankhurst: Ethiopia 306, 307.

(2) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 232.

(3) Pankhurst: Ethiopia 307.

(٤) د . محمد عبد اللطيف البحراوي : فتح العثمانيين عدن ٦٨ .

أن الاستيلاء عليها أمر لا يجد صعوبة من قبلهم ، لأنه حيث تمتد سلطتهم إلى
البرتغال تكون المدن غير مأهولة ، والسكان لن ينتظروا ليروا السفن
البرتغالية (١) ، وأخيرا احتمال احتلال برتغالي لسواحل الحبشة على البحر
الأحمر لحمايتها من هجوم عثماني عليها (٢) .

على أن هذه النقطة الأخيرة لم تجد لها ميلا عند لبنادنجل ، والواقع
أنه رغم تلك الاجتماعات التي عقدوها ، فانهم لم يصلوا إلى نتيجة معينة
بخصوص المقترحات السابقة ، ولم يحددوا موعدا زمنيا لتنفيذها ، لهذا
لا نستطيع أن نصف تلك الاجتماعات إلا بأنها اجتماعات تمهيدية لأحداث
سياسية كبرى فيما بعد ، لأن الأوضاع السياسية التي كانت تمر بها الحبشة
في ذلك الوقت (١٥٢٠ - ١٥٢٦ م) قد اختلفت نوعا ما عن الأوضاع التي
خرج من أجلها ماثيو ، ذلك أن لبنادنجل عندما بلغ سن الرشد وتولى
الحكم بنفسه ضعف مركز الامبراطورة هيلانة ، ولم يعد لها أي نفوذ ، وبدوا
أن ذلك راجع لكونها بنت سياستها على أساس الهجوم على المسلمين عقب
وصول المساعدة البرتغالية ، بعكس لبنادنجل الذي اتبع سياسة العنف
والشدة ضد مسلمي الإمارات دون انتظار لأي مساعدة خارجية ، وتفصيل
ذلك أنه في الوقت الذي كان فيه البرتغاليون يدرسون طلب هيلانة للتدخل ،
شن لبنادنجل عام ٩٢٢ هـ - ١٥١٦ م هجوما على زيلع وكان هجوما كاسحا
استشهد فيه الكثير من سكان زيلع ، ومن ثم أكمل مذابحه في بقية المدن
التابعة لمعدل حتى أنهكها (٣) ، من هذا نستطيع القول أن ثقة

(1) Pankhurst: Ethiopia 307.

(2) Ullendorff: The Ethiopians 72.

(3) Ullendorff: The Ethiopians 71 - 72.

لبنادنجل بنفسه وانتصاراته المتتالية على مسلمى الامارات للاسلامية ، اضافة الى ما يبدوا أنه كان غير واثقا من البرتغاليين من خلال ما ذكرناه عن بداية المهاجمات ، قد جعلناه يرفض فكرة الاحتلال البرتغالى لسواحل بلاده .

وفى الثالث من فبراير ١٥٢١ م ، أذن الامبراطور للبعثة بالعودة الى البرتغال حيث زود الجميع بالهدايا ومخطابات الى كل من ملك البرتغال ونائبه فى الهند والى البابا ، وبينما هم فى الطريق الى الساحل علموا^(١) بوفاة الملك عمانويل ملك البرتغال فعادوا مرة أخرى الى البلاط الحيشى ، حيث عزاهم الامبراطور لبنادنجل فى وفاته ، وفى هذه الفترة حدث أمر صغير أدى الى استئفاف الطرفين محادثتهما ، ذلك أن لبنادنجل حصل على خارطة موضح عليها موقع كل من أسبانيا والبرتغال ، ويبدوا أنهم وصلته ضمن ما وصله من خطابات ، أما ذلك الأمر فهو ان الامبراطور كشف لأفراد البعثة مدى صغر حجم البرتغال ، والتى كان يغالى فى قوتها وكسبر مساحتها أفراد البعثة ، وأظهر لهم بعض الشك فى قدرتهم على طرد الأتراك من البحر الأحمر^(٢) ، وهو الأمر الذى كان يتخوف منه سابقا كما ذكرنا قبل قليل ، ولعلاج هذا الموقف اقترح الامبراطور أن يحتفظ ملك فرنسا بقوات عسكرية فى سواكن ، وأن يحتل ملك اسبانيا زيلج ، وتتخذ البرتغال من مصوع قاعدة لها ، وهؤلاء جميعا عن طريق قواعدهم فى البحر الأحمر سيتمكنون من حماية البحر الأحمر والاستيلاء على جدة ومكة والقاهرة والأراضى المقدسة^(٣) ، إلا أن السفير البرتغالى غضب لذلك واندفع فسى

(1) Pankhurst: Ethiopia 313.

(٢) د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ١٠٩ .

(3) Alvarez: Narrative of the Portuguese Embassy 311.

حماس شديد يدافع عن بني قومه ، وانهم وحدهم قادرون على اكتساح العالم الاسلامي (١) .

وعلى الرغم من عدم تسجيل خطة الامبراطور الجديدة ، ونقلها بالتالى الى ملك البرتغال ، فان الخطاب الذى أرسله لبنادنجل الى الملك البرتغالى يظهر مدى حرص الأحباش على معاداة المسلمين ، وحقد الشديدي عليهم ، وعلى التعاون مع البرتغاليين ، وطلب فى الخطاب كذلك أن يقوم الأب الفاريز بنشر المسيحية فى مصوع ودهلك وزيلع ، وطلب تزويده بفنيين مهرة فى صناعة الأسلحة اللازمة لجيشه (٢) ، اما خطابه الى البابا كلمنت السابع (١٥٢٣ — ١٥٣٤ م) فقد وعد فيه لبنادنجل بتبعية الكنيسة الحبشية للكنيسة الغربية . (٣)

وفى عام ١٥٢٦ م عاد الوفد البرتغالى الى بلاده ومعه راهب حبشى يدعى زاجازابو Zaga Zabo ، بعد أن احتفظ لبنادنجل بأحد أعضاء الوفد ، وهو برمودز Bermodez كرهينة عنده (٤) .

وعلى الرغم من أن هذه البعثة قد فشلت فى مهمتها الأصلية وهى التفاوض لعقد معاهدة ذات معونة متبادلة لمواجهة القوة الاسلامية ، ولم تتجح كذلك فى سبيل وضع جدول زمنى لوضع تلك المقترحات السابقة الذكر على مســــرح الأحداث ، إلا أنها مهدت الطريق أمام البرتغال لارتحال مساعداتها الى

(١) د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ١٠٩٠ .

(٢) المرجع السابق ١٠٨٠ .

(٣) د . زاهر رياض : الاسلام فى اثيوبيا ٢١٨٠ .

(٤) د . محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ٦٩٠ .

— د . زاهر رياض : الاسلام فى اثيوبيا ٢١٨٠ .

الحبشة عقب البعثة بأربع عشرة سنة ، فى وقت كانت فيه الحبشة قاب قوسين أو أدنى من الانهيار أمام القوات الإسلامية بقيادة الامام المجاهد أحمد القرين ، كذلك فقد عادت الى العالم الغربى بتقارير ودراسات عن المنطقة وصورة حقيقية عن أوضاعها .

وحين نتحدث عن الصراع فى البحر الأحمر قبيل العصر العثمانى وتهديد البرتغاليين للأماكن المقدسة الإسلامية على ضوء ما ذكرناه الآن عن العلاقات البرتغالية الحبشية ، فيجب أن نشير الى أنه لما كانت الأماكن المقدسة الإسلامية تقع على الشاطئ الشرقى للبحر الأحمر ، فقد ترتب على ذلك أن هذا البحر أصبح هو المجال الحيوى الذى جرت فيه محاولات تهديد الأماكن المقدسة الإسلامية ، كما أن هذا البحر كان غاية القوى المعادية للاسلام فى العصور الحديثة .

ويجب أن نفرق هنا بين محاولات البرتغاليين ومحاولات من سبقوهم فالقوى التى سبقت البرتغاليين كان تهديدها يأتى من الشمال أو من داخل البحر الأحمر (١) ، أما فى هذه الفترة فقد أتى الخطر من الجنوب كما رسم بذلك المسيحيون منذ سنوات طويلة ، مما أشرنا اليه فى فصل سابق وتهديد البرتغاليين للأماكن المقدسة الإسلامية لا نستطيع معه أن نحدد زمنه بوصولهم

(١) لم تسلم سواجل الحجاز منذ عهد الدولة الأموية من غارات الأحياسى المتكررة اضافة الى محاولات الصليبيين برئاسة أرناط فى زمن الحروب الصليبية فى سبيل الوصول الى المدينة المنورة ، ونش قبر الرسول صلى الله عليه وسلم .

الى البحر الأحمر ، اذ أن هذا التهديد كان ضمن المشروعات البرتغالية ضد العالم الاسلامى منذ بداية الربع الأخير من القرن الثالث عشر ، ذلك أن الأفكار فى تلك الفترة كانت متجهة نحو البحث عن امبراطورية القديس يوحنا الخرافية والتعاون معه لجعل مصوع قاعدة لشن الحملات على مكة ، (١) وإذا صوفنا النظر عما فى هذا المشروع من خرافة ، إلا أنه يقودنا نحو نقطتين هامتين وهما مدى الحق الصليبي الذى كان يبيته البرتغاليون للمسلمين ، إضافة الى نقطة هامة أخرى ، وهى أن الخروج نحو بحار العرب الجنوبية قد اتم بصفة صليبية أكثر منه صفة تجارية فى بدء انطلاق البرتغاليين .

ومع بداية السيطرة البرتغالية فى المحيط الهندى ومداخل الخليج العربى والبحر الأحمر ، كان الخطر على الأماكن المقدسة الاسلامية قد أصبح واضحاً للجميع ، ويظهر ذلك من خلال رسالة الملك عما نويل ملك البرتغال المؤرخة بعام ٩١١ هـ - ١٥٠٥ م للبابا يوليوس الثانى حينما طلب منه البابا إيقاف الحملات الى مياه الهند حتى تتحسن علاقات دول البحر الأبيض المتوسط مع دولة المماليك فكان جواب الملك عما نويل " أنه ليس عازماً على المضى فى قتل التجارة المملوكية فقط بل انه سيجاهد فى سبيل المسيحية حتى يجعل من مكة هدفاً لمدافعة وجنوده " (٢) والذى أكد للبابا أيضاً ضرورة وحدة الدول الأوروبية تحت زعامته وضم جهودهم الى جهوده لاستعادة الأراضى المسيحية المقدسة (٣) .

(1) Jean Doresse: Ethiopia 125 - 127.

(٢) د . محمد مصطفى زيادة : مصر والحروب الصليبية ١٦٠ .

(٣) د . أحمد السيد دراج : المماليك والفرنج فى القرن التاسع الهجرى ، ١٣٦ .

لم تتح الفرصة للبرتغاليين في البداية لتنفيذ ذلك بسبب اضطراؤهم الى تثبيت قواعد لهم للتمركز فيها ، ولكن ذلك لم يستمر طويلا اذ أن الخطر ما لبث أن ظهر بوصول البورك الى المحيط الهندي ، ذلك أن تعيين البورك في منصب نائب الملك في الهند عام ٩١٥ هـ - ١٥٠٩ م كان يعني بأن البرتغال قد قذفت بأعنى قادتها تعصبا ضد الاسلام ، ولعل خير دليل على ذلك أن البورك يعتبر مؤسس القاعدة الاستعمارية للبرتغال في المحيط الهندي نتيجة نشاطه ضد القوى الاسلامية في المحيط الهندي ، والأهم من ذلك كله كان هناك عامل مهم ساعد البورك على الانطلاق للبحر الأحمر ، الا وهو وصول مبعوث الحبشة ماثيو كما ذكرنا من قبل ، والسدى قدم له رسالة ظهر من خلالها مدى رغبة الأحياء في التعاون مع البرتغال لتحطيم الأماكن المقدسة . (٢)

وضع البورك نصب عينية أن مهاجمة الأماكن المقدسة الاسلامية يستلزم انشاء قاعدة بحرية في مدخل البحر الأحمر للانطلاق منها ، ويجب أن نشير هنا الى أن الرحالة الايطالي لودفيكو دي فاوتينا (٣) كان قد رأى بنفسه قبر الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة (٤) ، وفي مارس ١٥١٣ م هاجم

(١) عمل البورك منذ كان يافعا على محاربة الاسلام حتى أنه بدأ حياته العسكرية بالاشتراك في الحملات البرتغالية على سواحل المغرب الأقصى .

- Bailey, Winius: Foundation of the portuguese Empire 248.

- د . محمد عبد اللطيف البحراوي : فتح العثمانيين عدن ٧٩٠ .

(٢) سونيا . ي . هاو : في طلب التوابل ٢٢٥٠ .

(٣) أنظر هامش رقم ٥ ص ١٦ .

(٤) جاكين بيرين : اكتشاف جزيرة العرب ٤٢ ، ٤٤ - ترجمة : قدرى قلمجى .

البوكر عدن غير أنه فشل فى الحصول عليها (١) ، فاتجه الى جزيرة
كمران حيث فكر فى مهاجمة جدة ، وكانت تلك الفكرة بالنسبة للبوكر حلم
يود تنفيذه ، فقد عرف عنه انه كان يتمنى انجاز مشروعين من مشاريعه
قبل موته ، فالمشروع الأول كان يحل فى طابعه عاملا صليبا حادا وهو
احتلال المدينة المنورة لينهب قبر الرسول صلى الله عليه وسلم (٢) ، ويسرق
ما فيه ويجعله رهينة حتى يتخلى المسلمون عن الأماكن المقدسة فى فلسطين (٣)
أما المشروع الثانى فقد حمل سمة اقتصادية حيث كان يحلم بتحويل مياه
النيل الى البحر الأحمر ليحرم مصر من ارواء أرضها ، ويخرب شبكة السرى
التي كانت قائمة فيها آنذاك (٤) ، ولما كان المشروع الثانى يحتاج مهندسين
وعمال وصناع يستلزم احضارهم من البرتغال فترة طويلة ، فقد قرر البوكر
تنفيذ حلمه الأول وتأجيل الثانى ، وصمم على النزول فى ينبع بأربع مائنة
فارس للهجوم على المدينة المنورة (٥) ، غير أن الرياح حالت دون وصوله
اليها فعاد مرة أخرى الى كمران ، وعوض ذلك الفشل بشن حملات تخريبية
ضد موانئ البحر الأحمر . (٦)

(1) Playfair: A History of Arabia Felix 98 - 99.

(٢) نظرا لسكون الفاتيكان كان مليئا بالكنوز والثروات فقد اعتقد البرتغاليون
أن ضريح الرسول صلى الله عليه وسلم سوف يكون على شاكلته .

(٣) د . قيصرو أديب مخول : الاسلام فى الشرق الأقصى ١٣٥ ، ١٣٦ ،
تعريب : د . نبيل صبحى .

(4) Stripling: The Ottoman Turks 34.

— د . قيصرو أديب مخول : الاسلام فى الشرق الأقصى ١٣٥ ، ١٣٦

(5) Stripling: The Ottoman Turks 34.

(6) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 192-193.

كان لهذا الحادث صده ، ففى مكة خرج الشريف بركات الثانى (١) مسرعا الى جدة ، وصحه جماعة من المحاربين ، وأقاموا بها خوفا من هجوم مفاجئ على جدة وهو أمر أصبح منتشرا ومحروفا لدى الناس (٢) ، ولم يكن ذلك الفشل من الأمور التى يستسلم لها البوكرى ، اذ سرعان ما نجده قد عزم مرة أخرى على معاودة الكرة مضافا اليها موانئ مصر الجنوبية على البحر الأحمر ، ولم يكن من الغريب أن تجد مشروعات البوكرى الخاصة بتهديد أسطولين (٣) الأماكن المقدسة ميلا شديدا لها فى لشبونة التى أرسلت له خصيصة أسطولين بحيث تضخمت حملته تلك والتى تكونت من ست وعشرين سفينة وألف وخمسمائة جندي برتغالى وسبعمائة ملاح ، خرج بها عام ٩٢١ هـ - ١٥١٥ م ، غير أن انشغاله بأحداث هرمز والخليج العربى ووفاته عقب الانتهاء من تلك الأحداث ، قد حالت دون تنفيذ مآربه ، وبذلك نجت الأماكن المقدسة الاسلامية مرة أخرى من الخطر .

ويجب أن نشير هنا الى أن البرتغاليين ، مع فشلهم فى إلحاق الضرر بالأماكن المقدسة قد تمكنوا من دراسة أوضاع البحر الأحمر ، وعلى الأخص

(١) هو الشريف بركات الثانى بن محمد بن بركات بن حسن ، تولى إمارة مكة فى اليوم الذى توفى فيه أبوه محمد بن بركات ١١ محرم ٩٠٣ هـ ، توفى فى ٩٣١ هـ عن عمر يناهز السبعين عاما ، وكانت مدة ولايته استقلالا ومشاركة لابنه وأخوته نحو ٥٣ عاما .

(٢) ابن ايامى (محمد بن أحمد) : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج ٤ ،

تحقيق محمد مصطفى ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، الطبعة الثانية ١٣٧٩ هـ - ١٩٦٠ م .

(٣) د . محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح المشانين عدن ٧٨ ، ٧٩ .

شاطئ الغربي الذي يضم الحليف التقليدي للبرتغاليين وهم الأحباش ، ففى وقت كانت الاتصالات فيه بين الطرفين تأخذ مجراها الطبيعي كجزء من الحرب الصليبية ضد المسلمين (١) ، كذلك يجب أن نذكر هنا جهود الدولة المملوكية ومسلمى الهند فى سبيل تحصين الأماكن المقدسة ، خاصة بعد أن أدرك الجميع ما يهدف إليه هذا الفازى الجديد ، وعلى الرغم من أن حسين الكردى قائد أول حملة مملوكية الى الهند ١٥٠٥ م قد وضع نصب عينيه أن اقتلاع البرتغاليين من جذورهم فى المحيط الهندى معناه تخفيف حدة خطرهم عن الأماكن المقدسة الإسلامية ، إلا أنه عمد الى تحصين جدة تحصينا شاملا خوفاً من أن يطرقها طارق من البرتغاليين فى قواعدهم فى افريقية الشرقية أو من دورياتهم المتجولة أمام مدخل البحر الأحمر ، فأنشأ فى أقصر وقت ممكن حائطاً أحاط بجدة من جوانبها الثلاث دون البحر ، إذ بلغ طول الحائط المواجه لليمن ٨٠٠ ذراع ، وبلغ الحائط الشرقى ٦٠٠ ذراع ، أما الحائط المواجه للشام فقد تعدى الـ ٨٠٠ ذراع (٢) ، وعزز هذا السور بمجموعة من الأبراج بلغ ارتفاعها عن الأرض ١٥ ذراع ، أما البوابات فقد تم صنعها من الخشب المدرع المصفح (٣) ، إضافة الى خندق أحاط بسور البلد ، وبلغ مجموع ما صرف على بناء التحصينات مائة ألف دينار غورى ، (٤)

(1) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 193.

(2) Serjeant: The Portuguese off the South Arabian Coast
160 - 167.

(٣) أحمد بن محمد يعقوب الامام : السلاح والعدة فى أخبار بندر جدة ،
ورقة ١٠٦٩ .

المكتبة المركزية لجامعة الملك عبد العزيز بمكة ، مصور رقم ١١٢٦ .
- Serjeant: The Portuguese off the South Arabian Coast
160 - 161.

(٤) أحمد بن محمد يعقوب الامام : السلاح والعدة فى أخبار بندر جدة ورقة ١٠٦٩ .

أما مسلمو الهند فعندما أوضح لهم حسين للكويتى مدى الخطر البرتغالى على جدة ، وما يتبع ذلك من ضرر على مكة ، ومدى حاجته لبناء سور حول جدة ، لم ييخلوا معه ، اذ وصلته من السلطان محمد محمود شاه ملك جوجيرات ، ومن أمراء آخرون معونة عبارة عن ثلاث سفن مليئة بالتوابل والبهار ، كان لها دور فى اكمال التحصينات (١) ، أما ينبع فقد قرر لها بعض الوحدات المملوكية خوفاً من نزول البرتغاليين بها . (٢)

ولم تكن تلك التحصينات قد اقتضت على الكردى فقط ، وانما شارك فيها أيضاً قادة آخرون ففى عام ٩١٧ هـ ، ١٥١١ - ١٥١٢ م قام والى جدة من قبل حسين الكردى بتحسين الساحل أمام الحصن الذى كان مكشوفاً دون حماية ، حيث أنشأ مجموعة من الأبراج وسط البرأمام الساحل ، وأقام برجاً بحرياً نزل بهما الفواصون فى البحر اثنا عشر ذراعاً ، وأوصل الأبراج السالفة الذكر بسور جدة (٣) ، وحتى عندما خرجت حملة الهند الثانية ٩٢١ هـ - ١٥١٥ م بقيادة كل من حسين الكردى وسلمان الرئيس ، نجد أن الكردى ومع الأيام الأخيرة لدولة المماليك لم يألوا جهداً فى سبيل زيادة التحصينات ، اذ دعم تلك الأسوار بمجموعة من الأبراج وأمدّها بأسلحة الحرب المكونة من المدافع الثقيلة والأسلحة الصغيرة ، وهى التى أظهرت

(١) د . نعيم زكى فهى : طرق التجارة الدولية ١٠٨ ز ١٠٩ .

(٢) د . حسن أحمد محمود : التهديد البرتغالى لسواحل جزيرة العرب

ومصادر دراسته ٦٠٤ .

مجلة الحرب . الجزء السابع والثامن ، محرم وصفر ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م .
(3) Serjeant: The Portuguese off the South Arabian Coast 161.

- أحمد بن محمد بن يعقوب الامام : السلاح والعدة فى أخبار بنسدر
جدة ، ورقة ٩ .

- Angelo Pesce: Jiddah 83.

فلتدة كبرى عندما حاول لوبو سواريز ١٥١٧ م للنزول بجدة كما سنذكر فيما بعد (١).

وحلول العثمانيين محل الماليك في ادارة شئون العالم الاسلامى ، عقب دخولهم القاهرة ، لم تتوقف تلك التهديدات على الرغم من علم البرتغاليين بمدى قوة الدولة الجديدة ، فى وقت كان فيه العثمانيون يهددون أوروبا بالفتح ، لهذا عاود البرتغاليون مرة أخرى محاولة تهديد الأماكن المقدسة الإسلامية ، وتتميز هذه الفترة الجديدة بأن البرتغاليين أصبحوا أكثر جرأة فى محاولة الوصول الى أقصى شمال البحر الأحمر ، ففي عام ٩٦٣هـ - ١٥١٧ م دخل لوبو سواريز قائد البحرية البرتغالية البحر الأحمر ، وكان قد مر بعدن أولا ثم الحديدة ، ومنها اتجه رأسا الى جدة التى كان يتولى حمايتها سلمان الرئيس ، وما أن علم بمقدم الأسطول البرتغالى حتى بدأ فى الاستعداد لمواجهتهم ، وخرج بأسطوله وقابلهم أمام ميناء جدة ، إلا أنه اضطر بعد قليل الى العودة اليها ، بعد أن ثبتت خيانة أحد المسيحيين المسئولين عن المدفعية فى سفينته ، عندما قام بإفساد بارود مدافعه (٢) ، وتمكنت القلعة من صد الهجوم البرتغالى نتيجة

(1) Serjeant: The Portuguese off the South Arabian Coast 161.

كانت القلعة المذكورة سابقا تقع خلف فندق البحر الأحمر حاليا إلا أنها أزيلت بسبب عوامل التعرية اضافة الى حركة العمران التى تشهدها جدة حاليا .

(2) Serjeant: The Portuguese off the South Arabian Coast 50 - 51.

— يحيى بن الحسين بن على : الأمانى فى أخبار القطر اليماني ، القسم الثانى ٦٥٨ .

تحقيق وتقديم : د . سعيد عاشور . مراجعة : د . محمد مصطفى زيادة .
دار الكاتب العربى للطباعة والنشر . القاهرة . ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م .

تحصيناتها السابقة (١) ، ولم يلبث أسطول لوبوسواريز أن انسحب من أصلح الميناء حيث تعرض لمواقف شديدة دمورت بعضاً من قطعه (٢) ، وقام سلمان الرين بارسال مجموعة من سفنه لحقت بهم بالقرب من اللحية (٣) حيث تمكنت من أسر مجموعة منهم ، عادوا بهم الى جدة ومن ثم أرسلوا إلى السلطان العثماني في عاصمته (٤) .

وكما قلنا سابقاً فإن البرتغاليين لم يحاولوا الاستسلام مرة أخرى لهذا الفشل في عام ١٢٧ هـ - ١٥٢٠ م دخل لوبودي سكويرا البحر الأحمر لتحقيق غرضين ، وهما مهاجمة جدة ومن ثم انزال أول بعثة برتغالية إلى الأراضي الحبيشة ، ولم تلبث الحملة للمرة الثالثة أن فشلت أمام جدة نتيجة معاكسة الرياح لها ، وعلم البرتغاليون بالحشود العسكرية الضخمة الموجودة في جدة ، فأتجه الأسطول إلى مصوع لتحقيق الهدف الثاني (٥) .

وفشل حملة لوبودي سكويرا كان الخطر البرتغالي قد خف تدريجياً عن الأماكن المقدسة الإسلامية بسبب اتجاه البرتغاليين إلى تعزيز علاقاتهم مع

(١) يذكر أحمد السباعي في كتابه تاريخ مكة ج ٢ ص ٩ أن السفن البرتغالية قامت بعمليات انزال للجنود في مكان يدعى بأبي الدوائر بالقرب من جدة .

(2) Playfair: A History of Arabia Felix 100.

(٣) اللحية مدينة تقع في شمال اليمن على سواحل البحر الأحمر .

(4) Serjeant: The Portuguese off the South Arabian Coast 51.

(5) Bailey, Winius: Foundations of the Portuguese Empire 352 - 353.

الأحباش في وقت كلفت فيه العلاقات بين الحبشة والسلطنات الإسلامية المجاورة لها آخذة في التدهور ، ويدوا أن البرتغاليين مع تطور تلك الأحداث السياسية على الشاطئ الغربي لحوض البحر الأحمر ، قد فضلوا مراقبة تلك التطورات ليتدخلوا في الوقت المناسب وهو ما سنراه بظهور الاهتمام أحمد بن إبراهيم القرن فيما هو آت .

كان الغزو البرتغالي لشريان دولة الماليك في الهند ومداخل البحر الأحمر والخليج العربي بمثابة آخر سمار يدق في نحش دولتها ، في وقت كانوا فيه عاجزين عن سد الصدع الذي أصاب دولتهم نتيجة كثرة مشاكلهم الداخلية والخارجية ، لهذا لم يكن من الغريب أن يجد البرتغاليين الطريق أمامهم سهلاً ، خاصة وأن نفوذ الماليك كان مقتصرًا على هيئات تجارية تعمل بنقل بضائعها عبر أراضيهم ، ولم يحاولوا في يوم من الأيام تعزيز هذه المكانة التجارية بحاميات عسكرية تحسباً لأية طوارئ ، وكان وصول فاسكودي جاما في رحلته الأولى إلى الهند ١٤٩٨ م قد وصل إلى مصر كميناً سراً قبيل وصوله إلى البرتغال كنياً سار (١) ، وكانت الأمور تقتضي على سلاطين الدولة المملوكية القيام بنشاط عسكري كبير في المحيط الهندي منذ اللحظات الأولى لوصول البرتغاليين ، ولكنهم كانوا في شغل شاغل عنهم وعن مشروعاتهم ، هذا فضلاً عن أنهم لم تكن لديهم معلومات سابقة عن نشاط البرتغاليين على سواحل افريقية الغربية ، ولا عن محاولاتهم الوصول إلى الشرق عن طريق رأس الرجاء الصالح ، والملفت للنظر هنا أنه على الرغم من انتشار التجارة المصرية في سواحل افريقية الشرقية ، فإن أي من المؤسسات

(1) Miles, S.B.: The Countries and Tribes of the Persian Gulf 138, London 1966.

التجارية الموجودة هناك لم تكن تعلم لهذا زارهم فاسكودى جلما فى رحلتهم
١٤٩٧ - ١٤١٨ م ، وما هو الطريق الذى سلكه (١) .

وفى الواقع أن مصر خاصة فى تلك الأثناء ، وبالتحديد ابتداءً من
السنوات ٩٠٢ هـ - ١٤٩٦ م كانت تمر فى ظروف وأوضاع داخلية لا تحسد
عليها ، فالى جانب أن الدولة المملوكية كانت بصفة عامة تقترب من نهايتها
المحتومة إلا أنه كان على سلاطينها أن يحصدوا نتاج ما قامت عليه دولتهم من
أسس لا تمت الى واقع الهلاك بصلة .

ولعل أهم ما يميز دولة المماليك فى تلك الفترة والتي كانت تقوم عليها
مقومات دولتهم هى الاقتصاد والجيش ، لأننا بألقائنا الضوء على هذه
العناصر سوف تعطينا المجال للتعرف على مدى قوة المماليك ومقدرتهم على
مواجهة البرتغاليين كقوة جديدة تتبع بالنشاط ، لأن المماليك وعلى الرغم
من انحسارهم نحو الشيخوخة لم يتورعوا عن بذل كافة جهودهم فى سبيل وقف
هذا الخطر ، اذ من الملاحظ أن تحويل طرق التجارة الدولية لصالح البرتغال
لم يكن عاملاً مهماً فى انهيار النظام المملوكى بقدر ما كانت عوامل الضعف
الداخلية هى التى أثرت فى انهيار نظم حكمها ، وكانت دولة المماليك عندما
رأت أن الطرق التجارية مريحة انصرفت اليها ، وأهملت الدعامات القديمة
للاقتصاد المصرى (الزراعة) (٢) ، ولعل هذا الإهمال راجع الى عوامل منها
كثرة الكوارث الطبيعية ، والتي من أهمها انخفاض منسوب مياه النيل ، وما

(١) الشاطر بصلى عبد الجليل : تاريخ وحضارات السودان الشرقى

والأوسط ، ٤٥١ .

الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة . ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م .

(٢) د . نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ٣٧٠ ، ٣٧١ .

يؤدى ذلك من مجاعات وأوبئة فظيعة تشل معها حركة مصر ، ومن أفضح تلك الأوبئة الطاعون الذى أصاب مصر فى عصر السلطان قايتباى (١) ، وقضى على آلاف الأشخاص فى يوم واحد بالقاهرة ، وما نتج عنه من نقص فى المـوئـن وانتشار الأمراض فى الماشية (٢) ، اضافة الى هذا كثرة الحروب الأهلية بين المماليك وما يؤدى ذلك اليه من كوارث (٣) ، وأخيرا عدم اتاحة الوقت ولا التشجيع اللازمين للفلاحين فى سبيل تطوير نشاطهم الزراعى (٤) ، ولو أنها استعانت بأرباح الطرق التجارية فى سبيل تطوير أراضيها الزراعية لأمكنها الاستفادة من اقتصادها حين هاجمها البرتغاليون ، ولكنها فعلت العكس مما أدى الى انهيارها ، ولا يحصى ذلك أنهم كانوا شرا على البلاد ، فقد أقاموا مقاييس للنيل وطهروا الترع وأنشأوا الجسور وحسنوا وسائل الري ، ولكن كثرة حوادث السلب والنهب واغارات البدو ، كانت تعيقهم أحيانا عن الاستمرار فى تطويرهم الزراعى (٥) ، أما الجيـشـ المملوكى فلم يكن أداة للمحافظة على سلامة الدولة فقط من أى اعتداء ، وإنما كان كيانا حرنيا واقتصاديا فى الوقت نفسه (٦) .

(١) تولى الملك الأشرف قايتباى المحمودى الطاهرى الحكم يوم السادس من شهر رجب ٨٧٣ هـ ، وهو السادس عشر من ملوك الجراكسة ، وتوفى فى السابع والعشرين من ذى القعدة ٩٠١ هـ .

(2) Stanley Lane-Pool: A History of Egypt in the Middle Ages 398.

(٣) د . على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ٤٩٧ .

(٤) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٥) المرجع السابق ، ٤٩٥ .

(٦) د . صبحى لبيب : التجارة الكارمية وتجارة مصر فى العصور الوسطى ٤٢ مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية . المجلد الرابع . العدد الثانى . ١٩٥٢ م .

تألف الجيش المملوكى فى ذلك الوقت من أربع فئات وهى :
 فئات المماليك السلطانية ، وهم طوائف كثيرة أهمهم القرانصة وهم
 مماليك السلاطين السابقين ، ومن ثم الجلبان وهم المماليك الذين يتم
 شراؤهم للسلطان الحاكم ثم السيفية وهم مماليك الأمراء الذين ينقلون الى
 السلطان بسبب وفاة أو عزل أو مصادرة تلحق بأسيادهم السابقين^(١) ثانياً :
 مماليك الأمراء وأرباب الدولة والوظائف ويعرفون باسم أجناد الدولة ،
 أجناد الحلقة ، أما الفئة الرابعة فهى التى تضم أبناء السلاطين والأمراء
 والمماليك الذين نشأوا وتربوا فى دار الاسلام وحمل معظمهم أسماء عريضة^(٢) ،
 ونحن من استعراضنا هذا أردنا أن نوضح عناصر الجيش المملوكى لأنه ومن
 خلالهم سنرى كيف أن دولة المماليك عانت كثيراً بسبب هذه التقسيمات
 الطبقية ، خاصة فى وقت كان فيه نظامهم لا يعترف بمبدأ الوراثة ، وهذا
 بدوره ما نقل الصراع الى الجيش فتعرضت فرقه ووحداته لموايل الانحلال ،
 وتفشت بين صفوفها أسباب التفرقة^(٣) ، ويضاف الى ذلك تعمد كل سلطان
 منهم بعد توليه الحكم سياسة الاهتمام بمماليكه دون غيرهم من السابقين
 مما أضاف عوامل جديدة ساعدت على ضرب وحدة الجيش فى صميمه^(٤) ، ولعل
 خير دليل يؤكد هذا ما حدث خلال معركة مرج دابق من فتن بسبب الجلبان

-
- (١) د . السيد الباز الحرينى : الفارس المملوكى ٤٧ .
 مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد الخامس ١٩٥٦ م .
 — د . محمود رزق سليم : الأشرف قانصوه الغورى ٤٤ .
 سلسلة أعلام العرب عدد ٥٢ توزيع مكتبة مصر ، القاهرة .
 (٢) د . السيد الباز الحرينى : الفارس المملوكى ٤٧ .
 (٣) محمد عبد المنعم السيد الراقى : الغزو العثمانى لمصر ٨١ .
 مؤسسة شباب الجامعة للنشر ، الاسكندرية .
 (٤) المرجع السابق ٨٠ ، ٨١ .

والقراصنة ، والتي فى النهاية أدت الى تسهيل الأمر للمسلمانيين فى تلك
المعركة (١) .

وجملة القول تلك هى الحالة العامة التى وصلت اليها مصر بقيادة
المماليك ، ولكن هناك اشارة مهمة يجب أن نشير اليها ، وهى ما الذى
حدث فى الفترة من وصول البرتغاليين الى المحيط الهندى عام ١٥٠٣ هـ -
١٤٩٧ م الى أن تولى السلطان النورى السلطنة عام ١٥٠٧ هـ - ١٥٠١ م ،
اذ على الرغم من أن هذه الفترة قصيرة الزمن ، وهى كغيرها من الفترات التى
موت بها مصر تحت حكم المماليك ، إلا أن معناها فى الأحداث السياسية
فى المحيط الهندى كان له معنى كبير ، لقد تمكن البرتغاليون من الوصول
الى الهند ومعرفة الطريق اليها ، لهذا كان لابد من التساؤل ماذا حدث
فى مصر ، هل غفلت عنهم ، أم أنها أحداث أقوى من ارادتها ، أم أنهم
يعلمون وليس لديهم المقدرة على الوصول الى الهند ، ونزع جذور البرتغاليين
قبيل تعمقها فى التربة الآسيوية ، لأن الغزو البرتغالى كان يحتاج من
بدايته الى يد قوية تمنع وتصد ومن ثم تطارد ، ولكن الذى حدث هو
أنهم هم الذين قاموا بالمنع والصد ومن ثم طاردوا .

والواقع أننا نستطيع الاجابة على ذلك ، فيما اذا حاولنا تبسيط
الأحداث السياسية الداخلية فى مصر عقب وفاة السلطان قايتباى (ت ١٤٩٦م)
الى أن تولى النورى السلطنة ١٥٠١ م باعتباره أول السلاطين المماليك
جهادا للبرتغاليين ، وأول ما يلاحظ على هذه الفترة أى الخمس سنوات
ما بين وفاة قايتباى وتولى النورى السلطنة انها كانت فترة سياسية مضطربة
حكم فيها السيف بكل من تولى السلطنة حتى مجئ النورى ١٥٠١م .

(١) د . أحمد فؤاد متولى : الفتح العثمانى للشام ومصر ومقدماته ١٥٩٠ .
دار النهضة العربية . القاهرة .

فمقب وفاة قايتباي تولى العرش ابنه محمد ، والذي لم يكن قد
تعدى الرابعة عشر من عمره ، وهذا بدوره ما جعله قنطرة أو مطية للمطامع ،
فتنافس على الوصاية عليه ممالك أبيه القايتابية ، وتمثل الصراع بين شخصيتين
هما الأتابك تراز والأخير قانصوه خمسمائة ، وانتهى ذلك الصراع بفوز
الأخير وسجن الأول ^(١) ، لبدأ صراع جديد عندما قام قانصوه خمسمائة
بحزل محمد بن قايتباي وتولى مكانه يوم الأربعاء ١٨ جمادى الأول ٩٠٢ هـ
— ١٤٩٧ م ^(٢) ، من هذا نرى انه لم تكن تمر سبعة أشهر من وفاة قايتباي
حتى شغل العرش بتنافس المتصارعين عليه ، وكان من الطبيعي ووسط تلك
الفرص السياسية أن تنتقل آثارها الى طبقات المجتمع المصري ، إذ استفل
بعض الممالك تلك الفرصة وأصبحوا يحيشون على ابتزاز أموال الناس باسم
الجامكيات وثققات البيعة والحملات ، هذا بخلاف الفساد الذي استشرى
بين صفوف القضاء الذين اتبعوا طريق الرشوة لحل قضايا رعاياهم ^(٣) . وما
لبث الصراع أن نشب على الحكم للمرة الثالثة عندما جمع محمد بن قايتباي
أنصاره وعلى رأسهم خاله قانصوه بن قانصوه ، الذي أعاده الى دست الحكم
عقب مقتل قانصوه خمسمائة ^(٤) ، ومرة أخرى يتعرض سكان القاهرة والأقاليم
الزراعية لتمسف ممالك محمد بن قايتباي وظلمهم والذين تبادوا هذه المرة ،

(١) د . ابراهيم على طرخان : مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة . ٤٠ .

مكتبة النهضة المصرية . القاهرة . ١٩٦٠ م .

(٢) د . أحمد حسين : موصوفة تاريخ مصر ج ٢ . ٧٨٩ .

مطبوعات دار الشعب . القاهرة . ١٩٧٢ م .

(٣) د . حسين مؤنس : سفارة بدر ومارتير في أنجلاريا سفير الملكين الكاثوليكيين
الى السلطان قنصوه الفوري (ديسمبر ١٥٠١ —

فبراير ١٥٠٢) ص ٤٤٢ .

مقال ضمن أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة . مارس — أبريل ١٩٦٩ م .

الجزء الأول — مطبعة دار الكتب . القاهرة . ١٩٧٠ م .

(٤) د . ابراهيم على طرخان : مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة . ٤١ .

وقاموا بسلب العائمة والاعتداء على المطرة (١) ، وكان على سكان القاهرة أن يتحملوا ضربة جديدة تمثلت في ولاء الطاعون الذى أخذ يفتك بالسكان ، وكأنه على موعد مع مالك محمد بن قايتباي في زيادة شقاء القاهرة ، كان ذلك في وقت وصل فيه البرتغاليون الى ساحل شرق افريقية وقاليقوت - رمضان ٩٠٣ هـ / ابريل ١٤٩٨ م - ولكن الصراع الرابع كان قد جذب اليه طوائف المماليك الأخرى ، عندما أخيكث المؤامرات ضد محمد بن قايتباي والتي انتهت بقتله يوم الأربعاء خامس عشر من ربيع الأول ٩٠٤ هـ وانتخاب خاله قانصوه بن قانصوه سلطانا في نفس اليوم (٢) .

والحديث بعد ذلك عن الصراع السياسى على عرش السلطنة في مصر ، وحتى تولى الخوري ١٥٠١ م طويل ، إلا أننا قدمنا نموذجا للفترة الهاقية ، والتي استمر فيها التنافس على شاكلة ما ذكرناه سابقا من مؤامرات ودسائس وبذابح ، جنى حصادها سكان القاهرة والصعيد من خلال حالة البؤس التي أوصلوهم اياها مع نهاية القرن الخامس عشر الميلادى .

وكانت السنوات الأولى من القرن السادس عشر الميلادى (العاشر الهجرى) بمثابة الانذار الأول لتدهور موارد مصر الاقتصادية ، ففي تلك الفترة تدافعت الحملات البرتغالية وراء بعضها نحو الهند ، فعندما عاد فاسكو دى جاما الى بلاده ١٤٩٩ ، خرج الفاريز كابرال ٩٠٦ هـ - ١٥٠٠ م فى حملة ضخمة ، كان ذلك فى وقت لم تستقر فيه الأوضاع السياسية فى القاهرة ،

(١) د . ابراهيم على طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ٠٤٤

(٢) أحمد حسين : موسوعة تاريخ مصر ج ٢ ٧٩٠ .

(٣) د . ابراهيم على طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ٠٤٤

- أحمد حسين : موسوعة تاريخ مصر ج ٢ ٧٩٠ .

ولكن فى الأول من شوال ٩٠٦ هـ - ٢٠ أبريل ١٥٠١ م وصل السلطان
الفورى الى الحكم ، وكانت الأمور تقتضى عليه أيضا القيام بنشاط وافـر
للوقوف فى وجه البرتغاليين ، ولكنه أهمل ذلك وانغمس فى دوامة الحكم
واتجه اتجاه من سبقه من السلف فى محاولة توطيد النفوذ لنفسه ، بحيث
أصبح شغله الشاغل القبض على كافة أنصار السلطان الذى سبقه العادل
طومان باى (١) ، وهذا بدوره ما عطل مصالح الدولة ، وعلى الرغم من
أن الفورى تمكن من قتل العادل طومان باى ، إلا أنه اتبع ذلك بمحاولة
التخلص من الشخصيات الخطيرة التى يمكن أن تكون مصدر قلق له ولحكمه ،
وذهبت تلك الشخصيات إما ضحية للسجون أو للسياف (٢) ، والغريب
أن السلطان الفورى فعل ذلك فى وقت ترسبت فى ظل عرشه مساوىء العصر
الملوكى وتخلفت فيه كل عوامل الضعف والانحلال وليس من دليل يدل على
ذلك من كونه تولى الحكم وخزائن الدولة خاوية تماما بعدما استنفدت الفتن
والحروب بين قادة الممالك والرشوة ما فيها (٣) ، ولم يكن أمامه سوى
الشعب الذى كان لا يزال يعاني من جراح الماضى ، ليجمع منهم بوسائل
القوة ، فأخضع للضرائب السلطانية المباشرة جميع الأراضى والحمائم
والسواقي والطواحين والقوارب كلها أخضعها لنظام الضرائب (٤) ، ولم
يلبث الفورى أن تعرض لمحنة داخلية أخرى شغلته عن الأحداث الخارجية ،
وذلك عندما ثارت عليه طوائف الممالك الذين أنفقوا عليه فى طلب
أعطياتهم المالية المفروضة لهم عند ولاية أى سلطان ، والتى كانت تسمى

(١) د • محمود رزق سليم : الأشرف قانصوه الفورى ٤٨ •

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة •

(٣) المرجع السابق ، ٦٧ •

(٤) د • نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ٣٠ •

بنفقة البهيحة (١) ، وكان الثورى قد اعتذر لهم فى الأيام الأولى من حكمهم عن دفع تلك الاعطيات بسبب خلو الخزنة ، وطلب منهم بعض التيسير ، ولكن المشهور نمت دون أن يحصلوا على شئ ، فتركوا إلى الشوارع ، وهاجموا البيوت والمتاجر وشهروا ما فيها ولم يوقفهم عن الاستمرار فى ذلك سبب سوى تدخل الثورى بعد أن وعدهم بأن يفي لهم بأعطياتهم (٢) ، كان ذلك فى وقت خرج فيه فاسكودى جاما ١٥٠٢ هـ - ١٥٠٢ م بحملته الثانية نحو المحيط الهندى وشرق أفريقيا ، فبدأ فاسكودى جاما بتنفيذ تعليمات مليكه بضرورة سدا مداخل البحر الأحمر ، ولما ستراه فى الفصول القادمة .

من هذا نرى أن الأزمات التى مر بها الثورى منذ توليه الحكم سواء من المالىك أو الأجناد اضافة الى الأزمات المالية وفترات عـرب الصحراء ، كل هذه حالت الثورى عن رسم سياسة معينة لمواجهة الأخطار الخارجية (٣) ، ففى تلك الظروف التى كانت تجبر الثورى على اعداد جنسده وتسليحهم ، نجده يضطر الى تشتيت تلك الجهود فى ميادين بعيدة عن الهدف الأساسى فمثلا فى شعبان ٩٠٨ هـ - ١٥٠٢ م نجد أن الأوضاع فى البحر الأحمر فى تلك الفترة تقتضى أن نجد تعاوناً اسلامياً موحداً لجميع الصف ومواجهة الفارى الجديد ، ولكن الأمر اختلف عندما جـمـع

-
- (١) د . حسين مؤنس : سفارة بدر ومارتير دأنجلاريا ٤٥٠ .
 أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة . المجلد الأول .
 (٢) أحمد حسين : موسوعة تاريخ مصر ج ٢ ٧٩٣ .
 (٣) د . حسين مؤنس : سفارة بدر ومارتير دأنجلاريا ٤٤٨ .
 - أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة . المجلد الأول .

الجازاني^(١) جموع الأعراب وهاجم بهم مكة ، ولعب في أهلها بالسيف على حد قول ابن اياس^(٢) ، ونهب البيوت وقطع طريق الحج ، حتى لقد غادر معظم سكان مكة ديارهم وتشبتوا^(٣) ، وهكذا انعكست الأمور فبدلاً من إرسال الجيوش لحماية الأماكن المقدسة الإسلامية من البرتغاليين نجده يرسلها لحماية المسلمين من المسلمين ، ففي شوال ٩٠٨ هـ - ١٥٠٢ م أرسل الفوري قوة من ستمائة مملوك بقيادة الأتابكي قيت الرجبى تمكنت من قتل الجازاني في شعبان ٩٠٩ هـ وإرسال رأسه إلى مصر^(٤) .

وعودة إلى آثار الغزو البرتغالي للهند والتأثيرات المباشرة له في حياة مصر فلعلها تنضح من خلال إحدى الوسائل التي أرسلها سفير أسبانيا لسدى

(١) الجازاني أحد أخوة الشريف بركات الثاني الذي كان يحكم مكة في تلك الأثناء وقد خرج على أخيه ونارعه الحكم ٩٠٨ هـ وانتهت ثورته تلك بقتله في شعبان ٩٠٩ هـ .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ج ٤ ٤٧ .
- بن فهد المكي (عبد العزيز بن عمرو بن محمد ، توفي ١١٢٩ هـ) : بلوغ القرى في ذيل أتحاف الوري بأخبار أم القرى (مخطوطة) ورقة ١٣٣ .

(٣) المرجع السابق ، نفس الجزء ٤٨ .

(٤) أحمد حسين : موسوعة تاريخ مصر ج ٢ ٧٩٤ .

- ابن اياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ج ٤ ٦٢ .

(٥) عقب سقوط غرناطة ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م انتقل فرديناند وايزابيلا إلى مهاجمة السواحل المغربية ، وقابل سلاطين المغرب هذا العدوان بتوحيد صفوفهم وكاتبوا الفوري وطلبوا منه الانضمام إليهم ، والقيام بطرد تجار الفرنج المقيمين بدولته وخلق كنيسة القيامة في وجه المسيحيين ، وعند ما وصلت هذه الأنباء إلى فرديناند بادر إلى محاولة إحياء مساعيهم فأرسل عام ١٥٠١ م بيير مارتيردي أنجليرا سفيراً لدى الفوري ، حيث حاول اقناعه بحسن معاملة ملكه للمسلمين الذين آثروا الإقامة بأسبانيا ، وأنه يسر الهجرة لمن يرغب منهم الرحيل إلى شمال إفريقيا .

- د . أحمد السيد دراج : الماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري ،

الفوري في الثامن من يناير ١٥٠٢ م إلى أحد أصدقائه أنه من خلال تلك الأسطر نستطيع أن نرى كيف أن البرتغال تمكن خلال حملتين حربيين ١٥٠٠ كبرال ، ١٥٠٢ فاسكودي جاما قد تمكنت بالفعل من إلحاق الضرر بما تبقى لدولة الماليك من أسس اقتصادية ، ويقول السفير في تلك الرسالة " لقد طفت كثيرا بنواحي مدينة الإسكندرية هذه ، وأن تأمل خرائبها ليعتد على البكاء — وفي رأيي وحسب ما تدل عليه بقايا عمرانها الماضي يمكن القول بأن الإسكندرية كان فيها فيما مضى مائة ألف دار وأكثر ، أما اليوم فلا يكاد يبلغ عدد دورها أربعة آلاف ، ويحشش في خرائبها اليوم واليمام والحمام بدلا من الناس " (١) .

ولما كان من دوافع خروج البرتغاليين إلى الشرق منافسة البندقية في تجارتها مع أوروبا كمرحلة من مراحل الصراع الخفي على المسارح الأوربية ، كان من الطبيعي أن يشارك البنادقة دولة الماليك في نتائج تحول التجارة عبر رأس الرجاء الصالح ، بخلاف نقطة واحدة يتميز بها البنادقة عن الماليك وهي أن أوضاعهم الداخلية كانت مستقرة ولم يشاركوا الماليك ذلك الانهيار الذي شمل أنظمتهم السياسية ، بدليل أن البنادقة كان يحلو لهم مساعدة الماليك لولا خوفهم من جمهرة الرأي الأوربي ضدهم ، وحاولوا مرات عديدة إيقاظ الماليك للتنبه للأخطار المحيطة بهم ، ولكن دون جدوى فقد أصبحت دولة الماليك دولة لا حيوية لها ولم يجد لديها المقدرة على مواجهة المشاكل الكبرى (٢) ، ومن ذلك أن البندقية أرسلت في عام ١٥٠٢ م بعثة

(١) د . حسين مؤنس : سفارة بدرو مارتير دانجلاريا ١٤٥٢ .

— أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة . المجلد الأول .

(٢) المرجع السابق ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ .

برئاسة بلديتو سانودو Benedetto Sanoudo استعرضت مع الفوري
الوضع الاقتصادي سواء في القاهرة أو في البندقية نتيجة وصول البرتغاليين
إلى المحيط الهندي (١) ، وجهين أنظاره في الوقت نفسه نحو خطورة
ذلك على عملاء البندقية في أوروبا والذين بدأوا بالفعل بالتوجه إلى لشبونة ،
ويقال بأن البندقية قدمت العديد من المقترحات لحل تلك المشاكل منها أنها
عرضت عليه حفر قناة تصل البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط (٢) ، وأن
يقوم الفوري بإرسال بعثة إلى الهند للمحافظة على العلاقات التجارية ، مع
محاولة اقناع أمراء الهند باقتال مواليهم أمام البرتغال (٣) ، ومن خلال
هذا الاقتراح الثاني الخاص بإرسال بعثة إلى الهند نستطيع أن نقول أن
الفوري وزعماء البندقية لم يدركوا تماما ما هو الوضع السياسي للهند في تلك
الفترة التي توالى فيها الأساطيل البرتغالية مدمرة ومخرقة للموانئ الهندية
التي ترفض التعامل مع البرتغاليين في وقت لم يعرف فيه الهنود قط المدافع
النارية والأسلحة الحديثة التي طالعها استجد الهنود من أجلها القاهرة ،
وأخيرا عرض البنادقة اقتراح نشتم منه رائحة المصلحة الاقتصادية لبلادهم ،
عندما طلبوا منه جلب كميات كبيرة من التوابل بأسعار قليلة ، وتخفيض الرسوم

(١) د . نعيم زكي فهمي : طرق التجارة الدولية ٣٧٨ .

(٢) د . حسن عثمان : البحر الأحمر كطريق تجاري في عهد البيزنطيين
والحرب والماليك ٧٢ .

— مقال ضمن كتاب رحلة كلية الآداب إلى البحر الأحمر ، القاهرة ،
١٩٣٩ م .

(٣) د . إبراهيم علي طرخان : مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ٢٩٤ .
— د . حسن عثمان : البحر الأحمر كطريق تجاري في عهد البيزنطيين
والحرب والماليك ٧٢ .

(٤) د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثماني الأول لليمن ٦٠ .

الجموكية عليها حتى يستطيع البنادقة منافسة البرتغال^(١) ، وأجابهم الفسورى من واقع ما كان يشمر به وما يدور حوله من مشاكل بضرورة تعا ونهم معه — من طريق امداده بالأسلحة والأخشاب لبناء الأساطيل اللازمة^(٢) ، وفى الحقيقة كان الفسورى مجبرا على طلب معونتهم الحربية ، نظرا لأن الأسطول البحرى فى ذلك الوقت كان يعانى من الركود والضعف بسبب نقص مواد بناء السفن من خشب وحديد ، والتي منعت البابوية تصديرها الى مصر بقرارات الحرمان التى أصدرها البابا ضد مصر حتى لا يجد الممالك الفرصة لتقوية أسطولهم ، إضافة الى تحريم ارسال الأسلحة الخاصة بالجنود^(٣) ، وعمل البنادقة من جانبهم على محاولة عرقلة النشاط البرتغالى ، طالبا أن أصحاب الشأن غافلون عنه ، فكلفوا سفراءهم فى البرتغال بالعمل على الحط من شأن ملك البرتغال لدى السفراء الهنود فى البرتغال ، ومحاولة نشر الشائعات عن فقر البرتغال وضعفها^(٤) ، ولكن دون جدوى ، فقد أثبتت البرتغال أنها وان كانت صغيرة وتعانى من نقص فى السكان ، إلا أن بحريتها أثبتت مدى قوتها —

(١) د . نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ٢٦ .

(٢) د . أحمد السيد دراج : الممالك والفرنج فى القرن التاسع الهجرى ١٣٣ .

(٣) توفيق اليوزكى : تاريخ تجارة مصر البحرية فى العصر المماليكى ١٣٢ ، ١٣٣ .

— كانت العلاقات المملوكية الأوربية قبيل الغزو البرتغالى أمرا يثير الكنيسة التى كثيرا ما عقدت المؤتمرات مع بعض الدول الأوربية وأصدرت قراراتها ان كل من يبيع للمسلمين الحديد والسلاح والخشب السذى تهنى منه السفن أو يعمل عندهم فى قيادة السفن ، فانه يحرم من الخفران وتصادر أمواله وتسلب حريته الشخصية ، ولكل من يقبض عليه أن يتخذ رقيقا .

— محمد الصغير عبداللطيف : العلاقات بين مصر وأوروبا الجنوبية —

١٦٦ رسالة ماجستير لم تشر ، جامعة القاهرة .

(٤) د . ابراهيم على طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ٢٩٣ ،

وتصميمها على تنفيذ مبرراتها ، لقد نقلت البرتغال مجال النشاط واستعملت القوة من البحر الى البحر ، في وقت كانت فيه دولة المماليك دولة تقوم أساساً على القوة البرية حيث اشتهر عنهم بأنهم كانوا فرساناً أشداء ، ولم يملكو تلك الخبرة في القتال البحري على نطاق المحيطات والتي أتقنها البرتغاليون على امتداد سواحل المحيط الهندي .

ومع توالي الاستفاثات الهندية من قبل سلطان كجرات والولايات الإسلامية الأخرى في الهند ، ومن حكام جنوب الجزيرة العربية (١) ، التجسّس الفوري الى الوسائل الدبلوماسية في سبيل علاج الموقف بأن أرسل سفولسيرة دبلوماسية برئاسة الأسقف

Fra Mauro di san Bernardion مورودي سان برناردينو رئيس رهبان الفرنسيسكان بدير صهيون ، ومعه راهبان الى ملوك وأمراء أوروبا وبابا روما ، لاندأروهم بأن يكف البرتغاليون عن أعمالهم العدوانية في مياه المحيط الهندي وإلا فانه سيضطر الى قتل كافة الفرنج في بلاده اضافة الى اغلاق كنيسة القيامة (٢) ، وقد انزعج لذلك بابا روما يوليوس الثاني وأرسل السفير الى ملك البرتغال ليمشج لهم الأسقف مضمون بحثه ، غير أن تلك التهديدات لم تلق أية أهمية ، لأن ممالك البرتغال طلب من البابا ألا يهتم بتهديدات الفوري لأنه ليست لديه القوة الكافية لتنفيذ هذه التهديدات (٣) ، اضافة الى أن الفوري لن يستطيع

(1) Lane-Pool: A History of Egypt in the Middle Ages 352.

(٢) د . أحمد السيد دراج : المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري ، ١٣٤٠

(٣) د . نعيم زكي فهمي : طرق التجارة الدولية ٢٨ ، ٢٩ .

القيام باضطهاد المسيحيين ومنعهم من الحج حتى لا يفقد ما كان يجمعهم
لخزينة الدولة من الضرائب المفروضة على الحجاج المسيحيين^(١) ، وكوسيلة
لإثارة النعرة الصليبية لدى البابا أخبره أيضا أن الهدف من عملياته في الشرق
هو نشر المسيحية ومد سلطة البابا الى تلك المناطق .^(٢)

وأزاء فشل جهود الفوري الدبلوماسية ، قرر الاتجاه نحو القوة الحربية
لعلاج الموقف ، خاصة بعد ورود أنباء من الهند عن ازدياد أعمال القرصنة
البرتغالية ضد السفن التجارية ، وما يتعرض له الحجاج المسلمون من قتل
وذبح . وبذل الفوري وسط تلك الأوضاع جهودا كبيرة في سبيل انزال
الأساطيل البحرية الى البحر الأحمر حيث اشتركت معظم الترسانات البحرية
في بناء ما يلزم من سفن سواء في ترسانات السويس أو الروضة أو بسولاق ،
ولا ننسى أن نشير هنا كذلك الى مدى تأثير العوامل الداخلية والخارجية
في سبيل عرقلة مشاريع الفوري الحربية ، ومن ذلك تعرض الثغور المصرية
أثناء اعداد الأساطيل الى غارات القراصنة الفرنج ، وفي مقدمتهم فرسان
الاستبارية المشهورين بعدائهم للمماليك ، وذلك بقصد تحقيق هدفين
وهما أولا إتاحة الفرصة للأسطول البرتغالي لمهاجمة السفن المتجهة نحو
البحر الأحمر مما يؤدي الى قطع المؤن عن مصر ، ثانيا إعاقة الفوري عن
بناء الأساطيل الحربية لمحاربة البرتغاليين^(٣) ، هذا إضافة الى بعض

(1) Liver-More: Portugal and Brazil 192.

(2) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 84.

(٣) توفيق سلطان اليازجي : تاريخ تجارة مصر البحرية في العصر المماليكي

المتاعب الداخلية مثل تعرض القوافل التجارية بين السويس والاسكندرية الى قطاع الطرق من قبائل العرب (١) ، ففي الوقت الذي كان فيه الغورى يجد صعوبة في سبيل تجريد حملة الهند ، نجد أن الأوضاع السياسية سواء في بلاد الشام أو الحجاز تجبره الى جانب ذلك على اعداد حملات أرسلها الى الكرك بسبب ثورات عليان بنى لام (٢) ، أما الحجاز فعلى الرغم من نجاح المماليك في التخلص من ثورة الجاراني ، إلا أن أحد حلفائه ويدعى يحيى ابن سبع أمير ينبع رفع راية المصيان مرة أخرى ، وأخذ يقطع طريق الحجاج لدرجة أن السلطان الغورى أصدر أوامره عام ٩١١ هـ - ١٥٠٥ م بعدم سفر المحمل والحجاج الى مكة خوفاً عليهم من يحيى بن سبع (٣) .

وفي السادس من جمادى الآخرة ٩١١ هـ - ١٥٠٥ م أُلحقت أول حملة مملوكية من ميناء السويس بقيادة حسين الكردي ، وقد تكونت من جنسيات مختلفة منهم المبيد والراكمة والمغاربة ، وأبناء الأمراء المتطوعين ، إضافة الى المماليك السلطانية (٤) ، على أنه يؤخذ على طبيعة تكوين الحملة تلك الفئات المختلفة من الجنود التي تكونت منها الحملة ، إضافة الى عدم تحديد شخصية معينة لتولى أمور الحملة سواء في البحر أو في البر

-
- (١) توفيق اليوزمكي : تاريخ تجارة مصر البحرية في العصر المماليكي ١٣٢ .
 (٢) ابن اياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ج ٤ ٨٢ .
 (٣) أحمد حسين : موسوعة تاريخ مصر ج ٢ ٧٩٥ .
 (٤) ابن اياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ج ٤ ٨٥ .
 - د. محمود رزق سليم : الأشرف قانصوه الغورى ١١٤ .

فلما جلبت حسين الكردى كان هناك للخوارج نور الدين على المسلاتى
المغربي الذى وكل اليه قيادة المغاربة ، وهذا بدوره ما أدى الى التناقص
كما سنرى فيما بعد .

وصلت الحملة مع نهاية عام ٩١١ هـ الى ينبع ودار بيشما وبين يحيى بن
سبح معارك شديدة انتهت بهزيمته وفراره بعد مقتل معظم أنصاره
واحراق منازلهم فى ينبع (١) ، ومن ينبع اتجه الكردى الى جدة حيث
اتخذها كقاعدة للأسطول ، وشرع فى بناء التحصينات التى كنا قد أشرنا اليها
من قبل والتي استغرقت تسعة شهور (٢) ، وفى الوقت نفسه كان الخوارج
نور الدين على المسلاتى المغربي قد اتجه ببعض الوحدات البحرية الى
سواكن ودهلك ، حيث تم تحصين سواكن ضمن مخططات الحملة فى سبيل
تحصين للبحر الأحمر قبيل الخروج الى الهند (٣) ، ولكن الأمور ما لبثت
أن تأزمت فى جدة بسبب النزاع الذى نشب بين الكردى والخوارج المسلاتى
ودون شك فان الخلاف لا بد وأنه نشب من أجل التناقص على زعامة الحملة ،
وهو أمر اشتهر به معظم القادة فى البحر الأحمر سواء من المماليك أو العثمانيين
كما سنرى فيما بعد .

(١) أحمد بن محمد بن يعقوب الامام : السلاح والعدة فى أخبار بندر جدة ورقة

— بن فهد المكي : بلوغ القرى فى ذيل اتحاد الورى بأخبار أم القرى ورقة ١٦٠ .

— يذكر أحمد حسين فى كتابه موسوعة تاريخ مصر ج ٢ ص ٢٩٦ أن الفورى

أرسل جيشا خاصا يختلف عن حملة الكردى قضى على فتنة يحيى بن سبوح .

(٢) أحمد بن محمد بن يعقوب الامام : السلاح والعدة فى أخبار بندر جدة

ورقة ٨ ٩ ١٠ .

(٣) بن فهد المكي : بلوغ القرى فى ذيل اتحاد الورى بأخبار أم القرى

ورقة ١٦٢ .

— د . فاروق عثمان أباطة : عدن والسياسة البريطانية فى البحر الأحمر

٣٩ . الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة

١٩٧٦ م .

كان من نتيجة ذلك الصراع أن تأخرت الحملة فترة من الزمن عن تحقيق بعض الأهداف التي جاءت من أجلها ، وما أن وصلت أنها تلك المنازعات إلى الفوري حتى يادر إلى إرسال قوة من رجاله قبضت على السلاحي وأعادته إلى القاهرة (١) ،

من تلك المشاغل السابقة التي تعرضت لها حملة حسين الكسبردي نستطيع أن نتبين مدى تأثيرها سواء في القوة الأساسية لها من رجال وعتبات وذخيرة ، والتي استهلكت سواء في القضاء على فتن يحيى بن سبع أو فتن تحصيل سواكن ، والأهم من ذلك كله تلك الفترة الطويلة التي قضتها الحملة في جدة ، في وقت كان لابد فيه من سفرها إلى الهند للمشاركة في أحداث المحيط الهندي قبيل وصول أعمدة الاستعمار البرتغالي إلى الهند أمثال البورك ودالميدا وداكها ، الذين توزعوا فيما بينهم البراكسيسز القيادة في الهند والخليج العربي ومدخل البحر الأحمر وشرق إفريقيا ، وليس ذلك الوصف من أجل رفع شأنهم والتقليل من شأن الكردى وإنما نستطيع القول بأن هؤلاء القادة ، كانوا من أشد القادة الذين نفذت بهم البرتغال إلى المحيط الهندي تعصبا ضد الاسلام والمسلمين ،

وفي شهر ذي الحجة ٩١٢ هـ - ١٥٠٢ م ألق الأسطول المملوكى من جدة في طريقه إلى الهند فمروا بجيزان التي تزودوا منها بما يحتاجونه ثم أقبلوا إلى كمان ومنها إلى المخا ثم إلى عدن حيث أضافهم أمورها

(١) بن فهد المكي : بلوغ القرى في ذيل اتحاد الوري بأخبار أم القرى ورقة ١٢١ .

مرجان الطاهري ، وأكرمهم وبعد أن تزودت الحملة بما تحتاجه من مؤن دخل
الكردي نحو الهند (١) .

وفي عام ٩١٤ هـ - ١٥٠٨ م وصل حسين الكردي بسفنه الى الهند ،
واتخذ طريف رأسا نحو ديو (٢) ، ولحسن حظ البرتغاليين ، كانت سفن
الزامورين حاكم قاليقوت قد بدا عليها التعب من طول انتظارهم للأسطول
المصري فعادوا الى قاليقوت (٣) ، وفي ديو استقر الأسطول المصري
والذي كان يتكون من ثلاثة عشر سفينة ، منها ستة أغرسة وغلين واحد
وست سفائن كبير ، وقد انضم أمير ديو Diu مالك آيساس
Melique Az بأسطوله الى الأسطول المصري (٤) ، ويبدو أن الهدف
الأساسي من اختيار الكردي لديو كقاعدة له هو رغبته في أن يكون قريبا من
الزامورين أقوى الراجح في الهند ، وبالتالي تسهيل مهمة الاتصال بين
الأسطولين المصري والزاموري (٥) .

وفي أواخر يناير ١٥٠٨ م تقابل الأسطول الاسلامي مع الأسطول
البرتغالي بقيادة Lorenzo de Almeida ابن نائب الملك

(١) الكبسي محمد بن اسمعيل : اللطائف السنية في أخبار السالك اليمنية

مكتبة كورسني بايطاليا ، تحت رقم ٥٨٠٣٦٢ ورقة

— نورالدين عيسى بن لطف الله : روح الروح فيما حدث بعد المائة
التاسعة من الفتن والفتوح ورقة ٧٠

(٢) ديو جزيرة صغيرة طولها سبعة أميال ، تقع قرابة شاطئ الهند عند

جوجيرات - Bailey, Winus: Foundations of the portuguese Empire 236.

(٤) د د سعاد ماهر : البحرية في مصر الاسلامية وآثارها الباقية ١٣١ ، ١٣٢ —
دار الكاتب الحربي للطباعة والنشر ، القاهرة

- Bailey, Winus: Foundations of the portuguese Empire 236.

(٥) ك م بانينكار : آسيا والسيطرة الغربية ٤٣

فى الهند فى شىول (١) ، وفى تلك المعركة التى استمرت يومين ، حاول البرتغاليون فيها الصمود على ظهر السفن المصرية ، إلا أنها باءت بالفشل حيث انتهت المعركة بانتصار الأسطول المصرى ومقتل القائد للبرتغاليين لورنزو ، ولم ينجو من الأسطول البرتغالى سوى سفينتين انتهزتا فرصة الفوضى التى أعقبت اغراق سفينة القيادة البرتغالية وتواجهت الى المقاعدة البرتغالية فى كوشين Cochin . (٢)

كان لذلك الانتصار أثر معنوى كبير ، ففى القاهرة أمر الخورى بسدق الموسيقىات ثلاثة أيام متوالية ، أما فى المحيط الهندى ، فقد كانت فرصة مناسبة انتهزها كثير من التجار وأخذوا يتقلون ما بين الهند والبحر الأحمر بسفنهم مستغلين ما تعرضت له البحرية البرتغالية ، وإن كانت الدوريات البرتغالية المنتشرة عند مدخل البحر الأحمر تعترض بعض تلك السفن (٣) ، وأرسل الكردي طالبا دعمه بالجنود والسفن الحربية لمواجهة الموقف الجديد الذى أعقب انتصاره ، ولم يتردد الخورى فى سبيل تلك المطالب ، حيث استعرض فى النيل ستا من السفن الحربية كننت للترسانات قد انتهت منها (٤)

-
- (١) تقع حاليا على الساحل الهندى الغربى جنوبى بومباى .
 - (٢) على التاجر : الربان أحمد بن ماجد - دفاع وتقييم ٥٣٨ هـ .
مجلة العرب . الجزء السادس . السنة الخامسة . ذوالحجة ١٣٩٠ هـ ،
فبراير ١٩٧١ م .
 - (٣) عقب هزيمة البرتغاليين فى موقعة شىول امتنع كثير من التجار الأجانب عن الوصول لمصر والشام حتى لا يتهموا فى العالم المسيحى بمساعدة السلطان ماديا ضد البرتغال .
 - د . نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ١٩٠ .
 - (٤) أحمد حسين : موسوعة تاريخ مصر ج ٢ ٧٩٧ .

هذا بخلاف ترسانة مدينة الطور التي كانت تلقى من الغورى احتلماً بالغماً ،
ففى الحادى عشر من محرم ٩١٥ هـ - ١٥٠٩ م أرسل علاء الدين نائلاً
الخاص فى مهمة تتعلق بالإشراف على الدراكب التى تبنى فيها ^(١) ، وفى
هذا المجال يجب أن نشير الى أن الغورى ومع غياى الكردى فى رحلته تلك
لم يتفائل عن تحصين البحر الأحمر ، ومحاولة توفير كافة الأسلحة ، وخاصة
المدافع التى عفى الغورى بضعها على نطاق كبير ابتداءً من عام ١٥٠٧ م ،
بحيث خصص لها مصنعا خلف ميدان قلعة الجبل ، وما أن يتم الانتهاء من
صنع مجموعات منها ، حتى يحضر تجاربها بنفسه فى جهة تربة الملك العادل
بالريدا نية ^(٢) ، هذا بخلاف حرصه الشديد على تحصين المواقع ذات المراكز
الحساسة على البحر الأحمر ، ومن ذلك أنه أصدر أوامره ٩١٤ هـ - ١٥٠٨ م
الى خاير بك المعمار بالذهاب الى مدينة العقبة (عقبة آيلة) وأن يصلح
معه جماعة من البنائين والمهندسين ، لاقامة بروج وقلاع للدفاع عن المدينة ^(٣) .

ومنذ اللحظة التى خرجت فيها الأساطيل المصرية من السويس ١٥٠٥ م
لم تسلم بحار مصر الشمالية من غارات الفرنجة ، حيث مارس الفرسان الاستبارية
جولاتهم فى البحر الأبيض المتوسط محترضين ومدمرين ما يصل مصر من معدات
حربية ، وليس من الغريب ومع اشتداد الخطر البرتغالى على بحار الحسرب
الجنوبية أن يكون ذلك نوعاً من الاتفاق بين الطرفين ، بدليل علمهم بمدى ^(٤)

-
- (١) ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج ٤ ١٥١ .
(٢) د . عبد الرحمن زكى : الجيش المصرى فى الحصر الاسلامى (١٢٦٠ -
١٨٠٧) ٢٠٨ . موسوعة الجيوش الاسلامية
ج ٢ .
(٣) أحمد حسين : موسوعة تاريخ مصر ج ٢ ٧٩٧ .
(٤) د . أحمد السيد دراج : الممالك والفرنج فى القرن التاسع الهجرى
١١٤ .

حاجة مصر للمتاد الحربى البحرى ، وقد أقلقت هذه الغارات السلطان
الفرى الذى كان منصوفا نحو تركيز جهودده فى البحار الجنوبية ، فكان
عليه وصح هذه الأوضاع تشديد الحراسة على موانئ مصر الشمالية ، وهذا
بالتالى ما أثقل عليه ، وعلى الرغم من قيامه بتلك المهام إلا أن ذلك لىم
يأت بنتيجة تذكر ، ففى عام ١٥٠٥ م تعرضت السفن التابعة للفرى
لأحدى هذه الغارات فى ميناء قبرص حيث ذهب بها القراصنة الى رودس (١)
وسوف نلاحظ فيما بعد وحتى نهاية أيام الدولة المملوكية ، أن تلك الغارات
لم تتوقف فى يوم من الأيام ، وإنما كانت تأخذ أبعادا أخرى سنراها فيما
بعد .

هذا الى جانب أن أسواق القاهرة وحلب ودمشق أصبحت شبه خاوية
من تجارة البهارات والحدود الشرقية والبحرى ، ففى الوقت الذى كان فيه
تجار البندقية لا يملكون الأموال الكافية لشراء كميات البهار الموجودة بأسواق
القاهرة عام ٩٠٤ هـ - ١٤٩٨ م ، ومعدما كانت السفن عند عودتها من
مصر ترك فى مخازنها من المتاجر الشرقية ما قيمته ٣٠٠.٠٠٠ دوكية أصبحت
بعد تحويل التجارة عبر رأس الرجاء الصالح لا تجد عند عودتها من بيروت سوى
أربع بالات من الفلفل ، وعادت خمس سفن من الاسكندرية بحمولة غير كافية لىم
تجدها إلا بمشقة كبيرة . (٢)

-
- (١) د . أحمد السيد دراج : الممالك والفرنج فى القرن التاسع الهجرى ١١٤ .
(٢) شارل ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية ١٥١ .
- د . أحمد السيد دراج : الممالك والفرنج فى القرن التاسع الهجرى ١٠٩ .
(٣) شارل ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية ١٥٢ .
- د . نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ٢٠ .

ومع انتصار حسين الكردي على الأسطول البرتغالي في شيول لم يتجسس
الكردي نحو استغلال الظروف والعوامل التي نتجت عن انتصاره ، ففي الوقت
الذي كان عليه فيه أن يتابع انتصاراته ويهاجم بعض المراكز أو (يحتل)
الاشتباك مع بعض الوحدات التي كانت تبحر باستمرار أمام السواحل الهندية
نجدد يلتزم الهدوء دون أي محاولة لاستغلال ذلك الاضطراب الذي ساد
البحرية البرتغالية في المحيط الهندي ، في وقت كان يبعد فيه عن قاعدته
الأساسية (السويس) آلاف الأميال (١) ، كان هذا في وقت عمد فيه
البرتغاليون الى تقوية أسطولهم لمواجهة الأسطول الاسلامي المتحالف ، خاصة
بعد وصول امدادات جديدة اليهم تمثل في أسطول جديد تولى قيادته
Diego Lopez de sequeir (٢) ، ومع بداية شهر فبراير
١٥٠٩ م خرج الأمير حسين الكردي بالأسطول من جزيرة ديو لمواجهة الأسطول
البرتغالي في عرض البحر ، وفي الثالث من فبراير نشبت معركة ديو الشهيرة
عندما هاجم نائب الملك في الهند فرانسيسكو دالميدا حسين الكردي في
عرض البحر ، وعلى الرغم من ضخامة الأسطول الاسلامي ، إلا أن أهميته
انحصرت في سفن الأسطول المصري المزود بالمدفعية ، وهي نقطة تبي
لها البرتغاليون بحيث ركزوا نيران مدفيعتهم عليها فقط (٣) ، مما أصاب

(١) الشاطر بصلي عبد الجليل : تاريخ وحضارات السودان الشرقي
والأوسط ٤٥٤ .

(٢) د . محمد عبد اللطيف البحراوي : فتح العثمانيين عدن ٤٦٠ .

(٣) د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثماني الأول لليمن ٦٣٠ .

(١)
الأسطول الاسلامى بالتصديق

كان لتلك الهزيمة أثر بالغ سواء فى المحيط الهندى أو فى مصر ، لقد استقرت السيادة البرتغالية ، وأصبح الأسطول البرتغالى قادرا على حمل الجنود الى أى جهة أرادوا طالما أنه لم تعد هناك أى قوة بحرية تستطيع اعتراض وحداتهم البحرية عقب تدمير الأسطول المصرى فى موقعة ديو ، وهذا بالتالى ما قاد البرتغاليين نحو تحقيق الكثير من الانتصارات سواء فى البحر أو فى البحر وفى أماكن متفرقة من المحيط الهندى (٢) ، كذلك فقد أعطى ذلك الانتصار للبرتغاليين الفرصة من جديد لمضاغة جهودهم فى سبيل فرض حصار قوى على مدخل البحر الأحمر لمنع السفن من الدخول والخروج اليه (٤) ، وأخيرا هناك عامل مهم ، وهو أن الطريق الآن أصبح مفتوحا وميسرا للبرتغاليين للدخول الى البحر الأحمر ، وهو الأمر الذى جعل

- (١) يتهم باننيكار فى كتابه آسيا والسيطرة الغربية ٤٣ ، ٤٤ مالك آياز Meliaue Az أمير ديو بخيانة حسين الكردى قبيل معركة ديو عندما منع المدد والمؤن عن أسطول الكردى ، أما الدكتور حسن أحمد محمود فيذكر فى بحثه التهديد البرتغالى لسواحل جزيرة العرب ومصادر دراسته ٦٠٥ يذكر اعتمادا على زين الدين الملبارى فى كتابه تحفة المجاهدين أن هناك اتصال سرى قد تم بين البرتغاليين وبين مالك آياز ، بدليل أن البرتغاليين لم يعرضوا لسفنه بسوء ، بل ركزوا الهجوم على السفن المصرية ، ويستشهد كذلك بقيام مالك بتسليم كافة الأسرى البرتغاليين الذين كانوا فى حوزة الكردى الى القيادة البرتغالية وأن الكردى هرب الى سلطان كجرات خشية أن يقوم مالك بتسليمه للبرتغاليين .
- (٢) ابراهيم حسن : الامام أحمد بن ابراهيم القرن ٧٦ .
- رسالة ماجستير لم تشر ، جامعة القاهرة .
- (٣) د . محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ٤٦ .
- (٤) الشاطر بصلى عبد الجليل : تاريخ حضارات السودان الشرقى والأوسط . ٤٥٥ .

(١) الكردي يتراجع مسرعا خوفا من تعقبه وبالتالي مهاجمة الأماكن المقدسة ، إلا أن كثيرا من جنود الكردي من المماليك لجأوا الى بلاط شاه ملكة بيجابور الإسلامية حيث أمدتهم سلطاتها بالمواد اللازمة لصناعة السفن وتمكنت بذلك تلك الفئات المتخلفة من انشاء سفن حربية أزججت البرتغاليين على امتداد ساحل الهند الغربي ، ولم يتمكن البرتغاليون من التخلص من ذلك الخطر إلا بعد استيلائهم على جوا عام ٩١٦ هـ - ١٥١٠ م (٢) كما سنذكر فيما بعد .

أما في القاهرة فقد هزت تلك الهزيمة الفوري خاصة وهو يسرى أن احتياطيهم من الأموال والسلاح يأخذ في التناقص بينما تزداد قوة البرتغاليين في الهند يوما عن يوم وتتسع أملكهم وتنشط تجارتهم . (٣)

عاد الكردي الى جدة مسرعا قبيل حدوث أى طارئ جديد ، وفي الوقت نفسه محاولا اكمال التحصينات (٤) ، والاستعداد لمواجهة أى غزو محتمل ، ويقال بأنه لم يعد الى القاهرة خوفا من فشله في حملته في الهند

-
- (١) د . محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ١٤٦٠ هـ - يذكر باعلى في مخطوطه التاريخ الأكمل ، رواية غريبة لم نسمع بها من قبل وهي أن الكردي عقب هزيمته في ديو لم يعد الى البحر الأحمر إلا بعد أن دفع له البرتغاليون أموال كثيرة .
- (٢) د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ٧١٠ هـ
- (٣) د . نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ٩١٠ هـ
- (٤) ابن اياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ج ٤ ٢٨٦ هـ

(١) فأقام بجدة ، ويؤخذ على الكردى فى تلك الفترة أنه لجأ الى القسوة مع سكان جدة التى تمثلت فى هدم بيوتهم غصبا وضمها الى بناء السور واجبار التجار على حمل التراب والأحجار اضافة الى ما قام به من مصادرة لأموال التجار والأهالى (٢) ، أما الفورى ، فعلى الرغم من تلك الهزيمة التى تأثر بها تأثرا بالغيا إلا أنه لم يستسلم لها ، وتتضح سياسة الفورى فى سبيل مواجهة تلك النتائج المتخلفة عن معركة ديو فى محاولته التخلص من مشاكله الخارجية على سواحل بلاده فى مصر والشام ، اضافة الى علاج الانهيار الداخلى الذى كان يعجل بدولته الى نهايتها المحتومة ، ذلك أن الفورى وحتى ذلك الوقت ومع فشله فى معركة ديو كان لا يزال يرى أن معركته الحقيقة والفاصلة مع البرتغاليين لابد وأن تكون فى الهند ، ولم يكن يحلم بأن الأحداث سوف تقل صراعه مع البرتغاليين الى البحر الأحمر ، عندما يدخله البوكر عام ١٥١٣ م كما سنذكر فيما بعد . لهذا رأى الفورى وقبيل أى اجراء آخر ضرورة ايجاد وحدة شاملة بين ملوك الهند ليضعوا أيديهم فى يده لـحـلـال الموقف فأرسل بعثة لهذا الغرض برئاسة الطواشى يشير الى الهند مع بداية عام ٩١٦ هـ — ١٥١٠ (٣) ، وتوقفت أخبار تلك البعثة فى اليمن عندما قابلت السلطان عامر بن عبد الوهاب سلطان الدولة الظاهرية فى جمادى الآخرة

-
- (١) د . محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ٤٦ .
 (٢) النهر والى (قطب الدين محمد بن أحمد . ٩١٧ — ٩٩٠ هـ) البرق
 اليماني فى الفتح العثماني ١٩ .
 — منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، الطبعة الأولى . الرياض .
 ١٣٨٧ هـ — ١٩٦٧ م .
 — اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ج ٢ ٣٥ ،
 دار الطباعة المصرية ، القاهرة ١٣١٤ هـ .
 (٣) د . محمود رزق سليم : الأشرف قانصوه الفورى ١١٦ ، ١١٧ .

(١) من نفس السنة ، وعرضت عليه رسائل الفوري وهداياها التي قبلها ورد عليها ،
ويبدو أن البعثة قد عادت أدراجها نحو مصر ، ولم تتمكن من الخروج من باب المندب بسبب الحصار الشديد الذي فرضه الأسطول البرتغالي عند مدخل البحر الأحمر كما ذكرنا من قبل ، والواقع انه حتى ولو تمكنت البعثة من الوصول الى الهند ، فان جهودها سوف تذهب عبثا بتلك التطورات السياسية التي حصلت في الهند عقب موقعة ديو والتي يبدو أن أنباءها لم تكن قد وصلت بعد الى الفوري ، ذلك أن الكثير من الامارات الهندية ، وعلى رأسها جوجيرات وامارة ديو وحلفائهم قد جنحوا الى مهادنة البرتغاليين (٢) وهذا بدوره ما أخرج السلطان الفوري الذي كان عليه بذلك أن يقاتل البرتغاليين بمفرده ، وأن يواجه قوة تفوق قوته مرات عديدة ، وكان من الضروري أن نتجول مع الفوري حتى نستطيع أن نرى طبيعة الأحداث السياسية والمساكن الداخلية التي مرت بها دولة الممالك فيما بين موقعة ديو ١٥٠٩ م ودخول البرتغاليين الى البحر الأحمر لأول مرة عام ١٥١٣ م والتي منعت أوبالأحرى تسببت في تعطيل اعداد القوة اللازمة لارسالها الى الهند عقب فشل حملة الكردي ، ففي تلك الأثناء كان الفوري منصرفا الى محاولة انزال أساطيل جديدة في البحر الأحمر ، ولكن الحصول على الأخشاب اللازمة كانت تمثل مشكلة أساسية خاصة وأن سواحل البحر الأحمر كانت تفتقر الى الغابات ذات الأشجار المناسبة لبناء السفن (٣) ، وكان الخشب الذي استعمل في بناء سفن الأساطيل السابقة يأتي من الاسكندرية على الساحل السوري ، ولكن ترحيله من تلك المنطقة الى السويس كان عملا مزعجا جدا ومكلفا (٤) ، يضاف الى

(١) الكبسى : اللطائف السننية في أخبار الممالك اليمنية (مخطوطة) ورقة ٥٨ .

(٢) د. د. نعيم زكي فهمي : طرق التجارة الدولية ١٠٧ ، ١٠٨ .

(3) Stripling: The Ottoman Turks and the Arabs 30.

- Liver-More: Portugal and Brazil 197.

(4) Liver-More: Portugal and Brazil 197.

ذلك أن جميع المواد الأخرى والمهندسين المختصين كان لابد من حضور بعضهم من الخارج ، وكان لابد من حمل كل شئ بصورة متعبة على ظهرهم جمال عبر الصحراء من القاهرة الى السويس الجديدة ، هذا بخلاف الحديد اللازم لصبه ، وصنع المدافع منه الخاصة بالسفن الحربية والتي وجدت مصر صعوبة في الحصول عليه بسبب قوانين التحريم البابوية كما ذكرنا من قبل ، وعرضا عن ذلك كله فمن خلال تلك المعارك البحرية في المحيط الهندي بين الماليك والبرتغاليين ، كان لابد من صنع سفن كبيرة وقوية على أن تكون خفيفة وبدرجة كافية للسير في البحر الأخير الصعب المشاق (٣) ، وحاول الفوري اللجوء الى البنادقة مرة أخرى لمدد بالأخشاب اللازمة والأسلحة الحديثة ، ولكنهم اعتذروا خوفا من تألب الرأي العام الأوربي ضدهم ، وموجهين أنظاره في الوقت نفسه نحو السلطان بايزيد العثماني (١٤٨١ — ١٥١٢ م) ، الذي رحب بمدد الماليك بما يحتاجون اليه ، ففي سؤال ٩١٦ هـ — فبراير ١٥١١ م وصلت الى بولاق عدة سفن تحمل ما يحتاج اليه الفوري من أعداد كبيرة من المكاجل ، وثلاثين ألف سهم ، وأربعون قنطارا من البارود ، وغير ذلك من نحاس وحديد ، وما يلزم لتسلح السفن وتجهيزها ، مضافا اليها كافة الأموال التي أرسلها الفوري لشراء المعدات السالفة الذكر تقربا الى الله تعالى (٥) ، ومما لاشك فيه ان السلطان بايزيد الثاني بعلمه ذلك انما كان يشارك الفوري مخاوفه من وصول البرتغاليين الى الأماكن

(1) Stripling: The Ottoman Turks 30.

(2) Stripling: The Ottoman Turks 30.

(3) Stripling: The Ottoman Turks 30.

(٤) د . أحمد السيد دراج : الماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري ١١٥

(٥) ابن اياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ج ٤ ٢٠١

— د . أحمد السيد دراج : الماليك والفرنج في القرن التاسع

الهجري ١٢١

المقدسة (١) ، وإلى جانب تلك المشاكل فى سبيل توفير المعدات اللازمة لبناء الأساطيل وتجهيز القوات عانى الفورى من مشاكل جنوده المشاكسين ، ولم يكن ذلك بالشئ الجديد ، فقد عانى منهم الفورى الشئ الكثير منذ وصوله الى الحكم ، ولكن الملفت للنظر انهم كانوا يشاكسونه فى أوقاتهم الحرجة ، وفى الوقت الذى كان فيه عليهم جميعا أن يشاركوه باطنا وظاهرا جهاد البرتغاليين ، نجدهم يتخذون مواقف معاكسة لما هو مطلوب منهم بشوراتهم تلك التى لا تنتهى ، ومطالبهم الدائمة بالرواتب والجامكيات التى تقطع لهم مما أذخره الفورى لمجابهة البرتغاليين ، والغريب أن معظم تلك الفتن كانت تأتى من طبقة المماليك الخاصة به ، والتى حظيت عنده بأعلى المراتب (٢) ، وكان من الطبيعى أن يدركوا هم قبل غيرهم طبيعة ما يواجههم الفورى من مشاكل باعتبار أن أمراء طبقة تلك كانوا فى مجالسه دائما ، إلا أننا نرى العكس بكثرة نفقاتهم ، حتى لقد وصل بهم الأمر الى إثارة الطوائف الأخرى على السلطان (٣) ، الذين شمل الانقسام صفوفهم ، فكان منهم الناصرية والظاهرية والأشرفية والعاذلية ، وبذلك استغل الجميع فرصة تهينة حملات الهند لظهور عصيانهم للفورى طالبين زيادة مرتباتهم (٤)

-
- (١) د . نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ٩١ ، ٩٢ .
 (٢) د . محمود رزق سليم : الأشرف قانصوه الفورى ٤٤ .
 (٣) يبدو أن السلطان الفورى لم يحسن اختيار أفراد طبقة تماما ، فقد كان أفرادها من أم وأجناس شتى لا تجمعهم جامعة ، فكان منهم التراكمة والأعاجم وغيرهم .
 — د . محمود رزق سليم : الأشرف قانصوه الفورى ٤٤ .
 (٤) ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج ٤ ٣١١ .

ففى مطلع عام ٩١٦ هـ — ١٥١٠ م تورد الممالك المقينون بالقلعة ، وابتدأ
أذاهم الى سكان القاهرة حيث رشقوهم بالحجارة ، وطلبوا من السلطان
أن يدفع لكل واحد منهم مائة دينار (١) ، ويرفض السلطان مطالبهم اندفع
الممالك الى متاجر القاهرة ناهيين ومخربين ، وبلغت الفتنة خطورتها عندما
اندفع الممالك محاولين خلع السلطان الخورى لولا أن الفشل دب الى
صفوفهم فثفروا . (٢)

تلك هى الصورة العامة لجند الدولة ، الذين كانوا يشكلون العناصر
الأساسية لحملات الهند ، وصاحب ذلك كما ذكرنا من قبل غارات الفرنج على
السواحل المصرية والشامية سواء فى اعتراض السفن أو فى شن الغارات على
الموانئ المصرية ، ولعل من أخطر تلك الغارات ، التى شنها الاستبارية
فى أواخر الماشى من أغسطس ١٥١٠ م — ٩١٦ هـ فى خليج آياص بآسيا
الصفرى ، وتجلت خطورتها بسبب فداحة الخسائر التى شملت معظم طاقم
القافلة البحرية ، التى لم ينجو منها سوى ست سفن وصلت خاوية ، ولم
يكتف الفرسان بذلك بل انهم استولوا أيضا على الأخشاب التى كانت معدة
على الشاطئ لنقلها الى مصر (٤) ، والغريب أن قائد تلك الغارة قائد
برتغالى يدعى Andre d'Amaral اندريه دامارال مما يثبت
قطعا تواطؤ البرتغال مع الاستبارية (٥) ، وعلى الرغم من أن السلطان
كان يلجأ ازاء هذه الغارات الى القبض على جميع تجار الفرنج ومصادرة

(١) أحمد حسين : موسوعة تاريخ مصر ج ٢ ٢٩٨ .

(٢) المرجع السابق ، نفس الجزء ، نفس الصفحة .

(٣) د . نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ٩٤ .

(٤) د . أحمد السيد دراج : الممالك والفرنج فى القرن التاسع الهجرى ١٤٢ .

(٥) المرجع السابق ١١٦ .

أموالهم وجبسهم كوسيلة للضغط على ملوك أوربا فانها لم تأتى بأى نتيجة تذكر (١).

وعودة الى البرتغاليين فى المحيط الهندى ، فانه كان من المتوقع وعقب انتصارهم على الممالك فى موقعة ديو ١٥٠٩ م أن يلحقوا بقلول الأسطول المملوكى الى داخل البحر الأحمر ، ومن ثم التوجه الى مكة والمدينة كما رسموا لذلك ، غير أن الأحداث السياسية فى المحيط الهندى عقب موقعة ديو أخرت الزحف البرتغالى الى داخل البحر الأحمر لعدة سنوات .

ولعل بداية تلك الأحداث السياسية تتمثل فى وصول البورك البسى منصب نائب الملك فى الهند ١٥٠٩ م — عقب موقعة ديو — والذي تمكن بذلك من تنفيذ كافة مشاريعه الخاصة بتأسيس قاعدة الإمبراطورية البرتغالية الآسيوية بعد موجة من المعارضة فى لشبونة كما سنذكر بالتفصيل فى الفصل القادم ، ولكن يجب أن نشير هنا وبصورة ملخصة الى الأحداث السياسية التى انشغلت بها القيادة البرتغالية فى الهند فيما بين موقعة ديو فبراير ١٥٠٩ م ودخول البرتغاليين الى البحر الأحمر لأول مرة فى فبراير ١٥١٣ م وفى عام ٩١٦ هـ — ١٥١٠ م كان استيلاء البورك على هرمز Hormuz ومن بعدها Goa جوا ، وأما فى عام ٩١٢ هـ — ١٥١١ م كان الاستيلاء على ملقا Malacca ومع بداية عام ١٥١٣ م كان اتجاههم نحو جزر المولوكوس Moluccos وكانتون Canton فى الصين ، وهى التى سنتعرض لها بالتفصيل عند الحديث عن السيطرة البرتغالية

(١) د . أحمد السيد دراج : الممالك والفرنج فى القرن التاسع الهجرى ١١٢٠
2 - Edgar Prestage: The Portuguese pioneers 298, London 1933.

على تجارة المحيط الهندي في الفصل القادم .

وفي فبراير ١٥١٣ م خرجت حملة كبرى من جوا بقيادة الفونسو دي البوكرك تتألف من عشرين سفينة وألف وسبعمائة جندي يرتفالي إضافة إلى ثمانمائة من الهنود المباريين نحو عدن ^(١) ، وذلك أندفع البرتغاليون نحو البحر الأحمر يحذوهم الأمل في تحقيق أهداف اقتصادية بالاستيلاء على عدن لاتخاذها كقاعدة ، ومن ثم التحكم بمدخل البحر الأحمر نهائياً وتحقيق أهدافهم الدينية بمحاولة النزول في مكة والمدينة كما ذكرنا من قبل إضافة الى محاولة الاتصال بالحبيشة وتقديم المساعدة لها ضد المسلمين ^(٢) .

^(٣) كانت عدن تسمى بعين اليمن ، أو دهليز الصين ، وكانت في تلك الأثناء خاضعة للدولة الطاهرية اليمنية على عهد الملك الظاهر عامر بن عبد الوهاب الطاهري ^(٤) ، وكان يحكم عدن أحد موالى الطاهريين ويدعى مرجان الظاهري ز ، وقد اشتهرت عدن بأنها أكبر ميناء تجارى في جنوب بلاد العرب ، وتحيط

(١) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 188-189.

(٢) محمد عبد القادر بامطرف : الشهداء السبعة ٥١ ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ١٩٧٤ م .

— Playfair: A History of Arabia Felix 98.

(٣) تقع عدن على الساحل الجنوبي للجزيرة العربية على خط العرض ١٢/٤٧° شمالاً وخط الطول ٤٥/١٠° شرقاً وتبلغ المسافة بينها وبين بونغاز باب المندب مائة وعشرة أميال شرقى البوغاز ، وهى بذلك تتحكم فى المدخل الجنوبى للبحر الأحمر .

— د . فاروق عثمان أباطة : عدن والسياسة البريطانية فى البحر الأحمر ٢٤ .

(٤) هو السلطان عامر بن عبد الوهاب بن داود بن طاهر ، بن معوضية الأموى ولقبه الملك الظاهر ، صلاح الدين وهو آخر ملوك بنى طاهر .
— النهر والى : البرق اليماني فى الفتح العثماني ١٦ .

بها القلاع من الغرب والشرق والجنوب^(١) ، وبلغ عدد سكانها في تلك الأثناء نحو ستين ألف نسمة ، وكان يسكنها بالإضافة للعرب جاليات هندية وتركسية وصومالية وحبشية ويهودية ، وتعود علاقة البرتغاليين بحدن منذ عام ١٥٠٣ م حينما قاموا بأول زيارة لها عن طريق لودفيكو دي فارتيجا الذي ذكرناه سابقا ، أصاب عدن الاضطراب بسبب ظهور البرتغاليين المفاجيء أمامها ، وأسرع الأمير مرجان^(٢) حاكم عدن ، بإرسال الأخبار الى السلطان عامر بن عبد الوهاب الذي كان منشغلا في تلك الأثناء بمشاكله مع الأمامية الزيدية في شمال اليمن ، والذي ما ان سمع بتلك الأنباء حتى أمر بالقنوت عليهم في الصلوات وخطبة الجمعة ، وأخذ يعد النجدة العسكرية اللازمة لحدن ، وفي الوقت نفسه أمر أمراء الموانئ اليمنية الأخرى بالاستعداد لمواجهةهم والدفاع عن موانئهم^(٣) ، ويذكر المؤرخ البرتغالي قاريا سوزا^(٤) ، انهم عند وصول الحملة البرتغالية الى عدن أرسل اليهم مرجان وفدا يحمل هدية من المكن ، وان البورك كان يأمل من وراء هذه الاتصالات الى استسلام عدن اليه ، غير انه فقد الأمل في ذلك فأصدر أوامره بالهجوم^(٥) ، وفي اليوم

-
- (١) محمد عبد القادر بامطرف : الشهداء السبعة ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ .
 (٢) كان الأمير مرجان حاكما لحدن في أيام السلطان عامر بن عبد الوهاب واستمر في منصبه حتى بعد سقوط الدولة الطاهرية (١٥١٢م) ، وتوفي (٩٢٧ هـ / ٢٠ ، ٢١م) وقد أطلق عليه مرجان الظافري نسبة الى لقب السلطان عامر بن عبد الوهاب (الملك الظافر) .
 — د. السيد مصطفى سالم : الفتح العثماني الأول لليمن ٧١ .
 (٣) الديبع (عبد الرحمن بن علي . ت ٩٤٤ هـ) : قرة العيون في أخبار اليمن الميمون ، ورقة ١١٢ ، مكتبة مركز البحث العلمي بجامعة الملك عبد العزيز بمكة تحت رقم ٢١١٦ .
 — د. السيد مصطفى سالم : الفتح العثماني الأول لليمن ٧١ ، ٧٢ .

(4) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 189.

(٥) لم تشر أي من المصادر اليمنية المخطوطة الى ما ذكره قاريا سوزا .

التالى لوصول الحملة هاجم البوكرك الميناء حيث تم الاستيلاء على كافة البضائع الموجهة على أرضفة الميناء ، وكان الأهالى قد فضلوا الاعتصام بقلعتهم والاقتحام على حصارها الطبيعية ، وعدم خوض أى معركة بحرية مع الأسطول البرتغالى نظرا لضخامته (١) ، واستغل البوكرك تلك الفرصة وأصدر أوامره بالهجوم على قلعة عدن ، وتمكنت مجموعة من البرتغاليين من الاستيلاء على دار قرية من الشاطئ ، حيث نصبوا عليها المدافع التى وجهت فوهاتنا نحو المدينة ، وقتلوا عددا كبيرا من المسلمين واستولوا كذلك على سبعة وثلاثين قطعة مدفعية (٢) ، واتجه آخرون محاولين تسلق الأسوار عن طريق السلالم غير أن محاولاتهم باءت بالفشل بحيث تكسرت سلالم الصعود نتيجة كثرة المهاجمين ، وانحجاز العديد منهم على الأسوار نتيجة لذلك ، مما اضطر البوكرك الى أمرهم بالنزول ، فانسحبوا تاركين وراءهم مائة قتيل بخلاف الأسرى (٣) ، وعند خروجهم من الميناء انتقموا لهزيمتهم باحراق مجموعة من السفن التجارية كانت راسية فى الميناء ، ومن ثم توجهوا الى باب المندب بادئين أول جولة علنية داخل البحر الأحمر . (٤)

والحديث عن فشل البرتغاليين فى الاستيلاء على عدن يقودنا الى محاولة

-
- (١) د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ٧٢٠
 — د . فاروق عثمان أباطة : عدن والسياسة البريطانية فى البحر الأحمر ٤١
- (٢) أبى مخرمة ، أبى محمد عبد الله الطيب : تاريخ ثغر عدن ج ١ ١٦٠
 — Sousa: The Portuguese Asia Tome I 190.
- (٣) الديبع ، عبد الرحمن بن على : قرّة العيون فى أخبار اليمن الميمـون
 (مخطوطة) ورقة ١١٢ .
- باعلوى ، أحمد بن عبد الله بن علوى شنبلى : التاريخ الأكمل ٩٤٠
 — Sousa: The Portuguese Asia Tome I 190.
- (4) Playfair: A History of Arabia Felix 98.

معرفة موقف اليمن من الغزو البرتغالي ، وبالتالي مدى المجهود الذي بذله في سبيل صد الغزو البرتغالي كقوة لها شأنها وذات موقع استراتيجي في البحر الأحمر ، والواقع أن بلاد اليمن وجنوب الجزيرة العربية كانتا من أولى المجتمعات العربية تعرضا لوطأة تحول طرق التجارة العالمية نظرا لقرصهم من ميدان نشاط الأساطيل البرتغالية في المحيط الهندي ، إضافة الى أن بلاد اليمن وجنوب الجزيرة العربية كانتا تمثل إحدى الركائز الهامة في خطط البرتغاليين الاقتصادية لاضفاف العالم الاسلامي ، بحكم الموقع الاستراتيجي عند مدخل البحر الأحمر المسرح التقليدي للبرتغاليين لتحقيق أهدافهم الاقتصادية والصليبية كما ذكرنا من قبل ، وكان الاقتصاد اليمني الذي تقوم عليه دعائم دول اليمن يتمثل في قاعدتين ، أولا : أرباح مرور التجارة من أراضي اليمن وموانئه واشتغال السكان بترويجها على الساحل ، ثانيا : الأراضي الزراعية الخصبة ، ولما تم للبرتغاليين تحويل الطرق التجارية عبر رأس الرجاء الصالح ، لم يكن من المتوقع أن يتجه الشعب اليمني الى أراضي الخصبة التي أنهكت بسبب عدم توفر العناية بها ، إضافة الى الاضطرابات الأمنية التي كانت هناك ^(١) ، وهذا بدوره ما أدى الى انهيار النظام السياسي الذي كان قائما في اليمن في ذلك الوقت ^(٢) ، وتمثل نظام اليمن في دولة الإمامية الزيدية بزعامة الإمام شرف الدين بن يحيى (٩١٢ هـ - ٩٦٦ هـ ، ١٥٠٦ - ١٥٥٨ م) الذي تركزت قوته في المناطق الجبلية الشمالية حول صنعاء وصعدة وثلاث ^(٣) ، أما في جنوب اليمن وتهامة فكانت

(١) د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثماني الأول لليمن ٤١ .

(٢) د . فاروق عثمان أباظة : عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ٣٧ .

(٣) المرجع السابق ، ٤١ .

الدولة الطاهرية ، التي بلغت ذروتها في عهد السلطان عامر بن عبد الوهاب (٨٩٤ — ٩٢٣ هـ ، ١٤٨٨ — ١٥١٧ م) وبذلك أصبح في البلاد نظام سياسي غريب لم تشهده الجزيرة العربية من قبل ، فكان للسلطان مناطق نفوذه وأجناده ، وللأمام مناطق نفوذه وله أيضا دعاة ينشرون نفوذه . (١)

من هنا نشب النزاع بين الأمامية وبنى طاهر في سبيل السيطرة على اليمن الكبرى ، وبذلك شغل الجميع كما حدث في القاهرة عن محاولة مجابهة هذا الغازي ، ولم تساعد الحروب الداخلية السلطان عامر بن عبد الوهاب باعتباره أكثر المتضررين من تحول التجارة على المساهمة في مواجهة هؤلاء الفزاة ، خاصة وان بلاده لم تكن تعرف الأسلحة الحديثة بعد ، إضافة الى الافتقار الى أسطول قوى مسلح يوازي الأساطيل البرتغالية (٢) ، وكان من المفروض أن تكون بلاد اليمن من أولى الدول التي تسعى لوقف هذا التغلغل الذي حرم البلاد من إيرادات ضخمة كانت ترد الى السلطان عامر من مختلف الموانئ اليمنية نتيجة لمرور التجارة بها قبيل الزحف البرتغالي ،

(١) د . محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ١٤٠٠ هـ .
— د . فاروق عثمان أباطة : عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ٣٧٠ هـ .

امتد حكم الدولة الطاهرية من ٨٥٨ — ٩٤٣ هـ ، ١٤٥٤ — ١٥١٧ م وهي تعتبر آخر الدول السنية الجنوبية في اليمن ، وقد انتقل الحكم اليهم على يد على بن طاهر وعامر بن طاهر اللذين كانا يحكما عدن باسم الدولة الرسولية ، ثم استقل بنو طاهر بحكمها في عام ١٤٤٦ م ، وأخذوا بعد ذلك في التوسع شمالا فاجتلا زبيد عام ١٤٥٤ م ، وحاول الامام الزيدى الناصر بن محمد (١٤٣٧ — ١٤٦٢ م) أن يمنع امتداد الدولة الطاهرية في اليمن الا أن قواته اندحرت .

د . عبد الحميد البطريق : من تاريخ اليمن الحديث ١٦٠ هـ ، معجم البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٦٩ م .

(٢) د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثماني الأول لليمن ٥٧ هـ ، ٥٨ هـ .

ولكن الأحداث كانت أقوى منه بحيث لم تتح له مقاومة الزيدية ، وإعلان
الامام شرف الدين امامته أواخر ١٥٠٦ م الفرصة للمشاركة في هــــــ
الأحداث (١) ، ذلك أن الأئمة تنهبوا الى ضعف امكانيات السلطان عامر
الاقتصادية بعد تحول الطرق التجارية عن بلاده فاندفعوا يشاكسونه ،
لهذا لم يكن من الغريب أن يقضى السلطان عامر شطوطه من حياته فسي
ارسال الحملات العسكرية الى جهات اليمن المختلفة للقضاء على الثورات
والاضطرابات التي كانت تشب من قبل القبائل التهامية أو من قبل قبائل
يافع في الجنوب ، اضافة الى تدعيم نفوذه في المناطق الشمالية كما ذكرنا
من قبل ، وكل ما تذكره المصادر عن نشاط اليمن ضد البرتغاليين هو حملة
تتكون من أربعة عشر سفينة ضمت ستمائة متطوع يمني ، وقد خرجت هـــــ
الحملة من ميناء عدن في ٢٧ شوال ٩١٢ هـ - ١٥٠٢ م وصمدت المراجع
عنها ، لأنها كانت فرسة سهلة للبرتغاليين (٣) . وهنا كان لابد لليمن
من قوة جديدة ، تمنحه من أن يصبح قاعدة حربية للأعداء ، فلم يكن من
الغريب أن يلجأ السلطان عامر الى دولة المماليك طالبا معونتها .

أنهى البوكرك اعتداءه على عدن بادئا أول جولة برتغالية في البحر
الأحمر كما ذكرنا من قبل ، وقد احتفل هو ورجاله بوصولهم للبحر الأحمر

-
- (١) د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثماني الأول لليمن ٥٨ .
(٢) د . فاروق عثمان أباطة : عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ٣٧ .
(٣) يذكر باعلوي في مخطوطه التاريخ الأكمل ورقة ٩٠ حوادث ٩١٦ هـ ، أن
خميس وعمرو وأولاد سعيد بن الروايدى دخلوا سقطرة وصالحوا الأفرننج
بها الذين ما لبثوا أن خرجوا على المسلمين بالجزيرة واشتبكوا معهم فسي
قتال قتل فيه من الفرنج عشرة وانتصر المسلمون عليهم .

احتقالا ضخما يدل على مدى فرحهم الشديد باعتبار أن البوكر أول قائد حملة برتغالية يدخل هذا البحر (١) ، حيث مريجزيرة برهم (٢) الصغيرة الواقعة عند مدخل البحر الأحمر ، وأرسل بعثة لاستكشافها ، وعندما وجدها غير ملائمة لاقامة الحصون عليها أحرقها (٣) ، ومن ثم اتجه الى المخل (٤) التي فشل في الاستيلاء عليها ومنها الى البقعة (٥) التي دمرها ، ورغم ذلك فشل في دخولها نظرا لتنبه الأهالي ، ومن ثم اتجه الى الحديدية (٦) إلا أنه لم يستطع أيضا دخولها (٧) ، وازاء ذلك الفشل الذي لاقاه البوكر فكسر في الاتجاه نحو مساعدة الأحباش هادفا القضاء على قوة المسلمين بها ، ومحاولا تهيئة الأمور حتى يجعل من الأحباش الوسيط التجاري لهم في البحر الأحمر ، وفي الوقت نفسه فرصة لتوحيد جهوده معهم ضد المسلمين (٨) ، غير أن الخسارة التي لحقت في الجولة السابقة ، والحالة المعنوية السيئة التي سادت بين صفوف حملته ، وحاجته الى الماء جعلته يتجه نحو

(1) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 190.

(٢) يسميها المؤرخون العرب جزيرة ميون أو برهم كما يسميها المؤرخون الغربيون وتقع هذه الجزيرة في أضيق جزء من باب المندب بعيدة عن عدن بنحو ٩٦ ميلا وتبلغ مساحتها نحو خمسة أميال مربعة .

(3) Angelo Pesce: Jiddah 79.

— د . صلاح العقاد : التيارات السياسية في الخليج العربي ١٥ .

(٤) موضع باليمن بين زبيد وعدن بساحل البحر الأحمر .

(٥) البقعة نقطة على ساحل اليمن .

(٦) الحديدية ميناء في البحر الأحمر على ساحل اليمن .

(٧) الديبع ، عبد الرحمن بن علي : قرّة الصيون في أخبار اليمن الميمون (مخطوطة) ورقة ١١٢ .

— يحيى بن الحسين : غاية الأمان في أخبار القطر اليماني ، القسم الثاني ،

٦٤ . — تحقيق د . سعيد عبد الفتاح عاشور .

(٨) محمد عبد القادر بامطرف : الشهداء السبعة ٥٢ .

جزيرة كموان (١) ، التي حصنها أهلها خشية وصوله ، وهناك صادف أربعة سفن كبيرة محملة بالبضائع أحدها تخص الفوري (٢) ، فقام بأسرها وتمزيق من فيها من المسلمين ، ذلك أن البوكرك ، ولكي يعرض فشله في الاستيلاء على عدن ، كان يطفى ظمأ انتقامه بقطع أيدي وأنوف وآذان أي أسرى يأخذهم من المراكب التي كان يلقاها في البحر الأحمر (٣) ، وهي قاعدة سار عليها الجميع منذ اللحظة التي وصلوا فيها إلى المحيط الهندي ، وهي دلالة واضحة على مدى قوة التعصب الصليبي الذي رافق أعمالهم الحربية في القرن السادس عشر الميلادي ، ومع بداية شهر صفر ٩١٩ هـ - ١٥١٣ م دخل البوكرك كموان وأوقع بمن فيها من المسلمين مذابحه الممهودة وقتل من فيها من أصحاب السلطان عامر بن عبد الوهاب ومن ثم أباحها لجنوده الذين نهبوها (٤) .

أصلبت أنباء دخول البوكرك البحر الأحمر القاهرة بالذ هول ، على الرغم من أن ذلك كان متوقعا الحدوث ، فعمد الفوري إلى مواجهة ذلك الخطر

(١) تقع كموان في أقصى شمال حدود اليمن على بعد ثمانية أميال فقط من الأرض الرئيسية وقبالة زبيد باليمن ، وهي قليلة السكان فلا يزيد عددهم عن الألف ، وكانت تجلب معظم دخلها من صيد المرجان ونقل البضائع في قوارب خفيفة .

- Stripling: The Ottoman Turks and the Arabs 22-23.

(2) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 192.

(3) Stripling: The Ottoman Turks 34.

(٤) عيسى بن لطف الله : روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح (مخطوطة) ورقة ٩٠ .

- Pankhurst: Ethiopia 326.

يذكر فاريا سوزا في كتابه آسيا البرتغالية ج ٢ ١٩٢ أن البوكرك عندما دخل كموان كانت خالية من سكانها الذين هجروها قبيل وصوله إليها .

(١) بأن أصدر أوامره الى حسين الكردي بالتوجه الى جدة والاستقرار في نيايتها حتى يتم اعداد الحملة ، وأعد الفوري فرقاً من طبقة الخاصة وأمرهم بالتوجه الى السويس ، وعين معهم جماعة من التجارين والحدادين من أجل الاسراع في بناء السفن (٢) ، اضافة الى امدادات وفرق عسكرية الى جدة برئاسة الأمير خشقدم خوفاً عليها من هجوم مفاجئ .

وتأهب الفرق العسكرية المملوكية مرة أخرى ووسط تلك الظروف الصعبة من اطلاعة أوامره ، وبلغت درجة عصيانهم انه عندما أراد استعراضهم في الميدان كعادته لم يحضر أي فرد منهم الا بعد أن دفعت له نفقته ، وكان على الفوري الى جانب مشاكلهم أن يتابع خطوات ثورات العربان في القاهرة وضواحيها ، حتى لقد اضطر اراء موقفهم الخطير ذلك أن يلغى بعض الموالد والأعياد ذات المكانة في المجتمع القاهري خوفاً من غارات العربان المفاجئة (٥) ، اضافة الى ذلك انتشار الطاعون في تلك الفترة حتى انه كان يموت بسببه في كل يوم ثلاثة آلاف وكسور ، هذا بخلاف ما جرى لدار صناعة البارود (الزردخانه) اللانتموين مدافع الأسطول وأسلحة

-
- (١) د . محمود رزق سليم : الأشرف قانصوه الفوري ١١٧ .
 كان حسين الكردي قد عاد الى القاهرة في شهر رمضان ٩١٨ هـ —
 ١٥١٢ م بعد غيبة دامت سبع سنوات وثلاث أشهر .
 — ابن اياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ج ٤ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ .
 (٢) كان الفوري قد منع الناس من بيع خشب السنط اللازم لاكمال سفن أسطوله وانطلق جنوده يقطعون أشجار الناس من الخيطان غصبا باليد ويوسلونسه الى السويس لاستعجال بناء السفن اللازمة .
 — ابن اياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ج ٤ ، ٣٥٥ .
 (٣) ابن اياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ج ٤ ، ٣٠٨ ، ٣١٠ .
 (٤) المراجع السابق ، نفس الجزء ، ٣١١ .
 (٥) المراجع السابق ، نفس الجزء ، ٣٠٩ .
 (٦) المراجع السابق ، نفس الجزء ، ٣٠٨ .

(١) قواته عندما شبت فيها النيران وأهلكت العديد من الحاملين بها .

وعودة الى البوكر في جزيرة كمران ، ومع يأسه في محاولة تحويل مجرى نهر النيل كما ذكرنا سابقا ، فكر في غزو مدينة ينبع ميناء المدينة المنورة ومن ثم الاتجاه الى المدينة ومحاولة التعرض للمسجد النبوي الشريف ، ولكن الرياح المحاكمة حالت دون وصوله اليها ، فعمد الى تجويع جدة عن طريق اعتراض سفن المؤن القادمة من بربرة وزيلع ومصوع (٢) ، ومن ثم عاد الى جزيرة كمران لقضاء فصل الشتاء بها ، وفي تلك الأثناء حاول أهالي ساجل عدن مهاجمة البرتغاليين في جزيرة كمران ، وطلبوا من السلطان عامر أن يسمح لهم بذلك وأن يزودهم بالسلاح ولكن طلبهم رفض (٣) .

ومع بداية شهر يوليو ١٥١٣ م رحل البوكر من جزيرة كمران بعدد أن ذبح كافة المواشي الموجودة بها وقطع كل أشجار النخيل ، وأخيرا أحرق المدينة حتى لا تستطيع السفن المسافرة من عدن في طريقها الى مكة من التوقف بها والتزود بما تحتاجه (٤) ، ومن كمران اتجه البوكر نحو عدن محاولا الاستيلاء عليها مرة أخرى ، ومع تحركه من كمران كان قد أرسل مجموعة من سفنه الى زيلع بقصد الاكتشاف والتخريب ، وبوصول سفنه الى زيلع قامت بحرق السفن الموجودة في الميناء إضافة الى ضرب المدينة ، واحراق ما بها

(١) ابن اياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ج ٤ ٣١٤ .

(2) Stripling: The Ottoman Turks and the Arabs 34.

(٣) د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثماني الأول لليمن ٧٥ .

(4) Pankhurst: Ethiopia 326

- Sousa: The Portuguese Asia Tome I 193.

(١) من أخشاب ومن ثم لحقوا بالهوكرك الذى كان يحاصر عدن ، ورابط الهوكرك أمام عدن وأخذ يقصفها لمدة خمسة عشر يوما فخرّب بعضها من بيوتها ، واستشهد العديد من سكانها ، ولم يستطع أن ينال منها ففادها السي الهند ، بعد أن أحرق مجموعة من السفن فى مينائها (٢) ، وعلى الرغم من فشل الهوكرك وخروجه من البحر الأحمر إلا أن الفورى كان يعى تماما نتائج تلك الحملة ، وفى مقدمتها أن البرتغاليون طالما تجرأوا على دخول المعقل الأمامى للممالك ، فان ذلك يعنى أنهم سيحاولون الكرة سنويا اعتمادا على قواعدهم فى المحيط الهندى ، ومن هنا تجددت استراتيجيته القديمة فى ضرورة مواجهتهم فى معاقلم تلك ، وبلغ من شدة اهتمامه بانزال الأساطيل أنه سافر بنفسه الى السويس فى المحرم من ٩٢٠ هـ — ١٥١٤ م حيث أشرف بنفسه على سير الحمل فى انجاز السفن الحربية والتي أنزل بعضها أمامه السي البحر (٣) ، وفى مدينة السويس تجلت روح الوحدة للاسلامية فى ذلك الوقت

(١) عيسى بن لطف الله : روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتن (مخطوطة) ورقة ٩ .

— Sousa : The Portuguese Asia Tome I 193.

(٢) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى ، القسم الثانى ٦٤٠ ، تحقيق د . سعيد عاشور .

— Playfair: A History of Arabia Felix 98.

تذكر الدكتورة سجاد ماهر فى كتابها البحرية فى مصر الاسلامية ١٣١ هـ أن السلطان الفورى أرسل أسطولاً بقيادة حسين الكردى الذى تلاقى مع الأسطول البرتغالى المحاصر لعدن ، وان الكردى حارب وانتصر عليه وأجلاه عنها ، وهذا شئ لم نجد له أى ذكر سواء فى المصادر أو المراجع العربية والأجنبية .

(٣) ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج ٤ ٣٦٥ .

حيث كان العثماني يعمل بجانب المملوكى والقاهرى جميعا تحت قيادة سلمان الرئيس العثماني الذى أشرف بنفسه على انشاء الأساطيل الجديدة ، وبلغ عدد المجاهدين العثمانيين الذين تطوعوا للعمل فى الأسطول المملوكى ألفى مجاهد (١) ، أحيطوا بالتكريم والتبجيل من قبل السلطان الفورى ، وقيل بأن نفقات تلك الحملة وبناء الأساطيل قد صرفها السلطان الفورى من ماله الخاص (٢) ، والتي بلغت نحو أربعمئة ألف دينار وكسور (٣) ، ويجابهه الفورى مرة أخرى مشاكل مماليكه فى سبيل الخروج الى البحر الأحمر ، فهو وأن كان فى السابق يواجه مشاكلهم بسبب رفضهم الخروج دون جامكييات فما عذرهم الآن وقد عرف عنه انه كان يصرف لهم رواتبهم وأحيانا لمبـددة (٤) أربعة أشهر قادمة ، وكأنهم على موعد مع المرض يحتجون به حتى لا يخرجوا حتى انه قيل انه لم يجد منهم سوى ستة آلاف جندى تطوعوا للخروج من تلك الأعداد الهائلة التي ظهرت فيما بعد على ساحة مرج دابق . (٥)

-
- (١) ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج ٤ ٤٦٠ .
 (٢) يقال بأن السلطان الفورى لما خرج لقتال السلطان العثماني سليمان أودع أمواله قلعة حلب فلما مات استولى السلطان سليم على تلك النقائص والأموال التي قدرها المؤرخون بمائة مليون قطعة ذهبية .
 -- توفيق اليوزيكى : تاريخ تجارة مصر البحرية فى العصر المماليكى ١٢٤٠ .
 (٣) ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج ٤ ٣٦٦ .
 (٤) الموجع السابق ، نفس الجزء ، ٤٦٠ .
 (٥) د . محمود رزق سليم : الأشرف قانصوه الفورى ١١٧ ، ١١٨ .
 قدر عدد الجيش المملوكى الذى شارك فى موقعة مرج دابق من ٥٠ ألفى ٨٠ ألف مقاتل .
 د . أحمد فؤاد متولى : الفتح العثماني للشام ومصر ومقدماته ١٥٨ .

من هذه الأوضاع تحركت حملة الهند الجديدة ، حيث تولى سلمان
الرئيس رئاسة القطع البحرية ، على أن يكون الكردي قائدا عاما للحملة ، والتي
أبحرت في رجب ٩٢١ هـ - ١٥١٥ م الى جدة ، وفي الحادى عشر من
شوال ٩٢١ هـ أبحرت الحملة نحو عدن بعد أن تولى الكردي قيادتها
ويساعده سلمان الرئيس (١) .

وتجلت خطة المماليك فى تلك الفترة لحماية البحر الأحمر فى اقامة مراكز
عسكرية تجارية لهم فى عدن تكون بمثابة نقطة انطلاق للحملة المتجهة الى
المحيط الهندى والخليج العربى (٢) ، على أن يكون ساحل بربرة مصدرا
للتأمين والامدادات الغذائية (٣) ، وعندما وصلت الحملة الى جيزان راسل
الكردي السلطان عامر بن عبد الوهاب اعتمادا على مراسلاته القديمة للسلطان
الغورى عندما داهمه الخطر البرتغالى ١٥١٣ م وطلبه معونة المماليك ، وأوضح
الكردي الغرض من حملته فى سبيل مواجهة البرتغاليين طالبا مدة بالأموال
والطعام ، ولم يتلق الكردي أية اجابة على رسائله (٤) ، وعندما وصل
كمران ١٧ ذى القعدة ٩٢١ هـ - ديسمبر ١٥١٥ م واصل اتصالاته
فأرسل الهدايا الى السلطان عامر كما أرسلها الى ابنه وولى عهده فى زبيد
طالبا معونة الحملة (٥) ، الا أن محاولاته تلك فشلت ازاء رفض عامر الذى

(١) د . محمود رزق سليم : الأشرف قانصوه الغورى ١١٨ .
— د . حسن أحمد محمود : التهديد البرتغالى لسواحل جزيرة العرب
ومصادر دراسته ٦٠٦ ، ٦٠٧ مجلة العرب .

(٢) محمد عبد القادر بامطرف : الشهداء السبعة ٥٣ .

(٣) د . محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح الثمانيين عدن ٣٦ .

(٤) د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ٨٢ .

(٥) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

خشى أن يكون ذلك نوعاً من السيادة السياسية على اليمن ، وإزاء رفض عامر بلشرت الحملة في فرض سيادتها على كمران ، أو بالأحرى احتلالها مما كان له رد فعل سيء في نفوس حكام عدن الظاهريين الذين كانت تهامة وكمران تشكلان جزءاً من دولتهم ^(١) ، ودعم الكردي تلك السيطرة ببناء التحصينات والأسوار حول جزيرة كمران كجزء من الخطة العامة المملوكية في إقامة مجموعة من القواعد البحرية عند مدخل البحر الأحمر لمنع وصول البرتغاليين ^(٢) ، ونتيجة لذلك التصرف عمد السلطان عامر بن عبد الوهاب إلى منع وصول المـــواد الغذائية إلى جدة باعتبارها القاعدة الأساسية في تموين الحملة المملوكية بما تحتاجه من مواد غذائية ^(٣) ، وفي الوقت نفسه قام بتدعيم مدنه الهامة خوفاً من هجوم الكردي عليها ، فأرسل جيشاً بقيادة أخيه عبد الملك السبي زبيد وأرسل قوات أخرى إلى الحديدة ^(٤) ، فكانى بالطرفين وقد عجزا عن الاتفاق في سبيل الخروج لمواجهة البرتغاليين في المحيط الهندي ، فقد حولا البحر الأحمر ميدان للخصومة والقتال ، في وقت كانت فيه حكومة نائب ملك الهند تعد عدتها لغزو البحر الأحمر بناءً على أوامر الملك عما نوبيل الذي وردته أخبار تلك الاستعدادات الحربية التي قام بها الفوري ^(٥) ، ولم يخلوا ذلك النزاع من عناصر جديدة تأجج نيران تلك الفتن كطرف ثالث

-
- (١) محمد عبد القادر باطرف : الشهداء السبعة ٥٣ .
 (٢) د . فاروق عثمان أباطسة : عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ٤٣ .
 — Serjeant: The portuguese off the South Arabian Coast 49 .
 (٣) الكبسى ، محمد ابن اسماعيل : اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية (مخطوطة) ورقة ٥٩ .
 (٤) ابن الديبع : قرّة العيون في أخبار اليمن الميمون (مخطوطة) ورقة ١١٠ .
 — ابن الكبسى ، بدر الدين : اللطائف السنية في الأخبار اليمنية (مخطوطة) ورقة ٦٠ .
 (5) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 210.

فى سبيل بعثرة جهود المسلمين فى البحر الأحمر عن السهدف الأساسى ، عندما قام المناوون لحكم الظاهريين فى اليمن بالاتصال بالكردى وجر قواته البرية للاشتراك فى الحروب الأهلية الدائرة بين الزيديين والظاهريين ، ومن انضم الى الزيدية أمثال أشرف جيزان وغيرهم ^(١) ، وكان من الطبيعى أن ينجراف الكردى وراء هذه العناصر الخارجة فى وقت رفض فيه السلطان عامر التعاون معه ، اضافة الى حاجته الى اقامة قواعد عسكرية تنفيذاً لمخطط الحملة السابق ذكره .

كان أشرف جيزان ^(٢) أول من اتصل بالكردى عند مروره بجيزان ، حيث أرسل أميرها أحد اخوته مرافقاً لرحلة الكردى الى جزيرة كمران ، وفى الوقت نفسه تهيئة الأجواء لانزال الحملة الى السواحل اليمنية ، وعندما وصل الكردى الى كمران ، كان الامام شرف الدين امام الزيدية قد باشر بالكتابة اليه محاولاً اثارة الكردى على السلطان عامر بتهمة تعاونه مع البرتغاليين ^(٣) ، نتج عن تلك الاتصالات أن بدأ الكردى فى تهديد عناصر الحملة فى السرايى التى أخذ فى ارسالها لتلبية مطالب الخارجيين على الدولة العمانية ، وفى كثرة ضرب بعض المدن اليمنية بمدفعية الأسطول المملوكى ، فعندما منع السلطان عامر وصول الأطعمة الى الكردى فى معقله الجديد بكمران ، بادر

(١) النهر والى ، قطب الدين : البرق اليماني فى الفتح العثمانى ٢٠ ، ٢١ .

(٢) كان سلاطين الدولة العمانية يعترفون بحكم الأشرف فى جيزان مقابل دفع الخراج سنوياً لهم .

— د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ٨٤ .

(٣) عيسى بن لطف الله : روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح (مخطوطة) ورقة ١١ .

المماليك بضرب الحديد المدافع ، وأتبعوا ذلك بنزولهم الساحل وحملوا ما يقدرون عليه من أطعمة ومواد غذائية ، إضافة الى الأدوات اللازمة لاكمال التحصينات حول كمران من خشب وحديد وخلافه (١) ، ولتج عن تلك الفارة أن مال أمير اللحية أبو بكر بن مقبول الزيلعي الى الكردي ، بعدما سمع بمدى قوة تلك الأسلحة التي لم تصدها الأراضي اليمنية من قبل ، فقابل الكردي في كمران واتفقا على النزول سوية في الأراضي اليمنية ، وأرسل الكردي قوة الى اللحية قادها الأمير الزيلعي الى مدينة مور (٢) من أملاك السلطان عامر واستولوا عليها (٣) ، وبذلك بدأ المماليك في مشاركة اليمن صراعهم الداخلي ، وما لبثت تلك الأحداث أن عجلت بتحقيق التدخل المملوكي في سواحل اليمن حينما بدأت المواجهة الفعلية بين الدولة الظاهرية والحكومة المملوكية بقيادة الكردي ، الذي نزل بنفسه الى السواحل اليمنية على رأس قوة كبيرة من المسلحين بالبنادق ، وبعد هزيمته لقوات الدولة للظاهرية في شمال زبيد تمكن في التاسع عشر من جمادى الأولى ٩٢٢ هـ — ١٥١٦ م من دخول مدينة زبيد التي تعرضت لتصف شديد من قبل أفراد المماليك الذين انتهبوها نهباً فظيماً ، وسفكوا الدماء ، وارتكبوا الحظايم ، وصادروا أهلها (٤)

(١) ابن الديبع : (وجيه الدين عبدالرحمن بن علي) ، قرة الميمون بتاريخ اليمن الميمون (مخطوطة) ورقة ٢٤١ ، نسخة باريس ٦٠٥٨ .

(٢) مور ساحل لقرى اليمن ، وأحد مشارف اليمن الكبار ، وهو رأس تهامة الأعظم .

(٣) ابن الكبسى (بدر الدين) : اللطائف السنية في الأخبار اليمنية (مخطوطة) ورقة ٣٦٤ .

— ابن الديبع : قرة الميمون بتاريخ اليمن الميمون (مخطوطة) ورقة ٢٤١ — نسخة باريس ٦٠٥٨ .

(٤) ابن الوزير (السيد عبدالله بن علي) جامع المتون في أخبار اليمن الميمون ورقة ١٣٩ .

وفي أواخر جمادى الآخر من السنة نفسها توجه الكردي من زبيد الى زليح حيث تم اعداد الحملة الخاصة بـعدن ، وفي أوائل رجب وصلت الحملة المملوكية أمام عدن ، غير أن المدينة وقعت في وجههم (١) ، فاضطر المماليك ازاء هذه المقاومة الى العدول مؤقتا عن احتلال عدن ، وبالتالي تأخير سفر حملتهم الى الهند (٢) .

كان فشل الحملة في الاستيلاء على عدن يعود الى عاملين مهمين وهما فشل القادة في اتخاذ السرية التامة حول أهداف عملياتهم العسكرية ، وهذا من شأنه ما جعل قادة عدن يتخذون وسائل الدفاع المناسبة ، وتحريض السفن اللاجئة الى الميناء على الفرار (٣) ، أما العامل الثاني فهو ما وصل عدن من

(١) عيسى بن لطف الله : روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح ورقة ١٣ .

(٢) يذهب الدكتور نعيم زكي فهي في كتابه طرق التجارة الدولية ص ١٠٩ الى أن الكردي خرج بحملته تلك (الثانية) ٩٢٠ هـ الى جوجيرات ، وأنه اجتمع بسلطانها خليل شاه ، والمحروف ببناء على كثير من المصادر العربية والأجنبية أن حملة حسين الكردي الثانية لم تغادر قط البحر الأحمر ، وإنما انشغلت بمشاكل اليمن ومحاولة ايجاد قاعدة للعمليات الخربية في عدن .

كذلك يشير المؤلف ص ١٤٦ الى انه عقب عودة حسين الكردي ٩٢٠ هـ الى البحر الأحمر استولى على عدن وعين برسباي الجركسي حاكما لها ، وهي معلومات تغاير الواقع تماما .

(٣) د . محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ٥٠ .
في الوقت الذي كان فيه حسين الكردي يضرب حصاره على عدن كسان سلمان الرئيس منشغلا بمطاردة السفن العدنية في عرض البحر .
د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثماني الأول لليمن ٨٢ .

امدادات عسكرية من تمر ، كذلك العون المالى الضخم الذى وصلهم من السلطان محمد بن عبد الله الكثيرى من الشحر (١) ، ومع فشل المماليك فى اتخاذ عدن قاعدة لعملياتهم الحربية كان ذلك مدعاة لتعديل سياسة مصر فى البحر الأحمر (٢) ، فقرر قادة الحملة ضرورة تأمين البحر الأحمر أولا وقيل أى شئ ، ووجد القادة أن هذا التأمين لن يتم الا بإنشاء خطى دفاع ، أما الخط الأول فقد تقرر أن يكون على السواحل التهامية لليمن فاتجهوا الى احتلال بعض المواقع الصغيرة على الساحل التهامى ، بعد أن وجدوا التعجيب الكافى من الامام الزيدى الذى كان يناقش الطاهريين فى سلطانهم ، أما الخط الثانى فقد تقرر أن يكون فى جدة (٣) ، ولم يستمر قادة الحملة كثيرا فى كمران عقب عودتهم من عدن ، اذ رجع كل من الكردى وسلمان الرئيس الى جدة لتركيز الدفاع عنها بعد وصول أخبار تفيد بقرب وصول حملة برتغالية الى البحر الأحمر (٤) ، وفى الوقت نفسه محاولـة الاستعداد لمهاجمة عدن مرة أخرى ، وهنا وقعت كارثة أخرى عندما نشب النزاع بين الكردى وسلمان الرئيس ، وهذا بالتالى ما أدى الى انقسام الأسطول المصرى فتوجه سلمان الرئيس بجزء منه الى زيلع ، وضها الى جدة ،

(١) محمد عبد القادر بايطرف : الشهداء السبعة ٥٤ .
كانت المنطقة التى تقطنها قبيلة الكثيرى تمتد من أراضى العولقى الى المهرة فى الشرق ، ويحدها الريح الخالى شمالا ، والبحر العربى جنوبا ، وكانت تتبعها الشحر والمكلا .

(٢) د . محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح الثمانيين عدن ٥١ .
(٣) محمد عبد القادر بايطرف : الشهداء السبعة ٥٣ ، ٥٤ .
— د . فاروق عثمان أباطة : عدن والسياسة البريطانية فى البحر الأحمر ٤٤ .

(٤) د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ٨٢ .

أما حسين الكردي فقد توجه بالجزء الآخر أيضا الى جدة مارا بالموانئ اليمنية المطلة على السواحل الشرقية للبحر الأحمر^(١) ، وكانت الأخبار قد وردت الى مصر في شوال ١٢٢٢ هـ ، بأن المراكب التي أرسلها الغوري قد غرقت ، وان خلافا قد وقع بين سلمان الرئيس ، وبين الكردي ، وأن كلا منهما توجه الى جهة من جهات الهند ، ولم يعلم له خبر^(٢) ، غير أن الأيام لم تسعف الغوري لتتبع أنباء حملته البحرية الثانية بسبب ما حدث في ساحة مرج دابق مع العثمانيين ، وعندما سمع حسين الكردي وسلمان الرئيس بموت الغوري رغب كل منهما في محاولة تزعم حركة تأييد السلطان العثماني الذي دخل القاهرة بعد ذلك بقليل ، وكان الخط حليف سلمان الرئيس عندما منسح الجنود أجز شمرين فتمكن بذلك من ضم معظم أفراد الحملة الى صفوفهم في حين فر الكردي الى مكة^(٣) ، الذي وردت بخصوصه المراسيم السلطانية من السلطان العثماني سليم بإرساله الى مصر ، وما أن وصل الكردي الى جدة حتى قام الأشرف باغراقه في البحر^(٤) .

(١) د . حسن أحمد محمود : التهديد البرتغالي لسواحل جزيرة العرب ، ٦٠٧ . مجلة العرب .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ج ٥ ١١٥ .

(٣) د . محمد عبد اللطيف البحراوي : فتح العثمانيين عدن ١٤٧ .

(٤) النهر والى ، قطب الدين : البرق اليمني في الفتح العثماني ٢٦ ، ٢٧ . يذكر الدكتور محمود رزق سليم في كتابه الأشرف قانصوه الغوري ص ١١٨ أن سلمان الرئيس عندما اشتد النزاع بينه وبين الكردي قام بقتله ، ومن ثم أكمل طريقه الى جدة ، أما الدكتور حسن أحمد محمود فيذكر في بحثه التهديد البرتغالي لسواحل جزيرة العرب ص ٦٠٧ ، أن سلمان الرئيس هو الذي وردته الأوامر بالقبض على الكردي واغراقه في البحر الأحمر أمام جدة .

ومع نهاية الأدوار الأخيرة للمماليك في صراعهم مع البرتغاليين هناك ملاحظة يجب أن نشير إليها وهي كثرة التحامل على موقف الدولة العثمانية من المماليك قبيل موقعة مرج دابق ومعهدها ، كذلك تلك التهم التي يتعمد بعض المؤرخين الصاقها بسلمان الرئيس ، ووصف موقفه من خلافه مع الكردي بأنه نوع من الخيانة دون توضيح أبعاد تلك الخيانة والنتائج التي خرج منها سلمان الرئيس بخيانتته تلك ، فالمؤرخ البرتغالي فارياس سوزا يذكر في كتابه آسيا البرتغالية ج ٢١٢ بأن سلمان الرئيس ، بعد أن قام بقتل الكردي سلم جدة إلى الأتراك عقب دخولهم القاهرة ، بحيث جعل الأمر وكأنه خطة مدبرة لاستيلاء الأتراك على النفوذ في البحر الأحمر ، حيث يدل على ذلك فيما بعد بقوله بقيام الأتراك بقتل السلطان الفوري ، ويشاركه في ذلك الرأي الدكتور حسن أحمد محمود (١) ، حيث يشترك الاثنان في توجيه اتهام مشترك لسلمان الرئيس بأنه خان المماليك واستلم جدة ، دون محاولة الإشارة إلى وثيقة أو رواية معقولة لادانة سلمان الرئيس ، ويعتمدون في ذلك على الخلاف بين الكردي وسلمان الرئيس ، فلو أخذنا بذلك لوجدنا سؤالا سريعا يفرض نفسه ، وهو لماذا لم يوجه Sousa الاتهام نفسه عندما شب النزاع بين البوكر وأحد ضباط الحملة أثناء عملياتهم الحربية داخل الخليج العربي (٢) ١١٣ هـ - ١٥٠٧ م ، ولماذا لم يوجه الدكتور حسن محمود للمسلاتي المفروض نفس التهمة عندما أعاده الفوري إلى القاهرة كما ذكرنا من قبل ، كذلك لماذا لم توجه التهمة

(١) التهديد البرتغالي لسواحل جزيرة العرب ٦٠٧ - مجلة العرب .

(2) Miles: The Countries And Tribes of Persian Gulf
149.

(٣) أنظر الصفحات ١١١ و ١١٢ من الرسالة .

نفسها لكل من خير الدين حمزة وسلمان الرئيس (للمرة الثانية) عندما خرجا بحملة عثمانية الى اليمن عام ٩٣٣ هـ - ١٥٢٦ م انتهت بتنازع القائدين ومقتلهما كما سنذكر فيما بعد ، كذلك ليس هناك أى مبرر لأن يـقـوم سليمان الرئيس بتسليم جدة الى الأتراك لأنه هوفى ذات نفسه تركى ، فكان الأجدر أن يتسلمها هو وليس غيره خاصة اذا علمنا بأن سلمان الرئيس كان أحد المجاهدين الأتراك الذين تطوعوا للخدمة فى أسطول الفورى ، وأن صمتت المراجع عن كيفية وصوله الى مصر ، اضافة الى ذلك فلو أن بقايا المماليك فى جدة الذين انضموا الى سلمان الرئيس عقب خلافه مع الكردي ، لو أنهم اشتبوا رائحة الخيانة من سلمان الرئيس لقضوا عليه كما فعل زملاؤهم بمصر ، عندما قتلوا حسن بن مرعى الذى خانهم وسلم طومان باى السى السلطان سليم ، فكيف بهم وقد انضموا جميعا الى سلمان الرئيس .

(١) هناك تحليل تاريخى فى بحث التهديد البرتغالى لسواحل جزيرة العرب الذى أشرنا اليه من قبل ذكر فيه أن الجند الذين انضموا الى الحملة المملوكية الثانية فى البحر الأحمر ، كان لفيابهم فى البحر أثر فعال فى هزيمة الفورى الذى حرم منهم ، وأنهم لو كانوا معهم فى موقعة مرج دابق لكان الامر كفيلا بأن يحقق التوازن فى تلك المعركة الفاصلة ، وعودة الى الوراء قليلا نلاحظ أن الحملة الثانية ، لم تتعد فى مجموعها السبعة آلاف جندي ، منهم ألقى متطوع عثمانى ، هذا بخلاف المغاربة ومن شاركهم من المتطوعين ، فلو أخذنا فى الاعتبار المجموع العام للحملة ، بعد حذف المتطوعين من عثمانيين ومغاربة نجد أن عدد المماليك لم يتجاوز الأربعة آلاف جندي ، فهل من المعقول انه كان مقدرا لهذه الأعداد القليلة من الجند نصيب فى تحقيق التوازن الذى يشار اليه فى ذلك البحث .

الواقع أن نتيجة تلك المعركة وظروفها كانت معروفة سلفا للجميع .

ولما كان الحديث عن جهود المسلمين فى سبيل الدفاع عن البحر الأحمر قد تناول دولة المماليك فى مصر ودولة اليمن كان لزاما علينا ، أن نتعرف على مجهودات دويلات الطراز الإسلامى قبيل العصر العثمانى ، باعتبار أن تلك الدويلات كانت ذات ثقل سياسى مشهود لها به على مر السنين على السواحل الغربية للبحر الأحمر بحكم جوارها للبحشة الحليف التقليدى للبرتغاليين .

تكونت تلك الامارات نتيجة عاملين كانت الظروف فى شبه الجزيرة العربية والعالم الإسلامى من ورائهما ^(١) ، فعندما كثرت غارات القراصنة الأحماس على سواحل الحجاز لجأ المسلمون فى عصر الخلفاء الراشدين وبداية العصر الأموى الى وضع قوات لحماية جدة ^(٢) ، فى وقت لم تكن فيه البحرية الإسلامية قد تكونت بعد ، وعندما بدأت تظهر كان أولى أعمالها مهاجمة أوكار هذه العصابات ، وإقامة مجموعة من الخطوط الدفاعية على طريق الاستيلاء على جزر دهلك التى تقع أمام السواحل الحبشية ^(٣) ، من هذا نرى أن اتصال العرب المسلمين بالساحل أمر قد أجبروا عليه ، أى أن المسلمين لم يهملوا إلى الساحل الحبشى كخزاة فى تلك الفترة ، وبوصول بنى أمية إلى الحكم ، نشبت كثير من الثورات ضدهم ، كثورات الشيعة والخوارج فى العراق وما وراء النهرين ، والزييريين فى العراق والحجاز ، ثم فرت أعداد منهم إلى بلاد بعيدة مثل المغرب وخراسان وسواحل

(١) د . زاهر رياض : تاريخ أثيوبيا . ٥٦ .

(٢) د . زاهر رياض : الإسلام فى أثيوبيا . ٥٤ .

(٣) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٤) توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ٣٧٨ . (ترجمة د . حسن إبراهيم حسن وآخرون) مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٧٠ م .
— د . حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام فى القارة الأفريقية ٢٩ .
مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٦٤ م .

الحبشة ، وسواحل شرق افريقية ، والتي كانت خارجة عن سلطة بنى أمية ، الذين ما لبثوا أن تتبعوهم حيث استولوا على بعض الجزر الساحلية أمام سواحل الحبشة (١) .

ولا ننسى كذلك أن العرب أنفسهم منذ القدم كانوا يجدون فى سواحل الحبشة وشرق افريقية ملجأ يلجأون اليه فى بعض الظروف كالسعى وراء الرزق والكسب ، من هذا نرى أن صلة العرب بساحل الحبشة قديمة ، بحيث انهم تعودوا الاتصال بهذا الساحل (٢) ، كان ذلك فى وقت يشق فيه الاسلام طريقه الى سواحل الحبشة وبلاد الصومال وهرربالتدرج ، اذ لم يقتصر نشاط الدعوة على الساحل فقط وانما بدأ يتدرج الى الحدود الغربية ذلك أن الدعاة والتجار كانوا عندما يتعمقون فى الداخل يؤسسون بطبيعة هدوء الأحوال السياسية مناطق نفوذ مقرونة بعلاقات طيبة مع زعماء الأحياء فى سبيل تسهيل مهمتهم (٣) ، وقد بدأ النفوذ الاسلامى لهذه الامارات فى التوطد على السهل الساحلى فيما بين القرنين العاشر ومقتصف القرن الثالث عشر الميلاديين (٤) ، واشتهر من هذه الامارات سبع وهى أولا أوفسات : وتعد هذه الامارة من أقوى السلطنات الاسلامية ، وقد

(١) د . زاهر رياض : الاسلام فى اثيوبيا . ٥٥ .

(٢) د . محمد المحتشم سيد : دول اسلامية فى شرق افريقيا . ٢٧ .
— دراسات فى الاسلام يصدرها المجلس الأعلى للشئون الدينية بالقاهرة
١٣٨٤ هـ — ١٩٦٤ م .

(٣) المرجع السابق ، ٣١ .

(٤) خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين لم يكن للحبشة حكومة مركزية ، وانما كانت عبارة عن امارات يتولى شئون كل امارة حاكم مسيحي ولكن أكثر هؤلاء الحكام من المسلمين الذين لم يجبروا باسلامهم لأن القوانين فى البلاد تحتم أن يتولى كل امارة حاكم مسيحي .
— ابراهيم حسن : الامام أحمد بن ابراهيم القرن ١٦ .
رسالة ماجستير لم تنشر ، جامعة القاهرة .

أسسها قوم من قريش وتقع غرب زيلج وكانت تتحكم في الطريق التجارى الذى يربط الداخل بمينا زيلج فى البحر الأحمر ، وكانت قوتها العسكرية تقدر بنحو ١٥ ألف فارس وأكثر من عشرون راجل وتتبعها امارتان صغيرتان هما مورا وعدال (١) . ثانيا دوارو : وهى تلى أوقات وتقع على حدودها الغربية وطول مملكتها خمسة أيام وعرضها يومان وقوتها تقرب من قوة أوقات (٢) . ثالثا أرابينى : ويقال بأنها كانت تقع فى الشمال الشرقى من بحيرة تانسا ، وطولها أربعة أيام وعرضها كذلك ، وعسكرها نحو عشرة آلاف فارس ، أما الرجالة فيزيدون عن ذلك بكثير وأهلها على المذهب الحنفى (٣) . رابعا هدية : تقع جنوب أوقات ، طول مملكتها ثمانية أيام ، وعرضها سبعة أيام وتعد أيضا من الامارات القوية ، وكانت تملك من الحسكر نحو أربعين ألف فارس سوى الرجالة فانهم خلق كثير مثل الفرسان مرتين أو أكثر (٤) خامسا شرحا : تقع غرب أوقات (بين هدية ودوارو) وطول مملكتها ثلاثة أيام وعرضها أربعة أيام وعسكرها ثلاثة آلاف فارس ورجالته مثل ذلك مرتين (٥) .

(١) القلقشندى ، شهاب الدين أحمد : صبح الأعشى فى صناعة الانشاء ج ٥ ٣٢٥ ، ٣٢٦ . القاهرة ١٩٦٣ م .

— د . عبد الرحمن زكى : الاسلام والمسلمون فى شرق افريقية ٤١ ، ٤٢ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الانشاء ج ٥ ٣٢٦ ، ٣٢٧ .
— المقرئى : أحمد بن على : الالمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام ٧ . مطبعة التأليف القاهرة ، ١٨٩٥ م .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الانشاء ج ٥ ٣٢٧ .
— حمدى السيد سالم : الصومال قديما وحديثا ٣٦٢ ، ٣٦٣ .

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الانشاء ج ٥ ٣٢٧ .
— المقرئى : الالمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام ٧ .

(٥) القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الانشاء ج ٥ ٣٢٨ .
— حمدى السيد سالم : الصومال قديما وحديثا : ٣٦٣ .

سادسا بالى : تقع جنوب دوارو وتعد من الامارات الأكثر خصوبة وأطيب سكا (١). سابعا دارة : تعد هذه الامارة من أضعف السلطنات الاسلامية وطولها ثلاثة أيام وعرضها كذلك ، وعسكرها لا يزيد عن ألفى فارس . (٢)

وكان نشاط أهالى هذه الامارات يعتمد اعتمادا كلياً على التجارة اذ أنهم تمكنوا وسرور السنين من السيطرة على الحركة التجارية ، عندما تمكنوا من التحكم فى الموانئ الساحلية مثل تاجورة وزيلج ومصوع ، اضافة الى التحكم فى الطرق البرية المؤدية من هذه الموانئ الى داخل الحبشة ، بحيث لا تمر تجارة ما الى داخل الحبشة أو خارجها الا عن طريقهم وبرضاهم نظرا لصعوبة هذه الممرات وجهل الغرباء بها . لم تكن تلك السيطرة أمر تصده المسلمون للنيل من الحبشة ، وبالتالي اسقاطها ، وانما كان للظروف التى موت بها المنطقة أثرها الفعال فى احتكار المسلمين لتجارة البحر الأحمر عبر الحبشة ، ويمكن تلخيص هذه الظروف فى عوامل عديدة منها ، أن تلك التجارة بالنسبة للمسلمين على ساكنى الحبشة تمثل الأسلوب الرئيسى للارتزاق والمعيشة نظرا لظروف البيئة (٤) ، فى وقت كان الأحياء أنفسهم لا يمارسونها بحكم طبيعتهم ، الأمر الذى ساعد بدوره

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ٣٢٩ .

- حمدى السيد سالم : الضوالم قديما وحديثا ٣٦٣ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ٣٢٩ .

(٣) د . سعيد عاشور : بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة ٥ .

(٤) ابراهيم حسن : الامام أحمد بن ابراهيم القرين ١٢ .

على تركيز التجارة فى أيدي المسلمين على سواحل الحبشة ، وتكوين ثسروات كبيرة دفعتمهم نحو طريق التقدم الحضارى (١) ، حيث كانت سفنهم تجوب البحار للتجارة ووصلت بضائعهم الى الهند وسيلان وفارس وعدن ، (٢) إضافة الى ذلك تعرض منطقة الحبشة فى القرن العاشر الهجرى لكارثة خطيرة دمرتها ، وتركبتها خاوية على عروشها نتيجة لغزوات جيرانها .

ونتيجة لهذه الأنشطة التجارية أصبحت هذه الامارات الاسلامية خطرا يهدد كيان ملوك الحبشة المسيحيين ، بحيث طوقتها من الجنوب والشرق وكونت حول الهضبة الحبشية سياجا عزلها عن أى اتصال خارجى وأصبح يطلق عليها اسم دول الطراز الاسلامى (٣) ، وهذا بدوره ما أدى بملوك الحبشة الى التكتل داخل هضبتهم والتحصن فيها ، والعمل باستمرار على توحيد صفوفهم لمواجهة الزحف الاسلامى (٤) ، وقد اتصلت هذه السلطنات بالعالم الاسلامى الخارجى عن طريق التجارة والحج ، وسفر الطلاب الى المدينة المنورة ودمشق والقاهرة طلبا للعلم ، حيث أصبحت لهم أروقة خاصة كرواق أهل زيلج بالسجد الأموى بدمشق ، ورواق الجبريتية فى الأزهر الشريف (٥) ، مما كان له أثر عظيم فى انتشار الثقافة العربية فى بلادهم عقب عودتهم ، وتوليهم المناصب الكبرى فى البلاد مثل مناصب

(١) د . سعيد عاشور : بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة ، ٥ ، ٦ .

(٢) د . زاهر رياض : تاريخ اثيوبيا ، ٥٩ .

(٣) الموجع السابق ، ٦١ .

(٤) فتحى غيث : الاسلام والحبشة عبر التاريخ ، ٨٥ .

(٥) د . يوسف أحمد : الاسلام فى الحبشة ، ٢٦ . القاهرة ، ١٩٣٥ م .

— د . ابراهيم على طرخان : الاسلام والممالك الاسلامية بالحبشة ، ٣٣ .
مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد الثامن ، ١٩٥٩ م .

القضاء والشرع^(١) ، ولم يهمل سكان هذه الامارات الزراعة اذ اشتغلوا بها ، وكانوا يعيشون عيشة متوسطة فسادهم متواضعة ، تبنى من الطين والحجارة^(٢) والخشب ، وكانوا محافظين على دينهم ، ومعظمهم يدين بالذهب الحنفى .

وبطبيعة الأحوال كانت السلطنات الاسلامية فى طور النشأة تضطرب أحيانا الى خطب ود ملوك الأحباش ، فكانت تارة ترتبط وديا بهم ، وتارة تفكر فى الاستقلال ، وعلى الرغم من ذلك فانهم كانوا يدفعون سنويا مقادير معينة من القماش والحرير والكتان^(٣) ، أما نظم الحكم فى هذه السلطنات فانها لم تخرج فى مظاهرها عن التنظيمات القبلية ، فكان السلطان منهم يوزع الأراضى الزراعية على جنوده^(٤) ، على أنه يؤخذ على هذه الامارات أنها كانت متفرقة الكلمة ، ولم تكن ترتبطها أى صلة الا رابطة الدين ، بل كانت تحارب أحيانا بعضها البعض ، وبالإضافة الى عوامل الانقسام التى كانت سائدة بينهم ، فقد كانت الأوضاع الجغرافية تسبب بعض المشاكل التى تحول دون اتحادهم ، ومن ذلك انتشارهم فى مساحات شاسعة رديئة

(١) سليمان عطية : سياسة الممالك فى البحر الأحمر حتى نهاية عصر السلطان برسباى ٣٣٠ .

- رسالة دكتوراه لم تنشر ، جامعة القاهرة ، ١٩٥٩ م .
- (٢) د . عبد الرحمن زكى : الاسلام والمسلمون فى شرق افريقية ٤١ .
- (٣) المقرئى : الألبان بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام ٦ .
- كانت البقاع الرئيسية التى يقطنها سلى الطراز الذين يدفعون الجزية لملك الحبشة واقعة فى الأراضى المنخفضة التى تؤلف حدود الحبشة الشمالية من البحر الأحمر غربا حتى سنار ، وفى الجهة الجنوبية والجنوبية الشرقية من المملكة .
- توماس أرنولد : الدعوة الى الاسلام ١٣٢ .
- (٤) الشاطر بصلى عبد الجليل : تاريخ وحضارات السودان الشرقى والأوسط ١٩٠ .
- (٥) د . ابراهيم على طرخان : الاسلام والممالك الاسلامية بالحبشة ٣٤ .

المواصلات تتخللها في كثير من الأماكن قبائل تعكر صفو الأمن ^(١) ، وهذا بالتالى مما أدى الى اضطراب أنظمتهم ، إضافة الى صعوبة تعبئة البحارين وبالتالى تجمعهم فى نقطة واحدة مما جعل مقاومتهم ضعيفة وبالتالى عرضة للانهييار المفاجئ ^(٢) ، بسبب ذلك الانقسام الذى أشرنا اليه ، كذلك لا ننسى أن نشير هنا الى موقف ملوك الحبشة فى سبيل تغيير هذه الامارات عن بعضها البعض ، والعمل على ازدياد انقسام كلمتهم حتى لا يجتمعوا على محاولة النهوض فى وجههم ، وبالتالى فرصة مثاقببة لازدياد تسلطهم على هذه الامارات ^(٣) .

من هذا نرى أن الأسس الحضارية التى قامت عليها هذه الامارات قوية وانها اتخذت نهجا سليما فى حياتها - بغض النظر عن غرقهم - ولو استمرت هذه السلطنات فى طريق التقدم نحو وحدة اسلامية لأمكنها من مساندة حركة الجهاد المملوكى ضد البرتغاليين حين دخلوا البحر الأحمر لأول مرة ، ولكنها تعرضت لسلسلة طويلة من الاضطهادات الحبشية أردتها الى الحضيض ، بحيث لم يسمح لها بموقفها الا بمشاركة ضئيلة مع كل من أوفسات وعدل ، ومشاركة فعالة فى دور هرر كما سنذكر فى الفصول القادمة .

ومن المعروف أن الصراع بين مسلمى الطراز والحبشة قد مر بثلاثة أدوار على التوالى ، فالدور الأول تزعمته أوفسات التى كانت أقوى الامارات

(١) د . حسن أحمد محمود : انتشار الاسلام والثقافة العربية فى افريقية ٤٥٣ .

(٢) المرجع السابق ، ١١٠ .

(٣) د . جمال زكريا قاسم : الأصول التاريخية للعلاقات العربية الافريقية ١٢٥ . مطبعة الجبلاوى ، القاهرة ،

١٩٧٥ م .

كلها ، وكانت قوتها تعود الى أنها كانت تسيطر على الطوق التجارية المتجهة من الداخل الى الساحل وبالعكس^(١) ، وكان دورها بداية من منتصف القرن الثالث عشر الميلادى ، وانتهى باحتلال الأحياء لزيلج الحاصنة ٨١٧ هـ - ١٣١٥ م ، أما الدور الثانى فقد تزعمته عدل والذي بدأ ٨٢٥ هـ - ١٣٢٢ م ، وانتهى دورها كقوة حربية فى عهد ملك الحبشة زرء يعقوب (١٤٣٤ - ١٤٦٨ م) أما السنوات التالية وحتى القرن العاشر الهجرى فقد تميزت بمحاولة سلاطين عدل اللجوء الى مسالمة الأحياء^(٢) ، وظل الأمر كذلك حتى بداية العقد الثانى من القرن السادس عشر حيث تزعمت هزرج الدور الثالث والأخير .

ويجب أن نحدد هنا أن موقف الحبشة من الامارات الاسلامية قد تأثر ابتداء من النصف الثانى من القرن الخامس عشر الميلادى بموامل عديدة منها تلك الروح الصليبية التى انتشرت فى الحبشة عن طريق دبرها فى بيت المقدس خلال الحروب الصليبية مما أدى بالتالى بالأحياء الى تميز صفوفهم ومحاولة مراقبة ذلك التطور الرهيب للامارات الاسلامية^(٣) فالأحياء وعلى الرغم من كثرة غاراتهم على هذه الامارات ابتداء من عهد يكونوا املاك ١٣١٢ م ، فان تلك الامارات لا تلبث أن تعود الى سابق مجدها ، ولم تلبث الروح الصليبية أن تعمقت فى سياسة ملوك الحبشة حينما أرسل زرء يعقوب وفدا يحمل رسالة الى ملك أرغونة الفونس الخامس برئاسة راهب حبشى يدعى ميخائيل لتحقيق بعض المشاريع الصليبية فى وقت كانت

(١) فتحى غيث : الاسلام والحبشة عبر التاريخ ١٠٩ .

(٢) ابراهيم حسن : الامام أحمد بن ابراهيم القرن ١٤ .

(٣) د . حسن أحمد محمود : انتشار الاسلام والثقافة العربية فى افريقية

فيه العلاقات سيئة بين الماليك والقونص الخامس بسبب تشجيعه لقراصنة الفرنج في البحر الأبيض المتوسط (١) ، والتي أظهر فيها القونص الخامس ملك أرغونة استمداده لارسال أسطول مكون من مائة وخمسين سفينة لمهاجمة السواحل المصرية والشامية ، اذا ما هاجم زرع يعقوب حدود مصر الجنوبية وقام بفتح مياه النيل عن مصر (٢) ، ويجب أن نشير هنا كذلك الى أن ملوك الحبشة عندما كانوا يعجزون عن التعبير عن حماسهم الصليبية عن طريق صدام مباشر مع مصر ، كانوا يجدون في امارات الطراز الاسلامي متنفسا لهم في سبيل تحقيق ما فشلوا فيه سابقا (٣) ، واطافة الى ذلك حسد الأحياء للامارات الاسلامية بسبب ما وصلوا اليه من مكانة مرموقة اجتماعيا واقتصاديا بحيث أصبح دأب الأحياء المتواصل هو النيل من هذه الامارات ومحاولة ابادتهم واحتلال ديارهم ، وهذا بدوره ما صادف مقاومة عنيفة من سكان الامارات الذين كثيرا ما حاولوا التحلل من تبعيتهم لهم (٤) ، ذلك أن الأحياء أدركوا منذ بداية القرن الرابع عشر الميلادي ، ومع انتشار الاسلام بصورته الكبرى تلك على سواحل بلادهم في البحر الأحمر خطورة تطور قوة المسلمين فيما بعد ، مما أصابهم بالخوف خاصة وأن تأسيس اماراتهم السابقة الذكر كان على حساب أراضيهم في الحدود الشمالية الشرقية والمناطق الساحلية في وقت حرص فيه أمراء الطراز الاسلامي على التمسك بكل شبر حصلوا

(١) د . أحمد السيد دراج : الماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري ٠٦٦

(٢) المرجع السابق ، ٠٦٧

(٣) ابراهيم حسن : الامام أحمد بن ابراهيم القرن ٠٤٢

(٤) د . سعيد عاشور : بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة ٠٢٧

(٥) د . محمد المعتصم سيد : دول اسلامية في شرق افريقية ٣١ ، ٠٣٢

(١) عليه ، وأخيرا يجب أن لا ننسى أن عدم استجابة سلاطين مصر في بعض الأوقات لرجاء ملوك الحبشة في سبيل تعيين مطران جديد أو إعادة بناء الكنائس مثلا ، كان يؤدي الى انتقام الأحباش من مصر عن طريق سلب الطراز حيث يوقعون بهم اضطهادات شديدة (٢) ، وعلى الرغم من أن المهضبة الحبشية ذاتها كانت تتعرض دائما لمنافسات الأسرة الحاكمة على كرسى العرش ، كانت الامارات الاسلامية تلتقط فيها أنفاسها ، ولكن لا يلبث الأحباش حتى يكتسوا تلك الأنفاس في وقت تكون فيه الحبشة أحوج ما تكون لاصلاح الدمار بها ، والذي ينتج عادة من الصراعات الأهلية ، لهذا لم يكن من الغريب أن تتغلب الروح الصليبية في نفوسهم وتجعل أنظارهم متجهة دائما الى دويلات الطراز الاسلامي .

ومع بداية النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، وحتى مطلع القرن السادس عشر الميلادي كانت تلك الامارات ما ان تفيق من ركودها حتى يجعلها الأحباش كما ذكرنا من قبل بضربة ترددها الى الحضيض ، حيث سار خلفاء زرغوع يحقوب من بعده على سياسته في محاربة سلب الطراز ، وتميزت عهود كل من بشيدا مريام والكسندر وناوود ولبننا دنجل بأنها فترة تناول فيها الطوفان النصر والهزيمة حيث اعتاد كل منهما الاغارة على الآخر ، وحرقت معالمه

(١) كان من جراء تلك الأحقاد الدفينة المتتابعة ان ازداد الأحباش بغضا على بغض للمسلمين ، وأخذوا ينشدون الأغاني الوطنية بوجوب الفتك بهم ومن تلك الأغاني (لقد ولدت هذه البقرة في العام الماضي وتديها في هذه السنة لايزالا ممثلثان . فكيف يطيب لنا العيش اذا لم تذبح هذه البقرة .

د . يوسف أحمد : الاسلام في الحبشة ٤٨ .

(٢) د . سميد عاشور : بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة ٢٦ .

الدينية ، ففي عام ١٤٧١ م قام بئيدا مريام (٨٧٢ - ٨٨٣ هـ ، ١٤٦٨ - ١٤٧٨ م) بالهجوم على زيلع في عهد سلطانها لاداي عثمان Ladai Uthman حيث قضى على جيشها ، وأسر الكثير من أمراء زيلع (١) ، ولم يكن ذلك من الأمور التي يستسلم لها مسلمي الإمارات إذ سرعان ما نهضوا مرة أخرى ، واشتبكوا مع القوات الحبشية عام ١٤٧٨ م ، وألحقوا بجيوش بئيدا مريام هزائم متلاحقة ومزقوا جيشه شر ممزق (٢) ، واتبع ابن بئيدا مريام وخليفته الكسندر (٨٨٣ - ٨٩٢ هـ ، ١٤٧٨ - ١٤٩٢ م) سياسة والده حيث دأب الهجوم على مملكة المادليين في عصر سلطانها شمس الدين بن محمد ، وتناول الطرفان الانتصارات والهزائم حتى لقد دأب الكسندر في كافة غاراته على تدمير المساجد والمنازل (٣) ، وهو الذي في عصره نـُـزل دى كوفلهام أرض الحبشة كما ذكرنا من قبل . وأصبحت تلك السياسة تجاه مسلمي الطواز نهجا . يسير عليه الجميع فعندما تولى Naod ناوود (٨٩٩ - ٩١٤ هـ - ١٤٩٤ - ١٥٠٨ م) الحكم هاجم مملكة بالسي الإسلامية وبألغ في تدميرها ، حتى أنه أجبر قائد جيشها على اعتناق المسيحية ، وكان من الطبيعي أن يحاول مسلمي المدن الأخرى صد ذلك الطوفان ومد يد العون إلى جارتهم بالي ، حيث تمكن السلطان محمد

(1) Spencer Trimingham: Islam in Ethiopia 42, London 1976.

(٢) د . ابراهيم طرخان : الإسلام والممالك الإسلامية بالحشة ٦٥ ، ٦٦ .
 - يقال بأن بئيدا مريام أمر أن يدفن ووجهه جهة الأراض المدلية التي قضى عشر سنوات وهو يحارب لاختضاعها .
 - محمد عبد الله النقيرة : انتشار الإسلام في شرق افريقية ومناهضة الغرب له ٤٥ .
 - رسالة ماجستير لم تنشر ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٥ م .
 (٣) محمد عبد الله النقيرة : انتشار الإسلام في شرق افريقية ٤٥ .

(١) ملك عدل من الانتقام من ناوود وتشتيت جيشه ، ونستطيع أن نصف عصر
لينا دنجل بأنه من أشد حكام الحبشة تعصبا ضد الاسلام ، في وقت كانت
فيه الامارات الاسلامية ما تزال تلتق جراحها ، اضافة الى ذلك دخول
البرتغاليين الى البحر الأحمر ، واحراقهم لزيلع عندما دخله البوكر عام
١٥١٣ ، وأكمل لينا دنجل تحصيه المسيحي بهجومه على مملكة عدل وقتله
لأميرها وحرق مدنها ، وتخریب قلاعها ، حيث حصر المسلمين في مكان
ضيق من الوادي بين فيتجار وعدل ، وقتل منهم ما يقرب من ١٢٠٠٠ ألف
مسلم بينما اعتصم الباقون بالجيال حيث قضى عليهم الجوع والعطش ، حدث
ذلك بينما كان البرتغاليون يهاجمون زيلع وينسحبون منها بعد احراقها ،
لهذا لم يكن من الغريب أن يقف مسلمو الحبشة موقفا سليبا أمام مجهودات
المماليك في البحر الأحمر ، فقد كانوا في حاجة لمن يعينهم على مدافعة
هجمات الأحياء عن أراضيهم لا من يطلب معاونتهم .

(١) محمد عبد الله النقيرة : انتشار الاسلام في شرق افريقية ٢٣٤ .
— د . ابراهيم على طرخان : الاسلام والممالك الاسلامية بالحبشة ٦٦ .

(2) Ullendorff: The Ethiopians 85.

— د . عبد المجيد عابدين : بين الحبشة والحرب ١٨٨ ، ١٨٩ .

الفصل الثالث

البرتغاليون وتجارة الهند

- أ - سيطرة البرتغاليين على تجارة المحيط الهندي.
- ب - خطة البرتغاليين الاقتصادية لإضعاف العالم الإسلامي.

وافق وصول البرتغاليين الى المحيط الهندى ، عدم وجود أساطيل
حربية قوية سواء كانت اسلامية أو فارسية أو هندية فى ذلك الوقت ، فأدى
غياب تلك القوة الى تسهيل الأمر للبرتغاليين فى السيطرة على المراكز التجارية
الاستراتيجية فى المحيط الهندى ، الأمر الذى أدى الى عرقلة حركة التجارة
العالمية هناك (١) ، وعلى الرغم من أن وصول البرتغاليين كان مفاجأة للجميع ،
الا أن رؤية سفنهم المزودة بالمدفعية ، كانت مفاجأة غير منتظرة ولا عهد
للبحار العربية الجنوبية بمثلها ، والتي حملت أيضا الصليب للدلالة على نوعية
الزائر الجديد (٢) .

وكما ذكرنا سابقا فقد صادف وصول البرتغاليين أيضا الى الشرق وجود
مجتمعات عربية مستقرة فى شرق افريقية من سفالة الى مقديشو ، والتي وصلت
الى درجة عظيمة من الثقافة والانتعاش (٣) ، لدرجة أن حضارات هذه
المجتمعات كانت تفوق حضارة البرتغال ذاتها مع مطلع القرن العاشر
الهجرى — السادس عشر الميلادى (٤) ، واشتهر من تلك الإمارات باتى ،
مالندى ، مهبسة ، كلوة اضافة الى بعض المراكز الصغرى فى زنجبار وجزيرة
موزمبيق وسفالة (٥) ، على أنه يؤخذ أيضا على هذه السلطنات كما هو الحال

(1) Livermore: Portugal and Brazil 189.

(2) Livermore: Portugal and Brazil 186.

— ك.م. بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ٢٩ ، ٣١ .

(٣) باذل دافدسن : أفريقيا تحت أضواء جديدة ٢٦٣ .
ترجمة جمال أحمد .

(٤) جيمس دفى : الاستعمار البرتغالى فى افريقية ٨٠ .
ترجمة الدسوقى المراكبى .

— د. جمال زكريا قاسم : استقرار العرب فى ساحل شرق افريقيا ٢٩١ .

حوليات كلية الآداب بجامعة عين شمس ، المجلد العاشر ، ١٩٦٧ م .

(٥) جيمس دفى : الاستعمار البرتغالى فى افريقية ٢٩ ، ٨٠ .

فكما ذكرنا سابقا عن امارات الطراز الاسلامي ، أن امارات ساحل شرق افريقية ،
 لم تكن تربطها أى وحدة سياسية اضافة الى افتقارها الى التنظيمات العسكرية^(١)
 وهذا بدوره ما أوجد صراع دائم بين الحكومة المركزية فى كلوة وبين حكام
 الموانئ ، الأخرى الذين حاولوا الاستقلال بموانئهم وانشاء امارات صغيرة
 على طول ساحل شرق افريقيا .^(٢) وما أن أشرف القرن السادس عشر
 الميلادى على الظهور ، حتى كانت كلوة تسيطر على موانئ الجنوب وتجارته
 بينما اجتاحت الحرب القسم الشمالى من الساحل^(٣) ، وهذا بدوره ما هبأ
 الفرصة للبرتغاليين عند بداية عملياتهم الحربية ، من استغلال نقطة الضعف
 هذه لمد سيطرتهم على طول هذا الساحل .^(٤)

أما جنوب الجزيرة الحربية فنستطيع أن نشير الى أهم وحداته السياسية
 والمثلة فى الدولة الطاهرية (٨٥٩ — ٩٢٣ هـ ، ١٤٥٤ — ١٥١٧ م) ،
 فيما يعرف الآن باليمن الشمالى واليمن الجنوبى على أن وجود الأئمة الزيدية
 فى المناطق الجبلية الشمالية من اليمن الشمالى ، كان دائما يعيق بسنى
 طاهر فى سبيل توحيد اليمن .

-
- (١) د . جمال زكريا قاسم : استقرار الحرب فى ساحل شرق افريقيا . ٢٩١ .
 — جيمس دفى : الاستعمار البرتغالى فى افريقية ٨٠ ، ٨١ .
 (٢) د . صلاح العقاد ، د . جمال زكريا قاسم : زنجبار ٨ ، مكتبة
 الأنجلو المصرية ، القاهرة .
 (٣) د . جمال زكريا قاسم : استقرار الحرب فى ساحل شرق افريقيا ٢٩٢ .
 — جيمس دفى : الاستعمار البرتغالى فى افريقية ٨١ .
 (٤) جيمس دفى : الاستعمار البرتغالى فى افريقية ٨١ .

أما الخليج العربي فكما ذكرنا سابقا أيضا ، كانت هرمز صاحبة أقوى نفوذ في المنطقة ، لهذا دانت لها قبائل السواحل الشمالية ، وسواحل عمان (مسقط ، كليات) سياسيا ، أما في فارس فقد بدأ الشاه اسماعيل الأول (١) في توسيع ممتلكاته في كثير من الأرجاء والاتجاهات مقتربا بذلك من الدولة العثمانية (٢) ، وفي الهند قامت في شمالها ووسطها عدة دول اسلامية قوية بجانب حكومة دلهي بالهندستان (٣) ، فكان في كجرات دولة اسلامية قوية وكانت موافقها من المدن التجارية المهمة على سواحل الهند الغربية ، ومن أهمها ديو والتي كانت دائما محور صراع بين العرب والبرتغاليين (٤) ، كما كان في الدكن خمس ممالك اسلامية قامت على أنقاض الدولة البهنمية الاسلامية (٥)

(١) ولد الشاه اسماعيل يوم الثلاثاء ٢٥ رجب ٨٩٢ هـ / ١٤٨٢ م ، ونجح ملكا على فارس في عام ٩٠٧ هـ - ١٥٠٢ م ، بعد سلسلة من الحروب الأهلية ، وتوفي في ٩٣٠ هـ - ١٥٢٤ م عن عمر يناهز السابعة والثلاثين عاما .

(2) Serjeant: The portuguese off the South Arabian Coast II.
- Livermore: Portugal and Brazil 186-187.

(٣) كانت سنة ٨١٦ هـ - ١٤١٤ م بداية الانهيار لهذه الدولة نتيجة تعرضها للغزو المغولي مما أدى الى انفصال كثير من الولايات عنها مثل مالابار والكجرات .

(4) Serjeant: The Portuguese off the South Arabian Coast
12.

تقع الكجرات الآن شمال ولاية بومباي من ولايات الهند وجنوبها يطل على بحر العرب .

(٥) تحتل اليوم اقليم بومباي وولاية حيدر أباد ، وهذه الممالك هي بـيرار وبيجاور وأحمد نكر وغولكنده وبيرار ، وقد انشغلت فيما بينها بالنزاعات الداخلية اضافة الى مقاومتهم لامراء فيجايا نكر الهنداكة فلم يكن لهم دور فعال في سبيل صد الزحف البرتغالي .

— د . أحمد محمود الساداتي : تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية

ج ٢ - ٢١٩ - ٢٢٦ .

— عبد المنعم النمر : تاريخ الاسلام في الهند ١٧٣ .

هذا عدا الممالك الإسلامية في شرق الهند ، وكان يجاور الممالك الإسلامية في الدكن بعض الممالك الهندوكية وأهمها في الطرف الجنوبي مملكة فيجايانكر (١) التي جمعها مع البرتغاليين نزعة القتال ضد المسلمين ، فكان الإسلام هو العدو المشترك لكل من البرتغاليين والفيجايانكر الذين أبطنوا الحقد للمسلمين منذ سنوات طويلة ، وكانت فرصة سانحة بوصول البرتغاليين للتنفيس عن تلك الأحقاد (٢) ، وهذا ما سوف نشاهده عقب سقوط بجوا بأيدي البرتغاليين عام ١٥١٠م في الصفحات القادمة .

أما ساحل ملبار والذي يقع الى الجنوب من هذه المنطقة فيوجد به عدة راجات منفصلون عن الداخل ، وكان لهم ولاء اسمى للزامورين (راجا البحر) الذي كان يمثل أقوى سلطة سياسية في ذلك الساحل ، وكان مقره في قاليقوط (٣) .

ويجب أن نحدد هنا أن السيطرة البرتغالية كخطة عامة اقتضت أولاً : إقامة قواعد في المحيط الهندي اختلفت فيها آراء القادة ، هل تكون تلك القواعد بحرية لتعزيز الأساطيل المنتشرة على طول الخط التجاري من الهند الى لشبونة أم يلجئون الى قواعد برية محرزة بحاميات عسكرية ، وسوف نرى فسى

(١) كانت تلك المملكة تمتد من جنوب جوا حتى شمال كانور .

(٢) ك.م. بانيكار : آسيا والسيطرة الخربية ٣٤ .

— Oaten: European Travellers in India 55.

(3) Serjeant: The Portuguese off the South Arabian Coast 12.

— تقع قاليقوط جنوب الهند في ساحل ملبار على شاطئ بحر العرب .

فى الاستعراض تلك العلاقات وكيف سارت والى أى مدى انتهت ، ثانيا :
سد مداخل الخليج العربى والبحر الأحمر عن طريق إقامة نقط ارتكاز فى تلك
المداخل لمنع التجارة ، ومن ثم مهاجمة دول تلك البحار الداخلية ، ثالثا :
إقامة قواعد على سواحل افريقية الشرقية لتأمين ذلك الطريق التجارى الطويل
الى لشبونة والذى لم يتم لهم الا بعد أن أغرقوا ذلك الشريط الطويل فى
بحر من الدماء والدمار .

وبوصول فاسكودى جاما الى قاليقوت فى رحلته الأولى فى مايو ١٤٩٨ م
كانت أغراض البرتغال الصليبية قد ظهرت فى تصريحه حينما سأله جماعة من
التجار عن أسباب مجيئه ، فكان الجواب أن البحث عن المسيحيين والتوابل
هو هدفنا أكثر من غزو أى مناطق جديدة (١) ، وباجتماع فاسكودى جاما
مع الزامورين حاكم قاليقوت سلمه خطابات من الملك عما نوبل بالعريضة
والبرتغالية طالبا منه فى نفس الوقت قيام التبادل التجارى بينه وبين ملك
البرتغال ، مع السماح بانزال أربعة أو خمسة من رجاله للاستقرار فى قاليقوت
غير انه فشل فى تحقيق تلك المطالب (٢) ، ولما كانت أهداف رحلته
التجسس والاستكشاف فقد حرص دى جاما على العمل بالتجارة فقط باذن من
الزامورين ، الا أن رفضه لدفع الجمارك وضع الزامورين أمام خطر سوف يهمل
عليه مستقبلا . (٣)

(1) Rey: Portuguese Voyages 1498-1663 3.

- Liver-more: Portugal and Brazil 185-186.

(2) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 48.

- Rey: Portuguese Voyages 3.

كان لوجود العرب فى تلك المنطقة أثره الفعال فى نفسية دى جاما الذى ظن أن الأمور سوف تتم له دون أية متاعب ، واذ به يفاجأ بوجود العرب الذين كانوا يتمتعون بنفوذ كبير فى بلاط الزامورين ، والذين لعبوا دورا فى سبيل تبديد أحلامه بإنشاء مركز تجارى لبلاده فى قاليقوت^(١) ، وكان دا جاما يعتقد اعتمادا على مرسوم البابا نيقولا الخامس (افتراضه أن سكان الهند من المسيحيين) أن التعامل مع الهند سوف يكون تعاملًا مع المسيحيين ، لدرجة أنه حينما رأى أحد معابد الهندوك ظنه كنيسة مسيحية^(٢) ، وتجنبًا للاصطدام مع العرب اتجه فاسكودى جاما نحو كاننور وجوا ، وبعد جولة أمام هذه المدن وغيرها من مدن ساحل المطبار شحن سفنه بنماذج من السلع الشرقية ، ومن ثم رحل الى لشبونة حيث وصلها فى ٢٩ أغسطس ١٤٩٩ م^(٣) .

كان لرحلة دى جاما الأولى أهمية قصوى فى البلاط البرتغالى الذى أخذ يناقش نتائجها من خلال تقارير دى جاما التى ظهر منها ما يلى : أولا — أن العرب الذين كانوا يسيطرون على الشواطىء التجارية قد تبرعوا^(٤) بـ ارسالية التبشير المسيحية التى وصلت مع فاسكودى جاما الى قاليقوت ، ثانياً —

(١) د . السيد رجب حراز : افريقية الشرقية والاستعمار الأوروبى ١١٠ — د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ٤٩ ٥٥٠ .

(٢) ك . م . بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ٣٨٠ .

(٣) د . السيد رجب حراز : أفريقية الشرقية والاستعمار الأوروبى ١٢٠ .

— Stephens, H. Morse: Portugal 191.

(٤) ك . ج . شينى : تاريخ العالم الغربى ١٢٩٠ .
ترجمة مجد الدين حفى ناصف ، دار النهضة العربية ، القاهرة .

وضع فاسكودى جاما البلاط البرتغالى أمام نقطة مهمة وهى مسألة وجود العرب فى الهند ، لأنه لم تكن هناك أنباء عن وجود العرب ، ولما كان البرتغاليون قد نجحوا فى تأسيس مراكز لهم على ساحل افريقية الغربية بسهولة نظرا لعدم وجود العرب الذين التقوا بهم فيما بعد فى سواحل المحيط الهندى ، فقد أدرك عما نويل أن فرض السيطرة البرتغالية فى الهند يحتاج الى بذل مزيد من الجهد والتنسيق للمرحلة القادمة ، خاصة وأنهم كانوا يعلمون علم اليقين بمدى شدة مواس العرب وبأسهم ولا ينسون أنهم ذاقوا الأمرين مدة طويلة من الزمان حتى تم اخراج العرب من شبه جزيرة أيبيريا (٢) ، ثالثا — انه من المستطاع القيام بتجارة وفيرة الربح فى الهند ، وبالتالي امكانية تأسيس مستعمرة برتغالية كبيرة فى الشرق ، رابعا — ان سفن العرب التجارية لا تستطيع مقاومة السفن البرتغالية الحديثة والمزودة بالمدفعية . (٣)

ولم تلبث نتائج رحلة فاسكودى جاما الأولى أن انعكست على الحملة الجديدة التى أعتها البرتغال تحت قيادة الفاريز كابرال Alvarez Cabral ٩٠٦ هـ — ١٥٠٠ م ، وتمثلت تلك النتائج فيما حمله كابرال من مهام فى حملته هذه ، وهى إبراز سلطة ملك البرتغال على البحار الهندية ، ومن ثم التوجه رأسا الى قاليقوت ، ومطالبة الزامورين تحت التهديد بالحرب بالسماح للبرتغال بإنشاء مركز تجارى ، وكذلك السماح

(١) ك . م . بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ٣٨ .

(٢) محمد كرد علي : الإسلام والحضارة العربية ج ١ ٣٤ ، ٣٤١ .

لجنة التأليف والترجمة والنشر ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٦٨ م .

(٣) عبدالمعزم النمر : تاريخ الإسلام فى الهند ٣٣٥ . مكتبة دارالعروبة

الطبعة الأولى ، القاهرة ١٣٧٨ هـ — ١٩٥٩ م .

للمبشرين بالنزول لنشر المسيحية ، وأخيرا مطالبة الزامورين بطرد العرب فوراً من قابيقوط (١) ، وتدعيها لتلك المطالب كان من الضروري أن يخرج كابرال بحملة قوية فاقت حملة فاسكودى جاما بنسبة كبيرة ، حيث تكونت من ثلاثة عشر سفينة وأثنى عشر ألف مقاتل لتولى أمر من لم يقبلوا بالتبشير . (٢)

وفي يوليو ١٥٠٠ م وصل كابرال الى موزمبيق ، ومنها الى كلوة حيث حاول أن يحقد مع سلطانها ابراهيم معاهدة تحالف ، ومرة أخرى يقف العرب في سبيل مشاريع البرتغال عندما أرضحوا لسلطان كلوة نوايا البرتغاليين الاستعمارية (٣) ، وازاء معارضته ارتحل كابرال الى مالندى التي زودتهم بما يحتاجون اليه من مؤن نظرا للمداوة بين مالندى وكلوة .

(١) سونيا .ى . هاو : في طلب التوابل ٢٢١ .
— ك . م . بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ٣٨ ، ٣٩ .
— الشاطر بصلي عبد الجليل : تاريخ وحضارات السودان الشرقى والوسط ٤٤٤ .

(2) Alan Villiers: The indian ocean 132.

(٣) د . السيد رجب حراز : افريقيا الشرقية والاستعمار الأوربي ١٣ .
— قبل أن يرسل كابرال عن كلوة استطاع اقناع أهالى المدينة بأن يسمحوا لأحد رجاله Antonio Fernandez أنطونيو فرنانديز بالمهبوط الى الساحل بسبب مرضه ، ولم يكن مريضا ، وإنما أنزله كابرال لكي يكون عينا له على المدينة ويختبر دفاعها .
ترجمها م : الاسلام في شرق افريقية ١٣ ، ١٤ .
ترجمة وتعليق : محمد عاطف النواوى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٧٣ م .

وهي نقطة الضعف التي استغلها البرتغاليون فيما بعد ، ومن ما لندى اتجسه
كبرال الى قاليقوت حيث أرسل اليه حاكمها رسالة موحيا به ، غير أن كبرال
اشتراط الحصول على بعض الرهائن لمقابلة الزامورين (١) ، وبدوا أن عدم
تمكن كبرال من تنفيذ بعض الأوامر السابقة التي خرج بها من البرتغال
ترجع الى القوة التي وصل بها قاليقوت وهي ست سفن عن تلك القوة التي
خرج بها من لشبونة (٢) ، وعلى الرغم من ذلك فقد تمكن كبرال بمساعدة
موافقة الزامورين من اقامة مركز تجاري في قاليقوت (٣) ، غير أن كبرال
أخذ يتحرش بالسفن الاسلامية المقلعة من قاليقوت ، وصادف أن أبحرت
احدى السفن الاسلامية الكبرى من قاليقوت ، وهي مخلة بالتوابل عقيب
أيام من وصوله فأسرها واستولى على حمولتها (٤) ، وما أن وصل الخبر
الى المسلمين في قاليقوت حتى ثارت حميتهم لذلك العمل فهاجموا الوكالة
البرتغالية التجارية من الميناء وقتلوا معظم الماطلين بها وعدد هم خمسون
برتغاليا (٥) ، وعندما لم يجد كبرال الاستقبال المناسب له ضرب المدينة

(١) ك . م . يانكار : آسيا والسيطرة الغربية ٣٨ ، ٣٩ .

(٢) المرجع السابق ، ٣٨ .

ب تعرض الأسطول البرتغالي قبيل عبوره رأس الرجاء الصالح وعلى
السواحل الغربية لأفريقيا لعواصف هوجاء دمرت بعض القطع ،
واضطرت بعض القطع الى العودة الى لشبونة للإصلاح ، بينما
ضلت قطع أخرى الطريق واكتشفت البرازيل بطريق الصدفة .

— د . سعاد ماهر : البحرية في مصر الاسلامية ١٢٨ .

— سونيا . ي . هار : في طلب التوابل ٢٠٩ ، ٢١٠ .

(٣) د . السيد رجب حراز : عصر النهضة في أوروبا ٣٤٠ .

(4) Alan Villiers: The indian ocean 134.

(5) Edgar Prestage: The Portuguese Pioneers 292.

- Alan Villiers: The indian ocean 134.

بعد افحه يومين كاملين ، اضافة الى ضرب السفن المصرية حتى أغرقها بمن فيها من نساء وأطفال (١) ، ومن ثم أخذ طريقه نحو كوشين Cochin على ساحل الملابار ، وفي الطريق اعترض كبرال سبيل عشر من أكبر السفن الاسلامية هناك فقام بنهبها واحراقها ومن ثم قتل كافة بحارتها (٢) ، ومن ثم أكمل طريقه نحو كوشين وكانانور .

وتميزت هذه الفترة والتي أعقبت فشل كبرال في قاليقوط بحملتين مهمتين وهما أولا : تمكن كبرال من استغلال الخلاف القائم بين كل من كوشين وكانانور وبين قاليقوط في سبيل اقامة أول مركز تجارى لهم على ساحل الملابار (٣) ، حيث شرع البرتغاليون في تحميل سفنهم بالبضائع الهندية والرحيل بها الى لشبونة ، وهذا بالتالى ما أدى الى قيامهم بارسال مندوبيهم الى الأقاليم الواقعة وراء ساحل الملابار لاقامة العلاقات التجارية معها (٤) ، أما العامل الثانى فهو اعتراض كبرال لسفن قاليقوط وسلبها ، ومن ثم احراقها ، فكان ذلك أول اشارة تهديد للسفن الاسلامية المتجولة بين الموانئ الهندية . (٥)

(١) د . سعاد ماهر : البحرية في مصر الاسلامية ٢٨ .

— Diffie, Winius: Foundations of the Portuguese Empire 220.

(2) Alan Villiers: The indian ocean 134.

— Edgar Prestage: The Portuguese Pioneers 292.

(3) Serjeant: The Portuguese off the South Arabian Coast 12.

— Oaten: Travel and Travellers in India 55.

— كانت قاليقوط تفرض نوعا من السيادة الاسمية على كل من كوشين وكانانور ، بحيث كانت تأخذ منهما جزية سنوية ، كما كانت تفرض عليهما استعمال عملتها الخاصة ، وذلك نتيجة أوضاع تاريخية قديمة .

(4) Stephens: Portugal 139.

(5) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 61-62.

ومع وصول فاسكودى جاما بحملته الثانية الى الشرق ٩٠٨ هـ - ١٥٠٢ م
والتي تعرفت بها الهند على المهجية في تفسيرها لمصر النهضة الأوربي بدا
للعيان ما تحتويه خططهم والتي فرغت حال وصولهم كالتالى ، أولا : تنفيذ
الخطة الاستراتيجية ضد العالم الاسلامي عن طريق التبشير بالنصرانية
واحتكار تجارة الأفاوية عن طريق العنف ، بحيث أصبحت هذه الأهداف
الروافد التي تستقى منها السياسة البرتغالية عنصر حيويتها في الشرق^(١) ،
ثانيا : اتجاه فاسكودى جاما في هذه الفترة الى ارغام الجميع على احترام
اللقب الجديد لملك البرتغال " سيد الملاحة والفتح والتجارة ببلاد المغرب
وببلاد الحبشة وفارس والهند " والمدعم بقرار من البابا الكسندر الخامس
Alexander VI^(٢) ، بواسطة قطع الطريق دون أى تحذير
سبق لأى سفينة تعثر عليها البحرية البرتغالية ، وتدبيرها بمن فيها ،
وخاصة السفن الغير مسلحة والتي تحمل حجاجا من وإلى مكة^(٣) .

(١) ك. م. بانينكار : آسيا والسيطرة الغربية ٣٠ ، ٣١ .

(2) H. Morse, Stephen: Portugal 191.

(٣) عندما خرج فاسكودى جاما في رحلته هذه ١٥٠٢ م صادف في طريقه
سفينة اسلامية كانت تابعة للسلطان الفوري ، وتحمل حجاجا
وبضائع ، وكان عدد الحجاج ٢٦٠ حاجا ، فقام بحارته بتفريغ
السفينة من البضائع ومن ثم منعوا خروج أى عربى منها باستثناء
عشرون طفلا أخرجوهم للتعمير ، أما الآخرون فقد أضرم بهم
وسفينتهم النيران حتى هوت بهم الى الأعماق .

- Sousa: The Portuguese Asia Tome I 65.

وفي هذه الفترة لم تكن خطوات السيطرة البرتغالية والتي ذكرناها
آنفا قد نفذت بعد باستثناء بعض المواقع التجارية في كوشن وكانانور ،
غير أن وصول فاسكودى جاما بحملته الثانية كان بداية الطريق نحو تحقيق
تلك السيطرة فمع عبوره لرأس الرجاء الصالح ، ووصله الى السواحل الشرقى
الافريقى كانت بوادر تحقيق ثالث أهداف السيطرة قد بدا واضحا للعيان
بحصاره لمدينة كلوة ، وتحت الشهديد بحرق المدينة أجبر سلطانها
على الاعتراف بخضوعه لملك البرتغال مع دفعه جزية مقدارها ١٥٠٠
مئقال من الذهب (١) ، ولما كان تحقيق الهدف الثانى الخاص بفتح
منافذ الخليج العربى والبحر الأحمر يستلزم الحصول على مواقع مناسبة
لمداخل تلك البحار فى وقت لم يتجول فيه البرتغاليون داخل تلك البحار
كما فعلوا فى السواحل الهندية ، فقد اكتفى فاسكودى جاما بترتيب خمس
سفن حربية عند مدخل البحر الأحمر بقيادة فينست سودر Vincent
Sodre لمهاجمة السفن القادمة من كمبايا وقاليقوط فى عرض البحر
وكذلك السفن الخارجة من البحر الأحمر . (٢)

والغريب أن بعض المؤرخين فهِمُوا تلك الانتصارات والأجساد على
أنها تكمن فى التفوق الأخلاقى للرجل الأبيض على الرجل الأسمر والثقة
بالنفس (٣) ، وغاب عن بالهم تعذيب فاسكودى جاما لصيادى السمك
وهم فئة لا تعرف الدفاع عن نفسها ، وتقطع أيدي الرجال والنساء
وأرجلهم من خلاف على الساحل العربى وياشراف البوكرك (٤) ، وأخيرا فقد

(1) R. Coupland: East Africa and its invaders, 44.

(2) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 64.

(3) Livermore: Portugal and Brazil 165.

(٤) باذل دافدمن : أفريقيا تحت أضواء جديدة ٢٦٦ ، ترجمة جمال
أحمد .

نسوا كيفية تفسير قيام البرتغاليين بذبح الأسرى وتقطيع أيديهم وأنوفهم وأذانهم وإرسالها إلى ذويهم تفاخرا بالنصر (١) ، وسعد أن ترك فاسكودى جاما فنست سودرغث مدخل البحر الأحمر اتجه إلى كانانور وكوشين ، واجتمع بحكامها لتنظيم أعمالهم التجارية فيها ، ومن هناك اتجه السيسى قاليقوت التى باشر بتخريبها بعد فدية أسطوله انتقاما لمقتل وكلاء كبرال التجارين فيها كما ذكرنا من قبل ، ومن ثم أخذ فى اعتراض السفن الإسلامية المتجولة أمام ساحل المليبار (٢) ، وفى تلك الأثناء كان الزامورين يسمى جاهدا للخلاص من ذلك الخطر ف وقعت معركة بحرية أمام سواحل كوشين لم تأت نتيجة تذكر للزامورين بسبب ضعف أسلحة سفنه وعدم تهيؤها للحروب بعيدا عن السواحل . (٣)

ويلاحظ فى هذه الفترة مدى اهتمام البرتغاليين بتميز أساطيلهم فى الشرق ، بحيث كانت الوحدات البحرية تخرج تباعا دون انتظار ما جعل القادة يطمئنون فى مواقعهم لأنهم على علم بأن الامدادات لم تقطع عنهم وهذا ما كان له أثره الفعال فيما بعد .

وابتداء من ٩٠٦ هـ — ١٥٠٣ م شهدت بحار العرب الجنوبية شخصية لا تختلف فى مضمونها عن فاسكودى جاما وهو الفونسو البوكرك Alfonso Alburquerque والذى أبحر من لشبونة لقيادة مجموعة

(1) Miles: Countries and Tribes of Persien Gulf 141.

(2) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 65.

- Edgar Prestage: The Portuguese Pioneers 294.

— د . السيد رجب حراز : افريقية الشرقية والاستعمار الأوربي ١٤ .

(٣) ك . م . بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ٤٢ .

مؤلفة من ثلاثة سفن ضمن أسطول كبير ، حيث عهد اليه بمهمة حماية
اجدى القلاع الحربية فى كوشين بالهند (١) ، وأهمية البورك بالنسبة
للبرتغال فى صراعها مع العالم الاسلامى لا تأتى فى هذه المرحلة ، وان
كانت هذه هى التمهيد ، وانما تكمن فى الفترة الثانية ٩١٥ هـ - ١٥٠٩ م
حينما تم تعيينه نائبا للملك فى الهند ، فهواضافة الى قيامه بعمله كقائد
فى قلعة فقد صب جل اهتمامه فى هذه الفترة الاولى على جمع المعلومات
عن اوضاع المنافذ العربية لتجارة الشرق ، واعداد الخطط وتصحيح الأخطاء
وعندما عاد الى بلاده ١٥٠٤ م قدم الى مليكه عما نويل تقارير تشمل خططا
جديدة للخرق والاستيلاء على مناطق أخرى ، وفى التجارة والتفوق فى
الأسطول البحرى (٢) ، لهذا لم يكن من الغريب أن يكون البورك مؤسس
صح الامبراطورية البرتغالية فى الشرق عقب توليه منصب نائب الملك فى
الهند (٣) ، ولم تختلف أهداف هذه الحملة عما سبقها من حملات حيث

(1) Stephens: Portugal 193.

(2) Miles: Countries and Tribes of Persian Gulf 141.

(٣) كان البورك أحد ثلاث دعائم حققت للبرتغال تلك السيطرة وهم
باشيكو Pacheco الذى ساهم فى خلق قوة بحرية منظمة
ودالميدا D'Almada الذى نال من سمعة المسلمين وأخيرا
البورك الذى يظهر فضلهم فى احتلال أهم المواقع التى حققت للبرتغاليين
السيطرة وهى جوا وملقا وهيرمز اضافة الى هذا فقد كان
للبرتغاليين ضباط امتازوا بالقسوة والطمع ، والحكمة والتعقل فى
نظرهم كلمات جوفاء ، أعمالهم حب الرجح ، بعيدون عن الشعور
بالمعالة .

— د . محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ٧٩٠ .

— د . حسن أحمد محمود : الاسلام والثقافة العربية فى افريقية

عهد الى قائد آخر ضمن الحملة بالحلول محل فنست سودر السابق ذكره ،
لمهاجمة الملاحة العربية في مدخل البحر الأحمر (١) ، بينما قام آخرون
بمهاجمة سواحل افريقية الشرقية حيث قام روى لورنزو Ruy Lorenzo
بمهاجمة زنبار Zinzibar وبرافا Brava وأجبرهما على دفع
جزية سنوية لملك البرتغال بينما واصل أنطونيو دى سالادانا Antony
de Saldanna مهاجمة السفن العربية المحملة بالبضائع والحجاج
بين سواحل الجزيرة العربية ورأس جوردفوى Cape Guardafu (٢) .

أما في الهند فقد واصل البرتغاليون سياستهم نحو تحصين مراكزهم
التجارية على ساحل ملبار مركزين في الوقت نفسه على محاولة منع كافلة
السفن الاسلامية من محاولة الوصول الى قاليقوت وتفرغ بضائعها بها (٣)
وقد حاول الزامورين حاكم قاليقوت توحيد راجات ساحل الملبار تحت قيادته
كمحاولة لمقاومة النفوذ البرتغالي غير أن محاولاته تلك باءت بالفشل ، تعرض
بعدها لمحاولة برتغالية للاستحواذ على مدينته . غير أن مقاومة الزامورين
حالت دون ذلك ، حيث انسحب البرتغاليين معوضين ذلك الفشل باحراق
أجزاء من المدينة (٤) ، وحاول الزامورين مرة أخرى استعادة النفوذ التجاري
في المياه الهندية ، غير أن لوبو سواريز Lopo Series والقادم
لتوه من لشبونة تمكن من تدمير أساطيل قاليقوت الحربية في الميناء (٥)
وما لبث بعد ذلك أن نشر نشاطه على كافة الموانئ الهندية مدعوماً ومخرباً .

-
- (1) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 72.
(2) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 74-75.
(3) Stephens: Portugal 193-194.
(4) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 75-76.
(5) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 80.

وبحلول الأشهر الأولى من ١٥٠٥ م كانت البرتغال قد بدأت تتقازفها الآراء بخصوص سياستها المقبلة في الشرق ، والتي بدأت بوصول فرانسيسكو الميدا Fransisco Almida الذي عين كنائب للملك ووكيله في الشرق ، ومثل هذه الآراء كل من فرانسيسكو الميدا والبوكرك ، فالأول فسر القوة البحرية بأنها المفتاح الحقيقي للموقف ، فإذا احتفظ البرتغاليون بقوة بحرية كبيرة في المحيط الهندي الى جانب الاحتفاظ بعدد من الحاميات في البر لتموين وحماية الأسطول فان ذلك أفيد من الاحتفاظ بمناطق كشيرة في البر دون أسطول قوى (١) ، لأن الاحتفاظ بمراكز برية كبيرة دون أسطول قوى يحتاج الى مجهودات كبيرة وقوات ضخمة ، ثم انه يؤدي الى توزيع الجهد ويجعل من الصعب الدفاع عن المراكز والحصون البرتغالية اذا كثرت عددها ، أما البوكرك فكان من أنصار الاحتفاظ والتوسع في المراكز البرية وكان مقتنعا بأن انشاء الحصون في المواقع الاستراتيجية الهامة شيء ضروري للمركز التجاري ، وفي نفس الوقت تكون بمثابة قواعد بحرية للانطلاق منها ، وكان يرى بأن الاستيلاء على ملقا وهرمز وعدن ستكون بمثابة المراكز الأساسية للسيطرة البرتغالية التي وصفها بأنها مفاتيح العالم الشرقي وثروته (٣) وقد رفض الرأي الأول (٤) .

(1) Livermore: Portugal and Brazil 209.
- Coupland: East Africa and Its Invaders 43.

(2) Coupland: East Africa and Its Invaders 43.

— د . محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح الممانيين عدن ٢٦٠ .

— د . جلال يحيى : الاستعمار والاستغلال والتخلف ٢٥٦ .

(3) Coupland: East Africa and its Invaders 43.

(4) Livermore: Portugal and Brazil 210.

— سونيا . ي . هاو : في طلب التوابل ٢١٥ .

أما الأهداف التي كان على هذه الحملة بقيادة فرانسكو الميسيدا تحقيقها فتظهر واضحة من خلال ضخامة الحملة التي خرجت من لشبونة وتألقت من عشرون سفينة و ١٥٠٠ جندي حيث كلفت بمحاولة تدمير القوى البحرية في المنطقة بحيث لا تشكل أى خطر على المحطات أو المراكز المزمع انشاؤها ، كذلك بناء مجموعة من القواعد العسكرية التجارية وعددها ست قواعد بحيث تشكل خطاً قوياً ابتداءً من شرق افريقية حتى الهند (١) وللحيلولة دون نشاط الأسطول الملوكى المصرى حيال خروجه من البحر الأحمر نصت الأوامر على تدمير كافة الموانئ التي قد يفكر الأسطول المصرى فى الالتجاء اليها (٢) ، فتم مهاجمة سفالة مصدر الذهب والاستيلاء عليها ، ونظرا لكونها غنية بالذهب فقد كلفت الحملة ببناء قلعة بها حرصاً على وصول الذهب الى البرتغال (٣) ، أما كلوة والتي كان ملكها قد وعد بدفع الجزية منذ سنتين لدى جاما ولم يدفعها ، فقد اقتحمها البرتغاليون بعد فرار حاكمها وأقاموا بها مذبحه كبرى بين سكانها (٤) وبعد ذلك مساجدها وأخيراً أقاموا على الساحل بالقرب من المدينة قلعة كبيرة ، وبعد ذلك هاجم البرتغاليون مباسا التي رفضت الخضوع لهم ودار قتال عنيف ومتوحش فى الشوارع ، وفى نهاية ذلك طرد السكان خارج المدينة

(1) Coupland: East Africa and Its Invaders 44.

- Serjeant: The Portuguese off the South Arabian Coast 14.

(٢) د. محمود متولى ، د. رأفت الشيخ : افريقيا فى العلاقات الدولية

٥٠ ، ٥١ .

(3) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 103.

- Coupland: East Africa and its invaders 44.

(4) Ingrams, W. H.: Zinzibar Its History and its people.

بعد خسارة قاذحة في الأرواح والمعدات ، وغنموا كميات هائلة من الذهب والفضة والحاج ، وكانت هذه الغنائم من الكثرة بحيث أنهم تركوا بعضها لعدم وجود فراغ لها في سفنهم ، ثم اختتموا تلك المأساة بإطلاق النار على ثمانمائة سجين ، ومن ثم أحرقوا المدينة . (١)

كذلك أسند الى الحملة محاولة البحث عن موقع مناسب أمام البحر الأحمر لبناء حصن لمنع السفن الاسلامية من الدخول اليه ، مع إرسال وحدات بحرية الى مدخل الخليج العربي وسواحل الهند لاعتراض السفن الاسلامية ، كذلك العمل على أن يفقد الهنود أطمعهم في المتاجرة مع غنير البرتغال ، وأخيرا عدم منح أى فرصة للمسلمين للعيش في هذه المناطق بسلام ، الا اذا قبلوا دفع أتاوة للبرتغال ، مع عدم التعرض للسفن البرتغالية بدخول الموانئ لأخذ حاجاتها من بضائع وغيره .

من هذا نرى أن هذه الحملة تمكنت من تحقيق جزء كبير من الهدف الثالث حين مرورها بساحل شرق افريقية ، فهي وان حققت أهدافها

(1) Coupland: East Africa and Its Invaders 45.

(٢) الشاطر بصيلي عبد الجليل : تاريخ وحضارات السودان الشرقى والأوسط . ٤٤٥ .

— يذكر لوريمير Lorimer في كتابه Gazetter of the persian Gulf المجلد الأول IA ص ٣ ان الملك عما نويل كلف فرانسسكو الميدا في حملته ١٥٠٥م بالاستيلاء على عدن وهرمز وطلقا حتى تكون سلسلة مترابطة لتحطيم التجارة العربية . غير أن موقف الميدا من البوكر عند حصاره هرمز ١٥٠٧م وسياسته تجاه عدن كما سنذكر فيما بعد تخالف ما ذكره لوريمير .

المسكينة فقد تمكنت كذلك من تحقيق أهداف اقتصادية لأن الأجـزاء الداخلية من الساحل فقدت المصدر الرئيسى - المدن الساحلية - الذى كان يقوم بدور فعال فى سبيل توزيع سلعه فى موانئ الخليج العربى وسواحل الهند (١) ، أما بخصوص سد منافذ البحر الأحمر والخليج العربى ، فاتنا سنلاحظ أن تلك الأهداف قد وقعت على عاتق حملة أخرى ستأتى عقب حملة دالميدا بسنة واحدة

وفى هذه الفترة وصلت استنتاجات الزامورين حاكم قابلقوط وأمراء الكجرات الى السلطان الخورى على اعتباره صاحب أقوى دولة اسلامية فى المشرق ، وعلى الرغم من الأوضاع السيئة التى كانت تمر بها مصر المملوكية فقد خرجت أول حملة مملوكية نحو الهند عام ١٥٠٥ م بقيادة الأمير حسين الكردي ، والتى تألفت من ثلاثة عشر سفينة ، وقد اتخذ حسين الكردي الكثير من الاحتياطات فى طريقه الى الهند خوفاً من أى غزو برتغالى حيث قام بتحسين جدة وتشديد الأسوار حولها كما ذكرنا من قبل .

وقبيل حدوث أى صدام مصرى برتغالى تحركت حملة أخرى فى عام ١٥٠٦ م من لشبونة بقيادة كل من تريستاو دى كونهـا Tristao de Cunha وألفونسو دى البوكرك ، وكان خروجها تأكيداً من البرتغال بضرورة محاصرة السواحل العربية ، وإغلاق البحر الأحمر إغلاقاً مباشراً عن طريق إحدى الجزر الموجودة بالداخل ، ومنع الدخول والخروج فى البحر

(١) بازل دافدسن : افريقيا تحت أضواء جديدة ٤١٦ .

ذاته ، وتجلت مهمة الحملة في ضرورة الاستيلاء على جزيرة سقطرة (١) ، من أجل بناء قلعة تكون مستودعا ومأوى للأسطول لمواجهة الأسطول المصرى حال خروجه من البحر الأحمر ، كذلك فهي قاعدة مناسبة لشن الفسزوات داخل البحر الأحمر ، ولاعتراض قوافل التوابل المرسلة الى جدة والسويس ، وأخيرا تزويد السفن بحاجتها من الماء (٢) .

وفي منتصف ١٥٠٧م ضرب دكانها حصاره على سوكو Soko ميناء سقطرة (٣) ، ووجه إنذاره الى حاكمها المهرى السلطان عامر بن طومرى بن عفرير بالاستسلام الذى رفضه بشدة ، فشن البرتغاليون هجومهم وقد دافع المهرة (٤) دفاع الأبطال عن قلعتهم ، ولكن الأسلحة الخديشية كانت أقوى من شجاعتهم فاستشهد السلطان ومعه مائتين وسبعة عشرة من رجاله المهرة (٥) ، وبعد ذلك قام البرتغاليون باصلاح القلعة حيث

(١) تهمد الجزيرة عن ساحل شبه الجزيرة العربية بنحو خمسين فرسخا ، وعن رأس جوردفوى بثلاثين فرسخا ، وكان من المعتقد في أوروبا بأن سكان سقطرة من المسيحيين ، وسوف يساعدونهم لنزع التجارة من أيدي المسلمين ، وقد عثر على تلك الجزيرة أحد قادة الحملة الجديدة ويدعى جيمس فيرنانديز James Fernandez ، وهي تتبع اليوم لجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية .

(2) J.H. Parry: Europe and a wider world 41.

(3) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 118.

(٤) كان المهرة قد احتلوا جزيرة سقطرة عام ٨٩٣ هـ - ١٤٨٨ م .

(٥) باعلوى : التاريخ الأكمل (مخطوطة) ورقة ٨١ .

- Serjeant: The Portuguese off the South Arabian Coast 43.

أطلقوا عليها اسم القديس Michael وحولوا جامعها إلى كنيسة ، وعين
أفونسودى نورونها Affonso de Noronha قائدا لها (١) والاستيلاء
على سقطرة كان البرتغاليون قد عملوا على تحقيق أحد أجزاء الهدف الثمانى
من سياستهم الاستعمارية ، غير أن الأحداث كما سترها فيما بعد أثبتت
لهم عدم جدوى تلك القاعدة بسبب فقرها من الموارد الطبيعية وعدم خضوع
الأهالى لنفوذهم (٢) ، ومن ثم توجه دأكتها إلى الهند ، أما البوكر فكانت
يتم شطرا تجاه السواحل الحربية لتنفيذ سياسة بلاده ضد التجارة الحربية
والتي تدور حول سد مدخل البحر الأحمر ، واعتراض السفن التجارية
الاسلامية والاستيلاء على عدن (٣) ، غير أن البوكر أدرك أن الأسطول
الصغير الذى خصه له دأكتها أضف من أن يستولى به على عدن ،
وفى الطريق نحو السواحل الحربية نصب البوكر أمام عينيه ضرورة مهاجمة
كيلهات وسقط (٤) ، وهما المنطقتان اللتان تشكلان إلى جانب هرمز
الأسواق الرئيسية للخليج العربى ، والمخازن الأساسية له حيث تركـز
التجارة الشرقية هناك قبل شحنها إلى شط العرب (٥) .

(1) Miles: Countries and Tribes of Persian Gulf 142.

- Sousa: The Portuguese Asia Tome I 118-119.

(٢) ترك البرتغاليون الجزيرة نهائيا فى ٩١٧ هـ - مايو ١٥١١م .

(3) Miles: Countries and Tribes of Persian Gulf 142.

(٤) كانت سقط الميناء الرئيسى لساحل عمان ، واشتهرت بتصدير الجياد
والتمور .

(5) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 126.

- Miles: Countries and Tribes of Persian Gulf 143.

بدأ البوكرك حملته بالطواف فى البحر للتصدى للسفن العربية القادمة من البحر الأحمر بالقرب من جزر كوريا موريا ، ثم يمم شطرا تجاه الشمال الشرقى حيث وصل الى سواحل عمان (١) ، وهناك صادف حوالى ثلاثين الى أربعين سفينة راسية عند خور حجاره فدمرها ، وفى اليوم التالى ممر البوكرك من أمام خور جيراما فدمر بعض سفنها (٢) ، وكان البوكرك يقصد بهذه الأعمال من مهاجمة المدن الصغيرة والغير مهمة نشر الفزع بين صفوف سكان الخليج العربى وجنوب الجزيرة العربية ، بحيث يقبل سكان بعض المدن التى يرغب البوكرك فى احتلالها قبول تبعيتهم لملك البرتغال ، فى وقت كان يشمر فيه بنفاد مؤنسه (٣) ، ومن خور جيراما واصل البوكرك طريقه نحو كيلهات وكوريات حيث ألحق بها مذابحه الشهيرة بسكانها ، أما الأسرى من النساء والأطفال والشيوخ فكان نصيبهم التمثيل بهم ، أما سقط والى كانت من أهم الأهداف التى زحف من أجلها ، فقد وصلها بعد أيام عديدة من غارته على كيلهات وكوريات ، ودافع أهالى سقط عن مدينتهم دفاعا باسلا ، ولكن كثافة مدفعية الأسطول أبطلت تلك المقاومة حيث نزلها وذبح من بقى من سكانها (٤) ، وتمكن بذلك من إخضاعها للنفوذ البرتغالى حيث أجبر الأهالى على تحويل الضريبة السنوية التى كانوا يدفعونها سنويا لهرمز الى الخزينة البرتغالية (٥) ، وأراد البوكرك الاتجاه الى

(١) كانت عمان فى تلك الأثناء بيد الامام محمد بن اسماعيل الاسماعيلى الذى تولى الحكم ٩٠٦ هـ — ١٥٠٠ م وكانت سلطته داخلية فقط .

(2) Miles: Countries and Tribes of Persian Gulf 143.

(3) Miles: Countries and Tribes of Persian Gulf 144.

(٤) قدرى القلعجى : الخليج العربى ٣٦٤ ، ٣٦٥ .

(٥) د عبد العزيز سليمان نوار : الشعوب الاسلامية ١٣٢ .

هرمز احدى الأهداف الهامة فى خطة السيطرة البرتغالية ، ولما كان
يمانى من نقص فى المؤن كما ذكرنا من قبل ، فقد عاد مرة أخرى إلى
سقطرى حيث تمون منها ، وقام بحملة ضد السفن العربية فى منطقة رأس
جرادقوى ، ولكنه لم يأت بأى فائدة من ذلك ، حيث توجه إلى جزيرة
عبد الكوريا Abdel Kuria بالقرب من سقطرة لاتخاذها كقاعدة ،
ولكن عدم توفر أى شئ من الموارد جعله يتوجه إلى سقطرى للمرة الثالثة ،
وبعد أن أخذت حملته بعضاً من الراحة اتجه مرة أخرى إلى رأس جرادقوى
حيث تجول فيما بين المنطقة السابقة وباب المندب ، وهناك لم يجد
سوى بعض مواقع عديدة الفائدة ، فعاد إلى سقطرة التى وجدها تعاني من
المجاعة فأرسل سفينة إلى مالندى أغارت على السفن الإسلامية هناك
وسلبتها (٢) .

ولما كان الاستيلاء على عدن من مهام حملة البورك هذه ، لم يستطع
البورك القيام بها بسبب سوء الأحوال الجوية اضافة الى حدوث تفرير
جذرى فى خطة السيطرة عقب وصول فرانسسكو لميدا عام ١٥٠٥ م إلى
الهند ، وتولى مهام نائب الملك هناك ، فكما ذكرنا سابقاً كان لميدا
من أنصار سياسة الاعتماد على القوة البحرية الى جانب الاحتفاظ بعدد من
الحاميات فى البر ، لهذا نجده عندما وصل الى منصب القيادة فى الهند
لم يضع فكرة الاستيلاء على عدن ضمن خططه ، لأن كان يرى أن وجود
سفالة القرية من البحر الأحمر كقيل بأن تقوم بمهمة عدن (٣) ، وكان

(1) Playfair: A History of Arabia Felix 98.

(2) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 140.

- Miles; Countries and Tribes of Persian Gulf 151.

(3) Bailey, Winius: Foundations of the Portuguese Empire
263.

يرى عوضاً عن الاستيلاء عليها ضرورة شن غارات تخريبية عليها لسلبيها
لأن ذلك معناه عدم وصول أية توابل الى أراضى مصر المملوكية (١) ، وأمام
هذه التطورات رحل البوكرك الى هرمز (٢) ، حيث ضرب عليها حصاراً
بحرياً شديداً لم يستطع الهرامزة تحمله فمقد الصلح بين الطرفين ، تعهد
بمقتضاه الهرامزة بالخضوع للبرتغاليين ، مع دفع الجزية السنوية ، وإعفاء
البضائع البرتغالية من الضرائب ، ومن ثم اتجه بعد ذلك الى الهند (٤) .

وعودة مرة أخرى الى الهند فالتنا نجد أن الأمير حسين الكردي حينما
وصل الهند اتخذ من جزيرة ديو Diu قاعدة له بعدما انضم اليه
أميرها مالك آياس بأسطوله كما ذكرنا من قبل ، وفي شيرول وقعت أول معركة
بحرية مصرية برتغالية ، حيث قاد الأسطول البرتغالى لورنزو دا الميدا
ابن نائب الملك فى الهند ، وانتهت المعركة بانتصار الأسطول المصرى .

كانت تلك المعركة بمثابة ناقوس الخطر للبرتغاليين ، فى وقت كانوا

(1) Bailey & Winius: Foundations of the Portuguese Empire
263.

(٢) كان يحكم هرمز فى مطلع القرن السادس عشر الميلادى الملك سيف الدين
والذى لم يكن عمره يزيد عن الثانية عشر ، فتولى زمام الأمور عنه خوجسة
عطار ، الذى استطاع أن يعطى هرمز استقلالاً ذاتياً تدفع من خلاله
هرمز الجزية لآيران .

(٣) د . بديع جمعه ، د . أحمد الخولى : تاريخ الصفويين وحضارتهم ،
ج ١ ، ٩٥ ، دار الرائد العربى ، الطبعة الأولى ،
القاهرة ، ١٩٧٦ م .

(٤) د . عبد العزيز نوار : تاريخ الشعوب الاسلامية ١٣٢٠
— قدرى القلمجى : الخليج العربى ٣٦٥ .
— د . بديع جمعه ، د . أحمد الخولى : تاريخ الصفويين وحضارتهم
ج ١ ، ٩٥ ، ٩٦ .

يسعون فيه نحو تثبيت أقدامهم بالهند ، حيث أجبرتهم تلك المعركة على ضرورة التخلص من ذلك الزائر الجديد ، الذى يبدو أنه قد بث روح المقاومة والصمود فى بعض المدن الهندية ، خاصة قاليقوت التى تشجع حاكمها الزامورين وقام بمهاجمة كوشين إحدى المراكز البرتغالية (١) حيث شن عليها غارة سريعة عاد بعدها الى مدينته بخنائم وفيرة ، حتى يحضر ما فقده بوصول البرتغاليين ، الذين كانوا قبل ذلك بفترة وجيزة وعقب معركة شيول قد قاموا بالاستيلاء على داهول بعد نهيمها وحرقها (٢) ، ويبدو أن ذلك كان من قبل رفع الروح المعنوية للبرتغاليين ، وفى الوقت نفسه فرصة يتشقى بها الميداء لقتل ابنه لورنزو .

كانت السنوات التالية ابتداء من ١٥٠٩ م سنوات حاسمة فى تاريخ الصراع الاسلامى البرتغالى فى المحيط الهندى ، حيث تميزت بحملات مهمة كان لهما الأثر الفعال فى نجاح البرتغال فى توطيد سيطرتها على التجارة العالمية بين الشرق والغرب ، وأول هذه العوامل معركة ديو البحرية التى كانت تعد لها البرتغال منذ لحظة هزيمتها فى شيول ، بعدما رأت نتائجها على الإمارات الهندية ، فى وقت كان فيه نائب الملك دالميدا يتحين تلك الفرصة للانتقام لقتل ابنه لورنزو فى معركة شيول السابقة ، وفى شهر فبراير ١٥٠٩ م وقعت معركة ديو بين الطرفين ، التى هزم فيها حسين الكردى الذى تراجع الى البحر الأحمر لتحصينه كما ذكرنا من قبل .

(1) Serjeant: The Portuguese off the South Arabian Coast
44, 45.

(٢) باعلوى : التاريخ الأكمل (مخطوطة) ورقة ٨١ .
- Serjeant: The Portuguese off the South Arabian Coast
45.

نتج عن تلك المعركة أنها أثبتت مدى قوة النفوذ البرتغالي في المحيط الهندي ، وأنهم تمكنوا بالفعل من تثبيت ادعائهم بأنهم سادة الملاحنة في البحار الهندية ، (١) وأن الأمر يحتاج الى قوة اسلامية جديدة توازي القوة البرتغالية ، إضافة الى ذلك فقد كان لهذه المعركة أثرها المباشر على الإمارات الهندية مثل إمارة ديو التي فضل أميرها مالك آيا من التفاوض مع البرتغاليين على محاولة مقاومتهم (٢) ، أما العامل الثاني فيمكن وصفه بوصول البورك الى منصب نائب الملك بالهند في التاسع والعشرين من أكتوبر في ذات السنة ، حيث أتاحت له هذه الفرصة تنفيذ سياسته والتي عارض بها فرانسيسكو الميدا ، وكانت سياسته والتي وجدت مناصرين لها في البرتغال تقوم كما ذكرنا سابقا على الاحتفاظ بالمراكز البرية مع زيادة عددها ، وتوسيع مناطقها عن طريق جلب المحمرين اليها من البرتغال ، وكان يرى أن ذلك الأمر بسيط إذ أنه لا يدخل دون ذلك سوى الإغارة على منطقة ما فيقتل رجالها ويتزوج البرتغاليون بنسائهم ويهدوا الأطفال فينشأ بذلك شعب مختلط وكاثوليكي المذهب خاضع للبرتغال (٣) .

وضع البورك نصب عينيه تنفيذ مجموعة من الأهداف وجد أنها قليلة بالسيطرة على مصادر التجارة ، وهي أولا : محاولة الحصول على مركز متوسط على ساحل الهند الغربي للمراقبة عوضا عن كوشين البعيدة ، وفي نفس الوقت كقاعدة يستطيع بها أن يفرض سيطرته على البحار الهندية ، ثانيا : الاستيلاء على عدن وبناء حصن بها لغلاق البحر الأحمر ، ثالثا : غلق الطريق ما بين

(١) د . محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ١٤٤ .

(٢) د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثماني الأول لليمن ٦٣ .

(٣) د . جلال يحيى : الاستعمار والاصطفال والتخلف ٢٥٦ .

(4) Stephens: Portugal 198.

الخليج العربي والبصرة عن طريق احتلال هرمز (١) ، راجع : الاستيلاء على ملقا المصدر الرئيسى لكثير من منتجات شرق آسيا .

ولتنفيذ الهدف الأول كان أمام البوكر الاختيار ما بين قاليقوت وجوا ، غير أن الأحداث القديمة بين قاليقوت والبرتغاليين ، والتي تزعمت فيها قاليقوت حركة المقاومة ضدهم ، إضافة الى أوامر الملك عما نويل بضرورة الاستيلاء عليها وجهت أنظار البوكر اليها ، لذا خرجت من لشبونة حملة أخرى بقيادة فيرناندو كوتينو Fernando Coutinho للمشاركة فى الاستيلاء على قاليقوت ، والقضاء على نفوذ الزامورين وفى الوقت نفسه تدعيم الموقف فى المحيط الهندى ، خاصة بعدما بلغت الملك عما نويل أنباء الاستعدادات التى كان يقوم بها السلطان الفورى فى ميناء السويس (٢) ، وهاجس البرتغاليون قاليقوت فى محاولة للاستيلاء عليها ، غير أن مقاومة المدينة صمدت أمامهم ، وفشل هجومهم الذى قتل فيه القائد الجديد Coutinne ولكن البوكر ما لبث أن عوض تلك الهزيمة باستيلائه على جوا عام ١٥١٠م التى اتخذها مقرا رئيسيا للبرتغاليين فى الهند عقب مقتل أميرها (٤) ، ويقال بأن ذلك قد تم بمساعدة تولا جى أحد أمراء الهندوك حتى يضعف من قوة سلاطين آل عادل شاه فى تلك المنطقة (٥) ، وفى جوا تمثل الحقد الصليبي بما قام به البوكر وذلك من خلال خطابه الى مولا به بأنه " عرض على السيف كل عربى بمدينة جوا " ، وأنه " حيثما أمكه العشور على عربى كان افلاته من

(1) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 151-152.

— ك . م . بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ٤٥ .

(٢) ك . م . بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ٤٥ .

- Sousa: The Portuguese Asia Tome I 151.

(3) Stephens: Portugal 198.

(4) Thomas Astley: Voyages and Travels Volume I 72.

(٥) ك . م . بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ٤٦ .

يده من المحال * وأنه * كان يملأ بهم المساجد ويضرم فيها النيران ^(١) ،
وباستيلاء البوكرك على جوا نستطيع القول أنه تمكن من تنفيذ جزء من
مخططة السابق الذى عارض فيه الميدا الذى سبق وأن أشرنا إليه ، وهو أنه
عقب سقوط المدينة أجبر البوكرك زوجات ونسب الجنود المسلمين الذين
قتلوا أثناء الدفاع عن المدينة على التتصر ، ومن ثم تزويجهم للجنود ^(٢)
البرتغاليين كخطوة جديدة أيضا فى سبيل القضاء على النفوذ الإسلامى ،
ولاشك أن هذه الكراهية الشديدة للمسلمين اضافة الى تعميد البوكرك
من محابة الهندوس على حساب المسلمين ^(٣) ، كانتا من العوامل التى
أدت الى اتحاد ملوك الفيجايانكر الهندوكيين مع البرتغال ، لدرجة أنهم
ظلوا يشنون الحروب ضد المسلمين لمدة مائة وسبعين عاما . ^(٤)

وكان من الطبيعى أن يؤثر سقوط جوا بهذه الطريقة فيما جاورها من
أمارات الهند الغربية ، حيث وافقت كجرات على اقامة البرتغاليين محطة
تجارية لهم فى ديو ، وأخيرا قبل قاليقوت لمقد الصلح مع البرتغال بشرط
اقامة حصن لهم على أراضيها ^(٥) ، أما الفيجايانكر فلم يكتفوا بإرسال وفد
للتهنئة على ذلك ، وإنما سمحوا لهم باقامة حصن فى مدينة بهاتكال بشواطئ
بلادهم الغربية ^(٦) .

-
- (١) ك . م . بانينكار : آسيا والسيطرة الغربية ٤٦ .
(٢) مانوراما موداك : الهند شعبها وأرضها ١٢٠ . ترجمة محمد عبد الفتاح
ابراهيم ، مكتبة النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٤ م .
(٣) أصبحت تلك القاعدة أساسا تسير عليه القيادة البرتغالية فى المحيط
الهندي ، وليس أدل على ذلك سوى خطاب أرسى دى جاما أحد القادة
فى الهند عندما كتب عام ١٥١٩ م الى مليكه بضرورة لساءة محاملة التجار
المسلمين ومحاولة كسب التجار الهندوس .

- Liver more: Portugal and Brazil 214 .

- (٤) ك . م . بانينكار : آسيا والسيطرة الغربية .
(٥) د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ٦٧ .
(٦) أحمد محمود الساداتى : تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية ج ١ ٢٢٨ .

وعقب تحقيق الهدف الأول اتجه البوكرك نحو تحقيق الهدف الخاص بالاستيلاء على ملقا ، التي كانت تعتبر المستودع الرئيسى لتجارة التوابل النادرة ، والتي كانت تتم فى جزيرة جاوة واندونيسيا وجزر المولوكس Molucas ، وقد جعلها موقعها الطبيعى مفتاحا للمحيط الهادى ،^(١) ونظرا لكون التجار العرب والهنود والفرس يرتادونها منذ أزمنة بعيدة ، فقد رأى البوكرك أنه من الضرورى فرض السيطرة عليها حتى لا يتيح الفرصة لغير البرتغال فى سبيل الاتجار معها ، خاصة وأن الأسعار بها لم تكن لتزيد عن ربع سعر بيعها فى سواحل الهند ، وبلغ من شدة اهتمام البوكرك بها ، تكليفه لوبودى سكويرا بالاقتراب منها لجمع المعلومات متظاهرا بكونه تاجر مسلم^(٢) .

وفى السادس والعشرين من يوليو ١٥١١ م هاجم البوكرك مدينه ملقا وبعد مقاومة عنيفة من سكانها تمكن البوكرك من الاستيلاء عليها ، وقبيل رجوعه الى الهند بنى بها قلعة وكنيسة^(٣) ، وكان الاستيلاء عليها بمثابة

(١) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 173-176

ك . م . بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ٤٧ .
 تقع مالقا عند طرف شبه جزيرة الملايو ، وقد دخلها الإسلام ابتداء من عام ١٤٠٩ م على أيدى التجار العرب ، وكانت تعتبر من أهم المراكز التجارية للعرب فى هذه الجهات ، وكانت ملقا محطة بحرية للسفن المتجهة من شمال سومطرة ومن جزر المولوكس و جاوة والصين ، ومن كوجيرات ومليبار وكورمانديل وشبه جزيرة العرب .
 د . قيصر أديب مخول : الإسلام فى الشرق الأقصى ٢٥ . ترجمة :
 د . نبيل صبحى .

(2) Edgar Prestage: The Portuguese Pioners 298.

— ستيفان زفايج : ماجلان قاهر البحار ٣٤ ، ترجمة : حبيب جاماتى .

(3) Thomas Astley: Voyages and Travels Vol. I. 74.

أكبر انجاز حققه البرتغاليون في سبيل تحطيم السيطرة العربية التجارية ، ذلك أن استيلاء البرتغاليين على ملقا لم يكن يعنى أنهم نجحوا في فرض السيطرة البرتغالية فقط على المحيط الهندي ولكنه كان يعنى أن المحيط الهادى قد أصبح مجالاً لتوسع البرتغاليين ، الذين حولوا الأرخبيل كله ميداناً لصراعهم مع الاسلام والتجارة ، وكالعادة اندفع المبشرون لنشر المسيحية ، الأمر الذى دفع بالمسلمين لمقاومة هذا الزحف التبشيرى عن طريق نشر دعوة الاسلام في ماليزيا وسومطرة وجاوا (٢) ، وهى المناطق التى هاجر اليها المسلمون من العرب والهنود الذين ظلوا يقاومون المنافسة الأوروبية في تلك البلاد حتى القرن الثامن عشر الميلادى . (٣)

أما في أوروبا فقد هز احتلال البرتغاليين لملقا المجتمع الأوروبى طويلاً ، حيث أقيم لتلك المناسبة قداس شكر في عام ١٢١ هـ - ١٥١٥ م في روما ، قال أحد الخطباء في هذا القداس أمام البابا ليو العاشر " أن هذا سيسهل استعادة القدس " ، وفسر كيف أن الصليب وصل الى أماكن بعيدة ، واتهم سلطان ملقا بأنه مسلم متعصب يكره النصارى ، ونادى بحرب صليبية جديدة لاحتلال بيت المقدس . (٤)

(١) ك.م. بانكار : آسيا والسيطرة الغربية ٤٩ .

(٢) د. قيصر أديب مخول : الاسلام في الشرق الأقصى ١٣٩ ، ١٤٠ .

(٣) المرجع السابق ، ٦٨ .

(٤) محمد شاكر : الكشف الجغرافية ٢٩ .

— عندما انشغل البوكر بحصاره لملقا حاول العرب الاستفادة من غيبتهم فأبحروا من الهند الى البحر الأحمر في شتاء ١٥١٠ - ١٥١١ م ، مستغلين كذلك سحب البوكر لدوريات البحر الأحمر ، ولكن تحطمت كل سفنهم تقريباً بسبب العواصف ، وكانت الخسارة شديدة الى حد أن قرر التجار أن يستخدموا مراكب أصغر وبذا يقللون فرصة الخراب الكلى ولما كانت هذه الطريقة مكلفة للغاية فقد تخلوا عنها .

أما البحر الأحمر فكما قلنا سابقا من انه كان مقررا المهبوم عليه عقب سقوط سقطرة ، غير أن نقص المؤن وتحليلات دالميدا التي سبق وأن أشرنا اليها قد حالت دون ذلك ، والآن وقد أصبح البوكرك صاحب السلطة العليا فى الشرق ، فقد بدأ الخطر يحيق بالبحر الأحمر ، وكانت فكرة البرتغاليين من مهاجمة البحر الأحمر تقوم على مجموعة من الأهداف وهى أولا : اشتداد عملية تهريب السلع الافريقية عن طريق ميناء عدن ، فعلى الرغم من أن البرتغاليون استولوا على سقطرة لمنع تجارة البحر الأحمر ، فإن ذلك لم يؤد الى النتيجة المطلوبة ، اذ كانت كثير من السفن اليمنية والتهامية ^(١) والهندية تتمكن من التسلل عبر هذا الحصار الرسل الى داخل الخليج العربى والبحر الأحمر ، وهذا بالتالى ما أدى الى اشتداد عملية تهريب السلع الهندية عن طريق جزيرة هرمز ، وكذلك تهريب البضائع عن طريق عدن . ^(٢)

ثانيا : الاستيلاء على عدن التى تعتبر من أهم دوافع حملته حتى يتمكن من التحكم فى مدخل البحر الأحمر ، وبالتالي تنفيذ جزء من مخططة الرئيسى الخاص بالمواقع الاستراتيجية اللازمة للامبراطورية البرتغالية على امتداد سواحل بلاد العرب الجنوبية والمحيط الهندى .

ثالثا : رغبة البرتغاليين فى قطع سبل الاتصال بين دولة المماليك ومسلمى الهند ، فعلى الرغم من هزيمة المماليك فى موقعة ديو البحرية عام ١٥٠٩ م ، فقد ظل المماليك قوة يحلم الهندود دائما بوجودها الى جانبهم ، وقد ظهر ذلك جليا من المساعدة التى قدمها شاه مملكة بيجابور لبقايا المماليك عقب هزيمتهم فى ديو ، حيث دعاهم الشاه للقامة فى بلاده كما ذكرنا من قبل .

(١) نسبة الى سواحل تهامة بالحجاز .

(٢) محمد عبد القادر بامطرف : الشهداء السبعة ٤٨ ، ٤٩ .

رابعاً : محاولة الاتصال بالحبشة •

خامساً : ^(١) رغبة البوكر في مهاجمة البحر الأحمر للقضاء على بقايا الأسطول المصري الذي هزم في موقعة ديو البحرية ، إضافة الى محاولته عرقلة مشروع تحصين جدة ، وفي الوقت نفسه القضاء على محاولات المماليك في سبيل اعداد أسطول جديد لمحاربة البرتغاليين في الهند ^(٢) •

سادساً : تحقيق الأهداف الصليبية الخاصة بالاستيلاء على مكة والمدينة وهو ما شرحناه سابقاً ، ونظراً لكوننا تطرقنا لدخول البوكر الى البحر الأحمر وفشله في حملته تلك وعودته الى الهند ، فيكفي أن نشير أن البوكر عقب غارته الأولى في حوض البحر الأحمر ١٥١٣ م انسحب الى الهند مصمماً على تكرار العملية ذاتها وفقاً للنتائج التي خرج بها من حملته تلك ، والتي — من أهمها ما يلي : أولاً — أن احتلال عدن يحتاج الى حملة يتراوح عددها ما بين أربعة وخمسة آلاف جندي وذلك لاقامة حصن بها ، ثانياً — ضرورة الحصول على مصوع لضمان الحصول على المؤن والامدادات اللازمة ^(٣) ، ثالثاً — ضرورة احتلال زيلع وبربرة وجزيرة كوان ^(٤) ، رابعاً — ضرورة توثيق العلاقات مع الحبشة •

(١) سمي البوكر في بعض الكتب العربية القديمة باسم تهكق هو "عين البقر" وأحياناً "أبو كرش" •

— محمد عبد القادر بامطرف : الشهداء السبعة ٤٧ •

وذكر في مخطوط باعلوى باسم الدوك •

(٢) د • محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ٧٨ •

(٣) د • السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ٧٤ •

(٤) د • محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ٧٩ •

وفق هذه النتائج انطلق البوكرك في فبراير ١٥١٥ م من جوا على رأس حملة كبرى نحو البحر الأحمر ، غير أن أحداث الخليج العربي خاصة في هرمز جعلته يتوجه رأسا إليها عندما نقض حاكمها خوجة عطار بعض نصوص المعاهدة السابقة بينه وبين البرتغاليين برفضه دفع الجزية المقررة عليه ، على الرغم من اعترافه بالتبعية البرتغالية . (١)

ضرب البوكرك حصاره على هرمز وحاول الوصى الشرعى خوجه عطار اللجوء الى المفاوضات خوفا من تدمير المدينة ، وما أن بدأت تلك المفاوضات بسين الطرفين حتى تجلت صورة أخرى من صور الحقد الصليبي ضد المسلمين ، عندما فاجأ البوكرك خوجة عطار بطعنة أردته قتيلا ، وازاء ذلك لم يجد حاكم الجزيرة سيف الدين مفرأ من الخضوع للبرتغاليين الذين فرضوا عليه قبول الحماية البرتغالية مع السماح لهم بإنشاء قلعة بالجزيرة ، وأخيرا دفع الجزيرة السنوية المقررة ، ونزل ابن أخ البوكرك Pero كأول حاكم برتغالى في هرمز وما لبث البوكرك أن عاد الى جوا حيث توفي قبل أن يصلها . (٢)

وبوفاة البوكرك مؤسس صرح الامبراطورية البرتغالية أصبح الموقف فى المحيط الهندى ، وقبيل وصول الأتراك العثمانيين الى الشرق بفترة وجيزة كالتالى ، أولا : بالنسبة لشرق افريقية نجح البرتغاليون فى أقل من عشرة أعوام بداية من القرن السادس عشر الميلادى فى توطيد ونشر نفوذهم على كافة الساحل الشرقى لافريقيا ، وتمكنوا من القضاء على كافة المراكز العربية التجارية فيه ، ومما لا شك فيه أن هناك عاملين مهمين ساعدا البرتغاليين على سرعة

(١) د . محمد عبد اللطيف البحرأوى : فتح العثمانيين عدن ٢٩ .

(٢) د . صلاح العقاد : التيارات السياسية فى الخليج العربى ١٨ .

- Lorimer: Gazetteer of the Persian Gulf Vol. Part 1A.

4, 5.

انجاز احتلالهم للشواطئ الشرقية وهما ، أولاً : استخدامهم للأسلحة الحديثة التي لم يكن أى من العرب أو الزنج يعرفها ، خاصة أن الإمارات الإسلامية التي تكونت بها لم تقم أساساً على الفتح بل على التجارة ^(١) ، ثانياً : نجاح البرتغاليين في استغلال المنازعات الداخلية التي كانت دائمة بين الإمارات الإسلامية في شرق افريقية ، وقد ارتكز البرتغاليون على الأجزاء الجنوبية من الساحل الشرقى الذى كان يضم اقليم سفالة وموزمبيق التي اتخذوها مقراً للإدارة الاستعمارية ، أما سفالة فكانت مركزاً لتجارة الذهب . ^(٢)

أما السياسة التي قاموا بتنفيذها بعد استقرارهم في شرق افريقية فقد كانت تقوم على عاملين هما محاولة عزل الساحل عن الداخل الذى كان يمدّه بالسلع التجارية التي كانت تصدر الى الخليج العربى والهند والشرق الأقصى ، ومن ثم : الاتجاه الى اثارة الحروب والخلافات بين الجماعات التي تقطن الساحل بقصد إضعافهم حتى تقوّل اليهم السيطرة في نهاية الأمر ، ثانياً : بالنسبة للبحر الأحمر فعلى الرغم من فشل حملة البوكر الأولى ١٥١٣ م على البحر الأحمر ، وتعذر وصوله مرة أخرى عام ١٥١٥ م اليه بسبب أحداث الخليج العربى ووفاته كما ذكرنا من قبل ، إلا أننا نستطيع القول أن البوكر بحملته الأولى على البحر الأحمر قد وضع لخلفائه في القيادة البرتغالية بجسوا خطط الدخول لهذا البحر وغزوه بواسطة المعلومات والنتائج التي خرج بها

(١) جمال زكريا قاسم : الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية

٩٦ ، ٩٧ .

— د . السيد رجب حراز : إفريقيا الشرقية والاستعمار الأوربي ١٧ ، ١٨ .

(٢) سبنسر ترومنجهام : الإسلام في شرق افريقية ١٥ . ترجمة : محمد عاطف النسواي .

(٣) د . جمال زكريا قاسم : الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية ٩١ .

(٤) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

عن طبيعة البحر الأحمر ومراكز الضعف والقوة فيه ، إضافة الى الحركة التجارية الدائرة بين مراكزه ، وأخيرا دراسته لأوضاع الدول المسيطرة عليه حتى يتمكن خلفاؤه من بعده انتهاج السياسة التي يرونها في سبيل التغلب على بعض الدول أو جرها الى صفهم (١).

من هنا نرى أن عدن ستكون محور صراع دائم بين البرتغاليين والعثمانيين الذين سيدخلون فيما بعد ، وتجلى ذلك في كثرة دخول الحملات والدوريات البرتغالية ابتداء من عام ١٥١٧ م كما سنرى في الفصل القادم ، وإن كما قد ذكرنا من قبل أنهم سيطروا على سقطرة للتحكم في مدخل البحر الأحمر ، إلا أن الموارد الضئيلة والمقدمة أحيانا أجبرت البرتغاليين على اخلائها في وقت مبكر ١٥١١ م ، ثالثا : بالنسبة للخليج العربي كان لاختراع هرمز للسيطرة البرتغالية ، أن نجحوا في السيطرة على الخليج العربي وتجارته ، حيث أصبح هناك ثلاث مناطق عربية كمحطات للتجارة البرتغالية وهي هرمز وكيلهيات ومسقط (٢) ، وأجبر البرتغاليون كل التجار العرب والفرس على الاتجاه الى هرمز ، ودفع الضرائب على تجارتهم ، ويضاف الى ذلك أن بدأ البرتغاليون في التوغل داخل الخليج العربي ففي السنة التي سقطت فيها هرمز ١٥١٥ م ، نزل البرتغاليون البحرين وأقاموا بها حصنا ، ومن ثم أجبروا الأهالي على دفع الجزية بالقوة (٣) ، رابعا : بالنسبة للسواحل الهندية فيكفى أن نشير الى أن تلك السواحل كانت تمثل الركيزة الأساسية في القاعدة الاستعمارية ، خاصة جوا Goa احدى الأهداف الهامة التي نجح البرتغاليون بقيادة البوكر في الاستيلاء عليها عام ١٥١٠ م ، كجزء من خطة السيطرة التي باشر بتنفيذها

(١) د . فاروق عثمان أباطة : عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ٤٢ .

(2) Miles: Countries and Tribes of Persian Gulf 156.

(٣) د . صلاح العقاد : التيارات السياسية في الخليج العربي ١٨ ، ١٩ .

عند تسلمه منصب نائب الملك فى الهند عام ١٥٠٩م.

ولما كان النشاط البرتغالى مع بداية القرن السادس عشر الميلادى قد تركز فى السواحل الهندية باعتبارها المصادر الأساسية لبعض مواد الشرق ذات الطلب فى أوروبا ، كان من الطبيعى أن يكثر البرتغاليون من انشاء المراكز البريئة والبحرية ، فكان الى جانب جوا مراكز فى كوشن وكنانور وداهول وديو وسهيا تكال وسيلان ، وكلها كانت مراكز ذات ثقل تتطرق منها الدوريات لاعتراض كافة السفن التجارية الاسلامية التى كانت تبجرون اذن من القيادة البرتغالية ، خامسا : بالنسبة للشرق الأقصى كان الاستيلاء على ملقا قد أعطى للبرتغاليين المجال للوصول الى مصادر التوابل ، حيث عملت سفنهم على تحميلها بربح الثمن الذى كانت تهاج به فى قاليقوت كما ذكرنا من قبل ، كما أتاح لهم ذلك الاتصال بالامبراطورية الصينية اضافة الى جزائر المحيط الهادى الأخرى ، وبذلك أصبح للبرتغاليين سلسلة طويلة من المحطات التجارية والمراكز الاستعمارية على امتداد سواحل المحيط الهندى بداية من ملقا ونهاية بسواحل شرق افريقية ، فكانت أشبه بالسلسلة الفقرية عدا عدن ، التى كانت تمثل بالنسبة لهم نقضا كبيرا فى تماسك تلك السلسلة وامتدادها ، مما جعلهم لا يغفلون عنها ، وسيكون هناك صراع من أجلها ولكن مع قوة جديدة تنبع بالحويصة والنشاط كما سنرى فى الفصل القادم .

وهكذا يتضح مما سبق أن هناك خطة اقتصادية جديدة للبرتغاليين ، ونحن نقصد بقولنا خطة جديدة أى أنها تختلف عن الصراع الأوروبى المسيحى مع العالم الاسلامى فى العصور السابقة ، والتى كانت قد تمثلت فى مهاجمة هذا العالم هجوما مسلحا ، كما حدث حينما أشعلت أوروبا نار الحروب الصليبية

ضد العالم الاسلامي ، وأنشأت الامارات اللاتينية بالاضافة الى محاولاتهم المتكررة للتسيلا على مصر ، ولما كانت الخطة الاقتصادية الجديدة تقوم أساسا على نجاح السيطرة الهرثقالية فيجب أن نشير الى أن العام——الاقتصادي كان له دور فعال في الصراع الاسلامي المسيحي في السابق ، كما حدث خلال الفترة التي كانت فيها البابوية وأوروبا تعدان للحروب الصليبية عندما ربطت العامل الاقتصادي بالعامل الصليبي في سبيل استرداد بيت المقدس ، كما أوضح ذلك البابا أوربان الثاني حينما وصف الوضع الاقتصادي في الشام ومصر بالأنهر التي تجري لبنا وعسلا (١) ، وبذلك أصبحت الحروب الصليبية أول هجوم مسلح تقوم به أوروبا في سبيل تحطيم قوة المسلمين ، وسقوط عكا بأيدي المماليك عام ٦٩١ هـ - ١٢٩١ م كان لابد من ميادين أخرى تسعى اليها أوروبا في سبيل تحطيم العالم الاسلامي عن طريق حرمانهم من المورد الأساسي لغناهم وقوتهم وهو التجارة ، خاصة في وقت كانت فيهم العلاقات التجارية بين العالم الاسلامي والعالم المسيحي قد أخذت في الزيادة كنتيجة للحروب الصليبية ، فكما قلنا سابقا فقد اكتسبت مصر والشام نتيجة لوقوع موانيهما على مراكز الاتصال بين الشرق والغرب موقعا تجاريا فريدا حيث كانت تصلها تجارة شرق آسيا والهند ، وتجارة غرب أوروبا ، وكانت مهمتها توزيع هذه البضائع بحكم موقعها التجاري ، وهو ما كان بمثابة الشريان الحي للعالم الاسلامي ، لهذا اتجهت الأنظار والآراء على أنه قبل الاقدام على غزو العالم الاسلامي واسترداد الأماكن المقدسة ، يجب اضعافه ماديا بأن يقطعوا عنه مصادر قوته وثروته ، فالشراء منه عامل من عوامل قوته المالية لأنه يد رعيم الأرباح عن طريق المكوس المفروضة على التجارة ، كذلك فإن الهادلية

(١) د. نظير حسان سعداوى : الحرب والسلام زمن العدوان الصليبي

٦٥٥ - مكتبة النهضة العربية ،

القاهرة ، ١٩٦١ م.

(١)

بالبضائع فيها سد لحاجته ، وذلك من عوامل قوتهم .

ومع فشل قوانين التحريم التى أصدرتها البابوية ، كان ذلك مدعاة لقيام العالم المسيحى بشن غارات تخريبية ضد العالم الاسلامى فى الشام ومصر وشمال افريقية ، استمرت طوال القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر الميلادى (٢)

وقد تناولت الخطة فى سبيل تنفيذها أوجه عديدة شاركت جميعها فى نهاية الأمر الى اظهار الصورة الحقيقية فى كيفية تحطيم الإقتصاد الاسلامى فى ذلك الوقت ، من واقع وصول البرتغاليين الى المحيط الهندى وسيطرتهم على تجارته ، ولعل هذه الأوجه تتضح فيما يلى : أولا - السيطرة ، وهو عامل تقليدى كان له دور حيوى فى مجالات الصراع السابقة بين الاسلام والمسيحية ، مع اختلاف واضح فى هذه الفترة ، وهو أن تلك السيطرة كثيراً ما حاولت الجبهة المسيحية تنفيذها عن طريق الشمال ابتداء من آسيا الصغرى نهاية بسواحل المغرب العربى فى طنجة ، بحيث مثلت سواحل البحر الأبيض المتوسط الذى يطل عليه العالم الاسلامى ثلاث جبهات ، ففى آسيا الصغرى كان الأتراك العثمانيون يرمون بأنظارهم نحو الزحف على أوربا ، أما المغرب العربى فقد توزعت جهوده ما بين الحفاظ على الأندلس وبين رد هجمات الأسبان والبرتغاليين عليه ، وأخيرا جبهة المماليك فى مصر والشام ، أما فى هذه الفترة

(١) محمد الصغير عبد اللطيف : العلاقات التجارية بين مصر وأوربا الجنوبية

١٦٢ - رسالة ماجستير لم تنشر ، جامعة

القاهرة .

(٢) د . أحمد السيد دراج : المماليك والفرنج فى القرن التاسع الهجرى

فقد حاق الخطر بالعالم الاسلامى من جنوبه ، لهذا كان من الطبيعي أن يكون هناك نوع من التهديد والتخمين فى حالة وقوع السيطرة ، وما جد فى هذه الفترة عقب السيطرة هو ظهور خطة اقتصادية جديدة تبعا للمهدف الذى من أجله خرج البرتغاليون .

ثانياً فى تحويل التجارة عبر رأس الرجاء الصالح ، فمن المعروف أن المهدف من تحويل طريق التجارة من أيدي المسلمين الى أيدي الأوربيين هو التقليل من ثروة البلاد ، لأن البضاعة التى كانت تمر بالأراضى المصرية كانت تؤدى الحقوق السلطانية عند دخولها وخروجها ، وبلغت فداحة الحقوق التى جدد أن ما كان يدفع على ما تحمله ثلاثة مراكب وأربعة كان يساوى حمولته واحدة منها ، كما أن السفن التى كانت تنقل البضائع بالطريق النهري أوفى الترع كانت تؤدى أيضا ضرائب أخرى ، إذا فتحويل التجارة عن مصر يعتبر خسارة كبيرة عليها . (١)

لهذا لم يكن من الغريب أن نرى البرتغال ، وتحت دوافع حقدها على المسلمين لا تتورع عن حمل شعار الحرب الصليبية ضد المسلمين ، بحيث أصبح كافة ملوك البرتغال وقادتها يعدون أنفسهم ماضلين بحق فى الحملات الصليبية التى تخرج من بلادهم ، وكانت كل ضربة تكال للمسلمين تعد فى نظرهم نصراً للمسيحية ، كما أوضح ذلك البوكرك بصريح العبارة لجنوده فى ملقا " بأن كل هجوم يشن على تجارة الأقاوية هجوماً على الرغد المالى الذى تسعد به الأمم الإسلامية " (٢) ، والذى ما لبث أن أكد على

(١) محمد الصغير عبد اللطيف : العلاقات التجارية بين مصر وأوروبا الجنوبية

١٦٨ ، ١٦٩ .

(٢) ك . م . بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ٤٩٧ .

الناحية الصليبية بقوله " الخدمة الجليلة التي ستقدمها لله بطوفنا للعرب من هذه البلاد ، وباطفائنا شحلة شيعة محمد بحيث لا يندفع لها هناك بعد ذلك لهيب " (١)

ثالثا — منح بضائع الشرق من الدخول الى بحار العرب سواء في الخليج العربي أو البحر الأحمر ، وقد تم ذلك بمسيلتين ، فالأولى كانت عن طريق اعتراض السفن الاسلامية بكافة أنواعها في عرض البحر سواء كانت متجهة الى تلك البحار أو خارجة منها ، أما الوسيلة الثانية فكانت عن طريق تخصيص دوريات مسلحة للتجول أمام تلك المداخل السابقة الذكر ، وهذا بدوره ما أدى الى ندرة البضائع الشرقية التي كانت تتلقاها الموانئ المصرية والشامية في غير زمانها بوفرة ، ففي الوقت الذي كانت فيه سفن البندقية تزور موانئ الدولة المملوكية في مصر والشام مرتين سنويا ، أصبحت ابتداء من عام ١٥٠١م لا تشهد الا مرة واحدة وكل عامين (٢) ، وبمعدما كان التجار البنادقة يحوزهم الأموال اللازمة لشراء ما يحتاجونه في موانئ مصر والشام أصبحت سفنهم لا تستطيع أن تجد أكثر من نصف الكمية التي كانت تحملها فيما سبق (٣) ، وكان يظل دائما بمصر بعد رحيل الأسطول البندقي خمسة عشر من كبار التجار للإشراف على التجارة ، ولكن بوصول البرتغاليين لم يزد عدد التجار البنادقة على ستة تجار لا يكاد يكون لهم من الموارد المالية شيء (٤)

(١) ك. م. بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ٤٨

(٢) د. أحمد السيد دراج : الممالك والفرنج في القرن التاسع الهجري ١٣٢

— شارل ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية ١٥٣ .

(٣) د. أحمد السيد دراج : الممالك والفرنج في القرن التاسع الهجري

١٣٢ .

(٤) . شارل ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية ١٥٣ .

رابعا - مطاردة التجار العرب ، فعلى الرغم من أن وصول البرتغاليين كان له مخزى كبير عن طريق تلك المراكز المنتشرة على طول سواحل المحيط الهندي كما ذكرنا من قبل ، وعلى الرغم من أن تحركات التجار العرب وتنقلاتهم بين موانئ المحيط الهندي أصبحت مخوفة بالمخاطر ، إلا أن البرتغاليين عمدوا وبصورة مركزة على محاولة قفل كافة الأبواب أمام التجار العرب والاستيلاء على كافة المراكز التجارية التي يلجأون إليها كلما أحسوا بوطأة البرتغاليين الذين عمدوا الى محاولة دفع العرب الى بحارهم الداخلية وإغلاقها عليهم^(١) ، والدليل على ذلك أن البرتغاليين عندما وصلوا الى قاليقوت ، وبدأوا فى اعتراض السفن الاسلامية أمام السواحل الهندية هاجر معظم التجار العرب والأفارقة منها متجهين الى ملقا وسيلان^(٢) ، التى ما لبثت أن تعرضت للغزو البرتغالى كما ذكرنا سابقا .

خامسا - الترويج للبضائع البرتغالية ، ومن المعروف أن منتجات الهند كانت تصل الى أوروبا عبر تجار مصر والبنديقية ، ولما كانت أسعارها باهظة الثمن اندفع البرتغاليون نحو الشرق فى محاولة للوصول الى المصادر الشرقية الأصلية لها ، وكان ذلك معناه أنهم هم وحدهم العملاء القادرين على إيصال تلك البضائع الى أوروبا بحيث حالوا دون اشتراك أى طرف آخر مشاركتهم للضرائب المتحصلة على إيصال منتجات الهند الى الأوربيين ، وبصورة أخرى نستطيع القول أن خطة البرتغاليين فى الشرق كانت تقوم على أساس عدم السماح لأحد فى منافستهم فى المراكز التجارية^(٣) ، ففى الوقت الذى كان فيه القطار من القفل يدفع فيه فى الاسكندرية ثمانون بندقى هذا

(١) د . السيد رجب حراز : افريقية الشرقية والاستعمار الأوربى ١٤ .

(٢) د . نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ٣٠٧ .

(3) J.H. Parry: Europe and a wider world 41.

بخلاف لُحمر يبيعه في أسواق البندقية ، ومن ثم عملية توزيعه داخل أوروبا كان البرتغاليون يبيعون ذلك القطار بـسعر يتراوح ما بين العشرة واثني عشر ألفاً ، ولم يكن ذلك بالشئ الذي يخشى منه على الاقتصاد البرتغالي ، إذ نلاحظ أنه بداية من عام ١٥٠٣ م عمد البرتغاليون في سبيل انجاح خططهم الاقتصادية وجلب الدول الأوربية اليهم الى الاقتناع بالحصول على مبالغ معينة تسدد نفقة الرحلات التجارية وعدم النظر الى الأرباح في محاولة لتوجيه أنظار أوروبا الى أسماهم المنخفضة ، وهذا بالتالى ما يصرفهم عن أسواق مصر والشام (٢) ، لهذا لم يكن من الغريب أن ترى التجار الإنجليز قد بدأوا بالفعل ابتداء من عام ١٥٠٢ م بالتوجه فعلا الى لشبونة لرخص أسماها عن الاسكندرية اضافة الى قلة رسوم الجمارك (٣) ، وعلى الرغم من تلك السياسة التى انتهجوها الا أننا نلاحظ أن أرباح تلك العمليات كانت فى ازدياد مستمر فى السنة ذاتها عاد فاسكودى جاما الى لشبونة بحمولة ضخمة من منتجات الهند قدرت بـ ٣٥٠٠٠ قنطار من الفلفل والزنجبيل وجوز الطيب اضافة الى الجواهر والأحجار الكريمة حيث بيعت بمبلغ مليون بندقى ، على الرغم من أن تكاليف حملته تلك لم تزيد عن ٢٠٠٠٠ بندقى (٤) ، ورغم أن

(١) محمد اسماعيل الندوى : تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية ١٧١

— شارل ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية ١٤٥ ، ١٤٦ .

(٢) د . نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ٧٥ .

(٣) المرجع السابق ، ٧٦ .

(٤) شارل ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية ١٤٦ .

البرتغاليين قد أغرقوا أسواق لشبونة بالمنتجات الشرقية بكثافة إلا أنهم لم يكتفوا فقط بانتظار عملائهم للحضور الى لشبونة للشراء وإنما قاموا بأنفسهم بإرسال السفن حاملة التوابل الى إنجلترا والأراضي المنخفضة وغيرها من البلدان ، كذلك لجأ البرتغاليون في سبيل الترويج لبضائعهم الشرقية الى محاولة معرفة احتياجات الدول الأوروبية ذاتها من البضائع الشرقية لتوفيرها لهم ، فعلى سبيل المثال كان لحسل اللين (نوع من أنواع البخور) قيمة كبيرة في إيطاليا (٢) ، وعندما أدرك البرتغاليون مدى أهمية ذلك النوع بالنسبة للكنائس وبيوت الأمراء عمد فاسكودي جاما في بداية الأمر عن طريق جواسيسه الى محاولة معرفة أسعاره في الاسكندرية ، ومن ثم أغرق الأسواق بكميات كبيرة منه (٣) ، وبذلك لم يكد الربح الأول من القرن السادس عشر الميلادي يقارب الانتهاء حتى كانت معظم دول أوروبا مثل أسبانيا وبرغمن وبرجندى وإنجلترا وأيرلندا واسكتلندا ، وكذلك الجزء الأكبر من هولندا كانت جميعها تستقبل البضائع الهندية عن طريق البرتغال ، أما في إيطاليا فقد تولت جنوه المنافس التقليدي للبنادقة في أوروبا مهمة توزيع بضائع البرتغال في كل من توسكانيا وروما وناپلى . (٤)

سادسا : المنافسة وهي ذات فرعين : ١ - منافسة الدول التي قد تفكر في محاولة مشاركة البرتغال أرباحها الضخمة تلك وهي كما قلنا عن طريق اغراق الأسواق الأوروبية بكميات وفيرة من البضائع الشرقية ، وبأسعار رخيصة لقطع الطريق على أية دولة قد تفكر في منافستها ، أما الفرع الثاني من مجال

(١) شارل ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية ١٤٩ .

(٢) د . نعيم زكي فهمي : طرق التجارة الدولية ٢٣٣ .

(٣) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(4) Stripling: The Ottoman Turks and the Arabs 35.

المنافسة فيتمثل في منافسة البندقية ذات المجد التجارى القديم والتي كان يخشى منها بسبب اتصالها المستمرة مع الممالك ، لهذا اتجه البرتغاليون الى السماح للسفن الفلورنسية والجنوية بمرافقة الأساطيل البرتغالية الى الشرق وحمل ما تريده من بضائع شرقية نظير أرباح معينة للبرتغاليين كوسيلة لاغراق الأسواق الأوروبية ولضرب البندقية (١) .

سأبها — سياسة الاحتكار ، فعندما أدرك البرتغاليون جدوى فصل البنادقة عن دولة الممالك في سبيل ضرب اقتصادها ، خاصة وأنها لم تكن تتورع عن تقديم أى عون يحتاجه الممالك ، عرضوا على حكومة البندقية وهيئة التجار بها تسهيل مهمة حصولهم على التوابل والسلع الشرقية من أسواق لشبونة ، مقابل قيامهم بتوزيعها فى أسواق أوروبا ، ولكن كبرياء وعظمية البندقية منعها من الاستجابة لهذا العرض ، حتى لا يقال عنها بأنها دولة تابعة للبرتغال (٢) ، وتبدوا لنا أهداف البرتغال الاقتصادية وبصورة أدق ضد مصر من خلال ما دار من مناقشات بين الوفد البندقي وملك البرتغال عما نويل الذى حدد أهداف بلاده الاقتصادية ضد مصر فى النقاط التالية : ١ — الضرب على أيدي التجار العرب والمصريين والإقلال من ثروتهم لا مكان الانتقام منهم سياسيا ودينيا . ٢ — فتح باب جديد لشراء البرتغال وسيطرتها على الشرق وتجارته . (٣) من هنا نرى أن السـ

(١) د . نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ٨٤ .

(٢) المرجع السابق ، ٧٢ ، ٧٣ .

(٣) من أشد الضربات الاقتصادية التى نزلت بمصر تلك التى شنّها فرسان جزيرة رودس فى ٩١٦ هـ — ١٥١٠ م على عهد الخورى حينما هاجموا بقيادة القائد أندريه دى آمارال قافلة بحرية مكونة من ثمانى عشرة سفينة متجهة نحو الاسكندرية ومحملة بالسلاح والذخيرة من قبل السلطان العثمانى بايزيد الثانى ، ولم يصل للاسكندرية من هذه السفن سوى ست سفن خاوية .

الكاثوليكية كانت تسيطر على كافة المشاريع البرتغالية في المشرق الاسلامي، لأن المذهب الكاثوليكي هو أقدم المذاهب المسيحية الأوروبية أو بالأحرى كان ذلك المذهب الراية التقليدية التي حمل الأوروبيون تحت ظلها، حققهم على الاسلام، اذن فلماذا ومع انفراد البرتغاليين بالأمم في المشرق من أن يظهر هذا الحقد الدفين فيما ارتكبه من مجازر ومذابح أينما حلوا .

ثامنا - افتتاح الفروع التجارية ، كان من نتيجة ضخامة الأرباح التي جمعها البرتغاليون عن طريق خطوات تدابيرهم الاقتصادية ضد العالم الاسلامي والتي سبق وأن أشرنا اليها ، أن أدت الى قيام نشاط رأسمالي كبير في البرتغال اضافة الى غرب أوروبا (١) ، حيث اتجه الملك عما نويل الى افتتاح مستودعات تجارية لشمونها لشبونة ، ومن ثم تقوم بتوزيعها على كافة الدول الأوروبية ، ومن أهم تلك المستودعات هي أنثروب في الأراضي المنخفضة وأنفوس (٢) ، حيث اشتهرت الأولى بمهمة توزيع التوابل على السواحل الشمالية لأوروبا ، وبلغ من ثراء البيوت المالية بها أن عمدت الى مد البرتغال بالأموال اللازمة لأعداد الحملات الى الهند (٣) ، أما انفوس فقد اشتهرت بأنها أكبر مركز تجاري في أوروبا ، ذلك أن لشبونة كانت تعتبر هي المخزن الرئيسي أما انفوس فكانت بالنسبة للبرتغاليين السوق الرئيسية لتوزيع تلك الأطنان الهائلة التي كانت تلقى الى أرصفة ميناء لشبونة (٤) .

ولم يكن من الغريب تدعيما لنجاح خطوات الخطة الاقتصادية أن يقوم

-
- (١) د ١٠ السيد مصطفى سالم : الفتح العثماني الأول لليمن ٥٤ ٥٥٥ .
 - (٢) تقع على بعد ١٢ ميلا من لشبونة على امتداد الساحل .
 - (٣) د ١٠ السيد مصطفى سالم : الفتح العثماني الأول لليمن ٥٥ .
 - (٤) د ١٠ جلال يحيى : الاستعمار والاستغلال والتخلف ٢٦١ .

البرتغاليون بوضع نظام دقيق لتجارتهم تلك ، فكانت هناك حكومة لدول الهند
وللمهنات المكلفة بالادارة الاقتصادية في لشبونة ، التي كانت تشرف على
تحديد أسعار السلع المصدرة (١) ، وأصبحت تجارة بعض السلع (خاصة
التوابل) احتكار لملك البرتغال ، ولا يحق لأحد المتاجرة بها دون تصريح
برتغالي بعد دفع الضرائب ، حيث تصل الى لشبونة ومنها توزع الى أوروبا
أما السفن التي لا تحمل تصريحا في المحيط الهندي فقد كان مصيرها الأسر
والاغراق خاصة اذا كانت تخص التجار المسلمين . (٢)

... ..

(١) د . جلال يحيى : الاستعمار والاستغلال والتخلف ٢٥٧ .
- كانت هناك سبع حكومات تقسم فيما بينها حكم المراكز البرتغالية
من رأس الرجاء الصالح الى ماكاو بالصين .

(2) Liver more: Portugal and Brazil 193.

- جون لوفران : تاريخ التجارة ٦٩ ، ٧٠ .

الفصل الرابع

الصراع في البحر الأحمر في العصر العثماني

- أ - فتح العثمانيين عدن وإغلاق البحر الأحمر.
- ب - أدوار الصراع.

مع بداية القرن السادس عشر الميلادى ، وفى الوقت الذى كان فيه البرتغاليون يرمون بأنظارهم تجاه تنفيذ أحلامهم فى المحيط الهندى عقب تحرك الفاريز كابرال بحملته عام ١٥٠٠ م نحو الشرق ، كانت علاقات حسن الجوار مستمرة بين المماليك والعثمانيين عقب الممارك الدامية التى نشبت على عهد السلطان قايتباى والسلطان بايزيد العثمانى ، بدليل مشاركة العثمانيين للمماليك فى صراعهم مع البرتغاليين ، عندما أمدهم بما يزيدهما يحتاجونه من خشب وعتاد وسلاح ، الى جانب فئات المتطوعة من البحارة برئاسة سلمان الرئيس ، الذين انضموا الى صفوف المماليك وشاركوهم أعداد الأساطيل الحربية اللازمة فى ميناء السويس كما ذكرنا من قبل .

الاول

ومع وصول السلطان سليم الثانى الى عرش الحكم ٩١٨ هـ - ١٥١٢ م كانت العلاقات بين الطرفين قد بدأت فى التدهور ، خاصة بعدما أرسل السلطان الفورى لسليم الثانى رسالة تضمن جزئيا طلبه للأخشاب وبعض الصناعات ، وعدم رد السلطان سليم بجواب على ذلك الطلب (١) .

هذا وعلى الرغم من كافة الأسباب التى قد يتاقلها المؤرخون فى تفسيرهم لأسباب تحول الأتراك من أوروبا الى العالم العربى ، إلا أننا لا نستطيع أن ننكر أن وصول الأتراك الى مصر والشام أمر كان لابد منه فى ظروف دولة كانت تن من جراح الماضى ، وليس المجال هنا متسعاً للحديث عما حدث بين أكبر دولتين فى مرج دابق والريدانية ، ولكن هناك حقيقة هامة يجب أن نعترف بها ، وهى أن الأتراك عندما دخلوا العالم العربى دخلوه فى وقت كان يجرى فيه تغير اقتصادى كبير ، عندما تحطمت دعامة الكيان الاقتصادى

(١) د . أحمد فؤاد متولى : الفتح العثمانى للشام ومصر ومقدماته ١١٠ .

للمرب بتحول طرق التجارة عبر رأس الرجاء الصالح مع بداية القرن السادس عشر الميلادى ، خاصة وأن هناك فترة ما بين عام ١٥٠١ م وهى السنة التى بدأت فيها منتجات الهند يتدر وجودها فى أسواق الشام ومصر ، وبين عام ١٥١٢م السنة التى دخل فيها الأتراك العثمانيين القاهرة ، فيكفى أن تكون تلك السنوات عاملاً أساسياً فى انهيار الاقتصاد الإسلامى فى العالم العربى ، ومن ثم يسرى مفعوله الى الأوضاع الاجتماعية والثقافية .

ومن الملاحظ هنا أن العثمانيين باستقرارهم بمصر لم يشتركوا مع البرتغاليين فى موقعة فاصلة تحدد مصير تجارة المحيط الهندى ، وكان هذا راجعاً الى انشغال العثمانيين بجبهات متعددة ، وليس أدل على هذا سوى تأخرهم فى ارسال نجدة عسكرية الى جدة عقب فشل ليو سواريز فى الاستيلاء عليها ، والتى وصلت أواخر عام ١٥١٩ م عقب مرور سنة ونصف على فشل المحاولة واستجداء شريف مكة بخاير بك حاكم مصر^(١) كما سنذكر فيما بعد ولا يدل هذا على تقاعس العثمانيين ، وإنما كان للدور الكبير الذى كانوا يقومون به سواء فى أوروبا أو فى آسيا عقب ضم مصر أثره فى أن ينشغل السلطان سليم بأحداث جسام قد تخلق أمن الدولة ، فالسلطان سليم مثلاً لم يتسع له الوقت للبقاء بمصر أثناء مقامه بها ، لدراسة أحوالها ، ومن ثم التعرف على طبيعة الغزو البرتغالى عن كثب ، وذلك كله بسبب انشغاله بالخطر الصفوى الذى كان يهدد شرق الأناضول ، إضافة الى هذا يجب

(١) د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ١٢٩٠

(٢) د . أحمد فؤاد متولى : الفتح العثمانى للشام ومصر ومقدماعه ٢٣١٠

أن لا ننسى أن الدولة العثمانية كانت دولة عملاقة تمتد من المجر الى نهائية بلاد الشام في حدودها مع العراق (١) ، وكانت مسئولية حكم هذه الشعوب الكثيرة المختلفة يدخل فيها الزود عنها بقتال القوى الأوروبية ، وهو أمر كان صعبا الى حد انه لم يترك للسلطان من الوقت أو الأموال أو القوات الحربية سوى القليل يستخدمه في محاولة إعادة تقويم طرق التجارة القديمة عبر الشرق الأوسط من الهند (٢) .

وابتداء من ٢٥ يوليو ١٥١٨ م كان السلطان سليم قد شغل بأمر اعداد الأساطيل الحربية لمهاجمة جزيرة رودس بحرا ، وفي الوقت نفسه كان يستعد أيضا لمحاربة الفرس عندما حشد قواته في قيصرية ، ورغم تلك المشاغل الا أننا نستطيع القول أن السلطان سليم قد أبدى اهتماما كبيرا بهذا الطريق التجارى حتى انه أعد في السنة التالية أسطولا غايته بلاد الهند لمحاربة البرتغاليين ومقره الاسكندرية ، وسعى لاجتذاب أمراء جنوب الجزيرة الحربية اليه لولا أن داهمه الأجل . (٤)

(١) بلغت مساحة الأراضي التي شملتها الدولة العثمانية حتى عصر السلطان سليم ١٢٠٢٠٠٠ كم^٢ في أوروبا ، ١٩٠٥٠٠٠ كم^٢ في آسيا ، ٢٩٥٠٠٠٠ كم^٢ في افريقيا . وقد كانت مساحة ولاية مصر وحدها تبلغ ٢٢٧٥٠٠٠٠ كم^٢ .
— د . أحمد فؤاد متولى : الفتح العثماني للشام ومصر ومقدما ٢٥٨ .

2. Stripling: The Ottoman Turks and the Arabs 88.

(٣) محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ٧٨ .
(٤) ليلى الصباغ : الفتح العثماني لسوريا ومطلع العهد العثماني فيها ٤٨ ، ٤٩ — رسالة ماجستير ، جامعة القاهرة ، ١٩٦٠ م .

وعلى الرغم كذلك من انشغال خليفته السلطان سليمان للقانونى بمشاكل الدولة (١)، إلا أن ذلك لم يمنع أمراء مصر العثمانية من تحديد السياسة العثمانية الجديدة تجاه الخطر البرتغالى ، والتي يمكن حصرها فى النقاط التالية : أولا - الاهتمام بشئون مصر البحرية ، فمع وصول الأتراك الى مصر كان الأسطول المصرى قد ضعف تماما وأهمل نتيجة لظروف منها نقل السلطان سليم ضمن من نقلهم الى القسطنطينية أمهر الصناع فى بناء السفن حتى اضطرت دور الصناعة المصرية الى اغلاق أبوابها فانحط شأن الأسطول وسرح بحارته (٢)، اضافة الى انقراض معظم سفن الفورى وضياح البهوض فى حين حازر القادة المصريون ما بقى منها على شواطئ اليمن تحت قيادة الأمير سلمان الرئيس . (٣)

لهذا كان على القيادة العثمانية المصرية ونتيجة للضغط البرتغالى على البحر الأحمر أن تعمل من جديد فى سبيل بناء القوة البحرية المصرية تحسنت راية الهلال العثمانى ، وكانت بداية تأسيس الأسطول المصرى الجديد على يد الوالى العثمانى خير بك الذى أمر بتشيد السفن فى دار الصناعة ببولاق عام ٩٢٦ هـ - ١٥٢٠ م ، ثم عرض أمامه ما أنتجته من مراكب وأفرسة . (٤) وباعتلاء السلطان سليمان عرش الحكم نهج العثمانيون نهجا جديدا بأمر الثغور المصرية حيث تم ترتيب نظام مخصوص لإدارة السواحل

(١) واجه السلطان سليمان عقب توليه العرش مشاكل عديدة مثل فتنة الغزالى الذى حاول الانفصال بالشام عن الدولة العثمانية اضافة الى فتحه مدينة بلغراد وجزيرة قبرص عام ١٥٢٢ م ومشاكله فى بلاد القرم ١٥٢٢ م ، وفى اقليم الفلاح ١٥٢٤ م .

(٢) د . سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ١٣٥ .

(٣) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ج ٢ ٣٧ .

- جميل خانكى : تاريخ البحرية المصرية ٢٠٨ .

(٤) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ج ٢ ٣٧ .

المصرية التى قسمت بين ثلاثة قبودانات أحدهم لشفر دمياط والثانى لشفر
السويس ، والثالث لشفر الاسكندرية ، وأصبح مرجعهم الأول والأخير
السلطان العثمانى نفسه . (١)

ثانياً — توطيد النفوذ العثمانى على الشاطئ الغربى للبحر الأحمر ،
ولقد كان من الطبيعى أن تتفق سياسة العثمانيين مع سياسة المماليك القديمة
فيما يتعلق بموقفهم حيال البرتغاليين وتجارة المحيط الهندى فى البحر
الأحمر ، خاصة وأن السواحل الغربية للبحر الأحمر كانت تمثل ميهاناً
هاماً للبرتغاليين ، فى وقت كان فيه بقايا دولة المماليك فى اليمن بمثابة
مانع لارتكاز البرتغال على السواحل الشرقية عن طريق عدن وبالتالى اغلاق
البحر الأحمر ، هذا فضلاً عن بحث الأحباش المستمر وحاجتهم لقوة
جديدة تساندتهم فى صراعهم ضد سلى الامارات الذين باتوا يشكلون خطراً
جسيماً على الحبشة .

من هنا ندرك مدى الأهمية التى رعى من ورائها العثمانيون الى تعزيز
سلطانهم على السواحل الحربية للبحر الأحمر ابتداءً من السنوات ١٥١٩م فى
وقت فشل فيه البرتغاليون عام ١٥١٢م فى احتلال جدة وتهديد الأماكن
المقدسة ، وعندما علم العثمانيون بخطورة تلك الاتصالات التى كانت تجرى
بين الحبشة والبرتغال ، هذا فضلاً عن أن العثمانيين كانوا يعتبرون أنفسهم
حماة للأماكن المقدسة ، وهو ما كان سائداً بين شعوب منطقة الشرق الأوسط
عقب دخول السلطان سليم القاهرة ، لهذا لم يكن من الغريب أن يتسكك
آل عثمان بذلك اللقب خاصة بعدما قدم لهم شريف مكة مفاتيح الكعبة

(١) د . سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ١٣٦٠ .

دليلا على خضوع الحجاز لهم ، فلم يتعد الأمر اتهاج العثمانيين لخطيئة
المماليك في سبيل نجف البحر الأحمر بحيرة اسلامية حرصا على سلامة
الأراضى المقدسة ، وتأميننا لطرق الحج إليها ، اضافة الى هذا فقد أثبتت
الأحداث السابقة أن الاستقرار في عدن واليمن بالنسبة للعثمانيين يستلزم
انشاء قاعدة بحرية على الساحل الغربي لتموين قواعدهم في مدخل البحر
الأحمر ، وهو ما حرص عليه كل من حسين الكردي وسلمان الرئيس في حملة
المماليك الأولى والثانية كما ذكرنا من قبل ، لهذا اتجه السلطان سليم عقب
استيلائه على مصر الى ارسال حملة بقيادة سنان باشا لضم سواكن ، حيث
هدف من ذلك الى منع البرتغاليين من الاستيلاء عليها ومن ثم الانتفاع
بمواردها الجمركية (١) ، كذلك استولوا على ميناء زيلج الذي كان له أهمية
كبيرة في ربط ساحل البحر الأحمر بالداخل الذي يقوم عن طريق زيلج بتصدير
منتجات البلاد الافريقية ، وأقاموا بها جمركا وكونوا أسطولا صغيرا لحماية
الميناء . (٢)

ثالثا - اتجاها لعثمانيين الى مد نفوذهم الفعلي الى اليمن ، والذي
صادف وجود ثلاث قوى سياسية على أرضه تناحرت من أجل السيطرة ، ففي
عدن كان الظاهريون في نزاع مع الأئمة الزيدية الذين اقتسموا المرتفعات
الشمالية ، وأخيرا بقايا المماليك في السواحل اليمنية والمعترفين بالسيادة
الاسمية للعثمانيين وممثلهم في اليمن ، فالدولة الظاهرية ومع استقرار

(١) د . السيد رجب حراز : أرتيريا الحديثة ٢٧ ، ٢٨ .

(٢) ابراهيم حسن : الامام أحمد بن ابراهيم القرين ٧٥ .
رسالة ماجستير لم تنشر ، جامعة القاهرة .

— د . محمد المختصم سيد : دول اسلامية في شرق افريقية ٣٤ .

العثمانيين بمصر تطورت بها الأحداث السياسية كالتالى ، تحول صراعهم منسج الامامية الزيدية الى صراع مع مماليك اليمن الذين فشلوا سابقا فى الحصول على عدن التى كانت تمثل بالنسبة لهم المركز الرئيسى أو القاعدة الأساسية للانطلاق منها الى الهند لمهاجمة المراكز البرشالية فيها ، فبعد أن كانت الحروب بينهما فى السابق تأخذ طابع الحصار البحرى لعدن أصبح الفريقان الآن على استعداد للمواجهة البرية حول المدن والقرى ، ودارت حروب عديدة انتهت بانتصار المماليك حتى انتهى الأمر بقتل السلطان عامر بن عبد الوهاب بالقرب من صنعاء فى الثالث والعشرين من ربيع الثانى ٩٢٣ هـ - ١٥١٢ م (١) ، وذلك انحسر نفوذ الطاهريين فى عدن وما حولها من قرى وأودية .

أما بالنسبة للمماليك فقد كانوا يسيطرون نفوذهم على بعض "جبهات" تهامة وعلى زبيد وتمز ، وما أن وصلت لهم الأخبار بسقوط دولة المماليك ودخول السلطان سليم القاهرة ، حتى قام الأمير اسكندر زعيم الفئات الباقية بإعلان بيعته للسلطان سليم فى الجامع الكبير بصنعاء ، وخضوعه هو ومن معه من المماليك فى اليمن للسيادة العثمانية (٢) ، وهذا بدوره ما حصل السلطان سليم يعترف به حيث أرسل اليه حكما سلطانيا بأن يكون واليا على اليمن من قبله ، فأطاع اسكندر وأظهر الشعار العثمانى ، وارتدى زى الأروام وخطب باسم السلطان سليم فى المساجد والمناسبات (٣) .

(١) د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ٩١ ، ٩٢ .

(٢) المرجع السابق ، ٩٥ .

(٣) النهر والى : البرق اليمنى فى الفتح العثمانى ٣٣ .

أما الأئمة الزيدية فيبدو أن نشوب الصراع بين الظاهريين والمماليك كان غاية أمانهم في سبيل أن يحدد الطرفان قوتها حتى تحسم الأمور لهم ، وهذا ما أوجد للمماليك فريقا آخر انشغل بمشاكلهم ، وانصرفوا هم بدورهم الى التحقق داخل البلاد كمحاولة في سبيل القضاء على مراكز الأئمة الزيدية في المرتفعات الشمالية .

تلك هي صورة اليمن مع بداية العهد العثماني في العالم العربي ، خاصة وأن النظرة العثمانية تجاه اليمن لم تكن تختلف عن نظرة المماليك باعتبار أن السواحل اليمنية تشكل الخط الدفاعي الأول للزود عن البحر الأحمر والأماكن المقدسة ، فاليمن بحكم موقعها الممتاز في جنوب الجزيرة العربية ، ولقربها من مدخل البحر الأحمر وخاصة باب المندب يوفر للدولة العثمانية مميزات ثلاث منها امكانية الحصول على موقع مناسب لمواجهة الأساطيل البرتغالية في المياه الجنوبية ، كذلك امكانية ضمان سلامة الأماكن المقدسة ، وأخيرا موقع مناسب يتم من خلاله محاولة تطويق القوس من الجنوب (١) ، ورغم تلك الاستراتيجية التي نظمها العثمانيون في سبيل مواجهة البرتغاليين عن طريق فرض سيطرتهم على اليمن إلا أنه من الملاحظ أن خطواتهم تجاه ذلك لم تكن بحجم النظرة الاستراتيجية لليمن أي أن خطوات تنفيذ سيطرتهم على اليمن كانت ضعيفة ولم تأخذ طريقها الى الظهور إلا في وقت متأخر عام ١٥٣٨ م كما سنرى فيما بعد ، وليس معنى ذلك أنهم أهملوا اليمن ، أو لم يرسلوا اليه القوات اللازمة ، ولكن القصد هنا انه على الرغم من خروج حملات من جدة وأحيانا من السويس لأجل فرض السيطرة الفعلية على اليمن ،

(١) د . فاروق عثمان أباطة : عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر

فإنها لم تأت جميعها في ضخامة الحملة التي ستخرج بقيادة سليمان باشا الخادم فيما بعد ، ولعل ذلك راجع الى عامل مهم ألا وهو انشغال الامبراطورية العثمانية بأخطار القوى الأوربية التي قد تستغل فرصة اهتمام سليم أو سليمان فيما بعد بالخطر البرتغالي فتقوم بازعاجه عبر الحدود الأوربية العثمانية حتى تتمكن من تحقيق هدفين على ما يبدوا ، أولهما هو محاولتهم الحصول على مكاسب جديدة ، ومن ثم ارجاع الأتراك الى داخل آسيا الصغرى ، والثانية هي محاولة تخفيف الحب عن البرتغاليين في سبيل زيادة نفوذهم ونشاطهم البحري هناك .

ولعل من أولى الدلائل التي قد تفسر لنا اهتمام العثمانيين بمد نفوذهم الفعلي على اليمن هي جعلهم من مدينة جدة (١) القاعدة الأساسية فسي سبيل انطلاقهم الى اليمن وفرض السيطرة عليه ، وما لبث خير بك حاكم مصر أن أصدر أوامره في ٩٢٦ هـ / ١٥٢٠م الى نائب جدة حسين الرومى بأن يضم اليه ولاية السواحل اليمنية الى جانب ولايته لجدة (٢) ، وبذلك رتبت الدولة العثمانية الخطوات الأولى لفرض سيطرتها على اليمن ، ولم يتبق لها سوى تنفيذها على الواقع ، والذي بدأ في نفس السنة عندما خرج حسين الرومى نائب جدة بحملة صغيرة الى ميناء البقعة اليمنى ، إلا أن حسين الرومى لم يوفق في ذلك بشئ خاصة بعدما رأى مدى استمداد ماليك اليمن بقيادة اسكندر المخضرم لمقاومته فآثر السلامة وعاد الى

(١) عقب دخول الأتراك العثمانيين القاهرة أصبحت جدة سنجقا كان أول من تولاه من قبل العثمانيين هو الأمير قاسم الشرواني ، ثم خلفه بمد وفا ته الأمير حسين الرومى .

النهر والى : البرق اليمني في الفتح العثماني ٣٤ .

(٢) د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثماني الأول لليمن ١٣٠ .

(١) جدة ، كان ذلك في وقت توفي فيه السلطان سليم وحل مكانه ابنه سليمان الذي شغل بالحركة الانفصالية التي قام بها نائب الشام جان بردي الخزالي ولكن حسين الروي ما لبث أن عاد الى اليمن مرة أخرى يحدوه الأمل في الاستفادة من الفتن التي قامت في اليمن بين المماليك والتي انتهت بقتل اثنين من الزعماء هم اسكندر المخضرم ورمضان الروي ، وحلول اثنين مكانهما وهما علي الطويل واسكندر القرمانى (٢) ، ويجب أن نشير هنا الى نقطة هامة ، وهي ظهور سلمان الريس على مسرح الأحداث السياسية في البحر الأحمر مرة أخرى ، ويمكن أن نضيف قصة ظهوره كعامل ثان ساعد حسين الروي على محاولة العودة ثانية الى اليمن ، والذي كثيرا ما كان يغري حسين الروي على ضرورة نزوله اليمن والاستيلاء عليها (٣) ، وهذا بدوره مما يؤدي الى اضطراب الأوضاع السياسية في اليمن ، فسلطان الريس شخصية ذات نفوذ في اليمن ، وربما لعب ذلك الدور طمعا في أن تصين الدولة العثمانية واليا على اليمن بحكم خبرته السابقة بالأوضاع السياسية في تلك المنطقة من خلال عمله كقائد بحري زمن الدولة المملوكية ، اضافة الى أنه كان يطمح في أن تنصروه الفئات العثمانية القديمة التي تطوعت في حملة المماليك الثانية والأخيرة ، والتي بقيت على ولائها للدولة العثمانية عقب دخول السلطان سليم القاهرة .

(١) د . محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ١٤٨٠
- جاء في كتاب الأمانى في أخبار القط اليماني ، القسم الثاني ٦٦٣
أن حسين الروي عاد الى جدة بمسبب أخبار تفيد بوصول حملة
برتغالية الى البحر الأحمر ففضل حسين الروي العودة الى جدة
للدفاع عنها .

(٢) النهر والى : البرق اليماني في الفتح العثماني

(٣) المرجع السابق ، ٣٨٠ .

جرت الأحداث بعد ذلك سريعا حيث تمكن سلمان الرئيس بما له من خبرة سابقة من استمالة بعض العناصر اليمينية الى صفوف حسين الرومى^(١) ، الذى نجح فى الدخول الى زبيد وتأمين الناس على أموالهم وأرواحهم ، وهنا ظهرت شخصية سلمان الرئيس على حقيقتها أمام حسين الرومى حينما حاول سلمان الرئيس الانفراد بالسلطة فى زبيد ، وهذا ما أدى الى نشوب الخلاف بين الشخصيتين ، انتهى الى تصدى حسين الرومى لمحاولات سلمان بالانفراد بالسلطة والذى فر الى القاهرة لاثارة الادارة العثمانية عليه هناك^(٢) ، وبذلك هدأت الأحوال السياسية فى اليمن لأول مرة منذ وصول المماليك ، وظلت كذلك حتى توفى حسين الرومى فى عام ٩٣٢ هـ / ١٥٢٦ م .

وهكذا مرت السنوات بداية من دخول الأتراك القاهرة وحتى عام ١٥٢٦ م اعتمد فيها أمراء القاهرة على حكام جدة فى بسط نفوذ الدولة العثمانية على اليمن ، والواقع أننا لا نستطيع أن نتهم الدولة العثمانية وخاصة فى الفترة السابقة بأنها قصرت فى سبيل مد نفوذها الفعلى عن طريق حملة كبرى ، لأن واقع الأحداث السياسية التى كانت تمر بها الدولة العثمانية كان يضطرها الى تركيز جهودها فى تلك الفترة على القوى البرية التى حاولت سواء فى آسيا أو فى أوروبا أن تتال منها ، فلو تتبعنا الأحداث السنية من عام ١٥٢٠ م وهى السنة التى تولى فيها السلطان سليمان مقاليد الحكم وحتى عام ١٥٢٦ م لوجدنا أنها كانت عامرة بحروب واستمدادات بحرية

(١) د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ١٣٢٠ .

(٢) المرجع السابق ، ١٣٣ .

وبرية وأموال تصرف في سبيل إعلاء الجند والعتاد اللازم للفتح أو الصد.

وعودة الى القاهرة نجد أن الأمور من حيث النظرة العثمانية تجاه الاستراتيجية الحربية للدولة العثمانية قد طرأ عليها نوع من التطور والتجديد من خلال النقاط التالية : أولاً — في عام ١٥٢٤ م أى قبل وفاة حسين الرومى والى اليمن بسنتين أرسل السلطان سليمان (١٥٢٠ — ١٥٦٦ م) الصدر الأعظم ابراهيم باشا لتنظيم النواحي الادارية في كل من الشام ومصر وهنا ورغم انشغال السلطان سليمان بمشاكل دولته مع اقليم الفلاح وأرسال الجيوش الى عاصمة ذلك الاقليم ، نلاحظ مدى اهتمام الدولة بالخطر البرتغالى عندما قام الصدر الأعظم باتخاذ السويش القاعدة الأساسية لعمليات الدولة الحربية في البحر الأحمر والمحيط الهندى ضد البرتغاليين بعد أن تسم تنظيم شؤونها البحرية ^(١) ، ثانياً — نجاح سلمان الرئيس في اشارة الصدر الأعظم ابراهيم باشا على حسين الرومى ونجاحه في اقناعه بارسال حملة معه لدفع أذى البرتغاليين وأخذ اليمن وتحصيل الأموال لخزائن السلطنة العثمانية ^(٢) ، وعلى الرغم من تلك المساعي التى بذلها سليمان الرئيس في سبيل خروج حملة جديدة من مصر يتولى قيادتها ، إلا أن مساعيه تلك فشلت عندما أسند اليه الصدر الأعظم قيادة الأسطول فقط ، في حين تولى القيادة العامة خير الدين حمزة الى جانب نيابته في زبيد ، وتكونت الحملة من عشرين سفينة تحمل أربعة آلاف جندي مطلق أى من كل نسوع وفى شهر رمضان ٩٣٢ هـ — ١٥٢٦ م وصلت الحملة الى جدة ومنها الى اليمن ، ومع وصول الحملة نشبت الفتى بين الطرفين كما هي العادة فى

(١) د . السيد رجب حراز : أرتريا الحديثة ٢٨ .

(٢) النهر والى : البرق اليماني فى الفتح العثماني ٤٢ ، ٤٣ .

(٣) المرجع السابق ، نفس الصفحات .

الفترات السابقة ، بعدما رفض مصطفى الرومي الذي خلف حسين الرومي في تسليم نفسه الى سلمان الرئيس ، وانتهت تلك الحروب بانتصار سلمان الرئيس لتتشب مرة أخرى بين القادة الجدد أي سلمان الرئيس وخير الدين حمزة الذي نجح في قتل سلمان الرئيس عام ٩٣٤ هـ - ١٥٢٨ م ، واستمرت مسرحية القتل والنزاع بين القادة ، فعندما علم مصطفى بيروم ابن أخيه سلمان الرئيس بقتله سارع مستعينا ببعض بحارة الأسطول وهاجم خير الدين حمزة وقتله . (٢)

كان من جراء تلك الفتن والحروب بين المماليك التي عاش في ظلها مصطفى بيروم السابق ذكره أثرها الفعال في نفسيته عندما أدرك خطورة بقاءه وما قد يجبر عليه من مؤامرات من أنصار خير الدين حمزة أو غيرهم من المماليك الذين اعتادوا حياة العصيان والمشاكسة على أرض اليمن ، خاصة وأنه كان يحلم علم اليقين أن من أهداف الحملة التي خرج معها تحت قيادة خير الدين حمزة وخاله سلمان الرئيس هي التصدي للغزو البرتغالي في المحيط الهندي ، وخوفا على نفسه من الانسياق وراء مشاكل الولاية في اليمن ، إضافة الى ما قد يؤدي ذلك الى تهديد قوة الحملة وما بقي منها تحت قيادته في حروب على أرض اليمن قد تطول ولا تنتهي ، قرر الخروج الى الهند والعمل في خدمة سلطان كجرات ، وجهاد البرتغاليين هناك بعيدا عن مشاكل اليمن ، فأعد عدته وخرج بما تبقى من أسلحة وسفن بعد أن ترك على اليمن على الرومي واليا عليها (٣) ، وقيل أن يخرج من البحر الأحمر على

(١) النهروالي : البرق اليماني في الفتح العثماني ٥٢ ، ٥٣ .

(٢) المرجع السابق ، ٥٣ .

(٣) المرجع السابق ، ٥٤ ، ٥٥ .

تحصين جزيرة كمران وتزويدها بما تحتاجه ، ومن ثم اتجه الى الهند حيث وفد على السلطان بها دورشاه صاحب كجرات الذى أكرمه وعينه حاكما لديو ولقبه روى خان (١) ، وظهرت جهوده وقدرته فيما بعد عندما تمكن من صد غارة برتغالية للاستيلاء على ديو مما أدى الى رفع شأنه بالهند . (٢)

وسفر حملة مصطفى بييرم الى الهند ٩٣٦ هـ - ١٥٣٠ م نستطيع القول أن الدولة العثمانية وعلى الرغم من مشاكلها فى أوروبا قد تمكنت من فرض وجودها فى البحر الأحمر بطريقة مكنتها من دراسة الأماكن التى وصلتها وفى الوقت نفسه عرفت القوى السياسية سواء فى البحر الأحمر أو المحيط الهندى أن الدولة العثمانية ليست كسابقتها جدارا يمكن صعوده ، فإن فشلت تلك الحملة فى بسط النفوذ الفعلى للعثمانيين على اليمن كما سسنرى فيما بعد ، فإنها أى الدولة أثبتت أن لديها قادة يمكن الاعتماد عليهم فى سبيل مواجهة البرتغاليين ، ولا أدل على ذلك سوى خروج مصطفى بييرم الى الهند وكان هذا بإمكانه البقاء فى اليمن ، والانغماس فى دائرة الفتن والحروب الأهلية ، ومن واقع الأحداث السابقة التى مرت بها الحملة فى اليمن ، ومع اشتداد الخطر البرتغالى أصدر السلطان سليمان القانونى عقب فترة وجيزة من سفر مصطفى بييرم الى الهند ٩٣٧ هـ - ١٥٣١ م أوامره

(١) النهر والى : البرق اليمنى فى الفتح العثمانى ٥٥ .

(2) Stripling: The Ottoman Turks and the Arabs 59.

(١) الى سليمان باشا الخادم حاكم مصر باعداد أسطول للخروج الى البحر الأحمر ،
فعلى الرغم من علم السلطان سليمان بسفر حملة مصطفى بيوم الى الهند ،
وكان عليه أن ينتظر النتائج لتلك الحملة ليقرر بعدها حجم الحملة الجديدة
والنقاط التي يجب تقويتها لتغطية ما قد يظهر من ضعف في الحملات السابقة
الا أننا نجده يسرع في اعداد تلك الحملة دون انتظار لأي نتيجة مدركا
بأن ضرب البرتغاليين في عقر دارهم أمر ضروري لمواجهةهم ، خاصة
وأنه لم تكن قد هدأت أحوال جيوشه منذ لحظة عودتها من أسوار فينيسا
عام ١٥٢٩ م بعد سلسلة طويلة من الحروب مع الامبراطورية النمساوية .
(٢)

وعودة الى الاستعدادات لتلك الحملة فاننا نجد أن القادة قد
عانوا صعوبات مختلفة بنقل المواد التي يحتاجها بناء الأسطول ، ولكن
تغلب عليها تصميم القائمين على الأمر ، ولما لم يكن هناك خشب في
مصر أو سوريا أو بلاد العرب فقد اضطر الأتراك الى نقل الخشب من خليج

(١) نص فرمان السلطان المرسل الى سليمان باشا الخادم " عليك
يا بيهك البكوات (بكربك) بمصر سليمان باشا ، أن تقوم فور تسلمك
أوامرنا هذه بتجهيز حقيقتك وحاجاتك واعداد العدة بالسويس
للجهاد في سبيل الله ، حتى اذا تهيأ لك اعداد أسطول وتزويده
بالعتاد والميرة والذخيرة وجمع جيش كاف ، فعليك أن تخرج الى
الهند وتستولي وتحافظ على تلك الأجزاء ، فانك اذا قطعت الطريق
وحاصرت السبل المؤدية الى مكة والمدينة تجنبت سوء ما فعل
البرتغاليون وأزلت رأيهم من البحر " .
- ك . م . بانكار : اسيا والسيطرة الغربية ٥٠ ، ٥١ .

(٢) د . محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية
٥٧ .

آياس الى الاسكندرية ودمياط والقاهرة بالمرائب ، ومن هناك على الجمال الى السويس التى كانت فى حاجة الى الطعام والماء .

ولم تلبث مشاكل الدولة العثمانية مع أعدائها الصفويين الألداء والقرييين من حدودها فى آسيا ومن حدود العالم العربى أن ظهرت مرة أخرى عندما استتجد حاكم بغداد بالسلطان سليمان ضد شاه فارس ، وهذا ما أدى بالتالى الى نشوب الحرب بين الدولتين حينما اندفعت الجيوش العثمانية فى الثالث عشر من يوليو ١٥٣٤ م واستولت على مدينة تبريز عاصمة الشاه ، واستمرت فى طريقها ووصلت الى سواحل الخليج العربى ، وبوصول العثمانيين الى تلك السواحل أصبحوا فى موقف مواجه للبرتغاليين ، وعلى الرغم من قربهم من تلك السواحل إلا أنهم فضلوا أن تبقى السويس القاعدة الأساسية لحملاتهم باعتبار أن البحر الأحمر هو المجال الحيوى للبرتغاليين لتنفيذ أطماعهم الصليبية والاقتصادية ، وكان السلطان سليمان بعدما أمر بإعداد تلك الأساطيل السابقة الذكر قد طلب من سليمان باشا أن يلحق بالحملة العثمانية الى العراق ومعه خراج مصر (٣) ، اضافة الى ذلك فهناك عامل مهم ساعد السلطان سليمان على الاسراع بإرسال سليمان باشا ألا وهو وصول استغاثات من الهند عندما أرسل ملك كمبايا Cambaya يطلب معونته ضد البرتغاليين ، كذلك أرسل يستغيث به بها دور شاه صاحب كجرات الذى ما لبث أن قتل على أيدي البرتغاليين غدرا ، وهذا بدوره ما أثار السلطان وتحركت حمية الاسلام فى نفسه لدى سماعه ذلك الخبر فأخذ يستحث سليمان باشا على ضرورة الاسراع الى الهند بعد أن زود الحملة

(1) Stripling: The Ottoman Turks 90.

(٢) د . محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ٥٨ .

(٣) د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ١٣٨ .

(١)
بمدافع كثيرة وآلات للحرب.

وهنا يجب أن نذكر أن النظرة العثمانية تجاه سياستهم في البحر الأحمر والمحيط الهندي ، من خلال ضخامة تلك الحملة التي تعتبر من أضخم الحملات التي أرسلها العثمانيون من السويس ، والواقع أن ذلك يبدو لنا من خلال أهدافهم وخططهم تجاه مستقبل الطريق التجاري طبقا لتوقعاتهم بنجاح حملتهم تلك ، وإن كانوا لم يحسنوا الاختيار لنصيب القيادة شخصية تتسم بالجرأة والشجاعة (٢) ، أو أشخاص عاشوا ومارسوا الفنون البحرية في البحار خاصة بعدما انضم خير الدين باربوسا وزفاقه الى صفوف الدولة العثمانية ، فكان لا بد والأمر كذلك من اختيار أحد هؤلاء المجاهدين في البحر الأبيض المتوسط لقيادة الأساطيل العثمانية الجديدة وأول تلك الأهداف هي إمكانية الاستفادة عند وصول الحملة الى الهند من هؤلاء الحلفاء الهنود خاصة وأن الحملة تعتبر في حكم الغيب ، باعتبارها تبعد آلاف الأميال عن قاعدتها الأساسية في السويس ، ثانيا : تحقيق زعامتهم على العالم الاسلامي (٣) ، ثالثا : ضرورة فرض سيطرة الدولة العثمانية على البحر الأحمر وتأمين قواعدهم على سواحل اليمن قبيل الخروج الى الهند ، ويلاحظ هنا تركيز الحملة على ضرورة الاستيلاء على عدن باعتبارها

(1) Sousa: The Portuguese Asia I 433.

— الصديقي (محمد أبي أكرم البكري) : الضح الرحمانية في الدولة العثمانية (مخطوطة) ورقة ١٧ .

(٢) كان سليمان باشا الخادم جندي انكشاري يوناني ولد في جزيرة موريسا Morea وكان يبلغ من العمر ثمانين سنة ، وكان يحتاج لأربعة أشخاص لمعاونته على القيام ، وكان مشهورا بسفك الدماء خوارا جباناً .

(٣) د . محمد عبد اللطيف البحراوي : فتح العثمانيين عدن ١٤٠ .

قاعدة أمامية ومناسبة للدولة العثمانية للقيام بعملياتها الحربية في الهند ،
ومن ثم اعتراض السفن التي قد تحاول الدخول الى البحر الأحمر لتهديد
الأماكن المقدسة .

وكانت استراتيجية الاستيلاء على عدن نابعة أساسا من ثلاث عوامل
مهمة وهى أولا : الموقع الجغرافى ، ذلك أن وجود عدن على الساحل
الجنوبى للجزيرة العربية قد حباها بعدد من المميزات مثل كونها ميناء طبيعى
ممتاز ، فهى عبارة عن حائط من صخور نارية ورمال قاحلة (١) ، لهذا فقد
ركز العثمانيون أنظارهم عليها ، اضافة الى أن التحصين الطبيعى الذى
حبته به الطبيعة كان يجعل الدفاع عنها أمرا سهلا ميسورا بالنسبة لمن
يسيطر عليها (٢) ، وأخيرا خشية العثمانيين من وقوعها فى أيدي البرتغاليين
والتي كانت بالنسبة لهم قاعدة مناسبة وقرية لاغلاق البحر الأحمر نهائيا فسى
وجه السفن التجارية والحربية ، ومن ثم تهديد الأماكن المقدسة .

ثانيا : التقارب ما بين ايران والبرتغال ، ولعل هذا العامل من
أكثر العوامل فعالية فى سبيل توجيه العثمانيين أنظارهم الى عدن والاستيلاء
عليها ، لأن ذلك يعنى أن الأساطيل العثمانية بإمكانها التحرك من عدن
والدخول الى الخليج العربى لاغلاقه ومن ثم افساد أية محاولة قد يقوم بها
الطرفان فى سبيل التحالف (٣) ، وتوحيد الجهود العسكرية ضد الدولة

(١) د . محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ١٣٧ .

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٣) المرجع السابق ، ١٤١ .

العثمانية وممتلكاتها في الشرق ، ولعل بداية الجذور التاريخية لتلك التحالفات قد بدأت في الأشهر الأولى من تولي البوكرك منصب نائب ملك الهند ١٥٠٩ م عندما أرسل رسالة هامة الى شاه فارس (٢) مع أحد قادته ويدعى روى جوميز يعرض فيها على الشاه مشروعاً يقضى بأن تأخذ فارس مصر وتأخذ البرتغال فلسطين كثمرة لهذا التحالف ، غير أن هذا المشروع قضى عليه في مهده عندما قام سكان هرمز باغتيال مبعوث البوكرك خشية أن يضحى ببلادهم في حالة نجاح مهمة المبعوث البرتغالي ، .

لم تكن الظروف السياسية تسمح للبوكرك أن يتابع مثل هذه الاتصالات فقد انشغل بمهمة انجاح خطوات السيطرة البرتغالية التي تمثلت في استيلائه

(١) يمكن القول أن فكرة استعانة البرتغاليين بالفرس كانت قد تبلورت في البلاط البرتغالي ذاته عندما اقترح بيرس (أحد مفكري البرتغال في بداية القرن السادس عشر الميلادي) على ملك البرتغال عما نويـل أن يتحالف مع اسماعيل شاه فارس لأن هذا الأخير كان مخلصاً للعثمانيين ، ويقول يكفيننا أن ايران تعارض محمداً .

— د . قيصرو أديب مخول : الاسلام في الشرق الأقصى ١٣٨ .
(٢) نص الرسالة المرسلة من البوكرك الى شاه فارس " اني أقدر لك احترامك للمسيحيين في بلادك ، وأعرض عليك الأسطول والجند والأسلحة لاستخدامها ضد قلاع الترك في الهند ، واذا أردت أن تنقذ على بلاد العرب أو أن تهاجم مكة فستجدني بجانبك في البحر الأحمر أمام جدة أو في عدن أو في البحرين أو القطيف أو البصرة ، وسيجدني الشاة بجانبه على امتداد الساحل الفارسي وسأنفذ له كل ما يريد .

— د . صلاح الحقاد : التيارات السياسية في الخليج العربي ١٧ .

(٣) د . عبد العزيز نوار : الشعوب الاسلامية ١٣٥ .

— د . صلاح الحقاد : التيارات السياسية في الخليج العربي ١٧ .

على جوا وملقا وهرمز كما ذكرنا من قبل ، ولكن ما ان هزمت فارس في موقعة جالديران ١٥١٤ م أمام السلطان سليم الأول حتى كان الفرس أنفسهم أكثر استعدادا وتقبلا من قبل التحالف مع البرتغاليين لتخضية نخلج هزيمتهم في جالديران ، وبدأت تلك الاستعدادات للارتباط بالبرتغال عقب استيلاء البوكرك على هرمز ١٥١٥ م عندها ارتبطت الدولتان بمعاهدة نصت على ما يلي : أولا - تقدم البرتغال أسطولها لمساعدة الشاه في حمله على البحرين والقطيف ، ومقابل ذلك يعترف الشاه بالحماية البرتغالية لهرمز وأن لا يتدخل في أمورها الداخلية ، إضافة الى تنازله عن ميناء جودار على ساحل بلوشستان ، ثانيا - تتحد الدولتان لمواجهة الدولة العثمانية ، ثالثا - تتعاون البرتغال مع فارس في اخماد حركات التمرد في بلوچستان ومكران ، رابعا - يتعهد البرتغاليون بفتح جوا أمام التجار الفرس .

وعلى الرغم من وفاة البوكرك صاحب التعصب الصليبي الشديد ضد المسلمين ، والذي يمكن القول معه أن مشروع التحالف قد دفن معه إلا أننا لا نستطيع أن نستبعد احتمال احياء ذلك المشروع فيما اذا وصلت شخصية قوية الى منصب نائب ملك الهند ، خاصة وأن الظروف السياسية بين الدول الثلاث (الصفوية ، البرتغالية ، العثمانية) كانت تملئ ذلك .

(١) د . صلاح العقاد : التيارات السياسية في الخليج العربي ١٨٠ -
- د . بدیع جمعه ، د . أحمد الخولي : تاريخ الصفويين وحضارتهم
ج ٢ ٩٧٠

(٢) د . صلاح العقاد : التيارات السياسية في الخليج العربي ١٨٠ -
- د . بدیع جمعه ، د . أحمد الخولي : تاريخ الصفويين وحضارتهم
ج ١ ٩٧٠

فالعثمانيون تتسع شقة الخلاف بينهم وبين المصفيين ، أما البرتغاليون فتضيق شقة الخلاف بينهم وبين المصفيين ان كانت موجودة فعلا ، وهذا ما جعل من الضروري قيام التحالف بين الطرفين ، فالبرتغاليون يدركون تماما معنى وصول حملة عثمانية الى الهند ، وفي الوقت نفسه يدركون معنى هزائم الفرس ، ومحاولة العثمانيين الوصول الى الخليج العربي ، اذا كان لابد للبرتغاليين من التمرکز . أما في الخليج العربي أو البحر الأحمر ، وان كانوا يفضلون عدن باعتبارها تحقق لهم أهدافا عديدة فهي قريبة من حلفائهم التقليديين الأحباش ، وهي موقع مناسب لخلق البحر الأحمر ، وأخيرا نقطة هامة لاثارة الدولة العثمانية عن طريق تهديد الأماكن المقدسة ، ولم يمن ذلك أن يتخلى العثمانيين عن فكرتهم الخاصة بـعدن ولكن تحسبا للطوارئ ، وخوفا من أن تتجدد تلك المحاولات صمم العثمانيون على احتلال عدن ، خاصة وأن الأنباء قد كثرت عن تقديم حكام عدن المساعدة للبرتغاليين وسواء أصبحت تلك الأخبار أولم تصح فإن الخوف من وقوع عدن بأيدي البرتغاليين قد ساعد على زيادة تصميم العثمانيين على أخذ عدن وضربها الى رقعة الدولة العثمانية ، كذلك وصول أخبار أكدت للسلطان سليمان مدى قوة التعامل بين الطرفين أثناء زحفه على بغداد ، ولأن الفرس قد تلقوا معونات حربية ، اضافة الى وصول بعض الحمال والفنيين البرتغاليين لتعليم الفرس صناعة المدافع الكبيرة ، وكيفية استخدامها . (١)

وفق هذه الأهداف تحركت حملة سليمان باشا الخادم من السويس فسي
الخامس عشر من محرم ٩٤٥ هـ — ١٣ يونية ١٥٣٨ م ، وبعد سبعة أيام

(١) د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثماني الأول لليمن ١٣٩٠

وصل سليمان مع عساكره الى جدة ، واضطربت لخشيته البلاد ، الا أنسه تمكن من ضبط العسكر أقوى ضبط ولم يسمح لأحد النزول فيها ^(١) ، وفنى العشرين من يوليو ١٥٣٨ م وصلت الحملة الى كمران حيث أرسل سليمان سفن الى عدن وزيد و السلطان الشحر في جنوب الجزيرة العربية يأمر فيها قادتها بالدخول في طاعة العثمانيين ، وأن يكونوا على استعداد لتزويد أسطوله بكل ما يحتاجه من مؤن ، كذلك الاستعداد لدفع الجزية للسلطان وقد قبل سلطان الشحر بدر الطويق ذلك أما السلطان العدني عامر بن داود فقد رافق وتمدد إلا يرد ردا محمدا على رسول سليمان باشا اليه مما أخرج موقفه أمام سليمان باشا ^(٢) ، خاصة بعد أن قام الامام شرف الدين الزيدى وولده مظهر بالكتابة الى سليمان بأن السلطان عامر بن داود مدهن للأفرنج ، وأنه يريد ادخالهم عدن فوق كلاهما في قلب سليمان باشا أشد موقع ^(٣) ، وميت لذلك أمر سنراه فيما بعد .

أما فيما يختص بسواحل اليمن فقد كان للحروب الأهلية بين زعماء المماليك أن مهدت الطريق أمام سليمان باشا لسط نفوذ الدولة العثمانية

(١) النهر والى : البرق اليماني في الفتح العثماني ٧٨ ، ٧٩ .

(2) Playfair: A History of Arabia Felix 101.

— د . فاروق عثمان أباطة : عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ٥١ .

(٣) أبي المحاسن عبد الباقي عبد المجيد : الاحسان في دخول مملكة اليمن تحت ظل آل عثمان ، ورقة ٨ ، ٩ (مخطوطة) .

على السواحل نظرا لأن تلك الحروب قضت على معظم الزعماء الأقوياء من الممالك (١) ، وتابعت الحملة طريقها حيث وصلت عدن في الثالث من أغسطس ١٥٣٨ م ، وهناك طمع عامر بن داود في نصرة سليمان باشا له على الامام شرف الدين الزيدى ، فمناه سليمان باشا ذلك وأظهر له الرغبة في اسعاده ، واستأذن عامرا في دخول العسكر لقضاء حوائجهم وطلب منه الحضور الى سفينته للتفاوض ، ولم يعلم عامر بتلك الخدعة الا بعد أن شاهد المشاعلى وهو يعد له الحبل الذى سيثلق به على سارية السفينة هو ووزيره ومن معه في وقت كان فيه الجند قد أنهموا استيلاءهم على عدن .

وبعد أن أنهى سليمان باشا احتلاله لعدن قام بتحصينها وعين عليها أحد ضباطه بهرام باشا ، بعد أن زودها بحامية من ٦٠٠ جندي ، ومن ثم اتجه بسفنه الى الهند مارا بالمكلا والشحر التى أسر عندها أسطولا برتغاليا من ست سفن وأسر معها مائة وستين برتغاليا (٣) ، وقبل أن نتابع رحلة سليمان باشا الى الهند يجب أن نشير هنا الى نقطة هامة وهى أن الحملة قد حملت معها فى طريقها الى الهند احدى عوامل ضعفها الا وهى الطريقة الخادرة التى قام بها سليمان باشا فى سبيل بسط نفوذ

-
- (١) د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ١٣٧٠ .
 (٢) السيد عبد الله الحزير : جامع المتن فى أخبار اليمن الميمون (مخطوطة) ورقة ١٧٥ .
 — نور الدين عيسى بن لطف الله : روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح (مخطوطة) ورقة ٢٩ .

(3) Serjeant: The Portuguese off the South Arabian Coast 84.

— د . محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ١٥٤٠ .

الدولة العثمانية على عدن ، بحيث وصلت تلك الأخبار الى هناك قبيل وصوله مما جعل الدولة العثمانية مفقودة الثقة بين أهالي الهند ، هذا بخلاف أن ذلك يعنى ضياع فرصة كبيرة لتكوين جبهة اسلامية في البحار المصرية الجنوبية والمحيط الهندي لاقتلاع البرتغاليين (١) ، كذلك كانت الأوضاع السياسية في السواحل الهندية عاملا ساعدا على عدم ايجاد خطة معينة للعمل المشترك بين الحلفاء لمواجهة البرتغاليين ، وكانت هناك ثلاث عوامل مهمة تتهدد الهند أو بالأحرى تقودها الى هاوية لا يحرف لها قرار ، فالبرتغاليون مثلا يسمون الى تثبيت أقدامهم على السواحل ويحيكون المؤامرات للاطاحة بالنظم السياسية القائمة على السواحل الهندية فغاليلقوت اضطرت ازاء الضغط البرتغالي في بعض الأحيان الى عقد الصلح مع البرتغاليين (٢) ، وقبيل وصول سليمان باشا بفترة وجيزة وقعت معركة بحرية بين الزامورين والأسطول البرتغالي تمكن خلالها القائد البرتغالي مارتن دي سوزا Martin de Soiza من تشتيت الأسطول الهندي (٣) ، أما في داخل البلاد فقد كان هناك خطران يهددان السواحل الهندية أولهما خطر الفزوات المغولية والذي أثر بصفة عميقة على كجرات أهم الولايات الاسلامية على الساحل الغربي للهند ، حيث تعرضت أواخر عام ٩٤١ هـ - ١٥٣٤ م لهجوم همايون أكبر سلطان المغول مما أدى الى اضافها (٤) ، أما الخطر الثاني فيشمل في الولايات

(١) د . فاروق عثمان أباطة : عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ٥٥٢ .

(٢) - Stripling : The Ottoman Turks and the Arabs 91 .

— النهر والى : البرق اليماني في الفتح العثماني ٨١ .

(٢) د . محمد عبد اللطيف البحراوي : فتح العثمانيين عدن ١٤٠٠ .

— د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثماني الأول لليمن ١٤١ .

(٣) د . عبد العزيز نوار : الشعوب الاسلامية ١٤١ .

(٤) د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثماني الأول لليمن ١٤٠ .

الهندوكية التي كانت كثيرا ما تنتهز الفرص لشن الحروب وكسب أراضي جديدة . (١)

تلك هي الحالة العامة للهند أثناء خروج سليمان باشا من عدن ، والفريب في الأمر أن البرتغاليين سمعوا بأنباء حملة الأتراك قبيل خروجها من عدن ، بحيث صدرت الأوامر من القيادة البرتغالية في الهند بأن كل سفينة برتغالية تدخل موزمبيق في افريقية الشرقية عليها أن تضى الى ديو وتترك بعض رجالها لحماية القلعة التي حضت تماما ، وزودت بست سفن مسلحة لمقاومة هذا الغزو المرتقب ، وعودة الى سليمان باشا نجده قد وصل الى ديو أوائل سبتمبر بعد أن فقد حوالي ست سفن في الطريق الى الهند ، وهناك وجد حلفاء من مسلمي سلطنة كجرات يحاصرون البرتغاليين في قلعة ديو لسته وعشرين يوما قبيل وصوله اليهم ، وعندما وصل الى مظفر أباد القريبة من ديو أرسل السلطان محمود الذي خلف بهادر شاه اليه أحد قادته للقيام بخدمته ولده بالوّن والذخيرة ، وعندما وصل سليمان الى ديو أنزل فرق الانكشارية لمساعدة الحشودات الهندية في حصار القلعة ، وهنا سارع حاكم ديو الخواجا صفر الى الاتصال

(١) د . محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ١٤٠ .

(2) Stripling: The Ottoman Turks and the Arabs 91.

(3) Sousa: The Portuguese Asia II 434.

- Stripling: The Ottoman Turks and the Arabs 91.

— يجب أن نشير هنا الى أن مدينة ديو كانت بأيدي المسلمين ، أما القلعة فكانت بأيدي البرتغاليين .

(٤) د . محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ١٥٤ .

(٥) أحد القادة الذين رافقوا مصطفى بيوم في حملته الى الهند ، وقد تولى حكم مدينة ديو عقب وفاة مصطفى بيوم .

بسليمان باشا وتقديم معونته اليه في سبيل توحيد جهودهما معا^(١) ، ولكنه لم يحاول الاجتماع بسليمان^(٢) خوفا من غدره كما فعل يحامر بن داود ، ومع اشتداد مقاومة قلعة ديو للقوات المتحالفة ، قرر سليمان باشا النزول في اليوم الثامن من وصوله للاشراف على حصار القلعة بعد أن أجكم حصارها بمجموعة كبيرة من المدفعية .^(٣)

بدأ الهجوم للقوات المشتركة على قلعة ديو ، ولكن المقاومة البرتغالية كانت ذات فعالية بحيث فشل الهجوم واضطر سليمان الى الانسحاب بعد أن فقد من رجاله نحو أربعمئة جندي^(٤) ، ولم ييأس سليمان وإنما باشعر بضرب القلاع الأمامية الصغيرة في محاولة لتقليم أظافر المقاومة البرتغالية ، وما أن هل الأول من أكتوبر حتى استسلمت إحدى القلاع الصغيرة الأمامية بعدما أحدثت بها المدفعية العثمانية أضرارا بالغة وأسرت البقية الباقية من حاميتها وهم ثمانون برتغاليا ثم حجزهم في السفن العثمانية^(٥) ، مما جعل البرتغاليين في موقف صعب ، خاصة وقد بدأت المؤنة في النفاذ ، مما جعل

(1) Thomas Astley: Voyages and Travels Vol. 1 93.

— النهروالى : البرق اليماني في الفتح العثماني ٨٢ .

— جميل خانكي : تاريخ البحرية المصرية ٢١٠ .

(٢) كانت قلعة ديو حصينة جدا تحيط بها مياه البحر من ثلاثة جوانب ، ويحدها من ناحية البر سور عظيم وأشجار عالية ، إضافة الى ذلك وجود بعض القلاع الصغيرة أمام الحصن الكبير .

— د . محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ١٥٥ .

(3) Thomas Astley: Voyages and Travels Vol. 1 93.

(٤) د . سعاد ماهر : البحرية في مصر الاسلامية ١٣٨ .

— جميل خانكي : تاريخ البحرية المصرية ٢١٠ .

(5) Thomas Astley: Voyages and Travels Vol. 1 94.

سقوط القلعة الأمامية أمرا وشيك الوقوع فيما اذا استمر الحصار الدائم ، ولكن حال دون ذلك وصول امدادات جديدة للبرتغاليين ، ففي الثالث من أكتوبر تمكن البرتغاليون من اختراق الحصار المفروض من جهة البحر على ديو وأرسل ثلاث سفن تمكنت من دخول الميناء وتزويده بالمؤن ، وأزاء ذلك الصمود حاول سليمان باشا أن يجرب مدفعية الأسطول حيث رحل في الثالث عشر من أكتوبر بأسطوله من الجانب الغربى الى الجانب الشرقى من القلعة على بعد ميلين فقط ، إلا أن المدفعية البرتغالية الكثيفة والمنصوبة على الأسوار حالت دون نجاح الأسطول في ذلك فانسحب سليمان بعد غرق إحدى سفنه واتجه مرة أخرى الى البر (٢) ، ولم يكن يعيق سليمان من اقتحام القلعة الأساسية سوى خندق عظيم ، لهذا فكر في طريقة حربية جريئة عندما قام في اليوم الخامس والعشرين من الشهر بتهيئة عدد كبير من جالات القطن تفطيمها الجلود ، وربطها في الحبال حيث ألقى بها فى الخندق ، فكان ان كومت جدارا عاليا يساعد على تسلق القلعة ، ولكن تبه البرتغاليون لذلك ، وقاموا بالقاء البارود المشتعل عليها حتى أحرقت جميعها ومن عليها . (٣)

وعلى الرغم من شدة الحصار إلا أننا نلاحظ أن البرتغاليين ومع الرقابة الشديدة لحملة سليمان باشا على البر والبحر من الجهات المحيطة بالقلعة كانوا كثيرا ما يجازفون في محاولة الوصول الى القلعة ، ذلك انهم يعلمون علم اليقين معنى استحواز الأتراك قلعة ديو فعلى الرغم من أن تلك القلعة لم تكن تشكل أية أهمية بالنسبة للمواقع الأخرى فى جوا وطقا وسيلان ، إلا أنهم كانوا يعلمون علم اليقين أن معنى سقوط قلعة ديو هو ازدياد

(1) Thomas Astley: Voyages and Travels Vol. 1 94.

(2) Thomas Astley: Voyages and Travels Vol. 1 95.

(3) Thomas Astley: Voyages and Travels Vol. 1 95.

وحدة المسلمين في الهند ما يشجع هذا بدوره سكان المدن الأخرى على الثورة والمقاومة سواء على امتداد سواحل الهند أو في الخليج العربي أو على السواحل الشرقية لأفريقيا ، لهذا لم يكن من الغريب أن يصادف سليمان باشا مقاومة عديدة من قبل حامية ديو ، وهذا بدوره أيضا يشجع سلاطين الدولة العثمانية على متابعة حملاتهم البحرية إلى الهند ، بحيث يؤكد لهم ذلك أن مسلحي الهند على استعداد للتعاون والتضحية متى وجدوا المساعدة اللازمة ، فكل ما يحتاجه سلاطين الدولة العثمانية هو قلعة حصينة محاطة بحلفاء مسلمين وأقوياء لا يشكلون على القواعد العثمانية أية أخطار ، مما يساعد هذا على قيام السفن العثمانية بالتالي على اعتراض السفن البرتغالية في عرض البحر ، ومن ثم العودة إلى مراكز حصينة تحيط بها شعوب موالية .

كانت آخر محاولة برتغالية للوصول إلى القلعة هي في السابع والعشرين من أكتوبر ، حينما حاول البرتغاليون انفاذ مؤن للقلعة ، فأرسلوا ثلاث سفن للقيام بالمهمة ، غير أن المدفعية البرية العثمانية منعتها من تحقيق أهدافها (١) ، ولم يستمر حصار سليمان للقلعة طويلا ، إذ قام دون سابق انذار بسحب قواته والخروج من الهند عائدا إلى البحر الأحمر ، ولعل تفسير ذلك ينحصر في النقاط التالية : أولا - نظرا للإمدادات البرتغالية التي وصلت قلعة ديو فقد اضطر سليمان باشا إلى الانسحاب ، مما أحدث ارتباكاً بين صفوف حملته لهذا القرار المفاجئ ، حيث تخلف من جنود حملته الكثيرين الذين فضلوا البقاء في خدمة السلطان محمود حاكم كجرات طمعا في زيادة العلوفاة الكبيرة كما يذكر النهر والى ، هذا بخلاف ما تركه

(1) Thomas Astley: Voyages and Travels Vol. 1. 95.

من أسلحة ومعدات ثقيلة للحصار^(١) ، ثانيا - ضعف الجبهة الهندية سواء في سلطنة كجرات أو باقي سلطنات ساحل الهند الغربي^(٢) ، ثالثا - وهو رأي يذهب اليه الكثير من المؤرخين عندما يذكرون أن السلطان محمود صاحب كجرات والخوaja صفر قد خشيا من غدر سليمان باشا فعلا على الايقاع به عن طريق رسالة مزورة بحثا بها اليه ، وتذكر تلك الرسالة المرسلة من القائد العام الى الحامية في ديو أن هناك أسطولا برتغاليا قادم لنجدتهم^(٣)

والواقع أن تفسير رحيل سليمان باشا المفاجيء وفق هذا المامل الأخير نستطيع الأخذ به ، لأننا لو افترضنا أن هناك أسطولا برتغاليا قادم لسمعنا بالفعل عن موقعة بحرية جرت بين الطرفين ، خاصة وأن الأسطول البرتغالي لا بد له من مهاجمة الأسطول العثماني المتعجب ، والذي خرج دون تنظيم سابق له ، فهي فرصة مناسبة للبرتغاليين للاحتكاك به ومن ثم تدميره ، حتى يفقد مسلموا الهند الأمل في الاعتماد على المساعدات الخارجية ، وفي الوقت نفسه فرصة أيضا فيما اذا تم تدمير الأسطول العثماني ألا تحاول الدولة العثمانية مرة أخرى ارسال أساطيلها خارج البحر الأحمر ، ونحن وان أخذنا بصحة الخطاب المزور والموامل

(١) النهر والى : البرق اليماني في الفتح العثماني ٨٥ .

- Playfair: A History of Arabia Felix 102.

(٢) د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثماني الأول لليمن ١٤٦٠ .

(٣) جميل خانكي : تاريخ البحرية المصرية ٢١٠ .

- النهر والى : البرق اليماني في الفتح العثماني ٨٢ ، ٨٣ .

التي أدت الى اختراعه ، فان ذلك له أسبابا عديدة منها ، أولا — أن خواطر
مسلحى الهند نفرت من سليمان باشا بسبب غدره بحامو بن داود وليس أدل —
(١) على ذلك سوى امتناع الخواجة صفر من مقابلة سليمان باشا خشية غدره ،
ثانيا — استفلال البرتغاليين حادثة قتل السلطان عامر في اثاره الفرقة —
بين العثمانيين وسلطان كجرات ، ثالثا — ما شعر به الهنود من اهانات
من سليمان بسبب احتقاره لهم وعدم الاذن للقادة منهم بالجلوس في حضرته ،
(٢) رابعا — أساء الجنود العثمانيون الذين نزلوا الى البرلمانة الخواجة
صفر معاملة حلفائهم الكجراتيين عندما عاملوهم بطريقة خشنة متعالية ، اضافة
الى ما قاموا به من أعمال السلب والنهب .
(٣)

ومن هنا نرى أن قصة تلك الرسالة المزورة قد تكون من أهم الأسباب
التي أدت بسليمان باشا الى الرحيل والعودة الى البحر الأحمر ، خاصة وهو
الذى وصفته المراجع بأنه خوار وجبان .

وفي الرابع من شهر رجب ٩٤٥ هـ — ١٥٣٨ م وصل سليمان باشا الى
الشحر ، حيث قام بارسال الخلع الى سلطانها بدر ، وجعل نفوذه على
المنطقة فيما يلي عدن الى ظفار ، ولم يذهب الى عدن حتى تأكد من تنفيذ

(١) النهر والى : البرق اليماني في الفتح العثماني ٨١ ، ٨٢ .

(٢) المرجع السابق ، ٨٢ .

(٣) جاء في كتاب الشعوب الإسلامية ١٤١ ، ١٤٢ أن سليمان باشا الخادم
عقب فشله في الهند عاد الى الخليج العربي ، حيث حاصر هرمز
واستطاع أن يستولى على مسقط والقطيف ، والواقع أننا لم نجد لتلك
المعلومات صدق لها سواء في المخطوطات العربية أو المراجع الأجنبية
مثل كتاب آسيا البرتغالية أو البرتغاليون حول جنوب الجزيرة العربية
لسارجنس .

مراسيمه وأخذ اليهود على حاكم الشحر بدفع الخراج السنوى ومقداره ١٠٠٠٠ ر. أشرفى ، ومن ثم أكمل طريقه الى عدن حيث قام بتحسينها لتأمينها ضد البرتغاليين فزودها بمائة مدفع كبير وكميات من البارود وترك خمس سفن وحامية مكونة من خمسمائة جندي للدفاع عنها ، ومن ثم اتجه الى كمبران (١) التي قام بتحسينها أيضا عن طريق تزويدها ببعض مدافع الأسطول ، ومن ثم اتجه الى المخا على سواحل اليمن ، ورغم الفشل الذريع الذى أصاب حملة سليمان باشا إلا أننا لا نستطيع أن نصف مجهودات الدولة العثمانية بالضعف ، إذ أن ذلك كان راجع دون شك الى شخصية قائد الحملة فرغم ذلك الفشل نستطيع أن نتبين أنها حققت الأهداف التالية ، أولا - علمت البرتغاليين أن يأخذوا حذرهم ، ثانيا - أغارت بعض سفن الأسطول على سواحل الحبشة ، ثالثا - أصاب الخوف البرتغاليين لأنهم عرفوا أن الدولة العثمانية لو سمحت لها الظروف لاستطاعت تحويل جهودها وقدراتها بعيدا عن أوروبا وآسيا الى الهند ، وإذا حدث ذلك فأنه - يعنى أن السيادة البرتغالية قد قاربت نهايتها ، رابعا : أبان للعرب

(1) Playfair: A History of Arabia Felix 102.

- Serjeant: The Portuguese off the South Arabian Coast 90.

- د. فاروق عثمان أباطة : عدن والسياسة البريطانية فى البحر الأحمر ٥٣ ، ٥٤ .

تذكر الدكتورة سعاد ماهر فى كتابها البحرية فى مصر الإسلامية ص ١٣٩ أمرا غريبا عند سردها لأحداث عودة سليمان باشا الى عدن عقب فشله فى الهند ، عندما تذكر بأن الأمير سليمان باشا قد استولى على عدن عقب عودته من الهند ، وأنه قام بطرد أميرها عامر بن داود من البلاد لاتباعه بمولاة البرتغال بينما تذكر فى الصفحة ١٣٨ أن سليمان باشا قد أعدمه .

(2) Stripling: The Ottoman Turks and the Arabs 92,93.

أن تركيا قوة بحرية لا يستهان بها ، وأخيرا زيادة رقعة الدولة العثمانية حينما أضيف اليها عدن ، خامسا (٢) بخاضع ميناء جيزان للسيادة العثمانية بعد أن كان خاضعا لإشراف الحجاز ، سادسا — نجاح الحملة في فرض سيطرة الدولة العثمانية على اليمن وانتزاع عدن ، وهى من الأهداف الأساسية لإغلاق البحر الأحمر ، فكما ضم سليمان باشا عدن الى الدولة العثمانية ففى بداية حملته عن طريق الغدر ، تمكن كذلك من ضم زيد المقر الرئى للمماليك عن طريق الغدر أيضا ، فبعد رحيله من عدن اتجه الى المخا حيث أرسل رسولا الى زيد يطلب فيها من واليها الأمير أحمد مقابلته على الساحل وتقديم ولاء الطاعة ، وامتنع الأمير أحمد عن الذهاب خوف الغدر وعرض على سليمان باشا دفع الجزية وتمثيل السلطنة العثمانية فى الحكم ، إلا أن سليمان باشا رفض تلك المطالب وازاء امتناع الأمير أحمد زحف سليمان باشا بنفسه الى زيد حيث وصلها فى العشرين من فبراير ١٥٣٩م ، وفى الوقت نفسه كان كثير من جنود الأمير أحمد قد انضموا الى سليمان باشا وأمام هذا الوضع اضطر الأمير أحمد الى الذهاب بنفسه الى سليمان باشا الذى قام بقطع رأسه فوراً .

وبذلك تمكن العثمانيون من فرض نفوذهم على سواحل اليمن وان كان ذلك مؤقتا ، فهم على الرغم من قضائهم على الطاهريين ، ومقايى المماليك فى زيد إلا أنه كان هناك خطر آخر ينتظرهم ألا وهو خطر الأئمة الزيدية ،

(1) Stripling: The Ottoman Turks and the Arabs 93.

(٢) د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ١٤٩٠ .

(3) Playfair: A History of Arabia Felix 102.

(٤) عيسى بن لطف الله : روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح (مخطوطة) ٢٩٠ .

- Playfair: A History of Arabia Felix 103.

وهذا بدوره ما سيقود العثمانيين الى معارك أخرى جانبية داخل اليمن
تعيقهم عن الدور الأساسى لمهمتهم على سواحل اليمن والبحر الأحمر .

كانت تلك الأحداث السابقة هى الخطوات الأولى للدولة العثمانية
فى سبيل ظهورها على مسرح الأحداث فى بحار العرب الجنوبية ، وهى
وأن اتسمت بصفة عامة بعدم وجود مجابهة فعلية بين القوتين فى المحيط
الهندي بخلاف ما ذكرناه سابقا عن أيامهم حول قلعة ديو ، إلا أن ذلك
قد جعلهم بصورة واقعية يجابهون الخطر البرتغالى ، بعدما كانوا فى
السابق أى على عهد دولة المماليك يعتمدون على ارسال المعونات
والمجاهدين دون أن تكون هناك راية عثمانية ترفع الى جانب رايات المماليك
فى بحار العرب الجنوبية ، من هنا نرى أن ما ذكرناه سابقا عن التسلط
العثمانى على مسرح الأحداث السياسية فى تلك المنطقة قد ضم مماليسك
اليمن والدولة العثمانية والبرتغاليين ، وبقي لنا أن نتعرف الآن على
الأحداث القائمة فى البحر الأحمر منذ دخول الأتراك العثمانيين القاهرة .

الواقع أن أحداث البحر الأحمر قد شاركت فى صنعها قوى عديدة ،
فى الجانب الأول نرى الدولة العثمانية واليمن وسلى الطراز ، أما
الجانب الثانى فمثل البرتغاليين والأحباش الحلفاء التقليديين كما توقع
الطرفان من قبل ، وكما ذكرنا سابقا كان البحر الأحمر هو المجال الحيوى
للبرتغاليين وما أن وصل الأتراك العثمانيون حتى أصبح البحر ذاته منطقة
صراع ، ومن هنا نستطيع أن نتبين بالتالى الموقع الاستراتيجى لكلا الطرفين
داخل البحر الأحمر والأهداف التى رعى من وراءها الطرفان تحقيقها ، فلو
نظرنا مثلا الى الدولة العثمانية نجد أنها قد اطمأنت فى تلك الأثناء على
المدخل الشمالى للبحر الأحمر عن طريق موانئ السويس والطور والقصير ،
وبذلك يمكن القول أن المداخل الشمالية للبحر الأحمر هى مناطق ذات نفوذ

عثمانى تماما ، أما البرتغاليون فلم يتمكنوا بعد وحتى ذلك الوقت من الوصول الى المداخل الشمالية ، باستثناء محاولاتهم الفاشلة في عام ١٥٤١ م كما سنذكر فيما بعد ، وبالا نحدار من شمال البحر الأحمر نحو جنوبه تصادفنا السواحل الحبشية ، وهنا نلاحظ أن الصراع بين العثمانيين والبرتغاليين من أجل السيطرة على السواحل العربية كان يقتضى الاستيلاء على مراكز استراتيجية على أراضى مملكة الحبشة المسيحية ، فالبرتغاليون وكما هو معروف مما ذكرناه سابقا عن اتصالاتهم بالحبشة ورغبتهم في التعاون معهم قد أخرجوا بذلك الدولة العثمانية التي رسمت سياستها تجاه مواجهة ذلك الخطر كالتالى ، أولا - محاولة حصار الأحباش وتحطيم أية محاولة برتغالية في سبيل جرح الحبشة الى شن حرب مشتركة ضد القوى الاسلامية المنتشرة على السواحل الشرقية والفرية للبحر الأحمر ، ثانيا - اتجاه العثمانيين الى تعزيز علاقاتهم الودية مع الزعماء والأمرء الصوماليين ، ثالثا - نجاح العثمانيين في النزول في زيلج ومصوع كما ذكرنا من قبل ، أما على السواحل الشرقية وهى المقابلة للسواحل الحبشية فنجد أن العثمانيين قد تمكنوا من بسط نفوذهم على السواحل اليمنية من واقع حملة سليمان باشا السابقة ، خاصة مدينة زبيد التى أصبحت المقر الرئيسى للقيادة العثمانية هناك وهى السواحل التى فشل البرتغاليون في سبيل التمركز عليها أو محاولة الحصول على مواقع استراتيجية بها كما حدث من خلال حملة البورك ١٥١٣م بحيث تمكن العثمانيون من تأمين قواعدهم على طول ذلك الشريط الساحلى ومتخذين منه وسيلة للاطلاع على الأحداث السياسية التى تقع أمامهم على

(1) Trimingham: Islam in Ethiopia 77.

(٢) د. راشد البراوى : الصومال الكبير حقيقة وهدف ١٠ - مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦١م.

السواحل الحبشية للتدخل في الوقت المناسب كما سنذكر فيما بعد ، عندما أرسلوا امداداتهم للإمام القرين ١٥٤١م .

وبالانتقال من السواحل الحبشية نجد أنفسنا قد وصلنا الى المدخل الجنوبي للبحر الأحمر ، حيث المواقع الاستراتيجية المهمة ، فعلى الشواطئ الشرقية نجد عدن ، أما على الشواطئ الغربية فنجد السواحل الصومالية التي هي امتداد لأملاك مسلمي الطراز الاسلامي ، وهنا ومرة أخرى نجد تناقضا تاما في أوجه الاستراتيجية الحربية للعثمانيين والبرتغاليين ، فالعثمانيين عزموا على السيطرة على المواقع الاستراتيجية لمدخل البحر الأحمر من أجل استمرار التجارة عبر البحر ذاته ، أما البرتغاليين فكان غرضهم تحويل التجارة من الشرق الى الغرب ، وبالنسبة لعدن حاول البوكرك خلال حملته ١٥١٣م الاستيلاء عليها ، ورغم ضخامة حملته فقد فشلت جهوده كما ذكرنا من قبل ، أما بالنسبة للسواحل الصومالية فكانت تمتاز بأن أجزاء منها كان يقع عند مدخل البحر الأحمر ، أما الأجزاء الأخرى فكانت تشرف على المحيط الهندي ومن هنا نستطيع تفسير المحاولات البرتغالية في سبيل انشاء قواعد لهم في بعض موانئ الطراز الاسلامي ، وهو أمر لو نجحوا فيه لأمكنهم مطاردة سفن العرب والقضاء على نشاطهم التجاري ، وأخيرا كان افضل الختام وهو نجاح العثمانيين في الاستيلاء على عدن ، وبذلك أصبحوا يسيطرون أيضا على المدخل الجنوبي للبحر الأحمر .

(١) ابراهيم حسن : الإمام أحمد بن ابراهيم القرين ٧٥ .

(٢) د . راشد البراوي : الصومال الكبير حقيقة وهدف ١٠ .

من خلال الاستعراض السابق نستطيع أن نثبين الحقائق التالية
أولا - نجاح العثمانيين في السيطرة على البحر الأحمر وتأمينه بما ذكرناه
سابقا ، وبذلك أصبحوا هم المهيمنين على السواحل الشرقية والغربية للبحر
الأحمر ، ثانيا - أن العثمانيين اعتمدوا على البحر الأحمر والنشاط في
مياهه في سبيل السيطرة عليه وعلى سواحل وموانئه ، وكان ذلك على نقيض
سياسة الدولة المملوكية التي فضلت الاستناد الى اليابس والاعتماد على
القوة البرية لتحقيق أغراضها (١) ، ثالثا - انه في الوقت الذي كان فيه
العثمانيون يقومون بتنفيذ سياستهم في البحر الأحمر ، كان البرتغاليون
عاجزين تماما عن عمل أى شئ ازاء التوغل العثماني وانتشاره على سواحل
البحر الأحمر بعدما سيطروا على عدن والسواحل اليمنية ، وبعض المراكز
الاستراتيجية على السواحل العربية للبحر الأحمر (٢) ، ومن واقع تلك السيطرة
العثمانية على البحر الأحمر نستطيع أن نثبين السياسة البرتغالية تجاه
منافسة القوة العثمانية داخل البحر الأحمر من خلال النقاط التالية :
أولا - اعتماد البرتغاليين على ارسال الأساطيل البحرية سنويا لغزو البحر
الأحمر - أحيانا أكثر من مرة في السنة الواحدة - والإغارة على موانئه
واعتراض كافة السفن التجارية التي قد تسير فيه ، بقصد الحاق أكبر نسبة
من الخسائر بالمواقع العثمانية ومن ثم نشر الفزع والاضطراب بين سكان
المدن الساحلية ، ثانيا - محاولة تعزيز علاقاتهم مع الحبشة في سبيل
ايجاد فجوة على السواحل الحبشية يمكن من خلالها ظهور قوات مشتركة
برتغالية وحبشية لجلب أنظار القيادة العثمانية اليها ، ومن ثم تهديد
الأماكن المقدسة ، مما يساعد الأساطيل البرتغالية في الحصول على موقع
استراتيجي يساعدهم على حرية الحركة داخل حوض البحر الأحمر .

(١) د . صلاح الدين الشاذلي : الموانئ السودانية ١١٩ - مكتبة مصر ،

القاهرة ، ١٩٦١ م .

(٢) ابراهيم حسن : الامام أحمد بن ابراهيم القرن ٢٥٠ .

بدأت البرتغال جولة أخرى في البحر الأحمر^(١) ، حينما تحرك نائب
الملك في الهند لوبو سواريز Lopo Soires^(٢) من جوا في الثامن
من فبراير ١٥١٧ م على رأس حملة بحرية من سبع وعشرين قطعة تحمل ألفين
من المقاتلين ، وحدد لوبو أهدافه كالتالي : أولا — تتبع بقايا الأسطول
الملوكي بقيادة سلمان الرئيس والذي كشف عن مدى قوته عقب محاولة
الاستيلاء على عدن في صيف عام ١٥١٦ م ومن ثم القضاء عليه وتدمير
جدة ، ثانيا — الاتجاه الى نجدة النصارى الأحباش ضد امارات الطراز
الاسلامي ، وانزال بعثة داوود جالفان الكاثوليكية الى الأراضي الحبشية ،^(٣)
وأخيرا احتلال عدن وتدميرها والتكيل بأهلها .

كانت أنباء عدن تصل البرتغاليين بواسطة بحارة السفن الملابارية
الهندية والتي كان البرتغاليون وراءها^(٤) ، هذا وقد حمل البرتغاليون
على تكرار محاولاتهم الاستيلاء على عدن معرفتهم بفشل الأسطول الملوكي
في أخذ عدن ، كذلك معرفتهم بأنباء مفصلة عن الأضرار البالغة التي
لحقت بحامية عدن وتحصيناتها الدفاعية^(٥) ، اضافة الى محاولة اغتنام
هذه الفرصة للاستيلاء عليها ، في وقت كانت فيه عدن تهكى القتلى من
أبنائها وانتظارا للمعونات جيرانها .^(٦)

(١) كانت الأخيرة بالنسبة للمماليك والأولى بالنسبة للعثمانيين أصحاب
الشان .

(٢) أبو الضوارس كما ورد في مخطوط بامعبيد : زاد الأسفار في أخبار
الشحر وعدن وملابار .

— أنظر : محمد عبد القادر بامطرف : الشهداء السبعة ٥٦ .

(٣) د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثماني الاول لليمن ١٠٢ .

(٤) محمد عبد القادر بامطرف : الشهداء السبعة ٥٥ .

(5) Sousa: The Portuguese Asia I 211.

(٦) محمد عبد القادر بامطرف : الشهداء السبعة ٥٤ ، ٥٥ .

وصلت الحملة أمام عدن في شهر فبراير ١٥١٧ م ، ولم يهاجم لوبو المدينة وإنما اكتفى بأن نال ما يحتاجه من مؤن وبعض المرشدين ، حيث واصل طريقه نحو الداخل ، ويبدو أن لوبو كان بإمكانه الاستيلاء على عدن غير أن هناك عاملين كانا وراء أبطائه في ذلك ، أولاً - نظرتة الى عدن على أنها هدف ثانوى بالنسبة للهدف الأكبر ، وهو البحث عن بقايا الأسطول الذى يقوده سلطان الرئيس للايقاع به خارج جدة ، ثانياً - استغلال الوقت لمساعدة نصارى الحبشة ضد مسلمى الطراز ، وعندما وصل الحديدة علم بلجوء الأسطول المصرى الى جدة وعدم وجود دفاع مناسب لها فصمم على مهاجمتها (٢) ، إلا أن هجومه فشل بسبب المقاومة من قبل القلعة الحصينة ، ولم يلبث الأسطول البرتغالى أن انسحب من أمام الميناء حيث تعرض لمواصف شديدة دمرت بعضاً من قطعه فاضطر لوبو الى الاعتصام بجزيرة كمران حتى بداية الصيف ، حيث قام بتدمير كافة التحصينات التى أنشأها المماليك قبيل سقوط دولتهم ، وفى الجزيرة توفى دوارث جالفاً مبعوث البرتغال الى الحبشة (٣) ، وفى تلك الفترة كان الأسطول المصرى يواصل دورياته مطاردة حملة لوبو سواريز حيث فاجأ سفينتين بالقرب من

(١) تذهب معظم المصادر اليمنية سواء التى نشرها الدكتور سارجنت أو المصادر الأخرى التى لم ينشر بعضها منها الى أن حاكم عدن الأمير مرجان الظافرى قد فضل مهادنة البرتغاليين على مقاومتهم بسبب المشاكل التى كانت تواجههمها عدن عقب فشل غارة المماليك السابقة ، أما فاريما سوزا فيذهب فى كتابه ج ١ ص ٢١١ الى أن حاكم عدن عرض على لوبو سواريز مفاتيح القلعة التى فضل لوبو استلامها عقب انتهاء مهمته داخل البحر الأحمر .

(2) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 211.

(3) Angelopesce: Uiddah 87.

ميناء اللحية جاءت للحصول على مؤنتها ، فتمكن من أسرا حدها وأسـسـر
(١) بحارتها الذين قام سلمان الرئيس بارسالهما الى السلطان سليم في عاصمته ،
ومع بداية فصل الصيف تابع لوبو سواريز غارته في البحر الأحمر ازاء الساحل
الحبشي حيث هاجم ميناء زيلج ونهبه ومن ثم أحرقه (٢) ، واتجه بعد
ذلك الى جنوب البحر الأحمر .

وبفشل حملة لوبو سواريز عاد أدراجه الى الهند بعد أن مر بمسـدـن
والتي كان حائقا عليها لعدم استسلامها له ، وكان ذلك عائدا الى أن الأمير
مرجان الظافري استغل فرصة توغل الحملة داخل البحر الأحمر فقام بعمل
كافة الاستعدادات الممكنة للدفاع عن مدينته حتى تصد ضد البرتغاليين
في حال عودتهم اليها (٣) ، وهذا بالتالي ما أدى الى قيام لوبو سواريز
بتغيير سياسة سلفه البوكرك ، وكانت سياسة البوكرك تنص على عدم السماح
للسفن البرتغالية الغير رسمية بالتحرش بأهالي المناطق التي يزورونها ،
ومع هزيمته سمح لوبو سواريز لكافة السفن التجارية البرتغالية بالتجول حيثما
شئت بشرط أن تساعد القوات الرسمية على مطاردة سفن العرب ، ومن هنا
تعرضت سلسلة الموانئ العربية لموجة شديدة من غزوات القراصنة ، حيث
تحول التجار البرتغاليين الى قراصنة خطرين يغيرون على الموانئ للنهب
والتدمير واغراق السفن ، مما أدى بأهالي كثير من المدن الساحلية مثل
المخا والشحر الى الهرب نحو المرتفعات (٥) ، ورغم ذلك فشل الذريع

(1) Serjeant: The Portuguese off the South Arabian Coast 51.

(2) Angelo Pesce: Jiddah 88.

(3) Playfair: A History of Arabia Felix 100.

(٤) محمد عبدالقادر بامطرف : الشهداء السبعة ٥٦ .

(٥) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

الذى أصاب حملة لوبو الا أنه وما أن وصل الى جوا حتى بادر الى لرسال
أسطول آخر بقيادة Antony de Soldana أنتونى دى
سلدانا الذى دخل البحر الأحمر ولم يجد أمامه سوى زيلج التى قسام
الأسطول البرتغالى مرة أخرى بنهبها وحرقها ، ولم يستطع دى سلدانا
أن يفعل أى شئ حيث عاد مرة أخرى الى الهند . (١)

كانت تلك هى الخطوات الأولى للصراع بين الطرفين داخل البحر الأحمر
فى وقت لم تكن فيه الأوضاع قد استقرت بعد للعثمانيين ، ولم ينالوا معها
الفرصة لانزال أسطول لمواجهة الأساطيل السابقة ، وان كانوا قد عاينوا
بالفصل وأمام أنظارهم طبيعة الغزو البرتغالى للبحر الأحمر وأهدافه من
حيث التركيز على مهاجمة جدة ، ومحاولة انزال بعثاتهم الدينية فى الحبشة
اذا كان لابد والأمر كذلك من أن يدرك العثمانيون مدى الخطر البرتغالى
من الناحية الصليبية قبل ادراكهم للخطر الاقتصادى الناتج عن الغزو
البرتغالى ، الذى رسم سياسته وكما ذكرنا من قبل على محاولة ارسال
الحملات البحرية السنوية الى البحر الأحمر فى محاولة لأخذ عدن ، ومن
ثم انزال البعثات الدينية ، وكان من الطبيعى أن يداوم البرتغاليون على
غزو البحر الأحمر منذ لحظة دخول العثمانيين خاصة وانهم نجحوا فى اقامة
الخط التجارى المسلح الذى ذكرناه فى فصل سابق ، والذى امتد من
ملقا حتى شرق افريقية باستثناء عدن التى ستكون محور صراع دائم بين
الطرفين ، اضافة الى هذا أن البرتغاليون لم يروا بعد أية حملة ضخمة
تغزوهم منذ عهد حملة الكردي لتعبر عن مدى قوة الدولة العثمانية التى شرحنا
سابقا الظروف التى كانت تدور بها ، والتى منعتها من ارسال حملة ضخمة
فى السنوات الأولى لدخولهم القاهرة ، وقد يكون من الجائز لنا أن نفسر

(1) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 217.

سبب تكرار الحملات البرتغالية السنوية الى البحر الأحمر ابتداء من عام ١٥١٧م فى النقاط التالية : أولا - معرفة البرتغاليين بمشاكل الدولة العثمانية فى أوروبا وآسيا ، لهذا أرادوا استغلال الفرصة فى سبيل نشر نشاطهم البحرى داخل مياه البحر الأحمر ، ثانيا - ربما أراد البرتغاليون من وراء حملاتهم المتكررة محاولة التعرف على مدى قوة الرد العثمانى لفاراتهم فى البحر الأحمر ، ومهما تكن الظروف فقد أثبتت أحداث حملة لوبو سواريز أن قادة الدولة العثمانية فى جدة قد نجحوا فى عرقلة مشاريع لوبو بالنزول فى جدة ، هذا بخلاف ما قامت به بقايا السفن المصرية فى جدة من مطاردة السفن البرتغالية واجبارها على الخروج من البحر الأحمر كما ذكرنا من قبل .

ونحن وان أشرنا من قبل الى أن العثمانيين قد وضع لهم مدى شدة الخطر الصليبي من واقع حملة لوبو سواريز وفشلها فى انزال بعثة جالفان فى البر الحبشى ، فان تلك النظرة ما لبثت الأيام أن أكدتها فى عام ١٥٢٠م عندما عزل الملك عما نويل لوبو سواريز عن نيابة الهند وعين مكانه لوبو دى سكويرا Lopez de Sequeira نظرا لفشله فى انزال البعثة الدينية فى الحبشة ، وفى محاولة لأن ينجح القائد الجديد فى ارسال تلك البعثة الى هدفها (١) ، وفى الثالث عشر من فبراير ١٥١٧م خرجت من جوا حملة مكونة من أربع وعشرون سفينة شملت ١٨٠٠ برتغالى وأعداد ضخمة من الملاباريين بقيادة دى سكويرا قاصدة البحر الأحمر ، ورسمت أهدافها على أساس مهاجمة جدة ، ومن ثم انزال بعثة دى ليما الذى خلف دوارت جالفان فى رئاستها ، وعلى الرغم من مرور الحملة أمام عدن الا أنها لم تحاول مهاجمتها وانما اتجهت مباشرة الى جدة (٢) ، وهذا بالتالى ما يؤكد

(1) Alvarez: Narrative of the Portuguese Embassy to Abyssinia 3.

(2) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 231.

لنا مدى شدة النزعة الصليبية لدى البرتغاليين فى تلك الفترة ، وعندما دخلت حملة دى سكويرا البحر الأحمر تمكنت من أسر مجموعة من سفن المسلمين الذين أخبروهم بوجود ست سفن تركية فى جدة ، وعليها ١٢٠٠ جندى والتي كانت معدة للهجوم على عدن^(١) ، وفى الواقع لم تكن تلك السفن معدة لعدن ، وإنما هى حملة حسين بك الرووى الذى ذكرناه سابقا ، حينما خرج بحملته تلك لاعادة النفوذ العثماني على اليمن ، وعندما وصل ميناء البقعة باليمن علم بوصول تلك الحملة فعاد أدراجه الى جدة للدفاع عنها . (٢)

استمر دى سكويرا فى طريقه الى جدة الا أنه لم يتمكن من الوصول اليها بسبب معاكسة الرياح ، ولأنه علم بوجود حشود عسكرية كبيرة بها^(٣) ففضل الاتجاه الى السواحل الحبشية لتنفيذ الهدف الثانى ، وعندما وصل الى هناك كانت أنباء حملته قد وصلت الى الحبشة ، ولما كان الأحباش على استعداد للتعاون مع البرتغاليين كان يسرهم أن يتصلوا بالحملة وأن يستعلموا عن أنباء معيوشهم ماتيو ، ومحاولة معرفة أخباره التى فقدت منذ زمن ، وكما كان سرورهم عظيما حينما أخبرهم دى سكويرا بأن معيوشهم معه وأنه يحمل أوامر من الملك لارساله الى الحبشة ، واصلت الحملة طريقها وعندما وصلت الى زيلج كان سكانها قد هربوا منها ، ولم يبق

(1) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 231.

(٢) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى فى أخبار القطر اليماني ، القسم الثانى ٦٦٣ .

(3) Bailey & Winius: Foundation of the Portuguese Empire 352 - 353.

(4) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 232.

بها أكثر من خمسين شخصا حيث أسروهم وقتلوا كبار السن منهم بينما استعملوا الصغار كعبيد ، وبعد قضاء يوم بكامله قاموا بإحراق المدينة التي لم يسبق فيها بيت على دعائمه (١) ، ومن ثم اتجهوا الى مصوع التي فرغت من سكانها قبيل خمسة أو ستة أيام من وصول الحملة ، وعند نزول البعثة في مصوع أصدر قائد الحملة أوامره بتحويل مسجدها الى كنيسة ، ومن ثم أكملت البعثة طريقها نحو الداخل (٢) كما ذكرنا من قبل في فصل سابق .

أما بخصوص الحملة البحرية فانها عادت أدراجها الى مدخل البحر الأحمر بعد أن تزودت بما تحتاجه من مؤن من عدن ، ومن ثم أكملت طريقها عائدا الى الهند . (٣)

نتج عن نجاح الحملة البرتغالية في انزال بعثتها الى الحبشة أن بدأ البرتغاليون في تحديد سياستهم المقبلة في البحر الأحمر بصورة أدق ، وخاصة من الناحية الصليبية والاقتصادية ، فكما هو معروف فان الجانب الصليبي كان يتناول شقين وكان البرتغاليون دائما ومن خلال حملاتهم السابقة الذكر يسمحون الى تحقيقهما ، فالشق الأول كان النزول في جدة ، أما الشق الثاني فكان يتمثل في انزال بعثاتهم الدينية في الحبشة ، والآن وقد نزلت بعثتهم وسافرت الى البلاط الحبشي فقد أصبح الاهتمام البرتغالي ينحصر فيما يلي : أولا — بالنسبة لجدة توقف البرتغاليون عن مهاجمتها لعلمهم بشدة تحصيناتها وتوفر الحاميات العسكرية بها ، ثانيا — بدأ البرتغاليون

(1) Pankhurst: Ethiopia 326.

(2) Alvarez: Narrative of the Portuguese Embassy to Abyssinia 3.

(٣) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى في أخبار القطر اليماني ، القسم الثاني ٦٦٣ .

يركزون أنظارهم تجاه الساحل الحبشى كمحاولة لنجاح البعثة فى جر الحبشة الى التعاون مع البرتغال فى سبيل تكثيف النشاط العسكرى ضد القوى الاسلامية فى البحر الأحمر ، ثالثا - وهى الناحية الاقتصادية حيث فكر البرتغاليون فى ضرورة التركيز على احتلال عدن خوفا من وقوعها بأيدى الأتراك وهذا بدوره ما يودى الى اغلاق مدخل البحر الأحمر . (١)

وكنا قد شرحنا من قبل الظروف الأولى للاتصالات الحبشية البرتغالية والتي انتهت بوصول بعثة دى ليما وخروجها مرة أخرى الى البرتغال ١٥٢٦م ويجب أن نشير هنا الى عامل مهم ، وهو أن وصول ماتيو الأرمنى الى بلاط الملك البرتغالى قد أدى الى بلورة فكرة كلكة الحبشة ، فماتيو قضى عامين فى البرتغال حيث وجد فيه رجال الدين فرصة لا تحوز لكونهم مبعوث دولة مسيحية فأرادوا أن يستقصوا منه الأحوال الدينية فى الحبشة حتى يتمكنوا من تحويلها الى المذهب الكاثولىكى ، ولما لم يكن ماتيو خبيرا بشئون عقيدة الأحباش فلا بد وأنه أدلى اليهم بمعلومات تخاير الواقع رسخت فى أذهان البرتغاليين سهولة تحويل الحبشة الى المذهب الكاثولىكى وهو ما سنشاهده فى الصفحات المقبلة .

شهدت السواحل الغربية للبحر الأحمر ابتداء من بداية العقد الثالث للقرن السادس عشر الميلادى تطورا فى العلاقات بين امارات الطراز الاسلامى والحبشة تميز بنشوب صراخ مرير بين الطرفين حيث حملت هرر لواء امارات الطراز الاسلامى فى كهاجها ضد الأحباش بعد فشل دور كل من أوفات وعدل ، وهذا بدوره ما جعل الدولة العثمانية والبرتغاليين يتخذون من

(١) د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ١٠٦ .

ذلك مجالا لتأييد فريق على آخر كما سنرى فيما بعد ، ففي عام ١٥٢١ م زحف مسلمو الامارات على هرربقيادة الأمير أبوبكر محمد سلطان عدل ، واستولوا عليها ، حيث اتخذها الأمير أبوبكر عاصمة لدولته عوضا عن العاصمة القديمة زيلج (١) ، وكان هذا الدور بمثابة احياء لدور عدل في الماضي ، وهذا بدوره ما أدى الى ازدياد الاحتكاك بين مسلمي الطراز وملوك الحبشة ، حيث دخل الصراع بينهما مرحلة جديدة تختلف عن المراحل السابقة . (٢)

وعودة الى البرتغاليين فاننا نجدهم ووفق الآراء السابقة التي خرج بها دى سكويرا من حملته السابقة قد أرسلوا في عام ١٥٢٢ م حملة أخرى الى البحر الأحمر بقيادة D. Luis لاحتضار بعثة ماتيو من الحبشة ، وفي الطريق هاجمت الحملة ميناء الشحر (٣) في جنوب الجزيرة العربية حيث أوقعت مذبحه كبرى بالمسلمين هناك ، ومن ثم واصلت الحملة طريقها حيث أغارت على عدن وضربت المدينة بالمدافع لعدة أيام ، وازاء مقاومة عدن عبرت الحملة باب المندب واتجهت الى السواحل الحبشية في محاولة لاعادة بعثة ماتيو ، إلا انها لم تنجح فتأذرت الساحل عائدة الى الهند . (٤)

-
- (١) ابراهيم حسن : الإمام أحمد بن ابراهيم القرين ٢٥ ، ٢٦ .
— د . عبدالمجيد غابدين : بين الحبشة والحرب ١٩١ .
(٢) ابراهيم حسن : الإمام أحمد بن ابراهيم القرين ٢٦ .

(3) Serjeant: The Portuguese off the South Arabian Coast 52.

(4) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 268.

- Serjeant: The Portuguese off the South Arabian Coast 52.

وقعت تلك الأحداث السابقة في وقت كانت فيه مدينة جدة هي للقاعدة الامامية للدولة العثمانية في بداية الأمر ، ولما كانت معظم الحملات السابقة تستهدف النزول في جدة فلا بد وأن يكون الاهتمام العثماني قد انحصر بها باعتبارها المخرج الرئيسي للأماكن المقدسة ، وكما شرحنا من قبل لم تسمح الظروف السياسية للدولة العثمانية سواء في أوروبا أو آسيا بمواجهة حملات كل من لوبو سواريز ودي سكويرا ودون لويس ، لأنها كانت ترى أن فرض النفوذ العثماني يجب أن يتم أولاً وقبل كل شيء على السواحل اليمنية باعتبارها المدخل الرئيسي للبحر الأحمر ، في وقت كانت فيه تلك السواحل تشهد صراعاً مبرحاً بين القادة من أجل الانفراد بالسلطة (١) ، ومن هنا أيضاً كان لابد أن يقف قادة الماليك في اليمن عاجزين عن اعداد سفنهم الحربية في سبيل اعتراض البرتغاليين بسبب تلك الفتى والحروب التي شغلوا بها ، أما البرتغاليون فعقب حملة دون لويس ١٥٢٢ م توقف نشاطهم لمدة سنتين داخل البحر الأحمر ، بحيث لم نعد نسمع خلال تلك السنتين عن أية حملة دخلت البحر ذاته ، إلا أنه بداية من عام ١٥٢٤ م بدأت الحملات البرتغالية مرة أخرى في غزو البحر الأحمر في محاولة لتحقيق هدفين : أولاً - إعادة بعثة دي ليما الى جوا لمعرفة نتائج مباحثات البعثة في البلاط الحبشي ، ثانياً - محاولة الاستيلاء على عدن ، ولتنفيذ ذلك خرجت حملة برتغالية في عام ١٥٢٤ م بقيادة de silveyra الى البحر الأحمر وبلغ من قوتها أن قائدتها تمكن من اجبار حاكم عدن الذي خلف مرجان الظافري على عقد معاهدة مع البرتغاليين نصت على دفع عدن جزية سنوية للبرتغاليين اضافة الى فتح عدن موافقاً أمام السفن البرتغالية ، إلا أن نائب ملك البرتغال في الهند فاسكودي جاما رفض تلك المعاهدة

(١) أنظر الصفحات ٢٣٣ و ٢٣٤ من الرسالة .

على اعتبار أن البرتغاليين يجب أن تكون لهم السيطرة التامة على المراكـز التجارية في سبيل نجاح مهمتهم الاقتصادية (١) ، وهذا لم تأت الحملة بشئ جديد ، إضافة الى فشلها في التقاط بعثة دي ليمـا .

ومرة أخرى أبحر دي سيلفيرا الى البحر الأحمر ١٥٢٦ م حيث أجبر مصوع ودهلك على دفع الجزية ، ومن ثم اتجه الى الساحل الحبشى حيث تمكن من التقاط De Lima الذى كان فى انتظارهم ومعه مهمـوث مرسل من الملك الحبشى الى البرتغال (٢) ، ومن هناك عاد أدراجـه الى مدخل البحر الأحمر محاولا الاستيلاء على عدن ، إلا أن الرياح أبعدته عنها وشنت سفنه فخرج متجها الى هرمز (٣) ، وبذلك نجح البرتغاليون فى تنفيذ أحد شقى عملياتهم الصليبية فى البحر الأحمر ، والتي من أجلها كانوا يكتفون من ارسال حملاتهم وهى عودة بعثة دي ليمـا الى البرتغال ، ولما كان البرتغاليون كما ذكرنا من قبل قد حددوا عقب عودة دي سكويرا عام ١٥٢٠ م أهدافهم من الناحية الصليبية والاقتصادية ، فيجب أن نشير هنا الى أنه بداية من عام ١٥٢٧ م طرأت تعديلات جديدة يمكن القول معها أن معظم حملاتهم فيما بعد وحتى قبيل تدخل الأتـراك العثمانيين والبرتغاليين فى الصراع بين مسلمى الطراز والحبشة قد أصبحت تتسم بظاهـر محاولة إثارة القوات العثمانية فى موانئ البحر الأحمر وساحـل ولسـة

(١) د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ١١١٠ هـ
- د . فاروق عثمان أباطة : عدن والسياسة البريطانية فى البحر الأحمر

٤٧ .

(2) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 289.

- Thomas Astlay: Voyages and Travels I 107-108.

(٣) د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ١١١٠ هـ

(٤) أنظر الصفحات ٢٦٦ - ٢٦٧ من الرسالة .

الاحتكاك بها ، إضافة أيضا الى استثمار الهدف الاقتصادي الخاص بالاستيلاء على عدن ، فمثلا في عام ١٥٢٦ م أعد نائب الملك في الهند Lopo Vaz de Sampayo عدته للذهاب الى البحر الأحمر لمهاجمة الأتراك الذين قاموا بتحصين جزيرة كمران غير أن أحداث الهند حالت دون ذلك .^(١)

وفي تلك الأثناء شهدت سواحل الحبشة أحداثا سياسية أخرى فسي سبيل التمهيد لظهور دولة هرر على المسرح السياسي في البحر الأحمر ، ذلك أن الأحباش ما لبثوا أن تبهوا لتلك الصحوه من قبل مسلمي الامارات فأعدوا الحدة للقضاء على هذه الدولة الجديدة حينما أرسل لبنادنجل الجراد آيون للقضاء على تلك الصحوه ، وتذكر المراجع أن الامام أحمد القرن - الذي سيحمل راية الجهاد فيما بعد - كان الساعد الأيمن للجراد آيون الذي قتل عقب القضاء على دولة أبي بكر بن محمد ، ونظرا لجهود الامام فقد عينه لبنادنجل أميرا على هرر^(٢) وصحبا كانت الآراء متنوعة في ظهور الامام القرن^(٣) ، فان المهم هو أن السلطان أبي بكر بن محمد

(1) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 300.

(٢) ابراهيم حسن : الامام أحمد بن ابراهيم القرن ٣٩٠ رسالة ماجستير - جامعة القاهرة .

- د . زاهر رياض : تاريخ اثيوبيا ٩٣٠ .

(٣) ولد الامام أحمد بن ابراهيم والملقب بأحمد جرى أي الأسر في مدينة هويت لعام ٩٠٨ / ١٥٠٠ م من أب وأم صومالية بمقاطعة هرر ، وقد بدأ الامام حياته العملية بالانتساب الى أسرة الأمير محفوظ حاكم زيلج عندما تزوج ابنته دولنبره ، وكان أتباعه يسمونه الامام لأنهم كانوا ينظرون لحروبهم مع الأحباش على أنها جهاد ديني .

- ابراهيم حسن : الامام أحمد بن ابراهيم القرن ٣٦٠ .

- د . حسن أحمد محمود : الاسلام والثقافة العربية في افريقيا ٤٦٤ .

بحركته تلك قد أعاد أحياء هور كمركز إسلامي على سواحل الصومال ، وهياً المسلمين هناك لمتابعة الجهاد ضد الأحباش مرة أخرى ، في وقت نزل فيه الأتراك العثمانيون على السواحل الصومالية حيث اتجهت أنظارهم لمراقبة ذلك الصراع .

تعتبر هرة أصلاً مدينة إسلامية ، وتقع إلى الشرق من الحبشة ، حيث تشغل المنطقة المنخفضة بين البحر الأحمر والمرتفعات الغربية ، ويمسود الفضل في ظهورها إلى هجرات عربية من حضرموت واليمن نزلت هذه المنطقة حيث حملوا إليها الإسلام في القرون الأولى للهجرة ، ولكنها لم تصبح مركزاً إسلامياً قوياً إلا في القرن الثالث عشر الميلادي ، حيث أصبحت تركيزاً للفقه والتعاليم الإسلامية لشبه جزيرة الصومال (١) ، وكان موقع هرة ذا أهمية بالنسبة للأحباش إذ يعتبر كنقطة وسوق لتصريف منتجات الحبشة واستيراد ما تحتاجه من جهة أخرى ، لهذا لم يكن من الغريب أن يداوم الأحباش غاراتهم ، وكما ذكرنا من قبل فدور هرة في الجهاد الإسلامي ضد الأحباش والبرتغاليين فيما بعد هو أحد أدوار ثلاثة حيث احتلت هرة الدور الأخير بعد أن سبقتها كل من عدل وإيفات ، ولكنها تميزت عن غيرها بمميزات جعلتها صاحبة الكلمة لمدة طويلة أوشكت معها الحبشة أن تصبح مملكة إسلامية بين ليلة وضحاها لولا الاستشهاد المفاجئ ، لرعيها أحمد القرن ، ومن تلك المميزات أنه نتيجة لأن هرة أصبحت القاعدة الإسلامية الرئيسية فقد أصبح الأحباش عندئذ بحيدين عن قواعدهم فوق الهضبة الحبشية ، كذلك اتصال هرة بقبائل (عفار Afar) والصومال في وقت ازداد فيهم

(١) د . حمدي السيد سالم : الصومال قديماً وحديثاً ٣٦٠ ، ٣٦١ .

(٢) فتحي غيث : الإسلام والحبشة عبر التاريخ ١١١ .

الحماس للدينى الذى دفع المسلمين الى اللزخف الى الدواخل ، وأخيرا هناك عامل مهم ، وهو أن هزربدأت تأخذ دور الهجوم وارسال الحملات بمد أن كان من قبلها يتخذ دور الدفاع فى مركزه وما صاحبه من كرفر (١).

(٢) ويرى البعض أن الامام أحمد بن ابراهيم القرين لم يكن زعيما دينيا الا لأن الأتراك أرادوا أن يجعلوا منه ذلك ليقدموه الى المسلمين مستغلين ما كان عليه من تقوى وايمان ليحصلوا منه رمزا يلتف حوله مسلمو تلك الجهات لنشر الاضطراب فى هذا الجزء من العالم ليهي لهم نقطة ارتكاز يستطيعون من خلالها اتمام خططهم ، والواقع أن العثمانيين بتأييدهم الامام القرين انما كانوا يريدون مجاهدا كغيره من المجاهدين ، وهو طريق كان عليهم أن يسلكوه ويصلوا الى نهايته ، لأن الدولة العثمانية صاحبة النفوذ الجديد فى البحر الأحمر لن تقف موقف المتفرج وألوف من المسلمين تذيب ، اذ كان عليها تكلمة المشوار الذى بدأه الفورى لحماية طرق التجارة من ناحية ولصد البرتغاليين وتأمين طرق الحج من ناحية أخرى ، فكما جاء البرتغاليون واتصلوا بزعماء بالندى وبعض زعماء الموانى الهندية والحبشية ليضمنوا لأنفسهم أرضا صلبة يقفون عليها ، جاء العثمانيين كذلك ، والفرق هنا أن العثمانيين وأحمد القرين تجمعهم عقيدة واحدة ومبدأ واحد الا وهو صيانة الدين الاسلامى وحمايته ، أما البرتغاليون فلم تكن بينهم وبين من حالفوهم مثل ذلك ، وصحيح أن المسيحية تجمعهم مع الحبشة ، ولكن بمجرد محاولتهم فرض المذهب الذى يعتنقونه نشبت الاضطرابات فى الحبشة نفسها كما سنرى فيما بعد .

(١) فتحى غيث : الاسلام والحبشة عبر التاريخ ١١١ .

(٢) د . زاهر رياض : الاسلام فى أثيوبيا ٣٥٣ ، ٣٥٤ .

— د . جمال زكريا قاسم : الاصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية

بدأ الامام أحمد جهاده عندما منع مندوبي البلاط الحبشي من جهايسة الخراج ، كما منع الناس من أن يدفعوا لهم المطلوب في الأقاليم ، وبذلك أصبحت تلك الخطوات بمثابة اعلان من الامام القرين عن خروجه عن طاعة ملك الحبشة ، حيث وجه اهتمامه بعد ذلك نحو تحرير اراضي المسلمين الأخرى من السيطرة الحبشية ، فبدأ بالاتصال بالامارات الإسلامية التي سوف تمونه بالمال والرجال وهي دوارو وبالي ، فاستولى عليهما بعد أن هزم جيوش الامبراطور الحبشي التي كانت تدافع عنها وقتل قائدها (٢) ، وما لبث الامام القرين بعد ذلك أن اشتبك مع الجيوش الحبشية في موقعة شامبا كسوري حيث تمكن من تشتيتها والحاق هزيمة كبرى بها (٣) ، وبذلك انصرفت لسه تحرير معظم مدن الطراز الاسلامي من سيطرة الأحياس ، حيث عاد مرة أخرى ٩٣٥ هـ - ١٥٢٨ م الى هرر مركز دولته استعدادا لغزو الهضبة الحبشية بعدما تجمع حوله الآلاف من المجاهدين العرب والصوماليين .

كانت تلك الاشتباكات عاملا مهما في ازدياد النشاط العسكري من قبل الدولة العثمانية والبرتغاليين في ذلك الوقت داخل البحر الأحمر ، ففي يناير من عام ١٥٢٨ م أبحر الأدميرال أنتوني دي ميرو Antony de Mira من جوا الى البحر الأحمر ، وحاول النزول في الشحر إلا أن القوات العثمانية حالت دون ذلك (٤) ، فاتجه الى مدخل البحر الأحمر حيث قابل أسطولا بقيادة Henry de Macedo الذي كان مشتبكا مع الأسطول العثماني هناك ، ولم تسفر المعركة عن نتيجة محددة ، إلا أن دي ميرو (٥)

-
- (١) ابراهيم حسن : الامام أحمد بن ابراهيم القرين ٥١ .
(٢) د . زاهر رياض : الاسلام في اثيوبيا ٢٠١ .

(3) Jean Doresse: Ethiopia 128.

(4) Miles: The Countries and Tribes of persin Gulf 164.

(5) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 315.

واصل طريقه نحو داخل البحر الأحمر حيث دمر زيلج ، ومنها عاد الى مدخل البحر الأحمر وتجول مدة في خليج عدن ، ومنها عاد الى سقط حيث قضى بها فصل الشتاء ، وعاد مرة أخرى الى التجول في مدخل البحر الأحمر حيث قام باعتراض طريق بعض السفن التجارية العربية هناك ^(١) ، وفي تلك الأثناء وصلت الامام أحمد القرن كميات ضخمة من الأسلحة والأدوات الحربية ومساوئ التكوين ، التي أرسلها مسلمو اليمن وحضرموت والحاكم العثماني لسواكن ، إضافة الى قيام مصر بإرسال أسلحة جلبتها السفن المصرية الى مسلمي الإمارات وليس من الغريب أن يحدث مثل ذلك الموقف من قبل الدولة العثمانية في سبيل تحطيم أي تحالف برتغالي حبشي ، خاصة عقب رحيل بعثة دي ليما عام ١٥٢٦م على ظهر أسطول برتغالي ضخم خصص لعودة تلك البعثة الى البرتغال ، والتي مالبت أي الدولة العثمانية أن تشددت مع قوافل الحج المسيحية لبيت المقدس ، وأخذت كذلك توجه انظارها نحو تقوية مراكزها على السواحل الغربية للبحر الأحمر ، حيث اتخذ العثمانيون من قاعدتهم في زيلج مركزا لمراقبة تطور الأحداث السياسية بين الأحباش ومسلمي الطراز .

وهنا وقبل زحف الشعب الصومالي على الهضبة الحبشية يجب أن نلاحظ الحقائق التالية : أولا — أن هذه الحروب بين الأحباش ومسلمي الطراز قد اتخذت ظاهرة الحرب الدينية أي أنها كانت حرب بين مجموعتين مختلفتين في الديانة كل منها تريد القضاء على الأخرى ، ثانيا — أن اعتداء الحبشة

(1) Miles: The Countries and Tribes of Persian Gulf 164.

(٢) حمدي السيد سالم : الصومال قديما وحديثا ج ١ ٣٨٣ ، ٣٨٥ .

(٣) ابراهيم حسن : الامام أحمد بن ابراهيم القرن ٦٠ .

المتكرر والمستمر على مسلح الطراز قد جعل من رد المسلمين لمسدوان
الأحباش عليهم فتوحات اسلامية خاصة في عهد الامام القرنين ، ثالثا -
انه كان للوجود العثماني على السواحل الحبشية أثره الفعال في ازدياد
التعاون بينهم وبين مسلح الطراز ، بدليل انه ما ان ارتفعت الأصوات
تنادى بضرورة جهاد المسلمين ضد الحبشة حتى بدأت الاستجابة القوية
من قبل أمراء المدن الاسلامية على سواحل الحبشة ، رابعا - كان
من نتيجة انتصار الامام على الأحباش في موقعة شامبا كوري أثرها الفعال
في انتهاج مسلح الطراز استراتيجية حربية جديدة تختلف عن السابق
عندما كانوا يقومون بالإغارة على أطراف الهضبة الحبشية ، ومن ثم الصودة
الى مراكزهم ، ولكنهم الآن قد صمموا على ضرورة النفوذ الى داخل الهضبة
الحبشية نفسها . (٣)

سجلت السنوات بداية من ١٥٢٨ م أكبر عملية غزو تشهدها الحبشة ،
عندما اندفعت جحافل الصوماليين مخترقة هضبتها ، بعد أن كان الأحباش
هم الذين يباشرون الهجوم عليها ، حيث وقعت كل من شوا وفندار بأيدي
القرنين ، مما أجبر الملك الحبشى لبندانجل على الفرار من مدينة الى أخرى
وجيوش الامام تتبعه وتقتل من الأحباش أعدادا كبيرة ، وفي السنة التالية
١٥٢٩ م استولى الامام أحمد على بالي أشهر مدن الحبشة حيث دخل الكثير
من سكانها في الاسلام (٤) ، وابتداء من عام ١٥٣٠ م حول الامام القرنين

(١) محمد عبد الله النفيرة : انتشار الاسلام في شرق افريقية ومناهضة الغرب
له ٩٢ .

— رسالة ماجستير لم تنشر ، جامعة القاهرة .

(٢) ابراهيم حسن : الامام أحمد بن ابراهيم القرنين ٥٧ .

(٣) المرجع السابق ، ٦٢ .

(٤) د . محمد المعتصم سيد : دول اسلامية في شرق افريقية ٣٤ ، ٣٥ .

هجومه نحو شمال الحبشة حيث تمكن من تدمير كنائس المكسوم وجوجاسم ،
وأصبح الامام بذلك يسيطر على نحو ثلثي الحبشة ، حيث توجه
بعد ذلك الى وسط الحبشة .

كانت تلك الأحداث السابقة الذكر هي الصورة الحامة للأوضاع
السياسية على سواحل الحبشة ، حيث اندفع الصوماليون نحو الهضبة
محاولين اختراقها في حين تركز العثمانيون في قواعدهم الساحلية لتأمين
قواعد الامام أحمد البرية التي انطلق منها ، وفي الوقت نفسه مراقبة الوحدات
البحرية البرتغالية التي تعودت سنويا الاغارة على سواحل البحر الأحمر ،
والتي تمكنت في عام ١٥٣١ م من احراج العثمانيين داخل البحر الأحمر
عندما نجح أحد القادة ويدعى Sektor de silveyra من اجبار
حاكم عدن على دفع جزية سنوية للبرتغاليين مقدارها ١٢٠٠٠ أسرفسى ،
اضافة الى تركه في الميناء أحد قادة حملته ويدعى Antony Botello
ومعه سفينته وثلاثون رجلا للإشراف على الميناء وايراداته المالية (٤) ومن ثم
تابع طريقه نحو داخل البحر الأحمر حيث أخذ في ارسال السفن الى أماكن
عديدة لاعتراض السفن الاسلامية التي أحرق بعضها في حين تم أسر مجموعة
أخرى بعد قتل كافة من بها من المسلمين (٣) ، وكان من المتوقع أن تتوغل
تلك الحملة الى أقصى نقطة في شمال البحر الأحمر ، أو ربما تواصل غاراتها
على السواحل الحبشية نتيجة ذلك التقدم الذي أحرزته في عدن ، الا أنه
لم يحدث من ذلك شيء بسبب تغير الموقف في عدن عقب رحيل الحملة

(١) حمدي السيد سالم : الصومال قديما وحديثا ٣٦٨ .

(2) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 346.

— د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثماني الأول لليمن ١١١ .

— Thomas Astly: Voyages and Travelrs I 81.

(3) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 346.

البرتغالية عنها ، ففي الوقت الذي أخذت فيه السفن البرتغالية في اعتراض السفن الاسلامية كما ذكرنا من قبل ، قام حاكم عدن بالقبض على كافـسة (١) البرتغاليين الموجودين في عدن وسجنهم في مؤخرة المدينة ، وبذلك اضطر البرتغاليون مرة أخرى الى الانسحاب من البحر الأحمر دون تحقيق ما جاءوا من أجله .

ولم يكن ذلك انسحاباً نهائياً إذ اعتاد البرتغاليون في تلك الفترة كلما عادت حملة من البحر الأحمر سواءً أحققت أهدافها أو لم تحققها يسرعون الى ارسال حملة أخرى حتى لا تمنح القوى الاسلامية في البحر الأحمر الفرصة اللازمة في سبيل الاستعداد والتحصين ، فعقب عودة حملة Hektor خرج جيمس دي سيلفيرا James de Silveyra نحو البحر الأحمر مباشرة ، وبعد أن أنهى أعماله العدوانية في جنوب الجزيرة العربية اتجه نحو عدن حيث تمكن من احراق مجموعة من السفن ، إلا أنه ما لبث أن انسحب سرعاً عندما وصلته أنباء عن وصول سفن عثمانية من جدة لمطاردته ، وقبيل عودة تلك الحملة الى جوا عقب فشلها في البحر الأحمر كان البرتغاليون قد أرسلوا حملتين الأولى بقيادة دافا سكوسيلو الذي بدأ بجنوب الجزيرة العربية ، خاصة ساحل الشحر حيث تمكن من الاستيلاء على مجموعة من السفن الكبيرة المحملة بالبضائع ، إلا أنه لم يتمكن من الدخول الى البحر الأحمر حيث تابع ابحاره الى سقط ، أما الحملة الثانية فكانت بقيادة سالدانها الذي اتجه رأساً الى عدن ، وعندما وصل الى مدخل البحر الأحمر لم يكن بمقدوره مقاومة الرياح المعاكسة فغير اتجاهه وعاد الى سقط

(١) د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثماني الأول لليمن ١١٢٠

(2) Sousa: The Portuguese Asia Tome I 356.

(١) هو الآخر ، وما لبث البرتغاليون في السنة التالية ١٥٣٣ م من اعداد حملة كبرى لتعويض ذلك الفشل الذي حاق بالحملات السابقة الذكر ، عندما غادر ديفوسيلفيرا جوا الى جنوب الجزيرة العربية حيث أخذ في اعتراض السفن التجارية المبحرة بين سقطرة ومدخل البحر الأحمر ، وبعد أن أنهى غاراته هناك أبحر باتجاه الشرق ليقضى فصل الشتاء في الخليج العربي (٢) ، وفي طريقه الى الخليج العربي صادف مجموعة من السفن الاسلامية حيث أسرها ، وبانقضاء فصل الرياح المعاكسة أبحر سيلفيرا من جديد الى عدن حيث باشر في الاعتداء على السفن الاسلامية بها فحرق معظم السفن الصغيرة بينما أخذ السفن الكبرى الى سقط (٣) ، وبذلك فشل البرتغاليون مرة أخرى في الدخول الى البحر الأحمر ، ومحاولة التدخل في الصراع القائم على السواحل الحبشية بفضل اليقظة العثمانية خاصة وان الدولة العثمانية في تلك الفترة بدأت في تركيز جهودها بطريقة أكثر من السابق تجلت في ناحيتين مهمتين أولاً - ما شرحناه سابقاً عن محاولات ولاية جدة وحكام القاهرة في سبيل بسط نفوذ الدولة العثمانية على السواحل اليمنية باعتبارها الخط الأول لمحاولة عرقلة كافة المحاولات البرتغالية للتقدم نحو البحر الأحمر ومن ثم تهديد الأماكن المقدسة ، أما الناحية الثانية فتتمثل في توجيه العثمانيين أنظارهم الى الصراع الدائر على السواحل الحبشية بين مسلمي الطراز والحبشة ، والذي تطور الى هزيمة ساحقة مني بها الأحماس في بداية الأمر عندما هزموا في موقعة شمبركوري عام ١٥٢٨ م كما ذكرنا من قبل ، وهي المعركة التي عجلت بضرورة تعاون العثمانيين ومسلمي الطراز ، عندما أرسل الامام أحمد القرين ما تجمع

(1) Miles: The Countries and Tribes of Persian Gulf 166.

(2) Miles: The Countries and Tribes of Persian Gulf 167.

(3) Miles: The Countries and Tribes of Persian Gulf 167.

(١) لديه من المخزائن مع وفد الى اليمن لشراء الأسلحة والمعدات الحربية ، التي قدمتها لهم الدولة العثمانية على يد حاكم زبيد في اليمن الذي عهد اليه بتزويد الامام بالأسلحة والمدافع كمساعدة دون مقابل ، في وقت وعد في نفسه شريف مكة بتزويد الامام أحمد بالجنود والسلاح (٢) ، وهذا بدوره ما جعل الامام أحمد يطمئن الى وجود قاعدة قوية مضافا اليها الثقافة مسلح الطراز حوله ما شجعه على متابعة فتوحه للهضبة الحبشية ، حيث سيطرت على معظمها القوات الصومالية مع مطلع عام ١٥٣٤ م .

وازاء تلك الهجمات الشديدة قرر ملك الحبشة لبنادنجل ضرورة الاستعانة بالبرتغاليين حلفاء التقليديين ، على أن هناك عاملا مهما قاد لبنا دنجل الى تلك الفكرة وهي وجود John Bermudez يوحنا برمودز أحد أعضاء بعثة ماثيو السابقة في أرضه ، والذي أخذ يشجع لبنادنجل على ضرورة استعانتهم بالبرتغاليين لايقاف الزحف الاسلحي ، ولما كانت هناك فترة زمنية انقطعت فيها الاتصالات بين الحبشة والبرتغاليين منذ لحظة سفر بعثة ماثيو ١٥٢٦ م لجأ لبنادنجل الى خطة بارة في سبيل نيل عطف ومساعدة البرتغال وهي لجوء الى ادخال الكنيسة الحبشية تحت تشريع الكنيسة في روما ، اضافة الى تعيينه لبرمودز بطريوكا للحبشة (٣) ، والذي أرسل في السنة التالية ١٥٣٥ م لطلب المحونة ، غير أن تلك البعثة تعرضت لمتاعب عديدة من قبل قوات الامام القرين ، والقوات العثمانية التي فرضت

(١) ابراهيم حسن : الامام أحمد بن ابراهيم القرين ٦٨ .

(٢) المرجع السابق ، ٦٢ .

(3) Ullendorff: The Ethiopians 74.

حصاراً قوياً لمنع أى اتصال بين الحبشة والبرتغال ، وانتهى الأمر بوقوع كافة أفراد الحبشة بأيدي قوات الامام القرين عدا برمودز الذى نجح فى الفرار الى ميناء مصوع ومنه الى البرتغال (١) ، حيث شرح للملك جوان الثالث حـجـج الموقف فى الحبشة ، والخوف من وقوعها بأيدي المسلمين وبالتالى نشر الاسلام بها ، فأرسله الملك البرتغالى الى نائبه فى الهند بخطاب يأمره فيه بامداد الحبشة بمحمونة عاجلة من الرجال والأسلحة ، ولكن شيئاً من ذلك لم يتم بالسرعة التى كان يتوقعها لبنادنجل ، فبرمودز عرج قبيل سفره الى جوا على روما حيث قابل فيها البابا ، وأعلمه بما وصلت اليه المسيحية من تدهور فى الحبشة ، حتى انه لم يتمكن من الوصول الى جوا الا فى عام ١٥٣٩ م ، فى وقت كان فيه نائب الملك فى الهند يعالج النتائج السيئة ترتبت على وصول حملة سليمان باشا الخادم الى الهند ورحيلها الى البحر الأحمر عقب فشلها . (٢)

كانت السنوات من عام ١٥٣٦ م وحتى وصول النجدة البرتغالية ١٥٤١ م مليئة بالنكبات المتتالية والهزائم الساحقة للأحباش ففى عام ١٥٣٨ م استطاع الامام القرين الاستيلاء على اقليم شوا ، وأن يدفع بالملك لبنادنجل أمامه حتى حدود سنار حيث وقعت معركة حامية على ضفاف النيل قتل فيها أعداد كبيرة من الأحباش (٣) ، اضطرب بعدها لبنادنجل الى الفرار مرة أخرى معتصماً بداخل الهضبة الحبشية التى هاجمها أحمد القرين من جميع سبلها ، حيث

(1) Pankhurst: Ethiopia 329.

- Jones & Monroe: A History of Ethiopia 83.

(2) S.H. Longrigg: A Short History of Eritrea 48.

— الحيسى ، الحسن بن أحمد : سيرة الحبشة ٢٦ — تحقيق د . مراد كامل .

— ابراهيم حسن : الامام أحمد بن ابراهيم القرين ١٥٦ .

(٣) محمد عبد الله النقيرة : انتشار الاسلام فى شرق افريقية ٤٦ .

أخذت أعداد وفيرة من الأحباش في اعتناق الاسلام ، وأخيرا توفي لينادنجل طريدا مشردا قبيل وصول النجدة البرتغالية ، حيث خلفه ابنه جلاود يوس الذى سعى بمختلف الطرق لكسب تأييد ومعونة الدول الأوروبية له لانقضاء بلاده من الانهيار . (١)

كذلك كانت الفترة بداية من عام ١٥٤١ م فترة حاسمة في تاريخ تلك المنطقة لأنها حددت موعدا زمنيا لتلاقى كل من الدولة العثمانية والبرتغاليين على الساحل الحبشى للمرة الثانية ، عقب فشل حملة سليمان باشا الخادم فى الهند عام ١٥٣٨ م ، فكما ذكرنا سابقا كان مبعوث لينادنجل قد وصل الى جوا عام ١٥٣٩ م بخطاب من ملك البرتغال الى نائبه فى الهند بتزويد الحبشة بمعدونة عاجلة لمواجهة أحمد القرين ، على أن تلك المعونة لم تجهز الا مع نهاية ١٥٤٠ م عندما أعد نائب الملك فى الهند Stephano de Gama حملة بحرية قوية لغزو البحر الأحمر حدد أهدافها كالتالى : أولا - القيام بتوصيل المساعدات اللازمة للحبشة (٢) ، ثانيا - القضاء على الأسطول العثمانى فى السويس ذلك أن الأنباء كانت قد وصلت الى جوا عن قيام العثمانيين بأعداد أسطول آخر فى السويس عقب رحيل سليمان باشا عن الهند ، لهذا قرر نائب الملك فى الهند ضرورة الإسراع بمهاجمة ميناء السويس ، وحرق الأسطول قبيل خروجه من البحر الأحمر ، ثالثا - محاولة ازاحة السفن المتخلفة من حملة سليمان باشا الخادم عن طريق الهند التجارى . (٣)

(١) محمد عبد الله النقيرة : انتشار الاسلام فى شرق افريقية ٤٦ .

- Jean Dorese: Ethiopia 145.

(2) Thomas Astley: Voyages and Travelrs I 107-108.

(3) Playfair: A History of Arabia Felix 103.

- Thomas Astley: Voyages and Trabelrs 108.

وصلت الحملة البرتغالية الى البحر الأحمر حيث قامت بضرب عسكـر
بالمدافع ، ومن ثم توجهت الى باب المندب ثم الى سواكن ودهلك حيث
أسروا معظم السفن التي وجدوها داخل البحر الأحمر بعد قتل كافة بحارتها ،
وبلغ من قوة ضخامة الحملة أنها أدت الى خلو كثير من جزر البحر الأحمر من
سكانها ، مما يدل على مدى الفزع الذي لحق بأهالي سواحل البحر الأحمر
من جراء ضخامة الحملة (١) ، وعندما وصل دى جاما الى السواحل الحبشية
لم يحاول انزال النجدة العسكرية بالسرعة المطلوبة للأجباش ، ويبدو أنه
أراد القضاء أولاً وقبل كل شيء على المراكز العثمانية المنتشرة على السواحل
الحبشية في محاولة لتسهيل الطريق أمام امداداته العسكرية للأجباش خوفاً
من قيام العثمانيين بالاغارة عليها .

بدأ البرتغاليون عملياتهم العسكرية عندما نزلوا في سواكن ، وازاء مقاومة
سكانها لجأوا الى عقد هدنة معهم ، ولكنهم ما لبثوا أن قاموا بسلبها والقبض
على سكانها كأسرى (٢) ، وحاول دى جاما ارسال مائة من جنوده كطلـائـع
لامداداته العسكرية ، إلا أن قوات الامام القرين كانت قد أدركت ذلك
فهاجمتهم ، وأبـيـدت القوة عن بكرة أبيها ، وازاء تلك المقاومة سحب دى جاما
قواته وانسحب بسفنه في محاولة لايجاد المكان المناسب لرسو سفنه ، وبالتالي
ارسال الامدادات العسكرية اللازمة ، وفي محاولة للانتقام للقتلى البرتغاليين
على أيدي القوات الاسلامية اتجه دى جاما الى مصوع وأنزل جنوده الذين
أوقعوا بأهالي ذلك الميناء مذبحه كبرى (٣) ، ومن مصوع اتجهت الحملة
البرتغالية الى موانئ مصر الجنوبية على البحر الأحمر .

(1) Serjeant: The Portuguese off the South Arabian Coast 98.
- Thomas Astley: Voyages and Travels I 108.

(2) Serjeant: The Portuguese off the South Arabian Coast 99.

(3) Serjeant: The Portuguese off the South Arabian Coast 99.

وفى تلك الأثناء كان امبراطور الحبشة الجديد جلاوديوس (١٥٤٠ - ١٥٥٩ م) موجودا بجنوب شوا حيث كان يقود حركة المقاومة ضد المسلمين أما العثمانيون فقد أرسلوا حملة الى اليمن ، وقاموا بإرسال التـمـنـيـزات العسكرية الى عدن ، إضافة الى قيامهم باعداد الأسطول وتشديد الحراسة على ميناء السويس خوفا من الخارات البرتغالية عليه بعدما وصلتهم تحذيرات بذلك من أمير سواكن . (١)

واصل الأسطول البرتغالى طريقه نحو القواعد العثمانية فى شمال البحر الأحمر حيث أغاروا على ميناء القصير ، ونزلت قواتهم وأوقعت بالأهالى مذبحـة شديدة كما فعلوا من قبل فى مصوع ، ومن ثم اتجهوا الى الطور حيث أسروا بعض السفن التجارية هناك ، وحاولوا النزول فى الميناء الا أن المقاومة العثمانية حالت دون ذلك (٢) ، فتابعوا طريقهم نحو السويس أكبر القواعد العثمانية هناك ، وعندما اقتربوا من الميناء أرسلوا ثمان سفن ليلا لمراقبة حركة الميناء ، وعندما لاحظوا مدى استعداد الحامية والأسطول أسرعوا الى القيادة وأبلغوها بما شاهدوه ، فانسحبوا مسرعين الى الجزر المقابلة لسواحل الحبشة ، وهناك توالى على قائد الأسطول دى جاما الاستفـاشات من الملك جلاوديوس لمساعدته ضد الامام أحمد القرنى (٣) ، ولم يسرع مرة أخرى فى ارسال المساعدات المطلوبة ، اذ كان يرى أن هناك حسابا لـه مع مدينة سواكن وأميرها الذى قام بتحذير العثمانيين من زحفهم على قواعدهم

(1) Serjeant: The Portuguese off the South Arabian Coast 100.

- The Cambridge History of Africa Vol. 3 181.

— د . السيد رجب حراز : أرتيا الحديثة ٢٩ .

(2) Thomas Astley: Voyages and Trabelrs 108.

(3) Serjeant: The Portuguese off the South Arabian Coast 100.

- Playfair: A History of Arabia Felix 103.

- The Cambridge History of Africa Vol. 3 181.

السابقة الذكر ، ومن أجل الانتقام قام قائد الأسطول البرتغالي ستفانـوا
دى جاما بإرسال أخيه كريستوفر على رأس حملة مكونة من ١٠٠٠ جندي حيث
(١)
ارتكبوا في الجزيرة مذبحه بين الأهالي ، ومن ثم قاموا بسلب المدينة واحرقوها.

وفي التاسع من يوليو ١٥٤١ م أنزل ستفانوا دى جاما قائد الأسطول
القوة المعدة لمساعدة الأحباش في حرقيقو (اركيكو) ، والتي تكونت من ٤٥٠ جندي
إضافة الى العديد من المدافع الميدانية و ٩٠٠ بندقية ، وقد تمكن كريستوفر
شقيق ستفانوا وقائد الحملة من الإفلات من العثمانيين حيث واصل طريقه إلى
الداخل بعدما رحب بهم نائب ملك الحبشة ووالى إقليم التيجرى البحر نجش ،
وفي الطريق إلى الداخل عمد أفراد الحملة إلى تحطيم كافة المساجد التي
وجدوها في طريقهم. (٢)

(1) Thomas Astley: Voyages and Trabels Tome I 108.

(2) Longrigg: A Short History of Eritrya 48.

- Jean Doresse: Ethiopia 145.

— فتحى غيث : الاسلام والحبشة عبر التاريخ ١٥٧٠

جاء في كتاب الأصول التاريخية للعلاقات العربية الافريقية ص ١٣١ توتر
في الأخبار التي يسردها المؤلف خاصة عقب وفاة لبنادنجل ، فهو يذكر
مثلا أن جلاوديوس هو الذى أرسل في طلب الممونة البرتغالية في حين
أن معظم المصادر ذهبت إلى أن لبنادنجل هو الذى طلب تلك الممونة ،
ولكنها وصلت عقب وفاته ، ومرة أخرى نجده وفي نفس الصفحة يسرد أحداث
حملة ثانية وصلت إلى الحبشة لم تشر إليها المصادر ، ومن خلال متابعة
أحداث الحملة الثانية التي نزلت الحبشة والتي أشار إليها الباحث نجد
أنها هي الحملة التي اتفقت المصادر على نزولها الحبشة عقب وفاة لبنادنجل
أما الحملة الأولى فلم نجد لها أى أثر في المصادر ، أي أنه يشير بذلك
إلى أنه كانت هناك حملتان على عهد جلاوديوس نزلت الحبشة ، والواقع
أنها حملة عسكرية واحدة هي التي نزلت في عهد جلاوديوس .

وعودة الى داخل الهضبة الحبشية فاننا نجد أن جلاوديوس لم يحصل
الاحتكاك بقوات الامام القرين انتظارا لوصول المساعدة البرتغالية باعتبارها كانت
تحمل أسلحة نارية قادرة على مواجهة الكتائب العثمانية المسلحة بالأسلحة
الحديثة ، أما الامام القرين فلم يشأ مواصلة القتال انتظارا لانهاء فصل
الأمطار ، وفي الوقت نفسه كتب هو أيضا الى الوالى العثمانى فى زبيد يستمد
المعون والمساعدة الحربية ، وكان أمرا طبيعيا أن تلتحم القوى الاسلاميـة
داخل حوض البحر الأحمر لمواجهة ذلك الخطر الصليبي الذى اتخذ من
السواحل الغربية للبحر الأحمر مجالا لنشاطه لتهديد العالم الاسلامى ، وخاصة
وان الامام أحمد بحروبه تلك ضد الحبشة قد هدد النفوذ البرتغالى عنـ
طريق القضاء على دولة الحبشة الحليف التقليدى للبرتغاليين ، الذين كانوا
يسعون الى بسط نفوذهم داخل البحر الأحمر عن طريق تحالفهم مع الأحباش
وكان من الطبيعى أيضا أن يجد الامام أحمد مساعدة فعالة من العثمانيين الذين
وجدوا فى تحالفهم مع مسلمى الصومال قاعدة أساسية لحماية مصالح العالم
الاسلامى من الغزو البرتغالى ، وفى الوقت نفسه يحظيهم ذلك فرصة
للانطلاق نحو المحيط الهندى ، بعدما أطمأنوا على قواعدهم داخل البحر
الأحمر فى وقت حاصر فيه العثمانيين الأحباش داخل هضبتهم ، وضغوم من
الوصول الى البحر الأحمر لدرجة أن تلك السنوات سجلت أكبر نسبة فى انخفاض
عدد الحجاج الأحباش الذين كانوا يحجون الى بيت المقدس عن طريق البحر
الأحمر (١) ، وحتى بداية عام ١٥٤٢ م كان الامام أحمد يسيطر على معظم
أجزاء الهضبة الحبشية باستثناء الأجزاء الجنوبية ، التى تركز فيها الملوك
جلاوديوس ، وفلول الجيوش الحبشية حيث انضمت اليها المساعدة البرتغالية ،
(٢)

(١) ابراهيم حسن : الامام أحمد بن ابراهيم القرين ١٨١ .

(٢) المرجع السابق ، ١٥٢ .

وبتلك المساعدة شهدت سواحل البحر الأحمر لأول مرة صواعدا دوليا ، وتسم
أول لقاء حربي بين الطرفين في جنوب بحيرة أشانجي Ashangi في
منتصف أبريل ١٥٤٢ م .

كانت تلك المعركة هي الأولى من نوعها التي يستخدم فيها الأحباش
المدفعية الميدانية ، إضافة الى العديد من الأسلحة النارية الحديثة ، وهذا
بدوره ما جعل للمدفعية أثر فعال في صفوف الجيش الاسلامي الذي تقهقر
الى المناطق الجبلية في زابيل Zabel بعدما جرح الامام القريسن ،
الذي أخذ في إعادة تنظيم قواته العسكرية استعدادا للمعركة القادمة (١) ،
وفي تلك الأثناء كانت القيادة البرتغالية في المحيط الهندي قد أرسلت قافلة
من خمس سفن تحمل كميات من الأسلحة والمؤن الى قواتها في الحبشة فسي
محاولة لتمييز صفوف القوات المتحالفة ، الا أن نقطة الأساطيل والحاميات
العثمانية حالت دون وصول أية سفينة من تلك القافلة الى السواحل الحبشية ،
ونفشل تلك المحاولات اضطرت القافلة الى العودة مرة أخرى الى الهند
دون تحقيق أي من أهدافها . (٢)

وعودة الى الامام أحمد القرين فاننا نجد أنه قد أعاد تنظيم صفوف جيشه
في صيف عام ١٥٤٢ م . بعدما وصلته الامدادات العسكرية من مصطفى باشا
النشار والى اليمن ، وهي عبارة عن تسعمائة جندي مسلحين بالبنادق ومجموعة
من المدفعية اضافة الى متطوعين من الحجاز بلغوا الألفى مجاهد . (٣)

(1) Jean Dorese: Ethiopia 146.

- Longrigg: A Short History of Eritrya 49.

- The Camp Hist of Africa Vol. 3 181.

(2) Serjeant: The Portuguesse off the South Arabian Coast
102.

(3) Jean Dorese: Ethiopia 146.

كانت الخطوة الأولى أمام الامام أحمد القرن لتشتيت جهود الحلفاء المسيحيين أمامه هي لجوءه الى الحيلولة دون اتصال القوات البرتغالية مع القبائل المحادية له ، وما أن تمت له تلك الخطة حتى باشر بضرب الجميع مع بداية أغسطس ١٥٤٢ م وخاصة الفرق البرتغالية التي أحيط بها من كل مكان ، بعد أن تمكن المسلمون من أسر قائدهم كريستوفر دي جاما وقتله وتبعاً لذلك الهجوم البهاغت فقد انخفض عدد الجنود البرتغاليين الى نحو مائتي جندي ، كان معظمهم يشقون طريقهم بصعوبة نحو معسكر الملك جلاوديوس خوفاً من الاصطدام بالقوات الاسلامية التي باتت تلاحقهم في عملية (١) تراجعهم نحو الصفوف الخلفية بعدما فقدوا قائدهم ونصف عتادهم وذخيرتهم

كان لذلك النصر أثر بالغ الأهمية على مجريات الحوادث داخل البحر الأحمر لأنه قد حدد وبصورة نهائية أن ملكة الحبشة إنما هي في طريقها الى الزوال وأن الأمر لم يتعدى سوى غزو الامام القرن لمواقع الملك جلاوديوس في جنوب الهضبة الحبشية ، وبذلك تتحول تلك الامبراطورية الى دولة اسلامية بين ليلة وضحاها ، وهذا بالتالي ما يؤكد أن البحر الأحمر قد أصبح دون أي شك بحيرة اسلامية خالصة على طول شواطئه من الشمال الى الجنوب.

كان من المتوقع أن تستمر القوات الاسلامية بمساعدة الكتائب العثمانية في طريقها نحو مراكز الأحباش الأخيرة ، إلا أنه لم يحدث من ذلك شيء ، بسبب نشوب الخلاف بين الامام القرن والقوات العثمانية ، ذلك أن الامام أحمد القرن وعقب انتصاره الساحق على الأحباش والبرتغاليين ظن أن الأمور

(1) Longrigg: A Short History of Eritrya 49.

- The Camp Hist of Africa Vol. 3 181-182.

- Jean Doresse: Ethiopia 146.

قد استتبت له بذلك الانتصار ، وأنه قادر فيما بعد على تحقيق أهدافه ضد الحلف المسيحي ، دون أن يدرك مدى تأثير تلك الاشتباكات السابقة على مركزه وما تعرضت له قواته من انهك (١) ، وفي الوقت نفسه خشي الامام أنه في حالة قضائه على الإمبراطورية الحبشية سيواجه مشاكل أخرى مع القوات العثمانية التي وقتت الى جانبه طيلة فترة حروبه ، وهذا ما جعله في خوف دائم منهم ، لهذا قام القرنين باعادة معظم حملة البنادق العثمانيين الى زبيد باستثناء مائتي جندي استبقاهم الى جانبه ، وبذلك فقد الامام أحمد ركنًا هامًا كان يحينه في حربه (٢) ، وما لبثت الأمور أن تعقدت أكثر مما سبق حينما رفض أحمد القرنين قبول الامدادات العسكرية التي كان يبحث بها العثمانيون من قواعدهم على سواحل اليمن ، وهذا بدوره ما أدى الى ارباك القيادة العثمانية في اليمن التي أخذت تنظر الى ذلك الوضع بعين الحسرة والضييق ، لأنه أدى بالفعل الى زيادة التعاون بين الأحباش والبرتغاليين في حين وقف أحمد القرنين بمفرده في مواجهتهم . (٣)

أما في المعسكر المسيحي فقد كان لذلك الانفصال بين القوات العثمانية والصومالية أثره الفعال في ازدياد التعاون بين الأحباش والبرتغاليين الذين أرادوا استغلال تلك الفرصة في سبيل الانتقام لهزائهم السابقة ، وفي الوقت

(1) Jean Doresse: Ethiopia 147.

— فتحي غيث : الاسلام والحبشة عبر التاريخ ١٥٦ .

(2) The Camb Hist of Africa Vol. 3 182.

— محمد المعتصم سيد : دول اسلامية في شرق افريقية ٣٧ .

— ابراهيم حسن : الامام أحمد بن ابراهيم القرنين ١٨٦ .

(٣) محمد المعتصم سيد : دول اسلامية في شرق افريقية ٣٧ .

— ابراهيم حسن : الامام أحمد بن ابراهيم القرنين ١٨٦ .

نفسه فرصة للخلاص من القرين وحركته بعدما أبعد الفصائل الحثمانية عن معسكره خاصة وأنهم قد أصبحوا أي البرتغاليين في حالة يرثى لها بعدما أحكم العثمانيون تشديد الرقابة على الشواطئ الحبشية لمنع وصول الامداد البرتغالية اليهم من وقواعدهم في المحيط الهندي ، أما القوات الحبشية فكانت قد بلغت مرحلة من التدريب الجيد على أيدي الضباط البرتغاليين الذين استفادوا من هزائمهم السابقة ^(١) ، واستطاعوا كذلك تصنيع البارود من مواد محلية ^(٢) عوضا عن نقص الامدادات نتيجة الحصار العثماني على السواحل الحبشية ، وفي فبراير ١٥٤٣ م قامت القوات المسيحية المتحالفة بمهاجمة جيوش الامام أحمد القرين المعسكرة في وينا داجا Waina Daga في الأجزاء الشمالية من الهضبة الحبشية ، وكان قتالا عنيفا استخدم فيه البرتغاليون كافة الأسلحة الحديثة من مدافع ومنادق ، اضافة الى استخدام الأحباش للدروع المصنوعة من الصلب لوقايتهم من الرصاص ، في وقت قام فيه البرتغاليين بترتيب مجموعات من القناصة التي أجادت التصويب على الأهداف والأفراد ، ومن ثم اتجهت الى اختراق صفوف الجيوش الاسلامية مما أدى الى اضطراب صفوفها ازاء الضغط الشديد للأسلحة الحديثة ^(٣) .

وكانت خاتمة المطاف هونجاج احدى الكائب البرتغالية بقيادة بدروليوني في الوصول الى مركز الامام أحمد القرين ، حيث أطلقوا جميعهم الرصاص عليه فاستشهد نتيجة لذلك ، وازاء استشهاد الامام القرين أصاب الذعر

(١) ابراهيم حسن : الامام أحمد بن ابراهيم القرين ١٩١٠ .

- Margery Perham: The Government of Ethiopia 43.

(2) Margery Perham: The Government of Ethiopia 43.

(3) The Camb Hist of Africa Vol. 3 181-182.

- Jean Doresse: Ethiopia 147.

(١) صفوف القوات الصومالية التي أخذت في التراجع والفرار في اتجاه الساحل ، دون تنظيم ما ، والقوات الحبشية تتبعهم وتقتل منهم أعدادا كبيرة ، وتلا تلك الهزيمة قيام القوات الحبشية بالانقضاض على المدن والقرى الإسلامية وحرقتها وترك الدمار والخراب يمران عن شهوة الانتقام . (٢)

وضح مما سبق أثر التدخل البرتغالي في تغيير موازين القوى لصالح الأحياء ، وبالتالي تحقق النفوذ البرتغالي ، فالجنود البرتغاليون فضلوا عقب استشهاد الإمام أحمد القرين البقاء في الحبشة ، خاصة بعدما طلب منهم الملك جلاوديوس ذلك لحمايته وبناء ما دمته الحروب ، نظرا لكون الكثيرين منهم كانوا أصحاب حرف تفتقر اليها الحبشة مثل الصناعة والزراعة ، وما لبث هؤلاء البرتغاليون أن تزوجوا بالحبشيات وكونوا أسرا مختلطة . (٣) من هذا نرى أنه كان لحملة ستفانو دي جاما وأخيه كريستوفر ١٥٤١ م والظروف التي انتهت اليها الممارك بين مسلمي الصومال والحبشة أثرها الفعال فسي جعل البحر الأحمر يأخذ أبعادا سياسية واستراتيجية أخرى ، غيرت المفاهيم السابقة للثمانيين والبرتغاليين من حيث نظرهم الى البحر الأحمر ، فمثلا الحروب التي قام بها الإمام القرين لا نستطيع أن نصنفها بالصيغة السياسية البحتة لأنه في الوقت الذي كانت فيه جيوش القرين تتسلق الهضبة الحبشية كان دعاة يتصلون بالسكان ويدعونهم لدين الاسلام لدرجة أننا نلاحظ اسلام

(1) Jean Doresse: Ethiopia 147.

— ابراهيم حسن : الإمام أحمد بن ابراهيم القرين ١٩٣٠ .

(٢) ابراهيم حسن : الإمام أحمد بن ابراهيم القرين ١٩٧٠ .

(٣) المرجع السابق ، ١٩٧٠ ، ١٩٨٠ .

— بدر السيد بدر نصار : رحلة الحسن بن أحمد الحيمي لشرق افريقية

١٩٧٢ ، ١٩٧٣ . رسالة دكتوراه (لم تنشر) ،

جامعة القاهرة ، ١٩٧٥ م .

كثير من الزعماء الأقباش ومن كان تحت أيديهم^(١) ، كذلك فقد نجح التجار العرب المسلمون من الانتشار في مدن الحبشة المختلفة التي فتحت واستقروا بها متخذين منها أسواقا لتصرف منتجاتهم^(٢) ، ولكن ما إن استشهد الإمام القرين حتى كانت الجيوش الصومالية قد فقدت أعصابها ، لدرجة أن القادة فقدوا السيطرة على أنفسهم وقواتهم ، وتفرقوا على مجموعات من جيوشهم عائدین الى المناطق التي جاءوا منها^(٣) ، حيث لم يقدر لهم التجمع مرة أخرى إلا في فترات متقطعة ، وهذا بدوره ما أعطى الفرصة مؤقتا لتعميق العلاقات الحبشية البرتغالية كما سنرى فيما بعد .

أما العشمانيين فعلى الرغم من أن انسحابهم من المعركة النهائية التي استشهد فيها الإمام أحمد أمر قد أجبروا عليه ، فلم يكن من المتوقع أن يهملوا السواحل الحبشية ويتركوها إلى الأبد ، فهم وإن شاهدوا جحافل الصوماليين تتراجع تجاههم عقب مقتل إمامهم فقد تمسكوا أكثر من ذي قبل بالسواحل الحبشية ، خاصة وأنهم قد أدركوا تماما وإمام أعينهم مخاطر التحالف الحبشي البرتغالي ، ومدى النتائج التي حققت نتيجة ذلك التحالف ، لهذا نجد أنهم قد رسموا سياستهم كالتالى : أولا — تشديد قبضتهم على السواحل الحبشية ، خاصة مصوع وسواكن وجدة التي تركزت بها حامياتهم باعتبارها نقاط الوصل بين حامياتهم المنتشرة على طول السواحل الحبشية في محاولة لقطع كافة الاتصالات بين الطرفين^(٤) ، ولم يكن ذلك يعنى أن امتلاك الحبشة بالنسبة

(١) د . محمد المحتشم سيد : دول اسلامية في شرق افريقية ٣٨ .

— توماس . و . أرنولد : الدعوة الى الاسلام ١٣٢ .

(٢) د . محمد المحتشم سيد : دول اسلامية في شرق افريقية ٣٨ .

(٣) ابراهيم حسن : الإمام أحمد بن ابراهيم القرين ١٩٢ .

(4) Longrigg: A short History of Eritrya 50

- Perham: The Government of Ethiopia 43.

— الحيس : سيرة الحبشة ٢٦ .

للعثمانيين أمر ضرورى للخاية ، وانما هو أمر مرغوب فيه حتى لا تتاج الفرصة
للبرتغاليين للتمركز هناك ، ومن ثم تهديد الأماكن المقدسة .

ثانيا : — اغلاق البحر الأحمر فى وجه البرتغاليين حيث بدأت السفن
العثمانية خاصة عقب دخول حملة ستفانوا دى جاما ، فى تنظيم دوريات
تتجول بانتظام داخل البحر الأحمر ، وبلغ من شدة يقظة تلك الدوريات
العثمانية أن نائب ملك البرتغال فى الهند الذى جاء عقب ستفانوا دى جاما ،
قرر مؤقتا منع كافة المحاولات البرتغالية للاتصال بالأحباش نظرا لكفاية
النشاط البحرى للعثمانيين أمام السواحل الحبشية . (٢)

ثالثا : — العمل على تطهير السواحل الحربية الجنوبية من السفن
البرتغالية المتناثرة بها ، ومن أجل هذا أرسل العثمانيون فى ربيع الثانى
٩٤٧ هـ — ١٥٤١ م ثمان سفن حربية الى المخا وعدن من مصر ، حيث
لحققها فيما بعد ١٢ سفينة تحمل امدادات وجنودا . (٣)

أما البرتغاليون فانهم مع نجاحهم فى القضاء على القوات العسكرية لمسلمي
الطراز الاسلامي ، وتمركزهم فى الحبشة بصورة أعمق من السابق ، كان لابد
والأمر كذلك أن تصبح الهزيمة الحبشية مجالا لنشاطهم فى سبيل نشر الكاثوليكية
فى الحبشة ، ومن ثم محاولة القيام بعمليات مشتركة مع الأحباش ضد القوى

(1) Stripling: The ottoman Turks and the Arabs 97.

(٢) د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثماني الأول لليمن ٤٠٤ .

(3) Serjeant: The Portuguese off the South Arabian Coast
100.

الاسلامية في حوض البحر الأحمر ، الا أنه لابد لنا من تحديد الخطوات أو المفاهيم الجديدة التي نظر من خلالها البرتغاليون الى سياستهم المقلية داخل البحر الأحمر ، ولعل ذلك يتحدد في النقاط التالية :

أولا - مع نجاح حملة ستفانوا دي جاما في انزال بعثتها الى الحبشة عام ١٥٤١ م حاول البرتغاليون في البداية الجحج للسلم مع الدولة العثمانية عن طريق مشروع لمعاهدة تؤدي الى استلام العثمانيين كميات من الفلفل ، ازاء القمح من ميناء البصرة مع السماح للسفن البرتغالية بالتجول داخل البحر الأحمر ، اضافة الى تحديد العثمانيين لعدد الحاميات العسكرية في عدن الا أن العثمانيين رفضوا تلك المعاهدة رفضا باتا ، ولكنهم ما لبثوا أن عاودوا الكرة في عام ١٥٤٤ م ، عندما حاولوا ارسال سفيرهم وادردو كاتانو Odoardo Cataneo الى استامبول لمقعد الصلح مع الدولة العثمانية ، ومرة أخرى تفشل محاولاتهم (٢) .

ثانيا - توثيق علاقاتهم مع الأحباش ، ولعل ذلك قد تمثل في صور عديدة من حيث النظرة البرتغالية تجاه الأحباش ، والنتائج التي قد يخرجون بها ازاء تحالفهم معهم ، ولعلنا نستطيع القول في بداية الأمر أن هناك علاقة وثيقة بين فشل البرتغاليين في غزو السويس ١٥٤١ م ، وبين توثيق روابطهم مع الحبشة ، ولعل تلك العلاقة تظهر من خلال نقطتين هما أن البرتغاليين ومع فشل ستفانوا دي جاما في غزو السويس قد شعروا بمدى الخطورة الناتجة عن تحقيق مثل تلك الفارة الساهقة حتى لا يمرضوا أساطيلهم للدمار ، لهذا قرروا تركيز جهودهم مع الأحباش في سبيل

(1) Stripling: The Ottoman Turks and the Arabs 93.

(٢) د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثماني الأول لليمن ٤٠٥ ، ٤٠٦ .

توحيد أعمالهم للحربية داخل البحر الأحمر ^(١) أما النقطة الثانية فهي رغبة
البرتغاليين في الاستقرار بالحبشة لاشغال العثمانيين عن الخروج الى المحيط
الهندي ، ومراقبة الأحداث التي قد تجرى على السواحل الحبشية ، ومن
الصور الأخرى لتوثيق العلاقات الحبشية البرتغالية ازدياد نشاط البعثات
التبشيرية للجزويت لدرجة جعلتهم يحتلون المكانة العليا في الكنيسة الحبشية
على مر السنين ، بذلك نستطيع القول أن البرتغاليين بنشاطهم السابق قد
تمكنوا من تحقيق بعض أحلام أوروبا التي عجزت الحروب الصليبية عن تحقيقها .

وأخيرا فقد أثبتت الأحداث السياسية السابقة التي مر بها البرتغاليون
سواء في المحيط الهندي أو أثناء حروبهم مع الامام القرين أن سيطرة
البرتغاليين على الحبشة يجب أن تكون مستمرة ، ذلك أن ترك العثمانيين
يهددونها أمر قد ينتهي بهم الى جعلها مملكة اسلامية ، وهذا بدور
ما يساعد على جعل البحر الأحمر بحيرة اسلامية تساعد العثمانيين على الخروج
واعتراض السفن ما بين شرق افريقية والهند ، خاصة اذا علمنا أن السفن
المتجهة من لشبونة الى الهند كانت تتوقف في شرق افريقية للاستراحة
والتزود بالمؤن .

من واقع ما ذكرناه سابقا تطورت الأحداث السياسية على السواحل
الحبشية بدرجة أصبحت معها الأنظار تتجه بصورة مركزة لمراقبتها ، خاصة
من قبل الدولة العثمانية والبرتغاليين ، وبذلك أصبحت السواحل الحبشية
هي المجال الحيوي لجولات الأساطيل العثمانية لمواجهة ذلك السيل
العنيف من البعثات الكاثوليكية التي بدأ البرتغاليون في ارسالها الى البلاط

(١) د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثماني الأول لليمن ٣٩٩ .

الحشى ، وفي الوقت نفسه محاولة مد يد المساعدة لما سيظهر من حركات المقاومة التي سيقوم بها مسلمو الامارات كما سنرى فيما بعد ، ومع نهاية عام ١٥٤٣ م لم يكن مقدرا أن تهدأ الأحوال السياسية بين مسلمى الطراز والحشة ، خاصة بعدما اتجه جلاود يوس الى اعداد وتنظيم جيوشه عوضا عن الاتجاه الى اصلاح البلاد واعادة تنظيمها (١) ، كان ذلك فى وقت أخذ فيه أحد أعوان الامام القرين ويدعى الوزير عباس يرفع راية الجهاد الاسلامى ضد الأحباش ، وذلك كرد فعلى لاستعدادات جلاود يوس ، حيث تمكن من تكوين دولة اسلامية من مقاطعات دوارو فاتجار وبالى ، ومرة أخسرى تسقط تلك الدولة على أيدي الجيوش الحبشية التى غزتها عام ١٥٤٥ م بقيادة جلاود يوس .

وبينما تلك الأمور تجرى كان بقايا البرتغاليين يعملون جادين على نشر المذهب الكاثوليكي بين الأحباش فى محاولة لضم الكنيسة الحبشية الى الكنيسة الغربية ، ولم تكن تلك الخطوات قد اتخذت بعد مظهرها رسميا يعمل من خلاله البرتغاليون على تنفيذ أحلامهم تلك ، ولكن ما أن حلت السنة التالية ١٥٤٦ م حتى كان ملك البرتغال يوحنا الثالث Jean III قد بدأ عمليا فى محاولة ربط الكنيسة الحبشية بالكنيسة الرومانية ، إلا أنها أيضا لم تكن بصورة رسمية وإنما أراد فى بداية الأمر أن يجس نبض جلاود يوس لتلك العملية ، عندما أرسل له فى ١٣ مارس ١٥٤٦ م رسالة يخبره فيها بأنه سيرسل اليه أحد البطاركة لرئاسة الكنيسة الحبشية ، وكان رد النجاشى ردا

(1) Trimingham: Islam in Ethiopia 86.

(2) Trimingham: Islam in Ethiopia 86.

غامضا بصفة عامة ، حيث لم يجب جوابا محددا حتى لا يحرم نفسه من
المساعدات البرتغالية . (١)

ومرة أخرى تتوقف الاتصالات بسبب تطور الأحداث السياسية بين مسلمي
الطراز والحبشة عندما انتفضت مرة أخرى واجتمع المسلمون حول أرملة
الامام أحمد للأخذ بالتأثر ، واتحدت القوات الإسلامية بقيادة كل من
القواد عمر دين وعلى الجراد ابن الامام القرين ، وقامت تلك القوات بفوز
امارة دوارو ، ولكنهم ما لبثوا أن هزموا ، وأسر الزعماء منهم وبذلك انتهت
الانتفاضة الثالثة لمرة أخرى . (٢)

وازاء تلك التطورات الأخيرة للأحداث على السواحل الحبشية كلن لابد
لنا من التساؤل عن موقف العثمانيين من تلك الأحداث ، والواقع أن العثمانيين
بداية من عام ١٥٤٧ م قد أجبروا وبصورة مؤقتة على تركيز أنظارهم على السواحل
الشرقية للبحر الأحمر بسبب ما تعرضت له تلك السواحل من أحداث هزت
القيادات العثمانية داخل البحر الأحمر ، ففي بداية الأمر تعرض العثمانيين
لخطر التصادم مع القوات الزيدية في اليمن عندما أعلن الامام شوف الديهم
وأبناؤه الثورة على العثمانيين ، ومن ثم قاموا بشن أعنف الهجمات على القوات
العثمانية المحسكة في اليمن في محاولة لحزبهم عن مواقعهم ، كان ذلك
في وقت نشبت فيه الفتن بين العثمانيين في زبيد (٣) ، وبذلك أصبح

(١) د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثماني الأول لليمن ١٥٤١ .

(٢) ابراهيم حسن : الامام أحمد بن ابراهيم القرين ٢٠١ .

- Trimingham: Islam in Ethiopia 91.

— د . حسن أحمد محمود : انتشار الاسلام والثقافة العربية في افريقية

٤٦٨ .

(٣) د . محمد عبد اللطيف البحراوي : فتح العثمانيين عدن ١٥٨٠ .

العثمانيون في موقف لا يحسدون عليه .

أما في جنوب البحر الأحمر خاصة عدن التي كانت تعتبر المفتاح الرئيسي لمدخل البحر فقد تعرضت هي الأخرى لهزة أدت الى ارباك القيادة العثمانية في مصر ، عندما قام أحد سكان عدن ويدعى على بن سليمان الطوالقيسي (البدوي) بالاستيلاء عليها ، وطرد الحاميات العثمانية منها ، ولم تكن درجة الخطورة كافية في طرد القوات العثمانية من عدن فقط ، وانما جاءت الخطورة من قائد ذلك الانقلاب الذي عمل على الاستمالة بالبرتغاليين مستفلا فرصة عبورهم لمدخل البحر الأحمر ، حيث اتصل بأحد قادتهم ويدعى دى بايودى نورنها D. Payo de Noronha وتحالف معه تحالفا قام على أساس تولى الأسطول البرتغالي حماية عدن من البحر حتى يتفرغ على بن سليمان لقتال العثمانيين في البر . (٢)

كانت تلك الأنباء بالنسبة للعثمانيين تعنى شيئا واحدا ، وهو ضرورة التحرك وسرعة جادة لاعادة الأمور الى نصابها ، والا فقد يرفع البرتغاليون أعلامهم على الأبراج الحليا من القلعة الحصينة ، ومن ثم فقد تشكل عدن لوحدها جبهة قوية تجذب اليها القوات العثمانية برا وبحرا فيما اذا وقعت بأيدي البرتغاليين ، وبالفعل جهز داود باشا نائب مصر حملة قوية

(١) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى في أخبار القطر اليماني ، القسم الثاني ،

١٦٩٦ .

(٢) د . محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ١٥٨٠ .

— يحيى بن الحسين : غاية الأمانى في أخبار القطر اليماني ، القسم الثاني ،

١٦٩٦ .

عززت بقوة أخرى من بندر المخا ، وهاجم الجميع عدن وتمكنوا من استرجاعها (١)
في ٩٥٥ هـ - ١٥٤٨ م بعد مقتل قائد الانقلاب على بن سليمان البدوي .

أما الأسطول البرتغالي والذي كان يحرس عدن من ناحية البحر ، فقد
نجح العثمانيون في مهاجمته وأسر سفينتين بينما تمكنت السفن الأخرى من
الفرار عائدة الى الهند (٢) ، وبذلك نجح العثمانيون مرة أخرى في إعادة
سيطرتهم على المداخل الجنوبية للبحر الأحمر .

من هذا نرى أن الأحداث على السواحل الشرقية لم تسعف العثمانيين
لموازنة الحركات الأخيرة لمسلم الطراز ، وبالتالي عدم تمكنهم من متابعة
آخر الأنباء عن الوجود البرتغالي في الهضبة الحبشية الذي تكاثف بسرعة
وقوة ، عندما قام البرتغاليون بمحاولات جديدة لنشر المذهب الكاثوليكي عن
طريق ما قاموا به من ترجمة لكتب المذهب الكاثوليكي الى اللغة الأمهرية ،
مما جعل جلاوديوس أمام أمر لا حيلة له بمقاومته سوى الالتجاء الى الكنيسة
المصرية لتمد الأحياء بالكتب التي يستطيعون ترجمتها الى اللغة الأمهرية
لمواجهة هذا السيل الذي لا ينقطع من الكتب الكاثوليكية المترجمة . (٣)

(١) النهر والى : البرق اليماني في الفتح العثماني ١٠٠ ، ١٠١ .

— د . محمد عبد اللطيف البحراوي : فتح العثمانيين عدن ١٥٨ .

(2) Serjeant: The Portuguese off the South Arabian Coast 107.

(٣) الحيين : سيرة الحبشة ٢٧ .

وما أن بدأ العقد السادس من القرن السادس عشر الميلادى حتى كان البرتغاليون أكثر تحمسا من ذى قبل لنشر مذهبهم الكاثوليكي توطئة لبسط النفوذ الرسمى لهم على المهضبة الحبشية ، وصاحب ذلك ظهور عاملين مهمين كان لهما الأثر الفعال فى تكاثف النشاط العثمانى على السواحل الحبشينة وأول هذه العوامل هو انتفاضة جديدة لهرر التى اتحدت مرة أخرى تحت راية نور بن الوزير مجاهد ٩٥٥ هـ - ١٥٥١ م ابن أخت الامام أحمد القرن الذى صم على ضرورة متابعة الجهاد ضد الأحياء ، وبلغ من شدة تدينه أن أطلق عليه لقب صاحب الفتح الثانى . (١)

أما العامل الثانى فهو تدخل البابوية الى جانب البرتغاليين فى المعركة الدائرة داخل البحر الأحمر ، فكان بذلك على العثمانيين أن يواجهوا العالم المسيحى بأسره عن طريق البابوية التى عمدت هى الأخرى الى ارسال بعثاتها أو التدخل لدى البرتغاليين فى اختيار أفراد البعثات الكاثوليكية فى محاولة لفصل الكنيسة الحبشية عن الكنيسة المصرية وربطها بالكنيسة الكاثوليكية . (٢)

(1) Trimingham: Islam In Ethiopia 91.

— ابراهيم حسن : الامام أحمد بن ابراهيم القرن ٢٠١ .

يعمد كثير من الكتاب وبعض العرب وفي مقدمتهم د . زاهر رياض أن ينزعوا عن مسلمي امارات الطراز الاسلامى أى واعز دينى فى حروبهم وجهادهم ضد الأحياء ، وكأن الأمر أن المسلمين انما يسعون الى الدنيا فقط ، فان قاوم المسلمون تلك الحركات الصليبية فهم وثنيون متعصبون ضد المسيحية ، وأن استسلموا له فهم الفائزون بصحبة ذلك الفريب ، وكأنى بهم لم يقرأوا كتاب الدعوة الى الاسلام لتوماس أرنولد الذى فصل فيه تفصيلا شاملا عن جهاد مسلمي الطراز ضد الأحياء وحالات التحول الى الاسلام بين صفوف الأحياء عندما عاشروا المسلمين وشاهدوا بأعينهم مدى تسامحهم الدينى .

(2) Pankhurst: Ethiopia 333.

- Jones & Monroe: History of Ethiopia 89.

بدأ البرتغاليون نشاطهم العسكري بكثافة داخل البحر الأحمر ، فقسد تميزت حملاتهم الحربية بداية من العقد السادس من القرن السادس عشر بالتركيز على محاولة شن غارات تخريبية على موانئ البحر الأحمر ، وفي الوقت نفسه انزال بعثاتهم الكاثوليكية الى الأراضى الحبشية ، ففي عام ١٥٥٠م أرسل نائب ملك الهند في جوا حملة الى البحر الأحمر من خمس سفن حربية بقيادة Luis Figueyra الذى ما أن وصل الى السواحل الحبشية حتى اعترضته الدوريات البحرية العثمانية ، وأجبرته على الفرار دون تحقيق غرضه باستثناء أحد القادة Gasper Nunez الذى تمكن من الانسحاب أثناء المعركة وذهب بسفنه الى السواحل الحبشية ، (١) إلا أننا لم نجد له أى خبر يدل على وصوله الهضبة الحبشية ، لهذا نرجح أن تلك السفينة اما أسرت فى البحر أو قد أسر ركبها أثناء نزولهم السواحل الحبشية من قبل الحاميات العثمانية المنتشرة على طول الساحل .

وفشل تلك المحاولات السابقة لانزال أحد البطارقة البرتغاليين الى الأراضى الحبشية ، وجدت البابوية فى ذلك فرصة لاعطاء المجال لجميحات الجزويت فى محاولة لتعيين أحد رجال الدين فى روما أسقفا على الكنيسة الحبشية (٢) ، ولكن ملك البرتغال يوحنا الثالث لم يشأ أن يتسرع فى إرسال بعثات الجزويت الى الحبشة الا بعد التأكد من أن ذلك أمر مرغوب فيه لدى جلاوديويس الذى قاوم من قبل محاولة ربط كنيسته بالكنيسة البرتغالية ، ومن أجل هذا قام نائب الملك فى الهند عام ١٥٥٣م بإرسال أحد رجاله جونكالى رودريجوس Gon Calo Rodrigues الى الحبشة ليهدد

(1) Sousa: The Portuguese Asia 2 151.

(2) Jones & Monroe: History of Ethiopia 88.

لوصول البطريرك البابوي ، وفي الوقت نفسه كتابة تقارير عنها ، ^(١) وقصد حمل معه خطابات من ملك البرتغال ومن نائبه في الهند كما حمل معه عددا من الهدايا ، وأحسن جلاوديوس استقبال السفارة ، ولكنه رفض تعيين البطريرك البابوي لرئاسة الكنيسة الحبشية ، إلا أنه وافق على السماح له بالنزول في أراضيه والبقاء في بلاطه إذا رغب في ذلك ^(٢) ، ولكن المبعوث لم يتمكن من العودة نتيجة الاستعدادات التي كانت تقوم بها الدولة العثمانية في مصوع واركيكو ^(٣) ، لمواجهة نتائج وصول ذلك المبعوث إلى البلاط الحبشي والذي يبدوا أن أنباء فشله لدى جلاوديوس لم تكن قد وصلت بعد إلى العثمانيين ، وما لبث البرتغاليون أن كرروا المحاولة ذاتها للمرة الثانية عندما أرسل نائب الملك في الهند بعثة من الجزويت برئاسة Bro Fulgentius في السنة التالية ١٥٥٤ م إلى الحبشة لاقناع ملكها بالعدول عن مساوئه بين الشعب في قضية الخلاف الديني ، غير أن أحداث الخليج العربي عندما وصلت إليه الحملة أدت إلى فشل مهمة هذه البعثة ^(٤) ، بسبب الممارك التي كانت تدور رحاها على جانبي الخليج العربي بين الأساطيل العثمانية بقيادة الملاح الشهير سيدي علي والبرتغاليين والتي أدت في نهاية الأمر إلى فشل مهمة العثمانيين لتحرير دول الخليج العربي من الاستعمار البرتغالي . ^(٥)

(1) Pank hurst: Ethiopia 334.

(2) Pank hurst: Ethiopia 334.

(٣) د . محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ٩٧ .

(4) Sousa: The Portuguese Asia Tome 2 175-176.

(٥) د . محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ١٦٨ .

ومع فشل المجهودات السابقة للدولة العثمانية داخل الخليج العربي خشى البرتغاليون أن تكون تلك المحاولة مقدمة لمحاولات أخرى قد ينفذها الهنود داخـل الخليج العربي أو في الهند أو على السواحل الشرقية لأفريقيا ، ويبدو أن تلك الأحاسيس كانت نابعة أساساً من اعتقاد البرتغاليين بأن انقطاعهم سنوات عديدة عن إرسال حملات دورية إلى البحر الأحمر هي التي شجعت العثمانيين على الخروج إلى بحار العرب الجنوبية بعد فترة من التوقف ، ومحاولة للتعرف على مدى قوة الاستعدادات البحرية العثمانية في السويس أرسل البرتغاليون حملة بقيادة John Peixoto إلى البحر الأحمر عام ١٥٥٥ م لمحاولة معرفة ما يحدث في السويس^(١) ، وعندما وجد أن الأمور تسير على ما يرام عاد أدراجه حيث مر بجزيرة أركيكو التي التقط منها Goncalo Rodriguez المبعوث السابق لنائب ملك الهند كما ذكرنا من قبل والذي ما لبث أن أكد لنائب الملك أن النجاشي ليست لديه نية تخيير عقيدة أجداده وربط نفسه بالكنيسة الكاثوليكية .^(٢)

لم تسعف الأحوال أيضاً القيادة العثمانية لمهاجمة تلك الحملة السابقة الذكر بسبب تدهور الموقف بين مسلمي هرر وجلادديوس في نفس السنة ، واضطرار العثمانيين لمراقبة ذلك التدهور عن كثب ، وبدأت تلك التطورات عندما قام الأمير نور بتحصين هرر وبناء سور حولها ، ولكن امتناع مسلمي الصومال عن غزو الهضبة الحبشية ذاتها كما فعل من قبل الإمام أحمد القرين منح الأحياء كافة الامتيازات الحربية ، وكالسابق انطلقت الجيوش الحبشية

(1) Sousa: The Portuguese Asia Tome 2 181.

(2) Sousa: The Portuguese Asia Tome 2 181-182.

من قواعدها داخل الهضبة وقامت بنزولهم وأسسوا لها وتحصناتها^(١) ،
وازاء ذلك فشل اضطر نور الى الالتجاء الى الباشا التركي فى مصوع ، انتظارا
لهدوء الأوضاع ومن ثم العودة مرة أخرى الى ميدان الجهاد .

بعد انتصار جلاود يوس على هرر عاد الى قصره فى جوندار حيث فوجئ
بوجود وفد برتغالى برئاسة برمودز ، والذي كان قد سافر من قبل الى
البرتغال لطلب الممونة للحبشة ، وخلال الاجتماع الذى تم بين الطرفين
طلب برمودز تعيينه بطريقا للكنيسة الحبشية ، اضافة الى مطالبته
لجلاود يوس بالخضوع له والسلطة بابا روما بناء على وعود أبيه لبنا دنجيل
للبرتغاليين فى السابق بخضوع كنيسة الحبشة للمذهب الكاثوليكي ، فيما اذا
ساعدوه ضد الامام أحمد ، ولم تأت تلك الاجتماعات بأية نتيجة ، خاصة
بعدما رفض جلاود يوس مطالب برمودز معتندا فى ذلك على كون برمودز مجرد
قسيس فقط . (٢)

كان برمودز يتوقع تأييد الشعب الحبشى لمطالبه تلك ، نتيجة الدعاية
التي قام بها البرتغاليون فى السابق ، الا أن طلبهم لمساحة ثلث البلاد
كثمن للممونة التي قدموها سابقا جعلت الأقباش ينقلبون على البرتغاليين
ويكرهون مقترحاتهم ، فنظروا اليهم والى البابا نظرة ملؤها الحقد الذى
لا يخلو من الخوف (٤) ، ولم يكن من المتوقع أن يستسلم البرتغاليون لذلك

(١) د . زاهر رياض : تاريخ أثيوبيا ٩٧ .

د . حسن أحمد محمود : انتشار الاسلام والثقافة العربية فى افريقية ،

٤٦٨ .

(2) Pank hurst: Ethiopia 332-333.

(3) Jones & Monroes: A History of Ethiopia 88:89.

(4) Pank hurst: Ethiopia 333.

— الحبشى : سيرة الحبشة ٢٧ ، ٢٨ .

الفشل الذريع ، خاصة وانهم كانوا ينظرون الى الحبشة على أنها القاعدة
الثالية لتجديد نشاطهم البحري داخل البحر الأحمر ، بعدما شعروا بشدة
وطأة الحصار العثماني للسواحل الحبشية الى جانب تعرض حملاتهم البحرية
لفارات الأساطيل العثمانية التي أخذت تواصل دورياتها في مياه البحر
الأحمر ، إضافة الى ذلك تجدد نشاط البابوية في ضرورة الاسراع بنشر
المذهب الكاثوليكي ، وهو أمر كثيرا ما كان يقلق البابا جوليوس الثالث ،
الذي أخذ يتحرق شوقا لليوم الذي يتم فيه تعيين أحد البطارقة لديه
بطريركا لكنيسة الحبشة (١) ، فعندما أراد ملك البرتغال ارسال بطريرك
لاتيني الى الحبشة تدخل البابا الذي صم أن يتولى الأمر بعثة من الجزيرت
التي تكونت من John Nunez Barreto جون نونيز باريتو و بطريركا
و Andrew de Oviedo أندريو دي أوفيدو ، و Milchior
Carneiro ملشيو كارنيرو أسقفين لمساعدته ولخلافته .

وفي سبتمبر وصلت البعثة الى نائب ملك الهند ومحبها أوامر بارسالهم
الى الحبشة مع قوة لشد أزرها قوامها خمسمائة رجل (٢) ، ولم يكن بوسع
نائب الملك أن يوفر القوة التي طلبها الملك ، إضافة الى أنه يعلم أن جلاوديوس
لن يرحب بأية حال بوصول بطريرك من روما ، وخوفا من وقوع سفينة البطريرك
بأيدي الأساطيل العثمانية قرر ألا يخاطر بذلك ، وإنما أرسل أوفيدو بدلا
عنه مع قليل من القساوسة (٣) .

(1) Jones & Monroe: A History of Ethiopia 88.

- Pankhurst: Ethiopia 333.

(2) Sousa: The Portuguese Asia Tome 2 188.

- Pankhurst: Ethiopia 343.

- Jones & Monroe: A History of Ethiopia 88.

(3) Longrig: A Short History of Fritrya 45.

نجم أوفيدو في النزول إلى السواحل الحبشية عام ١٦٥ هـ - ١٥٥٢ م
التي انطلق منها إلى المهضبة الحبشية ليعرض مطالب البابا على جلاوديوس
وفي اللحظة التي وصل فيها أوفيدو إلى الحبشة أعلنت حالة الطوارئ بين
القوات العثمانية على الساحل خاصة بعدما قدم أزد مر باشا من مصر بقوات
إضافية قوامها ثلاثة آلاف جندي لمواجهة النتائج التي قد تظهر من واقع
وصول أوفيدو ، وفي الوقت نفسه محاولة مراقبة الموقف الحربي بين مسلمي هرر
والحبشة ، بعدما أدت المهزيمة السابقة لسلطان هرر نور بن مجاهد إلى
تصميم مسلمي هرر على الانتقام من الأحباش ، وهذا بدوره ما أوجد بينهما
توازناً من حيث القوة الحربية ، وأصبحت الحرب بين الطرفين وشيكاً
الوقوع . (١)

بعد أن اطمان الأتراك على قواعدهم في مصوع وحرقيقو (أركيكو)
وسواكن انطلقوا نحو الداخل ، وتسلقوا المنحدرات الشرقية للمهضبة ، وتمركزوا
عند حدود مقاطعة دباروا Dabarwa ، وبدأوا في تسيير دوريات
عسكرية لمراقبة الأجزاء الشرقية للمهضبة خوفاً من تحرك مفاجئ للأحباش
وفي الوقت نفسه أقاموا بعض التحصينات العسكرية في الأقليم السابق دباروا ،
حيث وصلتهم إمدادات عسكرية سريعة ، وبذلك نجح العثمانيون في جعل
الأقليم قاعدة عسكرية للانطلاق منها . (٢)

(١) يحيى بن الحسين : غاية الأمان في أخبار القطر اليمني ، القسم الثاني

— د . محمد عبد اللطيف البحراوي : فتح العثمانيين عدن ٩٦٠ .

(2) Longrig: A short History of Eritrya 50.

كانت أول انطلاقة للكثائب العثمانية قد تمت بعد ذلك بقليل عندما قامت بغزو إقليم آجامي Agame اضافة الى مهاجمة دير دبرا دامو Dabra Damo شمال غرب أديجرات Adigrat وقتل رهبانه وتخریب كنيسته (١) ، كان ذلك في وقت أبحر فيه نائب ملك الهند Alvaro de silveyre باسطول مكون من عشرين سفينة نحو البحر الأحمر للمهجوم على المراكز العثمانية ، غير أن كثيرا من سفنه اصطدمت بالصخور عند مدخل البحر الأحمر بينما رجعت السفن الباقية الى جوا (٢) .

كان من المتوقع أن تستمر القوات العثمانية في زحفها نحو مقر الملك جلاود يوس ، وسط الهضبة الحبشية ، إلا أن شيئا من ذلك لم يتم بسبب توافر عوامل عديدة أدت الى تراجع القوات العثمانية نحو مراكزها على السواحل الحبشية ، وأول تلك العوامل هو ما يمكن أن نسميه بمناخ البيئة الذي لم يساعد القوات العثمانية على البقاء في تلك المناطق السابقة الذكر ، حيث تفشست الحمى بين أفراد القوات العثمانية ، اضافة الى الشمس المحرقة ، وقد أدى ذلك الى هلاك الكثير من أفراد القوات العثمانية ، (٣) أما العامل الثاني فيعود الى فشل العثمانيين أنفسهم في سبيل تحقيق جبهة اسلامية موحدة مع مسلمي هرر عندما قاموا بغزو الحدود الشرقية للهضبة الحبشية ، (٤) وأخيرا فقد تمكن الأحباش من استغلال العوامل السابقة وقاموا بهجوم مضاد على القوات العثمانية المنهكة والمتعبة ، حيث أحاطوا بإقليم دباروا من جميع جهاته ، ولم تستطع القوة الباقية تحمل الحصار حيث سقطت دباروا ، وبذلك

(1) Longrigg: A short History of Eritrya 51.

— د . السيد رجب حراز : أرتريا الحديثة ٣٠ .

(2) Sousa: The Portuguese Asia tome 2 194.

(3) Longrigg: A Short History of Eritrya 51.

(٤) د . محمد عبد اللطيف البحراوي : فتح العثمانيين عدن ١٧٠ .

(١) انسحبت القوات العثمانية تجاه الشواطيء الحبشية بعدما فقدت معظم أفرادها وفي الوقت الذي كانت تجري فيه تلك المعارك نشب صراع عنيف وعلني بين الملك جلاوديوس ومندوب نائب ملك الهند أوفيدو ، الذي أعد وثيقة بأخطاء الكنيسة الحبشية ، ومن ثم ألقى خطابا نصح فيه الأحباش بترك مذهبهم والثورة ضد جلاوديوس الذي رد على ذلك بوثيقة سماها شهادة العقيدة وفيها اصرار بأنه لن يخضع لكنيسة روما . (٢)

وضح من موقف البعثة الكاثوليكية السابق الاتجاه الجديد للبرتغاليين في سبيل شطر الشعب الحبشي الى فريقين أحدهما يؤيد الكنيسة الكاثوليكية والآخر يؤيد كنيسة الاسكندرية ، وبالتالي محاولة ايصال الحزب المؤيد للكاثوليكية الى عرش الحكم اعتمادا على وجود البرتغاليين الذين قاموا بمساعدة عصابات الشفتا الحبشية (٣) التي اشتهرت بعدائها لملوك الحبشة منذ زمن بعيد ، وكان من المتوقع وازاء النشاط البرتغالي أن تشهد الهزيمة الحبشية انقسامات بين صفوف الأحباش لولا تطور الموقف على الحدود بين مسلمي الطراز والحبشة الذي انتهى الى نشوب معارك بين الطرفين انتصر فيها المسلمون ، وقتل جلاوديوس حيث اجترأ رأسه وعلقوها على عامود لمدة ثلاثة سنوات . (٤)

خلف جلاوديوس أخاه ميناس Minas في حكم البلاد (١٥٥٩ — ١٥٦٣ م) ، ولم يكن من المتوقع أن تتحسن الأحوال بينه وبين البرتغاليين الذين نجحوا فيما فشلوا به أيام جلاوديوس عندما دخلت الحبشة في دوامة

(1) Longrigg: A short History of Eritrya 51.

(2) Pankhurst: Ethiopia 334.

(٣) تخصصت عصابات الشفتا في الحبشة منذ المصور الوسطى في اصطلياد الرقيق الحبشي وبيعه للخارج .

(4) Jean Doresse: Ethiopia 148.

الحروب الأهلية نتيجة الانقسام الدينى بين طبقت للشعب الحبشى بذاته ،
الذى انقسم الى فريقين الأول يؤيد الكنيسة الغربية والثانى يؤيد كنيسة
الاسكندرية (١) ، أما على سواجل الحبشة وخاصة سلطنة هرر فلم يكن مقدرا
أيضا أن تشهد البلاد هناك أى هدوء ، فعلى الرغم من انتصارهم على
الجيش الحبشية وقتلهم لملكها جلاود يوس فقد ظلت موازين القوى فى صالح
الأحباش الذين لم تتأثر جيوشهم وامكانياتهم بصحوة الموت التى لازمت هرر
فى عهد الأمير نور بن مجاهد وانتصاره الأخير عليهم . (٢)

كذلك كان على مسلمى هرر أن يواجهوا مع مرور الأيام مصيرا لا يختلف
عما آلت اليه الأوضاع السياسية فى الحبشة كما سنرى فيما بعد ، خاصة بعدما
بدأت جحافل قبائل الجالا فى النزوح من الجنوب نحو أراضى المسلمين على
السواجل الحبشية وتدمير ما عليها . (٣)

من خلال الاستعراض السابق نستطيع أن نحدد الآن موقف كل من
الدولة العثمانية والبرتغاليين ، حيث طرأت تغيرات واضحة فى سياسة
كل من الطرفين ، فالدولة العثمانية مثلا لا نستطيع أن ننكر أن تغير مجرى
الحوادث داخل الحبشة كان أمرا يجرى فى صالحها ، لأن ذلك معناه
انخفاض حدة الاتصالات الحبشية البرتغالية وفى الوقت نفسه يعطى المجال
للقادة العثمانية فى سواكن وجدة ومضوع لمراقبة تطور الأمور عند الأحباش
ومحاولة التدخل لتأييد فريق على آخر كما سنرى فيما بعد ، أما البرتغاليون

(١) د . محمد عبد اللطيف البحر اوى : فتح العثمانيين عدن ٩٢٠

(٢) ابراهيم حسن : الامام أحمد بن ابراهيم القرين ٢٠٢٠

(٣) المرجع السابق : نفس الصفحة .

فقد اتجهوا الى ضرورة استغلال نتائج النزاع الدينى بين الأقباش لتأسيس
الفريق الكاثوليكي على منافسه الاسكندري .

أما على نطاق التدخل فى البحر الأحمر فكان على نطاق أضيق مما سبق
لدرجة أننا لم نسمع سوى عن محاولة واحدة قام بها البرتغاليون فى عام
١٥٦٠م عندما أبحر Christopher Homen بحملة بحرية نحو
البحر الأحمر لانزال بعثة من الجزويت برئاسة Fulgentius ، وبالقرب
من اركيكو اعترضته السفن العثمانية التى تمكنت من أسر السفينة التى تحمل
البعثة بينما لازت السفن الأخرى بالفراز (١) ، وفشل تلك العملية السابقة
خفت حدة العمليات البحرية البرتغالية على السواحل الحبشية لدرجة
اضطر بسببها البابا بيوس الى تحذير البرتغاليين من أنهم لو فقدوا الحبشة
فقد يفقدون الهند كذلك . (٢)

وعودة الى المهضبة الحبشية المجال الرئيسى لتحرك البرتغاليين ، نجد
أن التطورات ما بين الأقباش والبرتغاليين قد وصلت لدرجة سيئة للغاية
عندما قام ميناس بمنع الأقباش من دخول الكنائس الكاثوليكية ، وطلب ممن
المبشرين البرتغاليين مغادرة البلاد ، ومنعهم من نشر عقيدتهم أو الظهور
فى الكنائس ، كما منع زوجات البرتغاليين الحبشيات من اعتناق مذهب
أزواجهن (٣) ، وبذلك أصبحت البلاد على شفا حرب أهلية بدأها البحر نجش

(1) Sousa: The Portuguese Asia Tome 2 303.

(2) Stripling: The Ottoman Turks and the Arabs 97.

(٣) د . محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ١٧٠٠

(١) اسحاق ، (أمير الساحل البحرى) عندما قام بمحق عصا الطلعة على النجاشى وتمكن من احراز استقلال فعلى عن طريق الثماون مع القيادة العثمانية فسوى مصوع على أساس التنازل لها عن معظم أراضيها عاصمتها دباروا ، وبذلك تمكن العثمانيون من توسيع الرقعة التى تحت أيديهم ومن تشييت أقدامهم فيها (٢) ، وفى الوقت نفسه اتجه البحر نجش اسحق لمحاولة المشاركة فى عزل النجاشى ميناس ، حيث باع تازكارو Tazkaro وهو ابن شوى لأخى ميناس نجاشيا للحبشة (٣) .

فى الهداية وجه ميناس الجيوش الى مقاطعة دباروا فى محاولة لاعاقبة التقدم العثمانى فى الاقليم ، ولكن اسحاق تمكن من هزيمة تلك الجيوش ، الأمر الذى جعل ميناس ينشط من جديد يساعده فى ذلك بعض البرتغاليين فى بلاطه حيث تمكن من هزيمة تازكارو واعدائه (٤) ، ولم ييأس اسحاق لذلك الفشل ان بادرمرة أخرى الى مهاجمة باذل أخا تازكارو نجاشيا ، وهـرول مسرعا الى العثمانيين لمساعدته حيث عرض عليهم اقليم أرتريا كله ، وبذلك تجددت الحروب الأهلية مرة أخرى الا أنها لم تؤد الى نتيجة معينة ، ان رغم كثرة الحروب والمعارك بين الطرفين ، فانها لم تؤد الى تحديد الفريق الفائز والفريق المهزوم ، وبآخر معركة التى نشبت بين الطرفين

(١) ظهر اسحاق على مسرح الأحداث عام ١٥٥٧ م عندما قام بطرد القوات العثمانية من اقليم دباروا كما ذكرنا من قبل .

(2) Longrigg: A short History of Eritrea 51.

— د . السيد رجب حراز : أرتريا الحديثة ٣٠ .

— د . محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ٩٧ .

(3) Longrigg: A short History of Eritrea 51.

(4) Longrigg: A short History of Eritrea 51.

(٥) د . السيد رجب حراز : أرتريا الحديثة ٣٠ .

فى ابريل ١٥٦٢ م لم يستطع النجاشى ميناس تحقيق أى كسب له ، حيث
توفى بعد تلك المعركة عندما أصابته الحمى ، وبذلك نجح العثمانيون فى
تثبيت أقدامهم داخل اقليم دباروا فى حين استمر اسحاق فى حمل رايسته
الثورة ضد ملوك الحبشة لمدة طويلة (١).

تولى الحكم عقب وفاة ميناس ابنه سارسا دنجل Sarsa Dengel
(١٥٦٣ - ١٥٩٢ م) حيث ورث وضعا معقدا للغاية خاصة من قبل الحركات
الثورية التى ظهرت فى دباروا ، الا أن عصره قد تميز بتحول غريب تجاه
البرتغاليين بخلاف سياسة أبيه وجده ميناس وجلاوديوس ، فان كان كل من
جلاوديوس وميناس قد حاولا فى بداية الأمر تجنب الخلافات مع البرتغاليين
بخصوص العقائد الدينية فى محاولة لاستمرار المساعدات البرتغالية وجنوحهم
فى نهاية الأمر الى اتخاذ موقف حازم ضدهم بعدما أثاروا عصابات الشفتا ،
الا أن سارسا دنجل اتجه اتجاهها عيقا فى علاقته مع البرتغاليين ، اضافة
الى اتصالات أخرى مع فيليب الثانى ملك أسبانيا عندما أرسل له بعثة
ليمد الحبشة بالأسلحة والفنيين فى استعمال المدفعية (٢) ، كذلك أرسله
الى البابا يطلب منه التبريك وإرسال البعثات الدينية ، وبذلك أظهر
سارسا دنجل رغبة أكيدة فى ربط بلاده بالمذهب الكاثوليكي ، وتوجيه
أنظار الدول الأوروبية الى البحر الأحمر لجعله ميدانا للصراع الدولى مرة
أخرى .

(1) Longrigg: A short History of Eritrea 51.

(٢) د . محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ٩٢ ، ٩٨ .

— د . زاهر رياض : الاسلام فى اثيوبيا ٢٦٢ .

بدأت العلاقات بين الأحباش والبرتغاليين تأخذ مجراها الطبيعي عندما سمح سرسادنجل للجزويت أن يبشروا في سلام حيث استقرت رسالياتهم في فريمونا. Fremona قرب العاصمة القديمة أكسوم ، ورغم ذلك التسامح مع البرتغاليين من قبل سرسادنجل إلا أنهم نظروا لخطورة أوضاع الأحباش الخارجيين على النجاشي ولجؤتهم إلى العثمانيين ، وما قد يؤدي ذلك إلى تهديد رسالياتهم داخل الحبشة ، عمدوا إلى الكتابة إلى ملك البرتغال ليمدهم بستمائة جندي لغضم الحبشة إلى الأملاك البرتغالية^(١) ، خوفا من انتصار الفئات الخارجية خاصة بعدما ازداد الأمر سوءا بانضمام العديد من نهلاء البلاط الحبشي إلى البحرنجش ، واتحدت كلمة الجميع في سبيل خلق النجاشي^(٢) ، الأمر الذي أثار الفزع بين صفوف البرتغاليين ، الذين ما لبثوا أن تنفسوا الصعداء بالأسس القريب عندما تعاون معهم سرسادنجل وأعادهم إلى بلاطه بعد فترة طويلة من العداء الشديد .

أما العثمانيون ، وازاء التحول الجديد لسرسانجل في علاقاته مع البرتغاليين الذين انتشروا داخل البلاد فلم يكن أمامهم سوى تنفيذ خططهم السابقة في سبيل محاصرة السواحل الحبشية ، مع التركيز وبصورة واضحة على مؤازرة الولايات الخارجية عن سلطان النجاشي التي أخذت في استعمال الأسلحة العثمانية أثناء حروبها مع سرسادنجل ، وهذا بدوره ما سمح للعثمانيين من توسيع مناطق نفوذهم^(٣) ، ومراقبة الأوضاع السياسية داخل الهضبة الحبشية عن قرب .

(1) Jones & Monroe: A History of Ethiopia 91.

(2) Jean Doresse: Ethiopia 149-150.

(٣) د . محمد عبداللطيف البحراوي : فتح العثمانيين عدن ١٩٧ ، ١٩٨ .

كان سراسدانجل يرى أن الوسيلة الوحيدة للتخلص من السيطرة العثمانية هي محاولة القضاء أولا على هؤلاء الثوار الذين كانوا بمثابة الجسر الذي سار عليه العثمانيون نحو ولاية دياروا ، وغيرها من الولايات الشرقية التي أعلنت عصيانها فيما سبق ، ولم يستطع سراسدانجل في بداية الأمر مقاتلة كافة أولئك الخارجين رغم المساعدات البرتغالية ، لهذا قرأ أن ينتهي منهم واحدا بعد واحد (١) ، كذلك نظر سراسدانجل الى سلطنة هرر على أنها مصدر خطر للحبشة ، نظرا لمرابطة العثمانيين في مصوع والذين كانوا دائما على اتصال بهم في محاولة لرفع راية الجهاد ضد الأحباش ، وكما قلنا سابقا فقد بدأ سراسدانجل بمحاربة النبلاء في شرقي الحبشة ، وما أن بدأت مطالع المقد الثامن من القرن السادس عشر الميلادي حتى كان سراسدانجل قد تخلص من معظم النبلاء (٢) ، باستثناء البحرنجش الذي ظل على قوته السابقة مؤيدا بالقوات العثمانية ، تلى ذلك اتجاه الى مدن الطراز الاسلامي وكما بدأ في السابق بتقليم أظافر القوى المعادية له في شرقي الحبشة باشر نفس الخطة مع مدن الطراز الاسلامي ، عندما هاجم هدية في نفس السنة ١٥٢٠م ، وأجبر سكانها على تقديم ولائهم له . (٣)

وقد نتساءل لماذا تخلت المدن الأخرى وخاصة هرر عن الوقوف الى جانب جارتهم هدية في محنتها مع ملك الحبشة ، والواقع أن تلك المدن وفي مقدمتها هرر ضعفت تماما عقب وفاة نور بن مجاهد ، بعد أن أنهكت الحروب السابقة مواردها من الرجال والعتاد ، وأصبحت مهمة خلفاء نور بن مجاهد هي المحافظة فقط على حدود الامارات الاسلامية من الأحباش

(1) Jean Doresse: Ethiopia 149.

(2) Jean Doresse: Ethiopia 149.

المتهمين بها ، ونتيجة لذلك تركز كفاحهم في المناطق الداخلية لتحسين الأحوال الاقتصادية والاجتماعية لشعوبهم ، وازاء تحركات سرسا دنجل الأخيرة شمر العثمانيين بضرورة اتخاذ موقف معين وعاجل لضرب الأحباش ، بعدما شعروا بقوة البرتغاليين الذين وضع مدى تغفلهم داخل البلاط الحبشى ، عندما قاموا بإنشاء جيوش حبشية جديدة وحديثة بدلت أسلحتها من السيف والرمح الى البنادق والمدافع (٢) لهذا وجه العثمانيون الدعوة لى هـرر لمشاركتهم مع البحر نجش اسحق فى سبيل تكوين جبهة موحدة لمواجهـة تحركات الأحباش والبرتغاليين معا ، ولكن كما قلنا سابقا فقد وصلت هـرر الى درجة من الضعف لم تسمح لها بمشاركة الدولة العثمانية عملياتها الحربية فى شرقى المهضبة الحبشية ، خاصة وأنها الى جانب كونها قد ضعفت تماما فقد زادت مشاكلها بنشوب الصراع بين الأسر المتتابعة على العرش ، اضافة الى تعرضها لموجات شديدة من غارات قبائل الجالا التى قامت بقطع (٣) الطرق التجارية بين هـرر وزيلج ، وجلبت عليها انهيارا تاما فى اقتصادها.

وقبيل حلول شهر فبراير ١٥٧٨ م كانت الجيوش الحبشية بمسـاواة البرتغاليين قد تجمعت عند الأطراف الشرقية للمهضبة الحبشية ، وحاول سراسا دنجل تجربة الطرق الدبلوماسية مع البحر نجش لفصله عن القسـوات العثمانية ، الا أنه فشل فى ذلك ، وبدأت الممارك بين الطرفين فى الأول من نوفمبر ١٥٧٨ م ، حيث تقدمت القوات العثمانية وتمكنت من ابادـة بعض

(١) ابراهيم حسن : الامام أحمد بن ابراهيم القرن ٠٢٠٤

— Trimingham: Islam in Ethiopia 95.

(٢) د ٠ زاهر رياض : الإسلام فى إثيوبيا ٠ ٢٦٢

(3) Trimingham: Islam in Ethiopia 95.

الفرق الحبشية ، في حين فزت الأخرى الى معسكر سرسانجل الذي تركزت عليه قذائف المدفعية العثمانية (١)

كان من المتوقع وازاء الزحف العثماني الشديد انسحاب سرسانجل الى داخل الهضبة الحبشية ، ولكن موقف البحر نجش اسحق أفندي العثمانيين تلك الفرصة ، عندما حاول مهادنة الأحباش ، وكانت فرصة مناسبة للنجاشي والبرتغاليين الذين سرعان ما أعادوا تنظيم قواتهم وأحاطوا بالقوات العثمانية وقوات البحر نجش ، حيث قتل كل من الباشا العثماني والبحر نجش اسحق (٢) ، وبذلك الهزيمة اضطرت القوات العثمانية الى الانسحاب مرة أخرى الى مواقعها في سواكن ومصوع في محاولة لمراقبة الأوضاع من تلك القواعد الساحلية .

عقب انتهاء سرسانجل من تأمين حدود بلاده الشرقية اتجه الى سلطنة هرر ، والتي كان يحكمها السلطان محمد الرابع الذي انتهى لتوّه من اعداد جيوش جديدة رغم كافة الصعوبات التي كان قد ذكرناها من قبل ، وتقابل الطرفان على نهر ويبى Webi حيث جرت معركة كبرى هزمت فيها سلطنة هرر ، وأسر محمد الرابع مع أعداد كبيرة من شهاب هرر حيث تم تنفيذ حكم الاعدام فيهم جميعا (٣) ، وبذلك الهزيمة كانت القوة الحربية لهرر قد أذنت بالزوال ، خاصة بعدما وضع مدى تأثير التدخل البرتغالي الى جانب الأحباش في حروبهم مع المسلمين على طول الساحل الحبشي (٤) ، الذين

(1) Longrigg: A short History of Eritrea 53.

- Jean Doresses: Ethiopia 150.

(2) Longrigg: A short History of Eritrea 53.

(3) Trimingham: Islam in Ethiopia 96.

- Longrigg: A short History of Eritrea 53.

(٤) د . محمد المحتشم سيد : دول اسلامية في شرق افريقية ١٩٩٠ .
- محمد عبدالله النقيرة : انتشار الاسلام في شرق افريقية ١٩٤٥ .

ما لبثوا أن عادوا لمزاولة نشاطهم البحري داخل البحر الأحمر ، بعدما تأكد لهم أن الأمور قد عادت الى نصابها في علاقاتهم مع الأحياء الذين نجحوا في جعل سيطرة القوات العثمانية تقتصر على المدن الساحلية فقط ، ففى عام ١٥٨١ م دخل Hierome de Mascarennas البحر الأحمر في حملة بحرية ، إلا أن تلك الحملة لم تأت بنتيجة معينة بسبب اليقظة العثمانية (١) ، وكرر البرتغاليون المحاولة في عام ١٥٨٥ م عندما تحركت حملة بحرية بقيادة Ruy de Camara نحو البحر الأحمر وتقدم أحد قادتها ويدعى Casme Faya بسرية لكشف مدخل البحر الأحمر حيث نزل في جزيرة كمران ، غير أن المقاومة العثمانية حالت دون تنفيذ البرتغاليين لآرائهم عندما قتل القائد ومن معه من الجنود فى الجزيرة ، ومع ذلك الفشل واصلت الحملة تجولها قرب سواحل العرب الجنوبية ومن ثم عادت الى جوار دون أن تخرج بأية فائدة من جولاتها . (٢)

وفشل تلك الحملة نستطيع القول انها كانت خاتمة الحملات البحرية التى دخلت البحر الأحمر في سبيل مهاجمة المراكز العثمانية داخل البحر ذاته بعدما ^{اقتنع} ~~استقر~~ البرتغاليون باستحالة مهاجمة تلك المراكز ، وليس معنى ذلك أن امتنع البرتغاليون نهائياً عن دخول البحر الأحمر ، وإنما أصبح دخولهم فيما بعد مرتبطاً بفكرة معينة ، وهى ارسال البعثات الكاثوليكية الى الحبشة ومحاولة أن تكون هناك اتصالات دائمة بالبعثات الكاثوليكية فى الحبشة للاطلاع على سير أعمالها .

(1) Sousa: The Portuguese Asia Tome 3 6.

(2) Sousa: The Portuguese Asia Tome 3 29-30.

أما على نطاق العلاقات بين العثمانيين والأحباش فقد بدأت في اتخاذ طابعا يختلف عن السابق بحض الشيء ، فالعثمانيون أدركوا أن ميدان عملهم الحيوى لمراقبة الأوضاع داخل الهضبة الحبشية إنما يأتي نتيجة نشوب النزاعات الأهلية داخل الهضبة الحبشية ، وما يؤدي ذلك الى ظهور ثوار يلجأون الى القيادة العثمانية في سبيل مداهم بالسلاح والعتاد ، خاصة بعدما دخلت هرر دور الاحتضار والانحيار التام بعدما كانت الساعد الأيمن لنشاط القيادة العثمانية داخل الأراضي الحبشية ، أما الأحباش فهم وإن كانوا في السابق يعملون على طرد العثمانيين من حدودهم الشرقية وقصر نفوذهم على الساحل الحبشى ، فانهم الآن أصبحوا يركزون على محاولة اخراج العثمانيين أيضا من السواحل الحبشية ، خاصة بعدما اطمأنوا على حدودهم مع هرر التي قضت الحروب السابقة عليها نهائيا .

وما أن حلت سنة ١٥٨٩ م حتى كانت القوات العثمانية قد عادت الى ميدان الجهاد مرة أخرى ضد الأحباش عندما نشبت ثورة بقيادة البحر نجش ولدا عزوم Walda Ezum ضد ملك الحبشة سارسا دنجل ، والذي ما لبث أن اتصل بالأتراك في مصوع وتحالف معهم (١) ، ولكن سارسا دنجل كان أسرع من الجميع عندما أدرك مدى المتاعب التي ستعرض لها بـلالاده نتيجة ذلك التحالف ، فوجه جيوشه نحو مركز ولدا عزوم في دباروا الا أنها دحرت جميعها ، وتقدم بعدها العثمانيون الى دياروا ومنها الى اقليم شيرى Shire ، وهناك تمكن سارسا دنجل من نصب كميناً للقوات العثمانية وأباد معظمها (٢) ، أما القائد العثماني فقد تمكن ومعه

(١) د . السيد رجب حراز : أرتويا الحديثة ٣١ ، ٣٢ .

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحات .

البقية الباقية من القوات فى التراجع الى قاعدته فى حرقىقو ، وهناك حوصرت القوات العثمانية وهوجمت ، ولكنها تمكنت من المقاومة بنجاح وراء خنادقها ، وبذلك فشل سرسادنجل فى اخراج العثمانيين فاضطر الى التراجع الى عاصمته . (١)

وبينما تلك الأمور تجرى كانت هناك محاولات من قبل البرتغاليين لامداد الحبشة ببعض رجال الدين لتجديد الارسالية البرتغالية بها ، وكانت البعثة برئاسة كل من الأب بائز ، ومونسرات الا أن السفينة التى كانت تقلهما غرقت أمام سواحل جنوب الجزيرة العربية ، فأسرا وأرسلا الى الوالى العثمانى فى زبيد . (٢)

وعودة الى الهضبة الحبشية فاننا نرى أن هناك تطورا غربيا فى العلاقات العثمانية الحبشية ، عندما جنح الفريقان الى الهدنة والسلام ، فعندما عاد سرسادنجل أدراجه نحو دياروا ، وجد هناك هدايا ثمينة من باشا مصوع فى انتظاره ، فقبلها ووافق على أن يمقد صلحا معه (٣) ، ولم يكن ذلك الصلح يعنى نهاية الصراع ، اذ على الرغم من ذلك فقد عملت القوات العثمانية على تشديد رقابتها على السواحل الحبشية لمنع وصول البعثات الدينية ، خاصة بعدما قضى الموت على كافة الجزويت فى أبرشية فريمونسا الحبشية ، وحرمت الارساليات فى النهاية من كل قساوستها ، لهذا نشطت

(1) Longrigg: A short History of Eritrea 54.

(٢) جاكين بيرين : اكتشاف جزيرة العرب ٦١ .
— محمود كامل المحامى : اليمن شماله وجنوبه ٢١١ ، ٢١٢ .

(3) Longrigg: A short History of Eritrea 54.

— د . السيد رجب حراز : أرتريا الحديثة ٣٢ .

القيادات البرتغالية مرة أخرى الى اغاثة الحبشة برجال الدين رغم علم نائيب ملك الهند في جوا بالصعوبات التي كانت تعيق تلك المحاولات من قبل الأتراك في موضوع (١) ، ولم يكن بدا من المخاطرة واستعمال الحيل لخدع الحشمانيين عن طريق أشخاص أجادوا اللغة العربية ، ففي عام ١٥٩٥م أرسل القس Maronite Priest على أمل عدم اكتشاف أمره ، ولكن كشف أمره بمجرد دخوله البحر الأحمر .

وفي السنة التالية قاموا بإرسال ملشور دي سيلفيا Milchior de Sylva الذي وفق في الوصول الى الحبشة (٢) ، وبذلك المحاولة السابقة للبرتغاليين توقفت كافة عملياتهم الحربية والدينية داخل البحر الأحمر حتى نهاية القرن السادس عشر الميلادي ، وان كانت تلك المحاولات قد جاءت مع نهاية القرن السادس عشر الميلادي ، فان البرتغاليون ما لبثوا أن واصلوها ، ولكن بعد مرور سنوات عديدة من القرن السابع عشر ، في وقت تميز فيه ملوك الحبشة الذين خلفوا سراسدنجل بالتسامح الديني مع كافة البعثات التي كانت تنزل أراضيهم ، ورغم ذلك كله فقد كان مقدرا أيضا للحشمانيين البقاء لمدة ثلاثة قرون أخرى على سواحل الحبشة .

... ..

(1) Jones & Monroe: A History of Ethiopia 92.

(2) Jones & Monree: A History of Ethiopia 92.

الخاتمة

وضع لنا من السابق أن دوافع صراع المسلمين مع البرتغاليين داخل البحر الأحمر قد ارتبطت بمحاولات عديدة انحصرت جميعها في عاملين مهمين وهما الدوافع الصليبية والدوافع الاقتصادية ، حيث رأينا كيف نشطت البابوية في سبيل توجيه أنظار العالم الأوربي الى مهاجمة العالم الاسلامي عن طريق بخاره الجنوبية عقب فشل الحروب الصليبية وارتباك التجارة عبر البحر الأسود والضائق والأناضول ، وكيف أنها هددت العالم الاسلامي عن طريق مشاريعها الحربية ومحاولاتها إثارة الدول الأوربية في سبيل إعادة الأتراك العثمانيين الى داخل آسيا .

والواقع أن نظرة سريعة على الأهداف التي رمت البابوية الوصول اليها توحى بمدى شدة الدافع الصليبي في الصراع الاسلامي المسيحي ، لأن النظرة البابوية تجاه الدافع الاقتصادي تتمثل في كونه وسيلة للوصول الى الغاية ، بدليل ذلك النشاط البابوي الواسع ضد العالم الاسلامي كما حدث من خلال خطة الهند والاتصال بطوائف الرهبان الفرنسيين في الشرق وتنظيم صفوف ملوك شبه الجزيرة الأيبيرية في حروبهم الاستردادية ضد المسلمين ، واندفاع الروس المسكوفيين ، وتشجيع القرصنة ضد سواحل مصر الشمالية .

فنجاح البابوية يفترض في تنفيذ تلك الأهداف السابقة لا يقل أهمية عن نجاح البرتغاليين في عبور رأس الرجاء الصالح ، ومن ثم تحويل التجارة عبره ، فالعالم الغربي تعرف على سلح الشرق مع نشوب الحروب الصليبية ، ولهذا نشأت كثير من المراكز التجارية على السواحل الايطالية في وقت مبكر ، وانتظمت الطرق التجارية ما بين موانئ البحر الأبيض المتوسط وعبر البحر الأسود وآسيا الصغرى ، ولكن ما ان وصل الأتراك العثمانيون الى المراكز السابقة حتى تعرض العالم المسيحي والبابوية لضربتين مزدوجتين فالأوروبيون بدأوا يعانون الصعوبات في سبيل الحصول على محاصيل الشرق

بأسعار مناسبة بعد تركيز معظم طرق التجارة بأيدي المسلمين فيما سمي
بالشرقيين الأوسط والأدنى .

وأصبح الأوربي بذلك أمام خطر اقتصادي جارف ، أما البابوية فقد
كانت الأخطار المحيطة بها أكبر من قدرتها ، فهي وإن كانت في السابق
قد خرجت مدحورة في الحروب الصليبية ، ومن ثم فشلت في مشاريعها في
مصر والشام عن طريق طوائف الرهبان الفرنسيين ، إلا أنها ما لبثت
أن فوجئت بالتقدم العثماني ووصله إلى أسوار القسطنطينية .

من هنا أدرك الجميع بأن سيطرة المسلمين على طرق التجارة هي
سرقوتهم ، ومن هذا كان اندفاع البرتغاليين والاسبان كل في طريق حسب
توجيهات البابوية ، وإن كان لهذا الاندفاع الشديد أهداف عديدة فإن
من بين تلك الأهداف ما أدى إلى انتقال المواجهة من البر إلى البحر
كأسلوب من أساليب المواجهة بين العالم الإسلامي والعالم المسيحي .

وصحيح أنه كثيرا ما نشبت بعض الغارات البحرية بين المالكيين
وقراصنة جزيرة رودس ومالطة ، إلا أننا لا نستطيع مقارنتها بما حدث في
غرب البحر الأبيض المتوسط عندما أصبحت الغارات البحرية ميدانا لها ، وركبا
أساسيا في استراتيجية الدول والقوى التي مارستها ، وكان توقيتا زمنيا مناسباً
عندما نشبت تلك الحروب (القرصنة) فدول شبه الجزيرة الأيبيرية كانت تسعى
جاهدة لاتمام حروبها الاستردادية ، ومجاهدة البحر المسلمين في قواعدهم
بشمال افريقية ينظرون بعين الحسرة إلى سوء أوضاع اخوانهم الذين شردوا
من موطنهم ، وكان لابد من مساعدتهم فانطلقوا بسفنهم للاغارة على شواطئ
شبه الجزيرة الأيبيرية .

هذا وإن تضررت دول غرب أوروبا من حركة الجهاد البحري التي ازدهرت

فى الحوض الغربى للبحر الأبيض المتوسط ، وتعرضت سفنها وسواحلها
لهجمات المجاهدين كرد فعل لطرد المسلمين من شبه الجزيرة الأيبيرية ،
واتجاه هذه الدول الى محاولة الاستقرار على سواحل شمال افريقية ، فان
الأيام ما لبثت أن أدت الى تدخل الدولة العثمانية لحماية المسلمين فى
تلك البقاع .

وأخيرا كانت الرغبة الملحة فى نفوس حكام دول غرب أوروبا لمنافسة المدن
الاطالية فى تجارة أوروبا وحرمانها من السيولة النقدية والمكانة الحضارية السنية
حظيت بها من جراء قيامها بتوزيع سلع الشرق فى القارة الأوروبية ، ويلاحظ
هنا أنه الى جانب تلك العوامل الاقتصادية السابقة التى رغب البرتغاليون
فى تحقيقها ضد المدن الايطالية ، كان هناك عامل مهم اشترك فيهم
البرتغاليون وباهوات روما وهو أنهم لا يغفرون للمدن الايطالية مواقفها السابقة
من قرارات وقوانين تحريم الاتجار مع العالم الاسلامى ، لهذا لم يكن
من الغريب أن يسارع البرتغاليون فى الابحار نحو الشرق للانتقام من المدن
الاطالية ، وما يؤكد ذلك الرغبة الشديدة فى الانتقام لجوئهم الى السماح
للسفن الجنوبية النافس القديم للبنادقة بالسفر مع السفن البرتغالية الى
الشرق .

هذا وان كانت مقدمات الحروب الصليبية قد بدأت بطواف باهوات
روما لاثارة العالم المسيحى ضد المسلمين ، فان مقدمات صراع المسلمين
مع البرتغاليين بدأت فى صمت وسكون ، عندما اندفعوا من قاعدتهم فى
سبيل اكتشاف السواحل الغربية لافريقيا بعدما أيقنوا أنها السبيل الوحيد
للوصول الى الشرق والاتصال بالقديس يوحنا دون حاجة للمرور فى أراضي
المسلمين ، ويلاحظ هنا أن عمليات الاستقرار فى سبيل من قبل البرتغاليين
قد صبغت بأهداف صليبية أكثر منها اقتصادية ، فعلى الرغم من أن نتيجة

استكشاف السواحل الغربية لافريقيا ستؤدى بهم للوصول الى الشرق ، إلا أن المتتبع لعمليات نزولهم فى سنة يلاحظ أنها وافقت فترة اندفعت فيها شعوب شبه الجزيرة الأيبيرية تطارد المسلمين من مكان لآخر ، ومن هنا كان الاندفاع الصليبي فى السواحل الشمالية لافريقيا .

ومعما تم تحديد أهدافهم الصليبية من النزول فى الأراضى المغربية المطلة على سواحل الأطلسى ، وهى العوامل التى مهدت لهم الطريق فى سبيل استكشاف المجهول من سواحل غرب افريقيا حيث تم تقسيم رحلاتهم الكشفية الى مرحلتين ارتبطت كل مرحلة فى نهايتها بأهداف معينة تمكن البرتغاليون من تحقيقها ، والتى انتهت جميعها الى الهدف المطلوب وهو الوصول الى رأس الرجاء الصالح .

وعلى الرغم من افتخار شعوب شبه الجزيرة الأيبيرية من برتغاليين واسبان بما حققوه من انجازات كشفية ، إلا أنهم لا يملكون القدرة على انكار جرائمهم البشعة فى هدر الطاقات البشرية لسكان افريقيا من الزنج الذين أرسلوا الى شبه الجزيرة الأيبيرية والمستعمرات التابعة لدول تلك المنطقة .

وهنا يجب أن نشير الى أن ذلك الاندفاع البرتغالى نحو بحار الشرق لم يكن ليتم لهم دون ذخيرة علمية تتاح لهم ، خاصة فى وقت كانت فيه تعاليم الباطنية تسيطر على المجتمع الأوربي بصفة عامة ، ولكنهم عرفوا كيفية الاستفادة من التراث العربى القديم بوجوه مختلفة ، فمن ناحية استفادوا من مخلفات العرب العلمية التى تركوها وراءهم عقب خروجهم من شبه الجزيرة الأيبيرية ، ومن ناحية أخرى كان للجولات البرتغالية فى بحار العرب الجنوبية أثرها فى نفوس الرعيل الأول من القادة بعدما اجتمعوا بملاحين مسلمين من تلك الجهات ، وتعرفوا على الأدوات الملاحية التى كانوا

يستخدمونها ، وكيفية رسم الخرائط الحديثة .

وأخيرا اختتم البرتغاليون مقدمات اندفاعهم الى الشرق بوصولهم الى المحيط الهندي وتجولهم أمام السواحل الشرقية لافريقيا التي أدهشتهم بوفرة الموانئ الصالحة لرسو السفن التي لاتعد ولا تحصى بما تحمل من بضائع شرقية ، ومع انتقالهم الى مالندى حيث قادهم الى الهند ملاح مسلم تعددت الآراء والروايات فى شخصيته ، هل هو ابن ماجد أم غيره .

وهنا مجموعة من الملاحظات تجدر الإشارة اليها وهى أولا : أن البرتغاليين أدركوا تماما فعالية العامل الصليبي لخطه انطلاقهم الى الأراضى المغربية ، وكيف أن ذلك العامل قد أدى بهم الى الدوران حول افريقية ، ومن واقع مشاهدتهم الغير متوقعة للصرب داخل المحيط الهندي نستطيع الإشارة الى مدى قوة الدافع الصليبي الذى تحكم بالبرتغاليين مع تناسل حملاتهم الى المحيط الهندي منذ بداية القرن السادس عشر الميلادى .

ثانيا : أن قصة وصول الطلائع الأولى للبرتغاليين الى المحيط الهندي ان دلت على شئ فهى تدل على مدى ضعف العلاقات بين سكان الساحل الشرقى لافريقيا والقوى الاسلامية داخل البحر الأحمر ، انه من غير المعقول ان حادثة مثل هذه لا يكون لها رد فعل داخل العالم الاسلامى .

ومع بداية الصراع فى البحر الأحمر قبل العصر العثمانى ، ، أدرك البرتغاليون مدى الحاجة الى حليف قوى يساندتهم داخل البحر ذاته ، فهم وان كانوا فى السابق قد جدوا فى البحث عن القديس يوحنا الذى كثرت عنه الروايات داخل أوروبا ، وهو ما أدى الى ارسال العديد من البعثات البرية والبحرية ، إلا أن جميعها فشلت باستثناء بعثة واحدة وصلت قبيل وصول بارثليميو دياز الى رأس الرجاء الصالح ، ولما كان ذلك الهدف أحـد

دوافعهم الصليبية فان الأيام ما لبثت أن حققت لهم ، ولكن عن طريق الأحمش الذين ما لبثوا أن نهضوا بمجرد سماعهم لأنباء المعارك الإسلامية المسيحية في المحيط الهندي ، وقاموا بدورهم بإرسال مبعوثهم الى الهند حيث المراكز العسكرية البرتغالية ، وبذلك تأكد للبرتغاليين ضرورة مزاولة نشاطهم العسكري داخل البحر الأحمر ، ولكسهم مهدوا لذلك بإرسال البعثات الدينية التي تأخر وصولها حتى بداية العقد الثالث من القرن السادس عشر الميلادي .

وموصول تلك البعثات الدينية الى الحبشة نجح البرتغاليون في رسم الخطوط الأولى لتحالفهم مع الأحمش والطرق الكفيلة بتوحيد جهودهم لاثارة الاضطرابات داخل البحر الأحمر في وقت كانت فيه دولة المماليك تودع أيامها الأخيرة ، وكأني بالأحمش قد أعادوا ذكرى تلك الأيام السابقة بمواقفهم السيئة في التعامل مع القوى الأجنبية في سبيل تهديد أمن البحر الأحمر ، فهم وان كانوا في السابق قد تعاملوا مع العالم المسيحي لجره الى البحر الأحمر فانهم قد أصبحوا ركيزة هامة في سياسة القوى المعادية للإسلام في أيامنا هذه عن طريق الخبرات والساعات العسكرية والاقتصادية والتي جندتها الحبشة في سبيل حصد أرواح الآلاف من مسلم الصومال ولبنانيا ، هذا بخلاف التقارب بينها وبين اسرائيل التي سعت بدورها الى محاولة جلب أنظار العرب الى البحر الأحمر لمراقبة نشاطها المشترك مع الأحمش .

وسط تلك الأجواء المعادية للإسلام اندفعت الحملات البرتغالية في محاولة لتهديد الأماكن المقدسة الإسلامية داخل البحر الأحمر لاثارة المسلمين هناك ، وهو الأمر الذي يؤكد أن اندفاع البرتغاليين نحو البحر الأحمر إنما تؤكد عوامل صليبية أكثر منه اقتصادية ، وأضحى الأماكن المقدسة هدفا من الأهداف العسكرية يتعمد بتنفيذها قادة الحملات الذين

اعتمدوا على الدخول الى البحر الأحمر منذ اللحظة التي دخل فيها البوكر البحر ذاته بأول حملة بحرية برتغالية ، وكانت ارادة الله عز وجل فوق الجميع عندما فشلت كافة الحملات البرتغالية في سبيل النزول في جدة ، وعلى الرغم من ضيق الأحوال الاقتصادية ذاتها في عهد المماليك فان الجيوش الاسلامية ما لبثت أن ظهرت حينما شارك مسلمو الهند وقادة الدولة العثمانية ممالك القاهرة محتتم تلك في وقت كانت فيه مدينة جدة ميناء بحريا صغيرا انعدمت من حوله الأسوار والقلاع والتحصينات الحربية ، والتي ما لبثت أن حظيت باهتمام بالغ من قبل ممالك مصر حيث أصبحت تلك التحصينات ركيزة هامة من ركائز السياسة المملوكية لتأمين البحر الأحمر .

كانت الدولة المملوكية هي القوة الاسلامية الأولى التي حملت راية الجهاد ضد البرتغاليين على الرغم من اقترابها من الشيخوخة ، ولم يكن هناك مجالا للفرار أو التأجيل فالعدو على أبواب بحرلها الجنوبية وقد سد عليها منافذ القوة والارتزاق ، وأخذ يهدد بالوثوب داخل بحيرتها الاسلامية الكبيرة حيث الأماكن المقدسة والقواعد العسكرية في السويس ، وكان من الطبيعي أن يبادر المماليك منذ اللحظات الأولى الى مداومة البرتغاليين داخل قواعد ارتكازهم في المحيط الهندي لولا الأوضاع الداخلية السيئة عندما تفرغ قادة الممالك للصراع على عرش السلطنة ، مما ألحق بالبلاد كوارث شملت الحياة الاقتصادية الحصر الحيوى الى جانب القوات المحارسة في كيان أى دولة حتى انتهى الأمر بوصول السلطان الفورى الى الحكم ، والذي لم ينشط جديا إلا بداية من عام ١٥٠٥ م عندما خرجت أول حملة مملوكية من ميناء السويس بقيادة حسين الكردي ، والتي قىض لها أن تستنزف جزءا من قوتها في جدة وينبع ، وما ان وصلت الى الهند حتى نشبت معركة شمول والتي هزم فيها البرتغاليين وأدت الى ارباك قواعدهم العسكرية داخل المحيط الهندي الذى استمر فيه الصراع بين الطرفين حتى اذا ما هزمت الأساطيل المملوكية وعادت الى البحر الأحمر ، نقل البرتغاليون الصراع

الى داخله عندما عبر البورك باب المندب لأول مرة عام ١٥١٣ م ، كما
أشرنا الى ذلك فى حينه .

والواقع أنه كان بإمكان سلاطين دولة الممالك مواجهة الخطر لـ
أنهم اهتموا منذ البداية بتوطيد قوتهم على السواحل الشرقية الأفريقية ،
وتكوين وحدة اسلامية قوية هناك تعميق البرتغاليين عن اتخاذ مراكز عسكرية
لهم ، لأن البرتغاليين من غير المقبول أن يواصلوا رحلاتهم الى الهند
مباشرة من غرب افريقية دون محطات عسكرية ، كذلك فان مقاومة الدفعات
الأولى من الحملات سيؤدى دون شك الى اجباط عزيمه البرتغاليين فى سبيل
اكمال رحلاتهم الى الهند ، فكما هو معروف ان نجاح أى مشروع يعتمد
على انجاز بدايته كما حدث عندما نجح فاسكودى جاما فى تحقيق أهداف
رحلته الأولى عام ١٤٩٨ م الى الهند ، الأمر الذى أدى الى تتابع
الرحلات البرتغالية دون انقطاع .

ولا ننسى هنا أن ننوه بدور العثمانيين فى سبيل الوقوف الى جانب
الممالك لمواجهة الخطر البرتغالى ، ولكن على الرغم من كافة المساعدات
التي أرسلها العثمانيون الى الممالك ، إلا أن الموقف كان يتطلب تعاونا
جديا . ومشاركة فى سبيل توحيد الجهود لنزول الجميع الى البحر الأحمر
بقوات ضخمة تعبر عن مدى قوة العالم الاسلامى فى ذلك الوقت ، ولكن
الذى حدث هو بعثرة تلك القوات اللازمة فى ساحة مرج دابق .

وما أوجنا فى مثل هذه الأيام الى تحقيق وحدة اسلامية تشمل
دول البحر الأحمر للحفاظ على استقلاله والحيلولة دون تحوله الى مركز من
مراكز صراع القوى العالمية .

هذا وان اقتضت مهمة الدفاع عن البحر الأحمر في السنوات الأولى للقرن السادس عشر الميلادي على دولة المماليك ، وعدم تمكن القوى اليمنية من مشاركة الحملات المملوكية ضد العدوان البرتغالي داخل قواعده في المحيط الهندي ، فان تلك القوى ما لبثت أن صمدت بقوة في وجه البورك الذي دخل البحر الأحمر عام ١٥١٣ م ، وحاول فيها الاستيلاء على عدن وغيرها من مدن سواحل اليمن وحالت دون تنفيذ مآربه .

وفي المقابل وعلى السواحل الحبشية لم تستطع امارات الطراز الاسلامي مشاركة المماليك جهادهم البحري ضد البرتغاليين بسبب مجاورتهم الأبحاش الحلفاء التقليديين للبرتغاليين ، والذين ما لبثوا أن شنوا سلسلة من الهجمات العسكرية على بعضهم البعض انتهت الى اضعاف كثير من هذه السلطنات واجبارها على الخضوع مرة أخرى للسيطرة في وقت تعرضت فيه موانئ الطراز الاسلامي للغارات البحرية البرتغالية ، مما أدى الى اضعاف قدراتهم وامكانياتهم التي أعاقتهم عن مشاركة المماليك جهادهم البحري .

وعلى الرغم من أن بداية الاشتباكات العسكرية بين المماليك والبرتغاليين قد أدت الى اتحاد مسلمي الهند مع الحملة المصرية ، الا أن ذلك لم يجدى نفعا بسبب ترسخ أقدام البرتغاليين في الهند ونجاحهم في تأسيس مجموعة من القواعد العسكرية فاحتهم حرية الحركة والملاحة ، وبالتالي سد مداخل الخليج العربي والبحر الأحمر التي حرمت من رؤية السفن المحملة ببضائع الهند والصين ، والواقع أن سيطرة البرتغاليين على تجارة المحيط الهندي لم تكن بالأمر الهين بالنسبة لهم بسبب مقاومة مسلمي الهند ، ولكن يجب أن لا ننسى كذلك مدى الاستفادة التي جناها البرتغاليون من جراء تفكك كلمة المسلمين هناك ، اضافة الى اتباعه سياسة فرق تسد بحيث نجح في اقامة أول مركز له في كوشين وكناور التي كانتا على خلاف مع راجيات

قاليقوط ، وهو ما ينطبق أيضا بالنسبة لسواحل شرق افريقيا عندما نجح البرتغاليون فى استغلال الخلافات بين الحكام هناك لاقامة قواعد لهم .

والى جانب تفرق كلمة المسلمين هناك فى المحيط الهندى مع بداية القرن السادس عشر الميلادى كان لتدقق الحملات البرتغالية أثر فعمال فى انهيار عزيمة سكان المحيط الهندى فى سبيل مقاومة هذا الغزى ، فالبرتغاليون وقد اطمأنوا على سير أمورهم من خلال الحملات الأولى والثانية أدركوا مخزى نتائج حملاتهم التى أخذت فى تنفيذ أهداف صليبية على امتداد السواحل من شرق افريقية حتى الهند لدرجة أنها ألقت الرعب بين طوائف الملاحين الذين امتنعوا عن الخروج الى عرض البحر .

ان نظرة سريعة الى قادة الحملات البرتغالية أمثال فاسكودى جاما وكبرال والبوكرك توحى بأن الجميع قد تخرجوا من مدرسة صليبية واحدة ، وهى التى كان قد أسسها الأمير هنرى الملاح مع بداية القرن الخامس عشر الميلادى ، ويتراعى لنا ذلك من خلال الأعمال الوحشية والمذابح التى ارتكبت ضد مسلمى الهند والمدن الأخرى ، ووسائل القمع والتعذيب التى راح ضحيتها الآلاف هناك كما أشرنا لذلك فى فصول هذه الرسالة ، ولم تكن السيطرة البرتغالية على تجارة المحيط الهندى عملية مرتجلة وانما سارت منذ بدايتها وفق خطط معينة للوصول الى أهداف تمكن البرتغاليين من ورائها من الحلق أكبر الضرر بالموانئ المصرية والشامية .

كان لتحول طرق التجارة عبر رأس الرجاء الصالح أثره الفعال فى ازدهار أمم وانهيار أمم ، والواقع انه كان ازدهارا لأوربا فاق ازدهار العالم الاسلامى قبيل تحول التجارة عبر رأس الرجاء الصالح ، ففى السابق كانت سلع الهند تأخذ طريقها عبر الخليج العربى والبحر الأحمر وما أن تصل

الى موانى الدولة المملوكية فى مصر والشام حتى تكون السلع قد بيعت بأضعاف سعرها فى مصدر جلبها ، وأصبح الفرق هنا أن البرتغاليين هم أول من تلقى أرباح وصول التجارة الى موانئهم ، ومن ثم قاموا بتوزيعها فى أوروبا بأسعار مخفضة أقل كثيرا من أسعارها خلال العصر المالىكى .

ولحل متاهة الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى العالم الاسلامى والعالم الغربى حال اكتشاف البرتغاليين لرأس الرجاء الصالح توضح لنا كيف انهارت أمة وازدهرت أخرى ، فمن المعروف أن القاهرة والاسكندرية ومدن البحر الأحمر والخليج العربى شهدت أروع أيامها قبيل تحول التجارة عن بلادهم ، خاصة مدينة القاهرة التى مازالت آثارها القديمة تشهد على روعة الأيام التى عاشتها مع نهاية القرن الخامس عشر الميلادى ، ولكن ما أن وصل البرتغاليون الى المحيط الهندى وأخذت سفنهم بالطواف حول رأس الرجاء الصالح حتى تغيرت موازين القوى وتدرت البضائع فى المدن والقرى والموانى ، وقل معها وصول السفن الإيطالية الى موانى مصر والشام التى أخذت فى توجيه أنظارها الى لشبونة ، وعم الفقر والخراب الكثير من الطرق التجارية البرية التى عمت شهرتها الآفاق بما كانت تشتهر به من طرق معبدة وحراسة دائمة وخدمات متوفرة ، وتوقفت القوافل البرية التى كانت تروح وتغدوا بين الشرقين الأدنى والأقصى ، وانحصرت التجارة الداخلية فى نطاق ضيق وأصبحت لا تتعدى حد الاستهلاك .

من هنا نرى أن نتائج الصراع بين الطرفين قد شمل كافة المقومات الأساسية لكان أية أمة ، أى أن العالم العربى قد ضرب فى صناعاته وزراعته وفنونه ، وهذه جميعها كانت بالتالى ذات أثر فعال فى انهيار

(١) النظم الادارية ، فعلى نطاق الصناعة لم تعد مصر مثلاً تنتج للأسواق الخارجية كثيراً بل تأخرت ، وأصبحت مقصورة على عدد من الصناعات الرائجة واقتصرت فى انتاجها على قدر حاجات أهلها وحكامها المماليك ، لهذا لا نستبعد القول أن سيطرة البرتغاليين على تجارة التوابل قد قلل من القوى الاقتصادية للمماليك لدرجة سهلت كثيراً على الأتراك العثمانيين غزوها فى ٩٢٣ هـ - ١٥١٧ م ، كذلك كان لتحول التجارة الأثر الفعال فى وقف التطور والتقدم عند العرب ، إذ من المعروف أن العرب كانوا قد نجحوا نجاحاً بالغاً مع نهاية القرن الخامس عشر الميلادى فى فنون الملاحة والنقل البحرى فى بحارهم الجنوبية ، وكان ذلك كفيلاً بأن يقودهم نحو نهضة قوية .

وأخيراً كانت هناك الكارثة الكبرى التى حلت بحرب المشرق جميعاً وهى أن بلادهم كانت بمثابة الجسر الذى عبرت عليه الدول الأوروبية فيما بعد فى اندفاعها الى الهند وجنوب شرق آسيا .

وبالمقابل خرجت البرتغال بصفة خاصة ، وأوروبا بصفة عامة من صواعقها مع العالم الاسلامى بنتائج غيرت مجرى الأحداث فى أوروبا وقادت خطواتها بنجاح خلال عصر النهضة ، وقياس الاستفادة فى حديثنا تنقسم الى شقين : أولاً - البرتغال وما حظيت به باعتبارها المهيمن الأول على مصادر المواد الشرقية وصاحبة مراكز التوزيع فى أوروبا ، ثانياً - ما حظيت به أوروبا نتيجة انتقال السيطرة التجارية الى أيدي البرتغاليين فى غرب القارة الأوروبية .

(١) ليلى الصباغ : الفتح العثمانى لسوريا ومطلع العهد العثمانى فيها . ٣٦ .

دخل الأتراك العثمانيون القاهرة عام ١٥١٧ م ، وكان ذلك يمثل تحولا جديدا في تطور الأحداث التاريخية في القرن السادس عشر الميلادي داخل العالم العربي ، وعلى الرغم من كافة الأسباب التي قد تناقلها المؤرخون فسي تفسيرهم لأسباب تحول الأتراك من أوروبا الى العالم العربي الا أننا لا نستطيع أن ننكر أن وصول الأتراك الى مصر والشام أمر كان لابد منه في هذه الظروف ذلك لأن الدولة العثمانية كانت قد هددت أوروبا من ناحية الشرق ، وبوصول البرتغاليين للمحيط الهندي أصبح العالم الاسلامي كله مهددا من الناحية الجنوبية ، وكان على الدولة العثمانية ضرورة حماية هذا العالم من طرقوا أهواهم الجنوبية ، ولن نتكلف القول لتفسير ما حدث بين العثمانيين والمماليك فمجمال القول أن العالم الاسلامي كان يحتاج في تلك الفترة الى قوة تتبع بالحوية والنشاط لثرت دولة المماليك .

ومهما قيل عن وصف الفتح العثماني بأنه كان خاتمة للمصائب التي قضت على استقلال مصر حينئذ ، وأنه الحق بها أضرار سواء من الناحية الاجتماعية أو الاقتصادية أو الثقافية . الا أن هناك حقيقة هامة يجب الاعتراف بها وهي أن الأتراك عندما دخلوا العالم العربي دخلوه في وقت كان يجري فيه تغير اقتصادي كبير عندما تحطمت دعامة الكيان الاقتصادي للمغرب بتحول طرق التجارة عبر رأس الرجاء الصالح مع نهاية القرن الخامس عشر الميلادي .

لم تتح المشاكل الدولية للعثمانيين الفرصة في سبيل الاتجاه بسرعة أكثر الى المحيط الهندي حيث المعازل البرتغالية ، الا أنهم حرصوا في الوقت نفسه على جعل البحر الأحمر بحيرة اسلامية عن طريق تأمين مدخل باب المندب ، وتنفيذ أهدافهم على السواحل الشرقية والغربية للبحر ذاتهم ، والواقع أن انطلاق العثمانيين الى المحيط الهندي عقب دخولهم الى العالم

المصرى كان مرتبطا بتحقيق أهداف معينة أولا : ان انطلاقهم لا يكون الا عقب تأمين القواعد اللازمة على السواحل الشرقية للبحر الأحمر كما حدث فى اليمن وعدن ، ثانيا : مواجهة خطر الأحياء على السواحل الغربية والذين عملوا على سرعة الاتصال بالبرتغاليين ، وهو ما أثار السلطان سليم عقب دخوله القاهرة ، فأرسل سنان باشا الذى نجح فى ضم سواكن - وذلك أصبحت أول قاعدة عثمانية على السواحل الغربية للبحر الأحمر لمراقبة الأحياء .

وهنا ملاحظة عامة يجب أن نشير اليها ، وهى أن العثمانيين وان كانوا قد واجهوا أخطارا عديدة من قبل الفرس والأوربيين عقب دخولهم القاهرة فقد تكفلت بهم قوات الدولة التى كانت على استعداد دائم للدفاع والتصدى ، ولكنها فى البحر الأحمر واجهت صعوبة بالغة تمثلت فى بقايا المماليك الذين حولوا سواحل اليمن الى مراكز لتصفية بعضهم البعض ، وما ان انتهت منهم حتى واجهت زعماء الأئمة الزيدية الذين اتخذوا من معاقبتهم الجبلية فى الشمال وسيلة لازعاج العثمانيين داخل قواعدهم الساحلية ، لهذا لم يكن من الغريب أن توجه القيادة العثمانية الكثير من جهدها الى السواحل اليمنية فى سبيل مواجهة مشاكله ومتاعبه .

كان نجاح الدولة العثمانية فى تأمين البحر الأحمر عملية ضمنت لهم الاستقرار بداخله ، وأعطتهم القدرة على التحرك خارجه مما أفرغ القيادات البرتغالية داخل مراكزها فى المحيط الهندى ، فأسرعوا محاولين القضاء عليها .

من هذا نرى أن تأمين البحر الأحمر كان خطوة ايجابية من قبل العثمانيين ، اذ على الرغم من المشاكل التى كانت تمر بها الدولة ومتاعبها

على سواحل اليمن إلا أنها تمكنت من تأمين البحر ذاته بالتعاون مع القوى الإسلامية الأخرى ، فعندما رفع الامام أحمد القرين راية الجهاد ضد الأحباش نشطت السواحل الشرقية للبحر الأحمر مشقة في القيادات العثمانية في اليمن واشراف الحجاز في سبيل مشاركة امارات الطراز معاركها ضد البرتغاليين والأحباش معا ، وتجلت صور الوحدة الإسلامية في اجتماع فصائل المجاهدين من الحجاز واليمن والقوات النظامية العثمانية كما رأينا الى جانب اخوانهم من مسلمي الامارات ، هذا بخلاف المساعدات العسكرية التي تلقاها مسلمو الامارات دون مقابل ما ، الأمر الذي أدى الى الحاق هزائم شديدة بصقوف القوى الصليبية المتحالفة .

وكان بالامكان متابعة تلك الانتصارات وتحويل ملكة الحبشة الى أرض إسلامية لولا طبيعة العلاقات بين العثمانيين والامام والتي أوضحتها في فصل سابق ، ولم تكف القواعد العثمانية في جدة وسواكن وغيرها عن النشاط في مراقبة السواحل الغربية للتدخل في الوقت المناسب ، حتى انه اطلق على ميناء جدة اسم ولاية الحبش حيث جعلها العثمانيون باشوية أو اياالة الحقوق بها بعض الموانئ الواقعة على ساحل البحر الأحمر الغربي مثل سواكن ومصوع لتحقيق تلك الأغراض .

وان كان هناك دليل على نجاح الدولة العثمانية في حماية البحر الأحمر وتأمينه ، وانها أضحت صاحبة الأمر فيه فهو نجاحها في جلب أنظار الدول الأوروبية الى البحر ذاته ، وتحويل الصراع الى مسألة دولية كما حدث من خلال المعارك التي دارت رحاها على السواحل الغربية بين الحلف الإسلامي الممثل في دول الطراز الإسلامي بموازرة الدولة العثمانية واليمن والحجاز والحلف المسيحي الممثل في الأحباش والبرتغاليين ، وعلى الرغم من النتائج التي وصلت اليها تلك المعارك فقد نجح العثمانيون في الحفاظ

على البحر الأحمر ومراقبة السواحل الغربية ، وظل الصراع بينهم وبين البرتغاليين مسألة دولية حتى نهاية القرن السادس عشر بعد انضمام البابوية والاسبان .

كذلك قد رأينا كيف نجح العثمانيون في تأليب الأحياء ضد ملوكهم عندما استفلوا فرصة المنازعات الدينية وتدخلوا في سبيل نصرة فريق على آخر ، مما أدى الى نشوب الحروب الأهلية في الحبشة ذاتها وبالتالي يد يد المون للخارجين على الأباطرة الأحياء الذين قضى بعضهم شطبوا طويلا من حياته وهو يعمل على اخضاع الخارجين عليه دون جدوى ، وهذه الجهود جميعها أسفرت في نهاية الأمر عن تحطيم خطة البرتغاليين والبابوية لربط الحبشة بالمذهب الكاثوليكي ، ونجاح العثمانيون في ذلك يدحض القول القائل بأن الدولة العثمانية لم تعتمد في سياستها الا على السيف .

وفي حديثنا عن العلاقات الحبشية البرتغالية وانتهيارها يجب أن نشير الى ناحية مهمة وهي أن الأحياء وان اختلفت وجهات النظر بين ملوكهم ابتداء من جلاوديوس ونهاية بعهد سراسانجل بخصوص مواقفهم من البعثات الكاثوليكية ، إلا أنهم كانوا متفقين على عدم التمكين للمذهب الكاثوليكي في بلادهم على الرغم من سماحهم للبعثات ذاتها بنشر المذهب الكاثوليكي ، وذلك لأنهم رأوا في ذلك التحول التسليم بالتدخل الأجنبي .

وقد أدى تطرف بعض رؤساء تلك البعثات الدينية وورغبتهم في الحصول على منصب هام داخل البطريركية الحبشية تمهيدا للانتقال الى المركز البابوي في روما الى تبرم الأحياء وحقدهم عليهم كما حدث بين برمودز وجلاوديوس في صفحات سابقة .

من هنا نرى أن البرتغاليين لم يدركوا بعد في ذلك الوقت النظرة
الحبشية تجاه علاقتهم معهم ، فالأحباش مثلاً أدركوا منذ البداية أهداف
الغزو البرتغالي الصليبي ضد الأماكن المقدسة التي أصبحت العامل
المشترك الذى يجتمع الطرفين ببعضهما ، ومن هنا نظر الأحباش إلى
البرتغاليين على أنهم عامل مهم فى قلب موازين القوى والنزول فى الأراضى
المقدسة وطرد المسلمين من سواحل الحبشة ، وبذلك أظهر الأحباش
نياتهم تجاه المسلمين أمام البرتغاليين الذين ما أن نزلوا الأراضى الحبشية
عام ١٥٤١ م وقاموا بالقضاء على حركة الإمام القرين حتى ظهرت حقيقتهم
أمام الأحباش .

لهذا لا نستبعد القول أن تلك العلاقات قد حملت بين طياتها منذ
البداية عوامل انهيارها لعدم التوافق المذهبى بين الأحباش والبرتغاليين
وقد نجحت الدولة العثمانية فى استغلال عدم التوافق هذا الى حد بعيد .

هذا وإن كان العثمانيون فى صراعهم مع البرتغاليين قد نجحوا فى تأمين
البحر الأحمر المجال الحيوى للنشاط البرتغالى فى سبيل اتمام حصارهم
للعالم العربى عن طريق محاولاتهم الفاشلة للنزول فى سواحل الحجاز
فليس معنى ذلك أن العثمانيين قد اقتصر نشاطهم داخل البحر الأحمر فقط ،
وانما كان لهم نشاط فى بحار العرب الجنوبية وخاصة الخليج العربى عن
طريق تلك الحملات التى خرجت ابتداءً من حملة مصطفى بيىم ٩٣٩ هـ -
١٥٣٢ م وحتى نهاية القرن السادس عشر الميلادى .

وكما ذكرنا من قبل كانت حملة سليمان باشا الخادم تعد أول وأكبر حملة
عثمانية أرسلت خارج البحر الأحمر لزعة البرتغاليين فى مراكزهم البحرية
فى المحيط الهندى ، على الرغم من الظروف السيئة التى مرت بها فى

عدن وديو ، والواقع أننا لا نستطيع أن نصف تلك الحملات بأنها فاشلة من أساسها . أو ان الدولة العثمانية قصرت في ذلك الميدان وإنما يوجع الفشل أساسا الى قادة بعض تلك الحملات الذين تم تعيينهم في مراكز قيادية غير مؤهلين لها ، فعلى سبيل المثال تولى سليمان باشا الخادم في عام ١٥٣٨ م قيادة أضخم حملة عثمانية الى الهند ، وكان من الممكن أن تأتي الحملة بشمارها لولا سوء تصرفات قائدها في عدن وديو ، مما أدى الى فقدان تلك الشعوب ثقتهم بالدولة العثمانية .

ونحن لسنا مع الذين يحملون الدولة العثمانية وحدها نتائج الفشل في صراع المسلمين مع البرتغاليين في المحيط الهندي ، والرأى أن أباطرة المفلول المسلمين في الهند يحملون جزءا كبيرا من ذلك الفشل بسبب سياستهم ازاء القوى الأوروبية المحادية التي أخذت تطرق أبواب الهند ، وسياستهم العامة التي يمكن أن توصف بأنها سياسة تذبذبت ما بين التفريط والتشدد حتى فات الأوان ، وكذلك عدم ادراكهم لظروف العصر من حيث التحول من البر الى البحر ، ولا نستطيع القول أكثر من ذلك ونحن نحالج موضوعنا هذا .

كان لفشل حملة سليمان باشا الخادم أثرها الفعال في ازدياد اهتمام الدولة العثمانية بجعل بحار العرب الجنوبية نظيفة في بعض الأوقات عن طريق حملات بحرية اتخذت من عدن قاعدة لانطلاقها ، ففي عام ٩٥٣ هـ - ١٥٤٦ م أبحرت أربع سفن عثمانية باتجاه البحار العربية الجنوبية حيث رست في سقط وشرعت في قصف القلعة البرتغالية فأحدثت رجسا وفوضى ، وحاول الجنود النزول الى الشواطئ إلا أن محاولاتهم تلك باءت بالفشل مما اضطرهم الى العودة الى عدن .

واصلت الدولة العثمانية حملاتها الى الهند فى الأعوام ١٥٥٢ م ، ١٥٥٣ م ، ١٥٥٤ م ، ١٥٧٧ م ، ١٥٨٥ م ، وعلى الرغم من ذلك لم تستطع أى من الحملات السابقة تحقيق ما تصبو اليه الدولة فى سبيل ضرب المراكز البرتغالية داخل المحيط الهندى .

نخرج مما سبق انه الى جانب سوء الحظ الذى لازم بعض الحملات العثمانية السابقة فى طريقة اختيار القادة ، الا اننا لا ننسى أن هناك عوامل أخرى كانت تعيق الدولة العثمانية أثناء محاولاتها الخروج من البحر الأحمر الى بحار العرب الجنوبية ، ومن تلك العوامل انه نظرا لكون مينائى السويس والبصرة كانا من أهم القواعد البحرية للدولة العثمانية فى البحر الأحمر والخليج العربى ، فقد ترتب على ذلك صعوبة نقل المواد اللازمة لاعداد الأساطيل الى الموانى السابقة نظرا لطول المسافة والمشقة التى كانت تعاني منها القوافل التى كانت تتولى تلك العملية ^(١) ، وهذا بدوره ما يؤدى الى انتشار تلك الأخبار ووصولها الى البرتغاليين الذين يستعدون لها قبيل خروجها بفترة قد تكون طويلة ، اضافة الى هذا كان للبرتغاليين موانى وافرة ، وفيض من المواد اللازمة لأغراض البناء ، بعكس العثمانيين الذين لم تتمدى موانئهم الصالحة لاتخاذها قواعد بحرية سوى أربعة موانى .

ولما كان البرتغاليون يقيمون عند مضيق ثروتهم فى الهند فقد كانوا مزودين أطيب الزاد بالموانى الحصينة والخشب والطعام وبارود المدافع بعكس العثمانيين الذين انحصرت موانئهم الممتازة فى أقصى نقطة سواء فى الخليج العربى أو البحر الأحمر .

(1) Stripling: The Ottoman Turks 95.

ومع تمركز البرتغاليين فى المحيط الهندى الذى كان مفتوحا أمام سفنهم للتجول أينما شاءت على امتداد سواحله ، كان من الطبيعى أن يكون ذلك بمثابة نقاط ارتكاز للسفن البرتغالية التى كان عليها فقط تحديد مسار خروجها من جوا Joa أو من القواعد الأخرى المتناثرة فى الخليج العربى وشرقى افريقية ، وهو ما لوحظ سابقا من خلال كثافة حملاتهم البحرية داخل البحر الأحمر عندما نجحت حملاتهم ودورياتهم فى اعتراض الطرق التجارية • على امتداد السواحل الهندية الى الخليج العربى حتى شرقى افريقية اعتمادا على قواعد برية حصينة بامكانها الصمود فى وجهه كافة الحملات البحرية العثمانية التى تأتى الى تلك الجهات على الرغم من ضآلتها بجانب الحملات البرتغالية •

اذن فان كان البرتغاليون قد نجحوا فى تأمين قواعدهم داخل المحيط الهندى التى كانت بمثابة قواعد الارتكاز ، فقد نجح العثمانيون فى القضاء على خطورتهم داخل البحر الأحمر ، وان نجح البرتغاليون فى ضم الهنداكة الى صفوفهم ، فان الحظ خالف العثمانيين فى تكوين جبهة اسلامية موحدة على شواطئ البحر الأحمر •

ومع محاولات الدولة العثمانية السابقة لاعادة الأمور الى نصابها فيما يختص بتجارة البحر الأحمر ، فقد كانت مدن الشام ومصر قد بدأت فى الانهيار الاقتصادى نتيجة قلة الوارد من البحر الأحمر الذى أصبحت أهميته تنبع من ناحية تأمينه ضد الغزو البرتغالى وحماية الأماكن المقدسة •

هذا وان كانت المحاولات السابقة لضرب المراكز البرتغالية فى معاقلها فى المحيط الهندى لم يحالفها الحظ فلا يعنى ذلك أن الدولة العثمانية قد ركزت جهودها فقط على تأمينه وحمايته ، وانما كان هناك الى جانب

محاولات تأمينه جهودا أخرى لحفر قناة تصل البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر ، وعلى الرغم من تعدد محاولات تنفيذ هذا المشروع إلا أن جميعها لم يكتب لها النجاح ، ففي عصر السلطان سليمان القانوني فكر العثمانيون في حفر القناة عام ١٥٢٩ م ، كذلك حاول سنان باشا فتح اليمن حفر هذه القناة عام ١٥٦٩ م لتسهيل أعماله في البحر الأحمر ، إلا أنه فشل في ذلك ، وأخيرا حاول مراد الثالث حفر القناة وخصص لذلك ١٠٠٠٠ عامل إلا أنه لم ينفذ من ذلك شيئا . (١)

لم تكن بحار العرب الجنوبية هي المجال الوحيد الذي خاضته الدولة العثمانية في سبيل محاربة البرتغاليين والقضاء على نفوذهم ، فالدولة العثمانية منذ لحظة دخولها العالم العربي حملت على عاتقها مهمة حماية المسلمين باعتبارها كانت أقوى دولة إسلامية في ذلك الوقت ، وكانت طبيعة انتشار وزحف قواتها تملئ عليها تلك المهام ، ولا أدل على ذلك من استعانة خير الدين باربروسا بالسلطان سليم العثماني الذي كان لتتوه قد ضم القاهرة إلى أملاكه . فعقب استشهاد عروج وجنوح بعض أمراء تونس إلى مهادنة الأسبان لم يجد خير الدين بدا من الاستعانة بأكبر دولة إسلامية عقب استقرار السلطان سليم بالقاهرة والذي أنعم عليه بمرتبة بيلرباي (بكربك) وأرسل له جيشا من ستة آلاف مقاتل لشد أزره ، وبذلك كان على العثمانيين إضافة إلى مشاكلهم في البحر الأحمر والمحيط الهندي حماية المسلمين في الشمال الأفريقي مما أدى إلى تشتيت قواهم وتحويل جزء من القوات العثمانية إلى غرب البحر الأبيض المتوسط .

(١) د . حسن عثمان : البحر الأحمر كطريق تجاري في عهود البيزنطيين والحرب والماليك ٧٥ ، ٧٦ .

وإذا كان العثمانيون قد نجحوا نجاحا بالغا في حماية البحر الأحمر عن طريق عدن ، فما هو الحال لو تمت سيطرتهم على سواحل المغرب الأقصى ، والواقع أن الأتراك العثمانيون قد سعوا الى ضم المغرب في نطاق توحيد البلاد الإسلامية والوقوف بها صفا واحدا ضد الهجمات المسيحية ، ذلك ان استقرارهم في قواعد بحرية تنتشر على طول سواحل المغرب الأقصى المطلة على المحيط الأطلسي يعنى في حقيقة الأمر نجاح الأساطيل العثمانية في اعتراض الطرق البحرية للبرتغال أو اسبانيا مع العالم الجديد والشرق الأقصى .

إذا من هنا نرى أن نجاح تلك الفكرة كان يعتمد أساسا على وصول العثمانيين الى تلك السواحل يشاركهم في ذلك المجاهدون الذين عملوا سنوات طويلة تحت أمرة أمراء البحر العظام أمثال خير الدين وأخيه عروج باربروسا .

وبوضوح تلك الفكرة لنا أن نتساءل ما هي حقيقة الأوضاع التي حالت دون تنفيذ تلك الفكرة .

الواقع أن السواحل المغربية بليت في القرن الخامس عشر الميلادي بخطر صليبي جارف من قبل سكان شبه الجزيرة الأيبيرية أثناء محاولاتهم الاندفاع نحو ما يسمى بالكشوف الجغرافية كما رأينا ، ولادراكهم أهمية سواحل المغرب الأقصى في سبيل الدفاع عن غربي أوروبا المسيحية ضد خطر العثمانيين المسلمين فيما بعد ، وللتسرب نحو افريقيا لاستغلال خيراتها ولنشر المسيحية بها .

هذا الغزو وان كان فى بدايته كالسيل الجارف ، الا أن نفوذ المستعمرين انحصر فى المدن الساحلية فقط نتيجة المقاومة الشديدة لسكان المدن الداخلية ، فى وقت سادت فيه القن والاضطرابات مدن المغرب الأقصى ، وأصبحت بذلك بلاد المغرب تتوزع فى ادارتها السياسية ما بين الطوائف الدينية والامارات وبقايا الدول السابقة ، اضافة الى اشتراك عوامل الطبيعة والتضاريس فى عزله عن بقية أقطار الشمال الافريقى .

اذن كان لابد من ظهور قوة أخرى تجمع شمل القوى لسكان المغرب الأقصى لمواجهة خطر الغزو البرتغالى والاسبانى معا على السواحل المغربية . كان ذلك فى وقت اندفع فيه المجاهدون من قواعدهم البحرية على السواحل الجزائرية والتونسية بمؤازرة الدولة العثمانية فى مهاجمة السواحل البرتغالية والاسبانية كرد فعل لطرد المسلمين من اسبانيا والانتقام لما حل بمسكن ساحل شمال افريقية من دمار نتيجة غارات أساطيل الدول الغربية لأوربا .

وقد يشير هذا الموقف سؤالاً وهو لماذا لم توجه الدولة العثمانية قواتها ومجاهديها فى الجزائر نحو المغرب الأقصى لحماية المسلمين هناك من الحركة الصليبية المنتشرة على موانيه ؟

ان كانت الدولة العثمانية قد رمت بأنظارها تجاه ضم المغرب الأقصى الى أملاكها ، فلم يكن من المتوقع أن يتساهل السعديون فى ذلك خاصة وان دولتهم كانت دولة فتية ناشئة .

وقد بدأت الأمور فى التوتر بين الطرفين عندما أخذت أنظار العثمانيين تتوجه نحو تلمسان ، وبالتالى نحو المغرب الأقصى اهتماما لاتجاههم نحو

توحيد القوى الاسلامية تحت قيادة واحدة لمجابهة الأخطار المسيحية المتزايدة على بلاد المسلمين^(١) ، وفي الوقت نفسه كتب السلطان السعدي أبو عبد الله محمد الشيخ (٩٤٦ - ٩٦٤ هـ ، ١٥٣٩ - ١٥٥٦ م) الى باشا الجزائر واقترح عليه القيام بعمليات مشتركة لفتح وهران والموسى الكبير ، وبحث أيضا بهدايا الى طرغوث باشا يقترح عليه الدخول في حرب ضد اسبانيا ، وهذا بدوره أدخل الرعب على الاسبان والبرتغال وجعلهم يترقبون قيام تعاون بين القوتين الاسلاميتين ضد قواعدهم في الجزائر والمغرب^(٢) .

لكن يبدو أن السلطان محمد الشيخ استغل فرصة تلك الاتصالات ومن ثم قام بمهاجمة تلمسان وضمها الى ممتلكاته في وقت كانت فيــــــــــــه القوات العثمانية بالجزائر تستعد لمهاجمة الاسبان في ميناء وهران ، وازاء تلك الضربة المفاجئة قام قادة الجزائر حسن باشا ابن خير الدين وحسن كورسو بمهاجمة تلمسان وطرد القوات السعدية منها التي تراجعت الى فاس^(٣) .

والواقع أن السعديين كانوا يرون في ضم تلمسان عاملا قويا في توطيد سيطرتهم على المغرب الشرقى لصد كل تدخل عثمانى في المغرب ، بعكس

(١) د . عبد الكريم كريم : المغرب في عهد الدولة السعدية ٧٥ .

(٢) المرجع السابق ٧٥ ، ٧٦ .

(٣) الفشتالي ، أبي فارس : مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفاء ٣٠ .

دراسة وتحقيق : د . عبد الكريم كريم .

— د . عبد العزيز نوار : المحبوب الاسلامية ١٢١ .

الأتراك الذين كانوا يرون في التمرکز بتلسان تدعيما لوجودهم بالجزائـر وقاعدة حصينة لفزو المغرب لما تشله شواطئه الشمالية والمغربية من قواعد رئيسية لتهديد المواصلات البحرية للبرتغاليين والاسبان ولغزوهم في غـر دارهم (١).

أما السعديون فمقب تراجعهم الى فاس قاموا بتحسينها لحمايتـها وصـد العثمانيين عنها ، وما ان وصلت الأخبار بذلك الى الجزائر حتى أرسلت الدولة العثمانية في عام ٩٦١ هـ - ١٥٥٣ م أوامرها الى صالح رئيس بيلر بك الجزائر لفزو مراكش عاصمة السعديين ، ونجحت القـوات العثمانية في دخول فاس وطرد السعديين منها (٢).

كان من نتيجة وصول القوات العثمانية الى فاس ازدياد فزع البرتغـال والاسبان خاصة بعد مشاهدتهم للأساطيل العثمانية وهي تسيطر على بعض الموانئ المغربية القريبة من مراكز احتلالهم ، وهذا بدوره ما أدى الى قيام الملك البرتغالي يوحنا الثالث بالاتصال بالامبراطور الاسباني (شارلكان) وحثه على القيام بأعمال مشتركة على الأراضي المغربية للحيلولة دون وصول العثمانيين (٣).

بدأت الدولة العثمانية محاولات جديدة مع الدولة السعدية عام ٩٦٤ هـ - ١٥٥٦ م عندما أرسل السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ - ١٥٦٦ م) رسالة الى سلطان الدولة السعدية يمهئـه بما أحرزه من انتصارات ويطلب منه

-
- (١) د ٠ عبدالكريم كريم : المغرب في عهد الدولة السعدية ٠ ٧٧
(٢) د ٠ صلاح العقاد : المغرب العربي ٠ ٥٤
(٣) د ٠ عبدالكريم كريم : المغرب في عهد الدولة السعدية ٠ ٨١

أن يدعو له على منابر المغرب ، في محاولة لتكوين اتحاد كبير اسلامي ومجاهد يواجه الأخطار الخارجية (١) ، غير أن ذلك كله قوبل بالرفض من قبل السلطان السعدي محمد الشيخ الذي ما لبث أن أغتيل من قبل قادة الجزائر ٩٦٤ هـ - ١٥٥٧ م ، وهذا بدوره ما أدى الى ازدياد رغبة العثمانيين في ضم المغرب اليهم عندما تحرك حسن باشا ابن خير الدين بقواته صوب فاس حيث التقى بالجيش السعدي بقيادة السلطان عبد الله الغالب بالله ، وانجلى تلك المعركة عن هزيمة القوات العثمانية التي انسحبت الى قواعدها في الجزائر ، وعلى الرغم من ذلك فقد تمسدت الأساطيل العثمانية على التردد دائما على مدينتي حجرباديس وطنجة ، وغيرها من مدن المغرب الأقصى ما أثار الرعب على الشواطئ الإسبانية (٢) .

ومؤاة السلطان السعدي الغالب بالله وتولى ابنه محمد المتوكل على الله ، دخل المغرب الأقصى في مرحلة حاسمة من تاريخه عقب الهسودء النسبي الذي ساد أراضيه منذ هزيمة القوات العثمانية السابقة ، ففي عام ٩٧٧ هـ - ١٥٦٩ م نجح أمراء البحر العظام في طرد القوات الإسبانية من تونس ، وبذلك امتد النفوذ العثماني من ليبيا حتى الجزائر ، وهذا بدوره ما دفع الدولة العثمانية للتفكير مرة أخرى في بسط نفوذها على المغرب الأقصى منتهزة فرصة الخلافات التي نشبت بين أفراد الأسرة السعدية حيث تمكنت من طرد السلطان السابق ، وتولية عمه أبو مروان عبد الطيك (٩٨٣ هـ - ١٥٧٦ م) .

(١) د جلال يحيى : المغرب الكبير ج ٣ ٣٧ .

(٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ج ١ ٣١٩ .

ظلت العلاقات بين الطرفين هادئة تماما بسبب انصواف السلطان السعدي الجديد الى تثبيت دعائم حكمه ، ولم تسجل تلك السنوات أية محاولة للعثمانيين في سبيل الوصول الى السواحل المغربية المطلة على المحيط الأطلسي ، خاصة عقب ورود أنباء عن استعدادات برتغالية لغزو المغرب فكان الأمر حينئذ يتطلب تعاوننا تاما بين الطرفين (١) .

نزل البرتغاليون الأراضي المغربية بحملة ضخمة بقيادة ملكهم سباستيان ونجح المغاربة في إلحاق الهزيمة بالبرتغال التي فقدت ملكها الشاب دون وريث ما في معركة وادي المخازن (٩٨٦ هـ - ١٥٢٨ م) وبذلك النصر تمكن السعديون من دعم نفوذهم في المغرب الأقصى .

وهنا نقطة هامة يجب أن نشير اليها ، وهي ان استراتيجية الفريقين المتصارعين (الدولة العثمانية ، الدولة السعدية) كانت تختلف كـل الاختلاف من حيث مبدأ الاستقرار والبقاء ، فالأول كان سربقائه القوة البحرية التي كان يسيطر بها نفوذه في غرب البحر الأبيض المتوسط ، لهذا لم ينظر العثمانيون الى الموقع البري كنقطة هامة للدفاع ، خاصة اذا علمنا بقلة التهديد الأجنبي من البر ، أما الثاني فكان يرى ان البقاء والاستقرار يكمن في تأمين مراكزه البرية ، لهذا لم يكن من الغريب أن يلجأ السعديون الى خطة خاصة من حيث توقيت المعركة بالهجوم على البرتغاليين ومهادنة الاسبانيين ، أو العكس (٢) ، وكان لذلك الانحراف تجاه مهادنة أعداء الدولة العثمانية أثره في تعطيل الكثير من مشاريع العثمانيين الرامية الى حماية المسلمين في شمال افريقية .

(١) عبد الحميد بن أبي زيان : دخول الأتراك العثمانيين الجزائر ٢٢١ .

(٢) د . جلال يحيى : العالم العربي الحديث ٤٠ .

هذا وان بدا واضحا أن العثمانيين قد يسسوا شطرا تجاه المغرب الأقصى في سبيل نقل ميدان الجهاد ضد البرتغاليين قرب أراضيهم في غرب أوروبا ، فبدون شك ان المحاولات السابقة في سبيل الوصول الى المغرب الأقصى ، كانت تعتمد في تحركاتها على قواعد ثابتة تحميها شعوب اسلامية مؤيدة ، ونقص بذلك الشريط الساحلى الممتد من ليبيا حتى نهاية حدود الجزائر مع المغرب الأقصى . وفى عام ٩٤١ هـ - ١٥٣٤ م وبينما كانت الممارك دائرة في العراق بين الجيوش العثمانية والجيوش الصفوية ، أرسل السلطان سليمان القانونى قوة بحرية كبرى الى خير الدين باربروسا ساعدته في فتح تونس (١) ، كان ذلك في وقت أخذت فيه الترتيبات الحربية في مصر في اعداد حملة سليمان باشا الخادم المقرر خروجها في ذلك الوقت الى المحيط الهندى ، وفى الوقت الذى غادر فيه سليمان باشا الخادم ميناء السويس الى الهند عام ١٥٣٨ م ، كان خير الدين باربروسا يفادربوغاز الدردنيل الى جزر الأرخبيل لاختضاعها للسيادة العثمانية .

مما سبق نرى ان النجاح لم يحالف العثمانيين في سبيل وضع حدود للوجود البرتغالى داخل المحيط الهندى بسبب ارتباط الدولة أيضا بمهامها في غرب البحر الأبيض المتوسط ، حيث أخذت الأساطيل العثمانية تترادف على تلك الجبهة .

كذلك نلاحظ أن العثمانيين الذين بذلوا جهودا كبيرة في شمال افريقية ضد دول غرب أوروبا وفى بحار الحرب الجنوبية ضد البرتغاليين ، قد حالفهم التوفيق في شمال افريقية أكثر منه في البحار الجنوبية لعوامل عديدة منها

(١) د . نور الدين حاطوم : تاريخ عصر النهضة الأوربية ج ٣ ٤٦٥ .

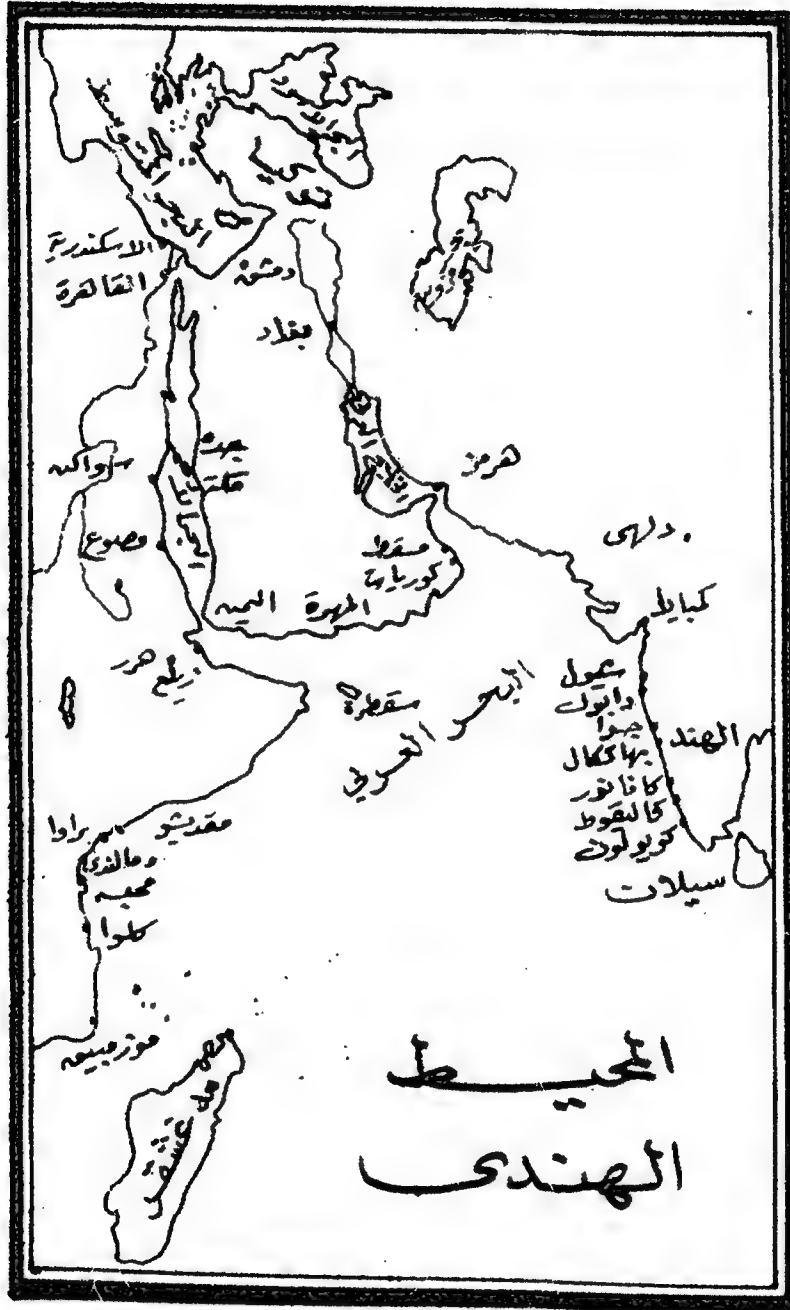
أولا : ان كافة الحروب البحرية التي خاضتها الدولة العثمانية كانت تتناسب وحرب البحار التي تدرب عليها المجاهدون العثمانيون وأتقنوها الى حد فاق حروبهم في المحيط الهندي ، ثانيا : عدم وجود مقاومة مذهبية عنيفة في شمال افريقية مثل التي واجهتهم في بلاد اليمن .

ثالثا : امتازت جبهة الشمال الافريقي عن جبهة المحيط الهندي بقربها من المراكز الرئيسية للامدادات في مصر وتركيا ، اضافة الى اطلاع المسؤولين بصورة متتابعة على الأحداث والتطورات بمكس المحيط الهندي الذي لا تصل أخباره الا بعد فترة طويلة كما حدث عقب عودة سليمان باشا الخادم البسدي أوهم المسؤولين في العاصمة بقضائه على الخطر البرتغالي وتقديمه لأسماء بعض القرى الصغيرة على انها مدنا كبيرة تم فتحها على يديه .

رابعا : كان للعثمانيين قواعد قوية في شمال افريقية بالتعاون مع مسلمي تلك الجهات الذين بذلوا الكثير في سبيل التعاون مع العثمانيين ، فلما كانت موقعة ليبانتو البحرية ضعف الأمل لدى الدولة العثمانية في القضاء على الخطر البرتغالي في المحيط الهندي عن طريق اغلاق الباب المتمثل في الشاطئ الشمالي الغربي لافريقية . وذلك ختم الصراع بين المسلمين بقيادة الدولة العثمانية والبرتغاليين بنجاح المسلمين في تأمين البحر الأحمر وحماية الأماكن المقدسة الإسلامية من الخطر الصليبي البرتغالي ، وجعل هذا البحر منطقة محرومة على غير المسلمين ، ولكن الجبهة الإسلامية لم تتمكن من تحويل ذلك البحر الى قاعدة ارتكاز للقضاء على الخطر البرتغالي في المحيط الهندي ولا في انقاذ تجارة الشرق ما كان سببا فيما بعد في فتح مجال الاستثمار الأوربي على مصراعيه .

فہرست المحتضرات





بَيَانُ الْمُصَنِّدِ وَالْمَرَّاجِ

أولا - المخطوطات :

- ١ - ابن الديبع ، وجيه الدين عبد الرحمن بن علي (ت ٩٤٤ هـ)
قرة العيون بتاريخ اليمن الميمون
نسخة باريس ، رقم ٦٠٥٨ .
- ٢ - الامام ، أحمد بن محمد يعقوب (ت ١١٨٢ هـ)
السلح والعدة في أخبار بندرجة
المكتبة المركزية ، جامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة ، مصور
تحت رقم ١١٢٦ ، بدون فهرست .
- ٣ - الديبع ، عبد الرحمن بن علي
قرة العيون في أخبار اليمن الميمون
مكتبة مركز البحث العلمي بجامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة
تحت رقم ٣٦٠ تاريخ / مجاميع .
- ٤ - الكبسى ، محمد بن اسماعيل
اللطايف السنية في أخبار الممالك اليمنية
مكتبة كورسنى بايطاليا ، تحت رقم ٣٦٢ .
- ٥ - باعلوى ، أحمد بن عبد الله ابن علوى شميل
التاريخ الأكمل
مكتبة الدكتور عبد الله الحبيد الخاصة .
- ٦ - بن الوزير ، السيد عبد الله بن علي بن محمد بن عبد الله (١٠٧٤ هـ)
جامع المتون في أخبار اليمن الميمون
مكتبة مركز البحث العلمي بجامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة ،
مصور تحت رقم ٣٥٦ .

- ٧ - بن فهد المكي ، عبد العزيز بن عمر بن محمد (ت ١١٢٩ هـ)
بلوغ القرى في ذيل اتحاف الوري بأخبار أم القرى
مكتبة مركز البحث العلمي بجامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة ،
مصور تحت رقم
- ٨ - عيسى بن لطف الله بن المطهر بن الامام شرف الدين يحيى (ت ١٠٤٨ هـ)
روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح

• • • • •

ثانيًا : المصادر العربية :

- ١ - ابن اياس (محمد بن أحمد)
بدائع الزهور في وقائع الدهور
تحقيق محمد مصطفى
الجزء الرابع : لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ط ٢ ، القاهرة ،
١٩٦٠ م .
الجزء الخامس : دار احياء الكتب العربية ، ط ٢ ، القاهرة ،
١٩٦١ م .
- ٢ - أبي مخرمة (أبي محمد عبد الله الطيب)
تاريخ ثغر عدن
ليدن ١٩٣٦ م .
- ٣ - الحميرى (الحسن بن أحمد)
سيرة الحبشة
تحقيق د . مراد كامل ، القاهرة ، ١٩٧٢ م .
- ٤ - الفشتالى (أبى فارس عبد العزيز)
مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفاء
مطبوعات وزارة الأوقاف والشئون الاسلامية والثقافية ، الرباط .
- ٥ - القلقشندى (شهاب الدين أحمد)
صح الأعشى في صناعة الانشاء - الجزء الخامس ، القاهرة ،
١٩٦٣ م .
- ٦ - المقرئى (تقى الدين أبو العباس أحمد بن على)
الالمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام
مطبعة التأليف ، القاهرة ، ١٨٩٥ م .

- ٧ — النهروالى (قطب الدين محمد بن أحمد)
البرق اليماني في الفتح العثماني
الرياض ، ط ١ ، ١٣٨٧ هـ — ١٩٦٧ م
- ٨ — يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد
غاية الأمان في أخبار القطر اليماني — الجزء الثاني
تحقيق وتقديم : د . سميد عاشور ، مراجعة : د . محمد
مصطفى زيادة .
دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٣٨٨ هـ —
١٩٦٨ م

... ..

ثالثاً - رسائل جامعية (لم تطبع) :

- ١ - ابراهيم حسن
الامام أحمد بن ابراهيم القرين (الأشول)
رسالة ماجستير ، جامعة القاهرة •
- ٢ - بدر السيد بدر النصار
رحلة الحسن بن أحمد الحيمى لشرق افريقية فى القرن السابع عشر
وظروفها التاريخية •
رسالة دكتوراه ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٥م •
- ٣ - شوقى حبيب
العلاقات التجارية بين مصر والدول الافريقية •
رسالة ماجستير ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٥م •
- ٤ - ليلى الصباغ
الفتح العثمانى لسوريا ومطلع العهد العثمانى فيها •
رسالة ماجستير ، جامعة القاهرة ، ١٩٦٠م •
- ٥ - محمد عبد الله النقيرة
انتشار الاسلام فى شرق افريقية ومناهضة الغرب له •
رسالة ماجستير ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٣م •
- ٦ - مصطفى على أحمد السيوفى
تاريخ التجارة الخارجية فى مصر ابان الحكم العثمانى •
رسالة ماجستير ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٢م •

رأبما - المراجأ العربة :

- ١ - د . ابراهيم على طرخان
مصرفى دولة الممالك الجراكسة .
مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٠م .
- ٢ - د . ابراهيم على طرخان
الاسلام والممالك الاسلامية بالحشة .
مقال بمجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، للمجلد
الثامن ، ١٩٥٩م .
- ٣ - د . أحمد الخولى (بالاشتراك مع د . بديع جمعه)
تاريخ الصقوين وحضارتهم - الجزء الأول .
دار الرائد العربى ، ط ١ ، القاهرة ، ١٩٧٦م .
- ٤ - د . أحمد السيد دراج
الممالك والفرنج فى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى)
دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٦١م .
- ٥ - أحمد توفيق المدنى
حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا
الشركة الوطنية للطباعة والنشر ، قسنطينة (الجزائر) .
- ٦ - أحمد حسين
موسوعة تاريخ مصر - الجزء الثانى
مطبوعات دار الشعب ، القاهرة ، ١٩٧٢م .
- ٧ - د . أحمد فؤاد متولى
الفتح الحثمانى للشام ومصر ومقدماته
دار النهضة العربية ، القاهرة .

- ٨ - أحمد محمود الساداتى
تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية وحضارتهم - الجزء الثانى .
مكتبة الآداب ، القاهرة .
- ٩ - ادوار بروى
تاريخ الحضارات العام - المجلد الثالث
ترجمة يوسف أسعد داغر ، فريد . م . داغر
بيروت ، ط ١ ، ١٩٦٥ م .
- ١٠ - أرست باركر
الحروب الصليبية
ترجمة د . السيد الباز المرينى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة .
- ١١ - اسماعيل سرهنك
حقائق الأخبار عن دول البحار - الجزء الأول .
القاهرة ، ١٣١٤ هـ .
- ١٢ - أغناطيوس يوليا نوفتشى كراتشكوفسكى
تاريخ الأدب الجغرافى العربى - القسم الثانى .
ترجمة صلاح الدين عثمان ، مراجعة اينوريليايف
لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٥ م .
- ١٣ - د . السيد الباز المرينى
الفارس المملوكى
مقال بمجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد
الخامس ، ١٩٥٦ م .
- ١٤ - د . السيد رجب حراز
افريقية الشرقية والاستعمار الأوروبى
دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٨ م .

- ١٥ — د . السيد رجب حراز
أرتريا الحديثة ١٥٥٧ — ١٩٤١ م .
معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٤ م .
- ١٦ — د . السيد جرب حراز
عصر النهضة
دار النهضة العربية ، القاهرة .
- ١٧ — د . السيد مصطفى سالم
الفتح العثماني الأول لليمن
معهد البحوث والدراسات العربية ، ط ١ ، القاهرة ١٩٦٩ م .
- ١٨ — الشاطر بصيلي عبد الجليل
تاريخ وحضارات السودان الشرقى والأوسط
المهينة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٢ م .
- ١٩ — أنور الجندى
الاسلام والغرب
دار الاعتصام ، القاهرة .
- ٢٠ — د . أنور عبد العليم
الملاحة وعلوم البحار عند العرب
المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ١٩٧٩ م .
- ٢١ — د . أنور عبد العليم
ابن ماجد الملاح
أعلام العرب ، العدد ٦٣ ، القاهرة ١٩٦٧ م .
- ٢٢ — أ . و . بوفيل
الممالك الإسلامية فى غرب افريقية وأثرها فى تجارة الذهب عبر
الصحراء الكبرى .
ترجمته : زاهر رياض ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٦٨ م .

- ٢٣ — باذل دافدسن
افريقيا تحت أضواء جديدة
ترجمة جمال أحمد ، دار الثقافة ، بيروت
- ٢٤ — توفيق سلطان اليوزني
تاريخ تجارة مصر البحرية في العصر المماليكي
جامعة الموصل ، ١٣٩٥ هـ — ١٩٧٥ م
- ٢٥ — توماس ، و . أرنولد
الدعوة الى الاسلام
ترجمة د . حسن ابراهيم حسن ، د . عبد المجيد عابدين ،
اسماعيل النحراوى ،
مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٠ م
- ٢٦ — جاستون فييت
القاهرة مدينة الفن والتجارة
ترجمة د . مصطفى العبادى ، مكتبة لبنان ، بيروت ١٩٦٨ م
- ٢٧ — جاكين بيرين
اكتشاف جزيرة العرب
ترجمة قدرى القلجى ، دار الكاتب العربى ، بيروت
- ٢٨ — جان بول رو
الاسلام فى الغرب
ترجمة نجده هاجر ، سعيد النمر
المكتب التجارى للطباعة ، بيروت ، ١٩٦٠ م
- ٢٩ — د . جلال يحيى
المالم العربى الحديث (المدخل)
دار المعارف ، القاهرة

- ٣٠ - د. جلال يحيى
الاستعمار والاستغلال والتخلف
الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٦٥ م.
- ٣١ - د. جلال يحيى
المغرب الكبير - الجزء الثالث
الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٦٦ م.
- ٣٢ - د. جمال زكريا قاسم
الأصول التاريخية للعلاقات العربية الافريقية .
القاهرة ، ١٩٧٥ م.
- ٣٣ - د. جمال زكريا قاسم
استقرار العرب في ساحل شرق افريقيا
حوليات كلية الآداب بجامعة عين شمس ، المجلد العاشر ، ١٩٦٧ م.
- ٣٤ - جميل خانكي
تاريخ البحرية المصرية
مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٨ م.
- ٣٥ - جورج فضلو حوراني
العرب والملاحة في المحيط الهندي
ترجمة د. السيد يعقوب بكر ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ،
١٩٥٨ م.
- ٣٦ - جورج لوفران
تاريخ التجارة منذ فجر التاريخ حتى العصر الحديث .
ترجمة هاشم الحسيني ، دار مكتبة الحياة ، بيروت .
- ٣٧ - جورج يعقوب
أثر الشرق في الغرب خاصة في العصور الوسطى
ترجمة د. فؤاد حسنين على ، لجنة البيان العربي ، القاهرة ،
١٩٤٦ م.

- ٣٨ - جى . ا ج . كرامز
الجغرافيا والتجارة
مقال ضمن كتاب تراث الاسلام ، ترجمة جرجيس فتح الله المحامى ،
بيروت ، ط ٢ ، ١٩٧٢ م .
- ٣٩ - جيان (ريان شفيقة) .
وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن افريقية الشرقية .
ترجمة يوسف كمال ، ط ١ ، القاهرة ، ١٩٧٧ م .
- ٤٠ - جيسس دفى
الاستعمار البرتغالى فى افريقية
ترجمة الدسوقى حسنين المراكبى
مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٣ م .
- ٤١ - د . حسن أحمد محمود
الاسلام والثقافة العربية فى افريقية
دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٣ م .
- ٤٢ - د . حسن أحمد محمود
التهديد البرتغالى لسواحل جنوب الجزيرة العربية ومصادر دراسته
مجلة العرب ، الجزء السابع والثامن ، محرم وصفر ١٣٩٨ هـ -
١٩٧٨ م .
- ٤٣ - د . حسن عثمان
البحر الأحمر كطريق تجارى فى عهود البيزنطيين والعرب والمماليك
مقال ضمن كتاب رحلة كلية الآداب الى البحر الأحمر ، القاهرة ،
١٩٣٩ م .

٤٤ — د . حسين مؤنس

سفارة بندرو ماريتير د أنجلاريا سفير الملكين الكاثوليكين السي
السلطان قنصوة الخوري (ديسمبر ١٥٠١ — فبراير ١٥٠٢ م)
مقال ضمن أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ، الجزء الأول ،
القاهرة ، ١٩٧٠ م .

٤٥ — د . حسين مؤنس

رحلة الأندلس " حديث الفردوس المفقود "
الشركة المصرية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٦٤ م .

٤٦ — حمدي السيد سالم

الصومال قديما وحديثا
وزارة الاستعلامات ، الجمهورية الصومالية

٤٧ — د . رأفت الشيخ (بالاشتراك مع د . محمود متولى)
افريقية في العلاقات الدولية .

دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٢ م .

٤٨ — د . زاهر رياض

شمال افريقية في العصر الحديث
مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٢ م .

٤٩ — د . زاهر رياض

تاريخ أثيوبيا
مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٦ م .

٥٠ — د . زاهر رياض

استعمار افريقية
الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٥ م .

- ٥١ - د . زاهر رياض
الاسلام في اثيوبيا في العصور الوسطى
دار المخرقة ، القاهرة ، ١٩٦٤ م .
- ٥٢ - د . زاهر رياض
تاريخ غانة الحديث
دار المخرقة ، ط ١ ، القاهرة ، ١٩٦١ م .
- ٥٣ - سينسر ترمزجهام
الاسلام في شرق افريقية
ترجمة محمد عاطف النواوى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ،
١٩٧٣ م .
- ٥٤ - ستانلى لينبول
سيرة القاهرة
ترجمة د . حسن ابراهيم حسن ، د . على ابراهيم حسن ،
ادوار حليم .
مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥١ م .
- ٥٥ - د . سعاد ماهر
البحرية في مصر الاسلامية وآثارها الباقية
دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة .
- ٥٦ - د . سعيد عبد الفتاح عاشور (بالاشتراك مع د . محمد أنيس)
النهضات الأوربية في العصور الوسطى وبداية الحديثة .
القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٦٠ م .
- ٥٧ - د . سعيد عبد الفتاح عاشور
بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة .
مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد الرابع عشر ،
١٩٦٨ م .

- ٥٨ - سونيا .ى . هاو
فى طلب التوايل
ترجمة محمد عزيز رفعت ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٥٧ م .
- ٥٩ - شارل ديل
البندقية جمهورية أرستقراطية
ترجمة د . أحمد عزت عبد الكريم وتوفيق اسكندر
دار المعارف ، ١٩٤٧ م .
- ٦٠ - د . شوقى الجمل
المغرب العربى الكبير فى العصر الحديث
مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٧٢ م .
- ٦١ - د . شوقى الجمل
تاريخ كشف افريقية
مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧١ م .
- ٦٢ - د . صبحى لبيب
التجارة الكارمية وتجارة مصر فى العصور الوسطى
مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد الرابع ،
العدد الثانى ، ١٩٥٢ م .
- ٦٣ - د . صلاح الدين الشافى
الموانى السردانية
مكتبة مصر ، القاهرة ، ١٩٦١ م .
- ٦٤ - د . صلاح العقاد
المغرب العربى
مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٦٩ م .

- ٦٥ - د . صلاح المقاد
التيارات السيلسية فى الخليج العربى
مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٤ م .
- ٦٦ - د . صلاح المقاد (بالاشتراك مع جمال زكريا قاسم)
زنجبار
مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة .
- ٦٧ - عبد الحميد بن أبى زيان بن لشنهو
دخول الأتراك العثمانيين الى الجزائر
الجزائر ، ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م .
- ٦٨ - د . عبد الحميد البطريق
من تاريخ اليمن الحديث
معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٦٩ م .
- ٦٩ - د . عبد العزيز الشناوى
أوربا فى مطلع المصور الحديثة
دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٩ م .
- ٧٠ - د . عبد العزيز سليمان نوار
الشعوب الإسلامية
دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧٣ م .
- ٧١ - عبد الكريم التواتى
مأساة انهيار الوجود العربى فى الأندلس
مكتبة الرشاد ، الدار البيضاء .
- ٧٢ - د . عبد الكريم كريم
المغرب فى عهد الدولة السعدية
الدار البيضاء ، ط ٢ ، ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م .

- ٧٣ — د . عبد المجيد عابدين
بين الحبشة والحرب
دار الفكر العربى ، القاهرة
- ٧٤ — عبد المنعم النمر
تاريخ الاسلام فى الهند
مكتبة دار العروبة ، القاهرة ، ١٩٥٩ م .
- ٧٥ — د . عبد المنعم ماجد
العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى
مكتبة الجامعة العربية ، بيروت ، ١٩٦٦ م .
- ٧٦ — د . عبد الرحمن زكى
الاسلام والمسلمون فى شرق افريقية
مطبعة يوسف ، القاهرة .
- ٧٧ — د . عبد الرحمن زكى
الجيش الاسلامى — الجزء الاول
مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٠ م .
- ٧٨ — د . عزيز سوريال عطية
العلاقات بين الشرق والغرب
ترجمة د . فيليب صابر يوسف ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٧٢ م .
- ٧٩ — د . على ابراهيم حسن
مصر فى العصور الوسطى
مكتبة النهضة المصرية ، ط ٥ ، القاهرة ، ١٩٦٤ م .

٨٠ — على التاجر

أحمد بن ماجه . . دفاع وتقييم

مجموعة مقالات بمجلة العرب التي تصدر عن دار اليمامة بالرياض .
الأعداد : الجزء الثالث ، السنة الخامسة ، رمضان ١٣٩٠ هـ —
١٩٧٠ م .
الجزء الرابع ، السنة الخامسة ، شوال ١٣٩٠ هـ —
١٩٧٠ م .

٨١ — د . فاروق عثمان أباطة

عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ١٨٣٩ — ١٩١٨ م .
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٦ م .

٨٢ — فتحى غيث

الاسلام والحيشة عبر التاريخ
مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة .

٨٣ — قدرى القلمجى

الخليج العربى
دار الكاتب العربى ، بيروت ، ١٣٨٥ هـ — ١٩٦٥ م .

٨٤ — قيصر أديب خولى

الاسلام فى الشرق الأقصى " وصوله وانتشاره وواقعه "
ترجمة د . نبيل صبحى ، دار العربية للطباعة والنشر ، بيروت .

٨٥ — ك . م . بانيكار

آسيا والسيطرة الغربية
ترجمة عبدالمزيز توفيق جاويد ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٢ م .

٨٦ — ك . ج . شينى

تاريخ العالم الغربى
ترجمة مجدى الدين حفى ناصف ، دار النهضة العربية ، القاهرة .

- ٨٧ — مانوراما موداك
الهند •• شعبيها وأرضها
ترجمة محمد عبدالفتاح ابراهيم ، مكتبة النهضة العربية ، القاهرة
١٩٦٤ م •
- ٨٨ — محمد اسماعيل الندوى
تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية •
دار الفتح للطباعة والنشر ، ط ١ ، بيروت •
- ٨٩ — د • محمد المحتشم سيد
دول اسلامية في شرق افريقيا
دراسات في الاسلام يصدرها المجلس الأعلى للشئون الدينية •
القاهرة ١٣٨٤ هـ — ١٩٦٤ م •
- ٩٠ — د • محمد عبداللطيف البحراوى
فتح العثمانيين عدن
مكتبة دار التراث ، ط ١ ، القاهرة ١٣٩٦ هـ — ١٩٧٩ م •
- ٩١ — محمد عبد القادر بامطرف
الشهداء السبعة
دار الحرية للطباعة ، بغداد ١٩٧٤ م •
- ٩٢ — محمد عبد المنعم السيد الرائد
الغزو العثمانى لمصر ونتائجه على الوطن العربى •
مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية •
- ٩٣ — محمد عبد الله عنان
نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتصرين
القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٦٦ م •
- ٩٤ — محمد عبد الله عنان
ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى
القاهرة ١٩٤٨ م •

٩٥ — محمد فريد

تاريخ الدولة العلية العثمانية

دار الجيل ، بيروت ، ١٣٩٧ هـ — ١٩٧٧ م

٩٦ — محمد كرد علي

الاسلام والحضارة العربية — الجزء الأول

القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٦٨ م

٩٧ — د . محمد كمال الدسوقي

الدولة العثمانية والمسألة الشرقية

دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٦ م

٩٨ — د . محمد مصطفى زيادة

مصر والحروب الصليبية

من رسائل الثقافة الحربية رقم ٣٩ ، القاهرة ، ١٩٤٢ م

٩٩ — محمد ياسين الحموي

الملاح العربي أحمد بن ماجد

دمشق ، ١٩٤٧ م

١٠٠ — د . محمود رزق سليم

الأشرف قانصوه الغوري

مجموعة أعلام العرب ، عدد ٥٢ ، القاهرة ،

١٠١ — محمود شاكر

الكشوف الجغرافية . . دوافعها — حقيقتها

المكتب الاسلامي ، بيروت ، ١٣٩٣ هـ

١٠٢ — محمود كامل المحامي

اليمن شماله وجنوبه

بيروت ، ١٩٦٨ م

- ١٠٣ — د. نعيم زكي فهمي
طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب
القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٧٣ م.
- ١٠٤ — نور الدين حاطوم
تاريخ عصر النهضة الأوربية — الجزء الثالث
دار الفكر الحديث ، بيروت ، ١٩٦٨ م.
- ١٠٥ — هريوت فيشر
أصول التاريخ الأوربي الحديث
ترجمة د. زينب عصمت راشد ، د. أحمد عبد الرحيم مصطفى
دار المعارف ، القاهرة ، ط ٣ .
- ١٠٦ — يسرى الجوهري
الفكر الجغرافي والكشف الجغرافية
منشأة المعارف ، الاسكندرية .
- ١٠٧ — يوسف أحمد
الإسلام في الحبشة
القاهرة ، ١٩٣٥ م.

خامسا : المراجع الغير العربية :

1. Alvarez, Father Francisco:
Narrative of the Portuguese Embassy to Abyssinia
During the years 1520 - 1527.
Translated from the portuguese and Edited by Lord
Stanley of Alderley.
New York 1970.
2. Astley, Thomas:
Voyages and Trabels.
Four Volume, Great Britain 1968.
3. Berham, Margery:
The Government of Ethiopia.
London 1969.
4. The Cambridge History of Africa.
London 1977.
5. Coupland, R:
East Africa and its invaders.
Oxford 1961.
6. Diffie, Bailey & Winius, George:
Foundations of the portuguese Empire 1415 - 1580.
London 1977.
7. Doresse, Jean:
Ethiopia
Translated from the French by Elsa Coult.
London 1967.

8. Jones, A. H. M. & Monroe, Elizabeth:
A History of Ethiopia.
Oxford 1978.
9. Lanepool, Stanley:
A History of Egypt in the Middle Ages.
London 1968.
10. Livermore, H.V.:
Portugal and Brazil.
Oxford 1953.
11. Longrigg, Stephen H.:
A Short History of Eritrea.
U.S.A. 1974.
12. Lorimer, J.C.:
Gazetteer of the persian Gulf.
Holland 1970.
13. Miles, S.B.:
The Countries and Tribes of the persian Gulf.
London 1966.
14. Oaten, Edw Farley:
European Travellers in India.
New York 1971.
15. Pankhurst, Silvia:
Ethiopia A cultural History.
16. Pesce, Angelo.
Jiddah.
Itlaly 1974.

17. Playfair, Robert L.:
A History of Arabia Felix or Yemen.
London 1970.
18. Prestage, Edgar:
The Portuguese Pioneers.
London 1933.
19. Ley, Charles David:
Portuguese Voyages 1498 - 1663.
London 1972.
20. Serjeant, R.B.:
The portuguese off the South Arabian Coast.
Lebanon 1974.
21. Sousa, Manuel de Fariay:
The Portuguese Asia.
Translated into English by Cap John Stevens.
In Three Tomes.
London 1695.
22. Stephens, H. Morse.
Portugal.
London, T. Fisher Unwin 3 Edition, 1891.
23. Stripling, George Willam Frederick:
The Ottoman Turks and the Arabs 1511 - 1574.
U.S.A. 1942.
24. Trimingham, J. Spencer:
Islam in Ethiopia.
London 1976.

- ٣٨٢ -

25. Ullendorff, Edward:

The Ethiopians.

Oxford 1960.

26. Villiers, Alan:

The Indian ocean.

London 1945.

.. ..